دراسات أدبية

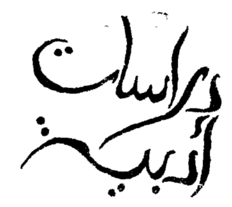
اللانسونية

وأثرها فى رواد النقد العربى الحديث

الدكتور عبد المجيد حنون



الهيئة المصرية العامة للكتاب



اللانسـونيـة

وأثرها فى رواد النقد العربى الحديث

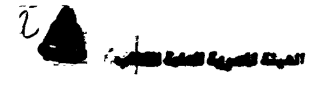
دراسات أدبية



اللانسونية

وأثرها فى رواد النقد العربى الحديث

الدكتور عبد المجيد حنون



مقدمة

ترجع صلتي باللانسونية (المنهج التاريخى) الى السنة الدراسية ١٩٧٥/١٩٧٦ م ، عندما حضرت دروس السنة الأولى من الماجستير ، بقسم اللغة العربية ، جامعة القاهرة ، مع الدكتور عامر عطية ، ضمن مقرر مادة « المنهجية » ، حيث درس لنا طيلة السنة الدراسية المدرستين النقديتين : التأثرية والتاريخية ، من خلال علميهما : جول لومتر (Jules le maitre) وجوستاف لانسون (Gustave Lanson) ٠

كنت ــ وقتذاك ــ متذبذبا بين المدرستين ، تدفعنى نحو الأولى عاطفتى وتحمس أستاذى لها ، واعجـابه بنزعة « لومتر » الى الحرية فى الأدب بأوسع معانيها ٠ فالأدب خلق وابداع فنى ، ولا قانون يحكم الابداع خلقا وتذوقا ٠ ومن ثم ، فالمبدع حر فى ابداعه لا يقيده قيد ، والمتلقى حر فى تذوقه ، يعجب بما يلائم ذوقه ، ويمج ما لا يلائمه دون أن يكون لذلك أثر على غيره ، فللناس فيما يعشقون مذاهب ٠ ويدفعنى الى الثـانية عقلى المعجب ب « لانسون » ونزعته التوفيقية بين الذوق والمعرفة ، ودقته فى البحث والتنقيب ، فالابداع ــ عنده ــ ليس ضربا من الخلق من عدم ، وانما ثمرة لعدة عوامل تاريخية ، واجتماعية ، وثقافية ، وقدرات شخصية ٠ وبذلك ، لا يستطيع الذوق بمفرده أن يكشف عن كل جوانب الظـاهرة الأدبية ٠ ومن ثم ، فان الجمع بين الذوق والمعرفة أمر لا مندوحة عنه ٠

لمـــا انتهت السنة الدراسية ، وانشغلت بالبحث ، خف اهتمامى بالموضوع ، شيئا فشيئا ، حتى كاد يطويه النسيان ٠

عندما شرعت فى البحث عن موضوع فى الأدب المقارن ــ حبا منى لهذا التخصص بالذات ــ لاحظت وجود دراسات مقارنة بين الأدب العربى والآداب الأجنبية شرقية وغربية ، منها على سبيل المثال :

١ ــ **القصــة** : دراسة الدكتور حسام الخطيب : سـبل المؤثرات الأجنبية فى القصة السورية (دمشق ــ ١٩٧٤ م) ٠

٢ ـ **الرواية** : رسالة الدكتور سهيل ادريس : الرواية العربية المعاصرة (١٩٠٠ ـ ١٩٤٠ م) والمؤثرات الأجنبية • ورسالة كوثر عبد السلام البحيرى : أثر الأدب الفرنسى فى الرواية العربية (بالفرنسية)• ودراسة سعيد علوش : الرواية العربية والأيديولوجيا •

٣ ـ **المسرحية** : رسالة عطية أبو النجا : الأصول الفرنسية للمسرح المصرى ، ورسالة تسعديت آيت حمودى : أثر الرمزية الغربية فى مسرح توفيق الحكيم • ودراسة الدكتور أحمد عتمان : المصادر الكلاسيكية لمسرح توفيق الحكيم ، ودراسة الدكتور عبد الحكيم حسان : أنطونيو وكليوبترا بين شكسبير وشوقى •

٤ ـ **الشعر** : مثل رسالة مناف منصور : أثر الرمزية الفرنسية فى الشعر العربى الحديث (بالفرنسية) ، ورسالة الأخضر بن عبد الله : شوقى وأثر الآداب الأجنبية فى شعره (بالفرنسية) • ودراسة عبد الاله ميسوم : تأثير الموشحات فى شعر التروبادور ، ودراسة الدكتور عثمان موافى : التيارات الأجنبية فى الشعر العربى منذ العصر العباسى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى •

٥ ـ **النثر** : رسالة الدكتور محمد غنيمى هلال : أثر النثر العربى فى النثر الفارسى خلال القرنين الخامس والسادس للهجرة ، ودراسة الدكتور صلاح فضل : تأثير الثقافة الاسلامية فى الكوميديا الالهية •

٦ ـ **دراسات عامة** : دراسة الدكتور احسان عباس : ملامح يونانية فى الأدب العربى ، ودراسة لويس عوض : أثر الثقافة الفرنسية فى فكر طه حسين ، ودراسة محمود على مكى : أثر العرب والاسلام فى الحضارة الأوروبية ، ودراسة الدكتور غنيمى هلال : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية : دراسة مقارنة بين الأدبين العربى والفارسى حول موضوع ليلى والمجنون ، ودراسة خوان فيرنى (Juan Vernet) : « ما تدين به الثقافة لعرب أسبانيا » (بالاسبانية ومترجم الى الفرنسية) •

٧ ـ **أما النقد** : فعدا اشارات عابرة ، فى دراسات أدبية عامة ومقالات، الى تأثر النقد العربى الحديث بالنقد الأوروبى أو الفرنسى ، دون بحث دقيق لأوجه التأثر والتأثير ومصادره ، لم أعثر الا على ثلاثة عناوين تبدو دراسات مقارنة للنقد هى :

(أ) النقد الجمالى وأثره فى النقد العربى ، لروز غريب ، درست فيه المؤلفة مفهوم الجمال (Esthetique) ونشأته عند الغربيين ، ثم مفهومه عند العرب ، وبذلك تكون دراستها هذه فى النقد الجمالى بمعناه الواسع،

ولا تتعرض للنقد الأدبى الا فى اشارات عابرة. ومن ثم، نستطيع اخراج هذه الدراسة من الدراسات النقدية المقارنة ٠

(ب) فى النقد التطبيقى والمقارن للدكتور محمد غنيمى هلال ، جمع فيه الناشر ـ بعد وفاة المؤلف ـ مجموعة من المقالات المنشورة فى المجلات والصحف ، جلها دراسات نقدية لآثار أدبية معينة ، أو دراسات أدبية عامة ، ولذلك نستطيع القول ان عنوان الكتاب لا يتطابق ومحتواه ٠

(ج) طه حسين ، نقده ومصادره الفرنسية ، لمفتاح الطاهر ٠ هذه الدراسة فى الأصل رسالة جامعية ، قدمها صاحبها فى جامعة ستراسبورغ، استعرض فيها نقد طه حسين وتأثره بالمدرستين النقديتين : التأثرية والتاريخية ، وأثبت فيها تأثر الرجل بالمدرستين السالفتى الذكر ، الا أنه لم يبين ، بوضوح ، نتائج ذلك التأثر على الأدب العربى من خلال دراسات طه حسين النقدية ٠

من هنا ، بدأت أتساءل : لقد عرف العرب ، أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، تأثرا بمختلف الأجناس الأدبية الأوروبية ـ استنادا الى نتائج الدراسات المقارنة ـ أفلا يكون للنقد نصيب من ذلك التأثر ؟ وهنا تذكرت دروس الدكتور عطيـة عامر عن « لانسـون » والمنهج التاريخى وسيطرته على البحث الأدبى فى الجامعة الفرنسية طيلة النصف الأول من القرن العشرين ، وما نتج عنه من دراسات أدبية قيمة فى الآداب الأوروبية، قديمها وحديثها ، كما تذكرت دراسة مفتاح الطاهر ، فتساءلت مرة أخرى : لقد كانت ـ ولا زالت ـ السوربون قبلة الكثير من الطلبة العرب ، أولم يتتلمذ فيها على « لانسون » نفسه أو على تلاميذه ، طلبة عرب غدوا الساحة النقدية العربية بعد ذلك مثل طه حسين ؟ فاذا كان الجواب ايجابا : من هم هؤلاء النقاد المتأثرون ؟ وما سبل تأثرهم وأوجهـه ؟ وكيف يتجلى ذلك التأثر ؟ وما هى نتائجه على الأدب العربى ؟ انها جملة من التساؤلات دفعتنى الى الاهتمام بموضوع « النقد العربى الحديث » وتأثره بالنقد الفرنسى بصفة عامة ، والنقد التاريخى الجامعى (اللانسونى) بصفة خاصة ، وقادتنى قراءاتى الأولية الى الاقتناع بوجاهة الكثير من التسـاؤلات عندما وجدت أن الكثير من النقاد العرب المحدثين يكونون سلسلة مترابطة بدايتها طلبة عرب درسوا فى مطلع القرن العشرين ، وحلقاتها مترابطة بعد ذلك ما بين الجامعات العربية ٠ وتحدد الموضوع حول « المنهج التاريخى » والنقد العربى الحديث ٠ وتفاديا لأى غموض أو لبس ، فالمقصود بالمنهج التاريخى، ذلك المنهج الذى يدرس الأدب دراسة داخلية وخارجية اعتمادا على علوم ومعارف مساعدة حسب مفهـوم الأستاذ « جوستاف لانسون » ، وبذلك يتحدد الموضوع أكثر ليكون « اللانسونية فى النقد العربى الحديث » ٠

كنت أعرف أن الدراسات المقارنة للنقد العربي قليلة جدا ـ كما هو مبين سابقا ـ ولما بحثت عن دراسات مقارنة للنقد العربي ، ضمن موضوع « المنهج التاريخي » ، لم أجد شيئا يذكر عدا دراسة مفتاح الطاهر عن طه حسين السالفة الذكر ، فعقدت العـزم على الاعتماد على الآثار النقدية للنقاد العرب وحدها مستخلصا منها مظاهر التأثر ، ولكن دهشتي كانت أعظم عندما بحثت في النقد الفرنسي عن دراسات حول « اللانسونية » ، الظاهرة النقدية التي شغلت الجامعة الفرنسية ما يزيد عن نصف قرن ، وألفت ، اعتمادا عليها ، المئات من المصنفات النقدية ، فلم أجـد أبحاثا مخصصة لهذا الموضوع ، عـدا اشـارات مبعثرة هنا وهنـاك ، لا تقـدم اللانسونية كلا متكاملا ، نشأة وتطورا وانتشارا ومفهوما ، فزادت صعوبة البحث ، الا أنها زادتني حماسا لهذا الموضـوع البكر في الدرس الأدبي المقارن للنقد العربي ، وحتى الفرنسي ٠

ومن الطبيعي أن أتبع في هذا البحث « المنهج التاريخي » ما أمكنني ذلك ، وحسب طبيعـة الموضـوع ، اذ سيكون الجانب المعرفي أبرز من الجـانب الذوقي ، تماشيا وطبيعـة الموضوع المعرفية ، وبعده عن النص الابداعي ، حيث انني سأدرس ظاهرة النقد التاريخي الجامعي أو اللانسوني الذي عرف أوج تطوره في مطلع القرن العشرين بفرنسا ، ثم تأثيره في النقد العربي الحديث ، بوساطة الطلاب العرب الذين تتلمذوا على «لانسون» أولا ، ثم على تلاميذه بفرنسا ثانيا ، وأخيرا الذين تتلمذوا ، بعد ذلك ، على الطلبة العرب بعد رجوعهم الى الجامعات العربية ، ونشروا دراساتهم ذات المنهج التاريخي أو دعـوا لتطبيقه ٠ وبمعنى آخر ، فانني سأحاول التأريخ لهذه الظاهرة في نشأتها وتطورها ، ثم تأثيرها في النقد العربي الحديث ، والبحث عن نتائج تطبيقها في الأدب العربي ، معتمدا ـ في ذلك ـ على المصادر الأساسية للمنهج التاريخي من جهـة ، والدراسات النقدية العربية الحديثة من جهة أخرى ٠

سيشمل البحث ، اذن ، النقد العربي الحديث في تأثراته التي تعد من أخصب مجالات التأثر عند العرب ـ قديما وحديثا ـ محاولة مني للاجابة عن البعض من التساؤلات ، ولفت نظر الباحثين لهذا الميدان المهمل على أهميته بالنسبة لتطور الأدب ، حيث ان الكثير من الأفكار والآراء والمقاييس النقدية الأدبية ليست وليدة الأدب العربي ، وانما جاءته من آداب أجنبية لتصبح المقياس الذي يقاس به الابداع الأدبي العربي بكل ما ينتج عن ذلك من صواب وخطأ في الأحكام والنتائج ٠

ان الموضـوع واسع جدا ، لأنه يشمل النقـد الفرنسي في أزهى مراحله ، وخلال فترة تقترب من القرن ، أي منذ الربع الأخير من القرن

التاسع عشر الى منتصف القرن العشرين ، عندما بدأت اللانسونية تضعف وتستعين بمناهج جديدة تغير من طابعها الأساسى • كما يشمل ، بصفة خاصة ، أزهى مرحلة عرفها النقد العربى الحديث ، وهى فترة ما بين العشرينيات والسبعينيات من القرن العشرين •

وبديهى أن دراسة كل النقاد العرب ـ الذين لهم صلة بالمنهج التاريخى ـ الذين ظهروا فى الفترة المذكورة أعلاه ، وفى بحث واحد ، أمر من الصعوبة بمكان بالنسبة لباحث واحد ، لا يعيش فى بيئة تتوفر فيها الشروط الضرورية لبحث مثل هذا الموضوع ، ولذلك سأركز جهودى على تحديد المنهج التاريخى كما يتجلى عند لانسون من خلال مقالته الشهيرة عن « منهج تاريخ الأدب » التى نشرها سنة ١٩١٠ م بعد أبحاث وكتابات نظرية وتطبيقية خلال ما يقارب العشرين سنة ، لتصبح بمثابة دستور « اللانسونية » ، ثم أبحث عن تأثيرها فى أشهر النقاد العرب من خلال دعوتهم أو تطبيقهم لها ، لأبين دخولها الى الجامعات العربية ، وأدلل على مصادرها • فيسهل بذلك تتبع « اللانسونية » فى النقد العربى الحديث مستقبلا عند الأجيال التالية لجيل الرواد فى دراسات أخرى •

من هنا ، يتحدد الموضوع ، ليكون : (اللانسونية وأثرها فى رواد النقد العربى الحديث) • وأتبع فيه المنهج التاريخى حسب المراحل التالية :

١ ـ **المدخل :** أتتبع فيه ـ بايجاز ـ العلاقات العربية الفرنسية منذ بداياتها الأولى حتى القرن العشرين عندما تعددت مجالاتها ، لأستخلص العلاقات الأدبية عموما ، والنقدية بصفة خاصة ، لأنطلق بعد ذلك فى دراسة العلاقة العربية الفرنسية حول المنهج التاريخى فى دراسة الأدب •

٢ ـ **الباب الأول :** أدرس فيه اللانسونية وصاحبها ، حيث أتتبع الرؤية التاريخية فى دراسة الأدب منذ بداياتها الأولى ، ثم نطورها ومفهومها عند لانسون وانتشارها عند تلاميذه الفرنسيين ، لأنتقل بعد ذلك الى البحث عن مظاهرها فى النقد الغربى من خلال أبرز الأعلام مثل :

٣ ـ **الباب الثانى :** أحمد ضيف واللانسونية ، على اعتبار أنه أول عربى تتلمذ على لانسون و « اللانسونية » ، أوضح العلاقة التاريخية بين أحمد ضيف واللانسونية من خلال الترجمة له ، والكشف عن الصلة التاريخية بين الطرفين • ثم أبحث فى كتابات أحمد ضيف عن اشادته بالمنهج التاريخى ، لأختم الباب بابراز محاولة أحمد ضيف تطبيق المنهج ، ونتائج ذلك •

٤ ـ **الباب الثالث :** طه حسين واللانسونية : أدرس فى هذا الباب العناصر نفسها التى بنى عليها الباب الثانى ، أى أبحث عن الصلة التاريخية ، فالدعوة للمنهج ، ثم تطبيقه ، ونتائج ذلك •

٥ ـ **الباب الرابع** : محمد مندور واللانسونية ، وأتبع فى هذا الباب المراحل نفسها المتبعة فى الأبواب السابقة • فبعد اثبات الصلة من خلال الترجمة للرجل ، أبرز دعوته للانسونية ، لأخلص بعد ذلك الى تطبيقاته ، ونتائج ذلك •

٦ ـ **الخاتمة** : أشير فيها الى انتشار اللانسونية فى الجامعات العربية عند تلاميذ هؤلاء الأعلام ، من جهة ، وتلاميذ تلاميذ « لانسون » ، من جهة أخرى ، ثم نتـائج البحث والدراسة لآثار أولئك الأعـلام الذين سيبنى عليهم البحث •

أعتقد أننى تغلبت ، باتباعى لهذه الخطوات ، واعتمادى على المنهج التاريخى نفسه ، على الكثير من صعوبات البحث المتمثلة فى سعته من جهة ، وندرة مراجعه ـ حتى لا أقول انعدامها ـ وصعوبة الوصـول الى مصادره العربية والفرنسية التى أصبحت تعد الآن من الوثائق القديمة ، لا وجود لها الا فى المكتبات المتخصصة ، من جهة أخرى • وأعتقد كذلك ، أننى أجبت عن تلك التساؤلات التى كانت أساس هذا البحث ، فكشفت عن مصدر مهم من مصادر النقد العربى الحديث ، وفسرت بعضا من القضايا النقدية التى شغلت النقد العربى الحديث دون أن يعرف القراء خلفياتها ، ثم لفت الأنظار الى مجال ثرى من مجالات الدرس الأدبى المقارن • فان وفقت الى هـذا الغرض ، فذلك هو المرام ، وان أخفقت ، فحسبى أننى حاولت •

د• عبد المجيد حنـون
الجـــزائر

المدخل

العلاقات الادبية العربية الفرنسية في القرن التاسع عشر

أولا : العلاقات العربية الفرنسية من بدايتها حتى القرن التاسع عشر

عرفت العلاقات العربية الفرنسية تطورا منذ آماد طويلة · وأستطيع القول ان تلك العلاقات بدأت فى شكل صراع دينى مسلح مع الفتوحات الاسلامية لجنوب فرنسا فى مطلع القرن الثامن الميلادى ، الثانى للهجرة ، حيث اجتازت الجيوش العربية الاسلامية جبال البرينيه بقيادة السمح ابن مالك الخولانى (ت ١٠٢) ، زمن خلافة عمر بن عبد العزيز · حاول العرب ، خلال تلك الفتوحات ، نشر الدين الاسلامى ، واللغة العربية ، فى ربوع فرنسا المفتوحة ، فشرعوا فى بناء المساجد ، وتزوج البعض منهم بفرنسيات (١) · وعندما انكسرت الجيوش العربية الاسلامية فى معركة بواتيى ، بقيادة عبد الرحمن الغافقى سنة ٧٣٢ م ، أمام الجيوش الفرنسية المدعمة بالقبائل الجرمانية ، استمر التواصل العربى الاسلامى مع الفرنسيين (الافرنج) بقدوم البعض منهم – من حين لآخر – للتعلم فى الحواضر الأندلسية أو المغربية · ثم جاءت المرحلة الثانية من العلاقات العربية الفرنسية ضمن صراعهما الدينى المسلح ، فى رد المسيحية على

---

(١) رينو (جوزيف) ، **الفتوحات الاسلامية فى فرنسا وايطاليا وسويسرا** (ترجمة د· اسماعيل العربى) ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر) ، دار الحداثة ، بيروت ، ١٩٨٤ ، صص ٤٧ – ٦٩ ·

الاسلام ، بما عرف فى التاريخ بالحروب الصليبية التى يشارك فيها الكثير من الأمراء الفرنسيين وأتباعهم ، فعرفوا أقواما ومجتمعات وحضارة لا عهد لهم بها ٠

بعد فشل الحروب الصليبية ، وعودة من شارك فيها من الفرنسيين (الافرنج) ، يحملون ذكريات وقصصا وخرافات عن الشرق والاسلام والعرب ، لم تتطور العلاقات العربية الفرنسية لتتحدى رواسب الصراع الدينى ، فبقيت الأحكام المسبقة راسخة عند كل طرف ، عن الطرف الثانى، حتى نهاية القرن الثامن عشر ، حيث عرفت فرنسا تغيرات جذرية ، تتمثل فى ثورتها الشهيرة على الثالوث المقدس (الكنيسة ، الملكية ، الاقطاع) ، لتنتقل ـ بذلك ـ من مجتمع دينى الى مجتمع دولى ٠

تغيرت رؤية فرنسا نحو العالم ، ومنطلقاتها فى التعامل معه ، بتغير المجتمع الفرنسى ونظامه عقب الثورة الفرنسية ٠ وهكذا ، بدأت تتطلع ـ تحت حكم نابليون بونابرت ١٧٦٩ ـ ١٨٢١ م الطموح جدا ـ لفرض نفوذها على الأمم الأخرى ، لنشر فكرها وتأمين مواردها وأسواقا لمنتجاتها ٠ وكانت مصر هدفا من أهداف نابليون ، فينتعش الصراع الفرنسى العربى مرة أخرى ، ولكنه صراع بأسلوب جديد هدفه خدمة فرنسا وحضارتها ، وبذلك يبدأ الفكر الفرنسى فى التسرب الى الوطن العربى بوساطة العوامل التالية :

١ ـ الارساليات التبشيرية :

لم تنقطع الصلة الروحية بين المشرق والغرب منذ اعتناق روما للمسيحية ونشرها فى ربوع امبراطوريتها ٠ فلما انتشر الاسلام ، عرف الشرق والغرب صراعا دينيا مسلحا بين الايمان والكفر على حد تعبير الطرفين٠ وعندما فشلت الحروب الصليبية فى كسر شوكة المسلمين ، غير الكنيسة أسلوبها فى الصراع ، وبدأت تعمل على تمتين صلتها الروحية بالمسيحيين الشاميين وتستقطب بطارقتهم ومطارنتهم وقساوستهم الى « روما » لزيارة مقر البابوية وتلقى العلوم الدينية ، فكثر ، تبعا لذلك ، العارفون باللغتين الفرنسية والايطالية من الكاثوليك الشاميين (٢) ٠

صارت الطائفة الكاثوليكية كتلة دينية لها وزنها فى الشام (سوريا ، لبنان ، فلسطين) ، تجلب اهتمام الكنيسة الكاثوليكية والبعض من الدول الأوروبية ، مثل فرنسا التى استطاع ملكها ، سنة ١٦٤٩ م ، أن ينتزع من الخلافة العثمانية حق حماية الكاثوليك الأوروبيين بكنائسهم وكهنتهم فى

---

(٢) د٠ الشيال (جمال الدين) : **تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية** ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٥١ ـ ٥٢ ٠

الأراضى العثمانية ، ليتوسع ذلك الحق تدريجيا حتى شمل الكاثوليك العثمانيين والارساليات الأوروبية (٣) ٠

أدت صلات الكاثوليك العرب بالفاتيكان الى اهتمام الكثير من الدول الأوروبية بهم ، وحلول الكثير من الارساليات التبشيرية الكاثوليكية بالمشرق منذ القرن السابع عشر لمساعدة الكاثوليك الأوروبيين أولا ، والعرب ثانيا ، ورعاية شؤونهم الروحية وما يتبعها ، فصارت الطوائف المسيحية العربية فئة مميزة فى العالم العربى : « وقد برز من الطوائف المسيحية التى أنشأتها ، أو عززتها الارساليات ، فريق من المثقفين ، وعوا عوالم أوروبا الجديدة ، بل اعتبروا أنفسهم ، بمعنى من المعانى جزءا منه » (٤) ٠ ومع مرور الزمن ، وتطور الدولة العثمانية وأجهزتها فى الشام ، أصبح هؤلاء المثقفون الشاميون المسيحيون : « طبقة من المدنيين المثقفين وجدوا مجالا لمواهبهم فى دواوين الحكومة المحليين » (٥) ٠

لقد أدى اقبال الادارة العثمانية على توظيف المسيحيين العرب من خريجى مدارس الارساليات الى تزايد اقبال المسيحيين عليها ، فكثفت ، بالتالى ، نشاطاتها فى المشرق العربى : « وقد انجلى نشاط هذه الارساليات على تنوعها عن الاسهام فى نشر التعليم من الابتدائى الى الجامعى ، على المنهج التربوى الحديث ، وعن تثقيف الطلاب بالثقافة التى كان يتلقاها أترابهم فى أوروبا وأمريكا ، بالاضافة الى الأدب العربى (٠٠٠٠) الا أن سجلات تلك المؤسسات التعليمية فى لبنان « أجنبية ومسيحية وطائفية ، تبين مدى اقبال الطلاب عليها من متعدد الأديان ، وسائر الأقطار العربية » (٦) ٠

لقد أقبل العرب على تعليم أبنائهم فى مدارس الارساليات التبشيرية المنتشرة فى الكثير من البلدان العربية مثل الفرنسيسكانيين ، الذين نزلوا فلسطين ومصر ولبنان مع الحملات الصليبية ، ثم استقروا هناك ، مؤسسين المدارس والكليات الدينية ، ثم اليسوعيين ، الذين قدموا لبنان فى القرن السابع عشر ، مؤسسين عدة معاهد أشهرها كلية القديس يوسف التى تحولت الى جامعة القديس يوسف اليسوعية ـ وهى الآن تتبع جامعة ليون الفرنسية ـ مع الكثير من المؤسسات الثقافية والعلمية، كالمطبعة الكاثوليكية الشهيرة التى طبعت الكثير من المؤلفات العربية المدرسية والعلمية والأدبية ،

---

(٣) حورانى (ألبرت) الفكر العربى فى عصر النهضة (١٧٩٨/١٩٣٩) ، ترجمة : كريم عزقول ، دار النهار للنشر ، ط ٣ ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٥٨ ٠

(٤) حورانى (ألبرت) : المرجع السابق ، ص ٧٧ ٠

(٥) حورانى (ألبرت) : المرجع السابق ، ص ٧٨ ٠

(٦) العقيقى (نجيب) : من الأدب المقارن ، ج ٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٧ـ١٨ ٠

بالاضافة الى الكثير من المعاجم والقواميس على الطريقة الأوروبية ، والمكتبة الشرقية ومجلات متعددة . كما أسسوا مدارس ابتدائية وثانوية للبنات والبنين فى لبنان وسورية والاسكندرية والقاهرة .

عاد الكرمليون الى الشرق فى القرن السابع عشر ، فشيدوا المدارس الابتدائية والثانوية والمهنية فى لبنان وفلسطين وسوريا وبغداد . وحل بالشرق فى القرن نفسه الدومنيكيون ، مؤسسين مدارس ومعاهد فى كل من الموصل والقدس والقاهرة ، التى أنشأوا فيها معهد للدراسات الشرقية، ومكتبة قيمة ، لازالا قبلة الباحثين وطلبة الدراسات العليا فى القاهرة .

وحل الآباء البيض ، كذلك ، بالجزائر وتونس والمغرب مع دخول فرنسا الجزائر ، فأسسوا فى تونس معهد الآداب العربية ومطبعة عربية لا زالت أعمالها تصدر حتى الآن ، أهمها مجلة المعهد الشهيرة (IBLA) ولحقت بهذه الارساليات الكاثوليكية - التى كانت تعلم الفرنسية - الارساليات الأرثوذكسية بمساعدة من روسيا القيصرية ، فحلت بفلسطين وسوريا ولبنان . ثم لحقت فى القرن التاسع عشر بالارساليات السالفة الذكر ، الارساليات البروتستانتية فى كل من لبنان ومصر ، مؤسسة المدارس والمعاهد أشهرها حتى يومنا هذا الجامعة الأمريكية ببيروت والقاهرة (٧) .

لقد انتشرت مدارس الارساليات التبشيرية المختلفة فى فلسطين وسوريا ولبنان ومصر والعراق ، وأخيرا المغرب العربى ، لمساعدة المسيحيين، أوروبيين وعربا ، ورعاية شؤونهم الدينية والفكرية ، فكان لزاما عليها أن تؤسس المدارس والمعاهد الدينية لتعليم شؤون دينها ، وبالتالى لغتها ، وشيء من المعارف والعلوم حتى ترفع مستوى المتعلم فكريا ليفهم دينه أكثر ، رغبة منها فى تسهيل العملية التعليمية . علمت تلاميذها اللغة العربية وآدابها تعليما حديثا ، فكونت ، بذلك ، انسانا مشرقيا جديدا ، يتمتع بمحصول فكرى يخوله القيام بأعمال ووظائف ادارية وثقافية جديدة ، و « قيض لهم ، فى ستينيات القرن التاسع عشر ، أن يكتسبوا ، بوصفهم أول صحفيى العالم العربى ، قوة جديدة » (٨) .

لقد قامت مدارس الارساليات التبشيرية بدور فعال فى نقل الفكر الغربى الى الفكر العربى ، لطول مدة عملها - من القرن السابع عشر حتى يومنا هذا - وتبنيها الناشئة العربية بالتعليم فى مدارسها - مسيحيين ثم مسلمين - وتزويدها بالكتب المدرسية على الطرق الحديثة ، والمعاجم

---

(٧) العقيقى (نجيب) : المرجع السابق ، ص ١٤ - ١٧ .

(٨) حورانى (ألبرت) : الفكر العربى فى عصر النهضة ، ص ٨٩ .

والقواميس المساعدة ، والكتب الأدبية مترجمة أو مؤلفة ، ثم بتأسيسها المطابع ودور النشر والمجلات والمكتبات ومراكز البحث ٠

وهكذا عرفت الحياة الثقافية العربية أفكارا جديدة فى القرن التاسع عشر ، فى مصر وسوريا ولبنان ، اذ : « بينما كانت الآثار الأدبية التى ظهرت فى أوائل ذاك القرن مجرد استمرار للعصور التى سبقت ، كان تيار من الفكر الغربى ، والفرنسى منه بوجه خاص يتسرب الى عقول فئتين من تلك الجماعة ، فى مركزين متباعدين هما مصر وسوريا » (٩) ٠

لقد قامت مدارس الارساليات التبشيرية بمختلف أنواعها ، بغض النظر عن أهدافها وموقف العرب منها ، بدور الوسيط بين الثقافة الغربية بوجه عام والفرنسية بوجه خاص وبين الثقافة العربية ، وحملت الى العرب أنماطا تعليمية وفكرية ولغات لا عهد لهم بها ، فكانت من الأسباب فى تفتحهم تفتحا مقصودا أو غير مقصود ٠

٢ ـ حملة نابليون على مصر :

عرفت فرنسا ، أواخر القرن الثامن عشر (١٧٨٨ ـ ١٧٨٩) تغيرات جذرية فى بنية نظامها الاجتماعى والقانونى والسياسى ، نتيجة لأحداث الثورة التى قامت بها الطبقة البرجوازية (حرفيون ، تجار ، صناع مثقفون ٠٠٠ الخ) على ثالوث الحكم المقدس وقتذاك : الكنيسة والملكية والاقطاع ٠ وأحدث سقوط هذا الثالوث أثرا عميقا فى المجتمع الفرنسى ، وأدى الى اتساع آمال فرنسا وطموحها ٠ وغذى تلك الآمال والمطامح وصول الجنرال نابليون بونابرت (الشاب الكورسيكى) الى القيادة العامة للجيوش الفرنسية بطموحه الجامح ، فبدأ يفكر فى توسيع نفوذ فرنسا فى العالم لمزاحمة بريطانيا عدوها التاريخى ومنافسها فى مطامعها الاستعمارية فى اطار الحمى التوسعية الاستعمارية التى بدأت تحرك الدول الأوروبية النامية وقتذاك ، والخارجة حينئذ ـ بفضل عصر التنوير وأفكاره ـ من العقلية الدينية إلى العقلية المدنية المادية ٠

كان الشرق الأقصى بصفة خاصة ، والشرق بصفة عامة مصدر الخيرات ، والسوق العامرة ، فتركز ، لذلك حوله ، الصراع الاستعمارى بين الانجليز والبرتغاليين والهولنديين ليلحقهم الفرنسيون بزعامة نابليون ٠

استطاع نابليون القائد أن يقنع ، فى هذا الاطار ، حكومة الديريكتوار بأهمية احتلال مصر ، المحطة الاستراتيجية فى طريق الشرق المسيحى أولا ،

---

(٩) جب (هاملتون) : دراسات فى حضارة الاسلام ، ترجمة احسان عباس وآخرون دار العلم للملايين ، ط ٣ ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٣٢٠ ٠

والشرق الأقصى ثانيا٠وهكذا ، استفاقت مصر المملوكية ، سنة ١٦٩٨م ، على مدافع الحملة الفرنسية ، التى احتلت الاسكندرية بسهولة (١٠) ، ثم تقدمت نحو القاهرة ٠ وهناك « التقى المماليك على خيولهم المطهمة بجنــود نابليون فى عدتهم ونظامهم أواخر القرن ١٨ ٠ لم تغن عنهم سيوفهم ولا أسلحتهم العتيقة شيئا ، وأدركوا ـ وأدرك معهم العرب فى مصر والشــام ـ أنهم يعيشون عهدا قد انقضى ، ويواجهون حضارة جديدة ، لعلهم قد اتصلوا بها من قبل على نحو أو آخر ، لكنهم لم يدركوا مدى ما بلغته من تقدم فى العلم والثقافة والمدنية ، حتى اصطدموا بهـا فى ذلك اللقـاء الحرب غـير المتكافىء » (١١) ٠

جاءت حملة نابليون لاستعمار مصر بتنظيم محكم ، فقد اصطحب معه مترجمين وعلماء وفرقة مسرحية ومطبعـة ، قصـد مسـاعدة الحملة على التواصل مع الشعب المصرى بسهولة ٠ وبدأ المترجمون عملهم قبل رسو البواخر فى ميناء الاسكندرية ، حيث قاموا بترجمة منشور نابليون الى الشعب المصرى وطبعه وتوزيعه على الأهالى لتفادى رد فعلهم ٠ وكان لنابليون ما أراد ، فقد أدهش المصريين بمنشوره ذاك الذى استهله بالبسملة وتوحيد الله ، ثم شرح للمصريين أهدافه المتمثلة فى أنه جاء وجيشه لتخليصهم من ظلم المماليك الذين حكموا البلاد بغير وجه حق ، ثم تسليمها لهم ، ليحكموا أنفسهم بفضل العلماء وكبار القوم ، وبذلك يعاد لمصر مجدها الغابر ، وتتخلص الى غير رجعة من ظلم المماليك أعداء الله (١٢) ٠

خاطب نابليون المصريين فى هـذا المنشور باعتبـارهم أمة وقومية مستقلة لها تاريخها وحضارتها ، ثم دعاهم الى الحرية والمساواة مهاجما النظام الاقطاعى المتمثل فى المماليك الذين حكموا البلاد باسم الدين دون أى وجه حق ، وأخيرا وعد المصريين بتأسيس « حكومة مصرية » ٠ وبمعنى آخر ، هدف هذا المنشور الى نقل نتائج الثورة الفرنسية الى مصر ٠

كان منشور نابليون غريبا على المصريين بمضمونه أولا ، ثم بشكله ثانيا ، فقد كان مطبوعا فى المطبعة التى رافقت الحملة ، والتى كانت أول مطبعة تدخل أرض مصر ، فكانت مطبوعاتها شيئا جديدا على المصريين ٠ وما كان لهذه المطبعة أن تعمل ، وتبهر المصريين ، لولا وجود المترجمين ٠

---

(١٠) الجبرتى (عبد الرحمن) : **عجائب الآثار فى التراجم والاخبار** ، تحقيق : حسن محمد جوهر وعمر الدسوقى ، لجنة البيـان العربى ، الجزء الرابع ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٢٨٤ـ٢٨٥ ٠

(١١) د٠ القط (عبد القادر) : **الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر** ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ٣ ٠

(١٢) الجبرتى : **عجائب الآثار** ، ج ٤ ، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ ٠

أعجب المصريون ، كذلك ، بأولئك العلماء الفرنسيين الذين جاءوا لدراسة مصر من مختلف جوانبها ، لافادة الحملة بنتائج دراساتهم ، فجاءوا بأدوات ، وقاموا بأعمال تشبه السحرة ، ومن أبسط الأمثلة على ذلك انبهار الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ـ معاصر الحملة ومؤرخها في الجانب المصري ـ بمكتبة الحملة التي أقيمت في « المجمع العلمي الفرنسي » ، فرأى الكتب مرصوفة في صفوف ، بينما كان يراها مكدسة ، ولكل قارىء كرسي يجلس عليه وطاولة يقرأ عليها ، بينما تعود على رؤية القارىء متربعا فوق الحصير يقرأ على ركبتيه ، والمشرفون على المكتبة يستقبلون القارىء بترحاب ويمدونه بما يشاء من كتب ، بينما تعود على رؤية القارىء يسعى بكل الطرق حتى يستعير من كريم كتابا .

شاهد المصريون ، في تلك المكتبة ، كتبا متعددة حول مختلف العلوم والفنون واللغات ، كما شاهدوا مختبرات الفلكيين والمهندسين والكيميائيين والجراحين ، فشاهدوا أعاجيب لا عهد لهم بها (١٣) .

أما الفرقة المسرحية ، فحضرت أساسا لتسلية أعضاء الحملة ، فكان الممثلون فرنسيين ، يقدمون مسرحيات فرنسية باللغة الفرنسية أمام جمهور فرنسي ، وقلة من الضيوف المصريين ، الا أنها قدمت للمصريين الذين كانوا يشاهدون عروضها من بعيد مشاهد غريبة لا عهد لهم بها كذلك .

أدت كل هذه العوامل الثقافية ، اضافة الى نظام الحكم الذي أراد نابليون غرسه في مصر ـ نظام المجالس والدواوين (١٤) ـ الى اعجاب المصريين بالفرنسيين ، لدرجة أن خليفة بونابرت في مصر ـ جاك مينو ـ تزوج بامرأة مصرية مسلمة (١٥) .

وانسحبت الحملة الفرنسية من مصر ، سنة ١٨٠١ م ، بعدما أنهكتها الأوبئة والفتن الداخلية وحصار الانجليز ، فحمل الفرنسيون معهم مطبعتهم ووثائقهم وعلماءهم وفرقتهم المسرحية ، الا أنهم تركوا في أذهان الكثير من المصريين صورة لنظام جديد عسكريا واداريا وقضائيا وسياسا ، كما تركوا في أذهان المصريين والمصريات صورة لحياة اجتماعية وثقافية جديدة عليهم ، وبذلك أصبحت فرنسا ، فيما بعد ، نموذجا للتقدم والتطور في ذهن الكثير من المصريين . وعلى هذا الأساس نستطيع القول ان حملة نابليون على مصر أثارت ذهن المصري ، بقصد أو غير قصد ، وبغض النظر عن أهدافها ومراميها الحقيقية ، الا أنها كانت محفزا للمصريين .

(١٣) الجبرتي (عبد الرحمن) . المرجع السابق ، ص ٣٤٨ ـ ٣٥٢ .

(١٤) د. عوض (لويس) . **المؤثرات الاجنبية في الادب العربي الحديث** ، معهد البحوث والدراسات العربية والعالمية ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣٠ ـ ٥١ .

(١٥) الجبرتي : **عجائب الآثار** ، جـ ٥ ، ص ١٨٥ .

٣ ـ محمد علي وجهوده التعليمية :

عرفت مصر ، بعد خروج الحملة الفرنسية منها سنة ١٨٠١ م ، فوضى عمت البلاد كلها ، وبلغت ذروتها في القاهرة ، فقد كانت أحداث الشغب يومية بين الأمراء ، والضباط ، والمماليك ، والباشا ـ ممثل السلطة العثمانية ـ والمشايخ ، والصوفية ، ثم القبائل ، فكان السكان يعيشون خوفا دائما ، نظرا لغياب السلطة التي صارت محط نزاع الأطراف الراغبة فيها (١٦)٠ ومع ذلك ، استطاع أحد الضباط المماليك ، من الفرقة الألبانية أن يبرز ، في هذا الوضع ، ويجمع حوله مجموعة من الضباط الصغار والعساكر ، ولاحظ ـ بثاقب بصره ـ أن أهم عناصر الصراع ، هو الانجليز والسلطة العثمانية ، وأن « هناك ـ وراء الستار ـ قوة كامنة قرابة ثلاثة قرون ، وقد أيقظتها هذه الحملة الفرنسية ، وأن المستقبل لهذه القوة اذا وجدت من يأخذ بيدها ويقودها الى الخير » (١٧) ٠ وهكذا ، ظهر محمد علي ، قائدا ماهرا ، ولحظ الناس مواهب الرجل ، فكانت الثورة على الباشا ـ ممثل السلطة العثمانية ـ ونصب محمد علي واليا على مصر ، سنة ١٨٠٥م، مخافة خروجها من الحضيرة العثمانية :

كانت طموحات محمد علي أبعد من الولاية فبدأ : « يطهر الجو أولا ، ثم أخذ يضع الخطط لاصلاحاته المختلفة ، التي تعتبر ـ الى حد ما ـ استمرارا لما بدأه الفرنسيون في مصر ، والتي التزم فيها سبيلا وسطا ، فلم يلجأ الى القديم ويتعصب له ، لأنه آمن منذ اللقاء الأول بأن الاصلاح انما يكون من الغرب ، ولكنه ، في الوقت نفسه ، لم يأخذ عن الغرب كل شيء » (١٨) ٠

اضطر محمد علي الى التخلص من منافسيه من الأمراء المماليك ، لتحقيق طموحاته واصلاحاته ، فكانت مذبحة القلعة سنة ١٨١١ م التي تخلص فيها من منافسيه ، وأعلن نفسه أميرا على مصر ، وبدأ ينافس الخلافة العثمانية حتى سير الجيوش ـ بقيادة ابنه ابراهيم باشا ـ لاخضاع الشام وشبه الجزيرة العربية لسلطانه ٠

أسس محمد علي دولته على أسس عصرية تتمثل في : جيش عصري ومنظم ومدرب واقتصاد قوى ، أساسه الزراعة المنظمة والصناعة المحلية ، وادارة دقيقة تنظم الحياة ، ولكنه أدرك أن هذه العناصر تحتاج الى كفاءات

---

(١٦) انظر في وصف هذه الحال كتاب الجبرتي (عجائب الآثار) ، الجزء السادس ، لجنة البيان العربي ١٩٦٦ ٠

(١٧) د٠ الشيال (جمال الدين) : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٥ ٠

(١٨) د٠ الشيال (جمال الدين) : المرجع السابق ، ص ٦ ٠

متعلمة تعليما حديثا فأسس الكثير من المدارس منتقيا معلميها وتلاميذها من الأزهر · وكلما تقدم محمد علي خطوة في تنظيم دولته ، زادت حاجته الى كفاءات لها مستوى علمي وثقافي عال،وأنى له بهم في بلد أعلى منارة للعلم فيه وقتذاك ، الأزهر ، الذي كان تعليمه لا يتعدى تكوين قضاة شرعيين أو معلمين للعربية والفقه ، فاضطر في بداية عهده الى الاستعانة بالمسيحيين المصريين ثم الشاميين الذين تخرجوا من مدارس الارساليات التبشيرية ، ثم البعض من الأوروبيين في الادارة أولا ، وترجمة المؤلفات العلمية من اللغات الأوروبية الى العربية ثانيا · وعندما لاحظ أن هؤلاء الموظفين يكلفونه عبئا ماليا ثقيلا ، فهم يتقاضون رواتب مرتفعة ، ومنهم من لا يجيد العربية اجادة تامة ولابد من مساعدته بالترجمة ، بالاضافة الى أن جلهم يجهل الوضع المصري ، فقرر تكوين نخبة من المصريين تكوينا علميا عاليا وعصريا ، ليتولى بعد ذلك التدريس في المدارس الفنية ، وترجمة الكتب العلمية ، وادارة الادارة ، وكان السبيل الوحيد للوصول الى هذا الهدف ، هو ارسال نفر من أبناء البلد النجباء الى أوروبا (١٩) · فكانت بعثات محمد علي لاعداد الاطارات اللازمة لبناء دولة عصرية ، اتجهت في أوائل عهدها الى ايطاليا ، فسافرت الأولى سنة ١٨٠٩ م ، وتبعتها الثانية سنة ١٨١٣ م ، ثم تتالت بعد ذلك ، وترجمت بعض الكتب الايطالية الى العربية (٢٠) ·

تألم الفرنسيون كثيرا للمكانة التي وصلت اليها ايطاليا واللغة الايطالية في بداية عهد محمد علي ، فراح القناصل والخبراء الفرنسيون القلائل في مصر يحثونه ـ هم من جهة ، والحكومة الفرنسية من جهة ثانية ـ على التعاون : « ونجحت فرنسا في حلبة هذه المنافسة وألغيت اللغة الايطالية شيئا فشيئا من المدارس المصرية ، واستغنى عن الضباط والمدرسين الايطاليين واستعيض عنهم بضباط ومدرسين فرنسيين ، وعدل عن ترجمة الكتب الايطالية ، وألغيت البعوث الايطالية ، فغدت ترسل ـ في معظمها ـ الى فرنسا ، وفي كلمة واحدة لقد تحولت مصر عن النقل عن الثقافة الايطالية الى النقل عن الثقافة الفرنسية ، وسيكون لهذا أثره الملحوظ كما ذكرنا ، فستظل مصر طول القرن التاسع عشر مصطبغة بالصبغة الفرنسية في شتى نواحيها التفكيرية » (٢١) · فأرسل في السنة التالية ـ ١٨٢٦ م ـ بعثة ضخمة الى فرنسا ، تضم جملة من الشباب ، لعبوا ـ فيما بعد ـ دورا في بناء مصر ، منهم رفاعة الطهطاوي ·

(١٩) د· الشيال (جمال الدين) : المرجع السابق ، ص ٨ ـ ٩ ·

(٢٠) محمد فؤاد شكري (واخرون) : **بناء دولة مصر محمد علي** ، دار الفكر العربي القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ ·

(٢١) د· الشيال (جمال الدين) : **الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي** ، ص ١٤ ·

٤ ـ رفاعة الطهطاوى الوسيط بين الثقافتين الفرنسية والعربية :

(أ) حيـــاته :

ولد رفاعة بدوى الطهطاوى بقرية طهطا الصعيدية سنة ١٨٠١ ـ سنة خـروج الحملة الفرنسـيه ـ تعلم فى كتاب القرية ، وأوصله ذكاؤه الى الأزهر فتخرج منه « عالما » ٠ ودرس فى الأزهر على الكثير من الشيوخ ، الا أن الأستاذ الوحيد الذى أثر فيه أثرا بعيدا ، ومهد له طريق الانفتاح على الثقافة الأوروبية ، هو الشيخ حسن العطار الذى تعامل كثيرا مع نابليون فى المجلس ، فكان أقرب تلاميذه اليه ، وألصقهم به ، وكانا يلتقيان خارج أوقات الدروس لتـدارس علوم لم تكن آنذاك ضمن الثقـافة الرسمية ، كالتاريخ والجغرافية والأدب ٠

لما طلب محمد على من الشيخ حسن العطار ـ شيخ الأزهر آنذاك ـ أن يرشح له واعظـا لأول بعثـة الى فرنسـا ، رشح له تلميذه النجيب الطهطاوى الذى كان يتوسم فيه الخير ، فسافر الطهطاوى الى فرنسا اماما واعظا للبعثة المصرية ، متفتح الذهن لمعرفة الحياة الفرنسية التى حدثه عنها شيخه العطار (٢٢) ٠

(ب) الطهطاوى فى فرنســا :

سافر الطهطاوى الى فرنسا سنة ١٨٢٦ م واعظا لأول بعثة مصرية ، الا أن ذكاءه وطموحه دفعاه الى الافادة من هذه السفرة ، فبدأ فى تطبيق نصائح وارشادات شيخه العطار ، « فلما رسم اسمى فى مجلة المسافرين ، وعزمت على التوجه أشـار على بعض الأقارب والمحبين ، لا سيما شيخنا العطار ، فانه مولع بسماع عجائب الأخبار ، والاطلاع على غرائب الآثار ، أن أنبه على ما يقع فى هذه السفرة ، وعلى ما أراه وما أصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة ، وأن أقيده ليكون نافعا فى كشف القناع ، عن محيا هذه البقاع التى يقال فيها انها عرائس الأقطار ، وليبقى دليلا يهتدى به الى السفر اليها طلاب الأسفار ، خصوصا وأنه من أول الزمن الى الآن لم يظهر باللغة العربية ـ على حسب ظنى ـ شيء فى تاريخ مدينة باريس كرسى مملكة الفرنسيس ولا فى تعريف أحوالها وأحوال أهلها » ٠

---

(٢٢) استقيت ترجمة الطهطاوى من الكتابين التاليين :

ـ د٠ الشيال (جمال الدين) : المرجع السابق ، صص ١٢٠ ـ ١٤٦ ٠

ـ د٠ حجازى (محمود فهمى) : **اصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى** ، صص ٥ـ٢٣ ٠

(٢٣) الطهطاوى : **تلخيص الابريز فى تلخيص باريز** ٠ منشور ضمن كتاب الدكتور محمود فهمى حجازى : **اصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى** ، ص ١٤٠ـ١٤١ ٠

ورأى في فرنسا العجب ، وبخاصة في باريس : « مدة الاقامة فى هذه المدينة العامرة بسائر العلوم الحكمية والفنون والعدل العجيب والانصاف الغريب الذى يحق أن يكون من باب أولى فى ديار الاسلام وبلاد شريعة النبى صلى الله عليه وسلم » (٢٤) ٠

لقد رأى أمور خليقا بها أن تكون فى أرض الاسلام ، وهذا دليل على شدة اعجابه بفرنسا ، ذلك الاعجاب الذى جعله يصف باريس وأهلها ، فوصف النظام السياسى ودستورهم ٠ ثم وصف المساكن والمآكل والمشرب والعادات والملابس ، والمتنزهات ، واعتناء أهل باريس بأبدانهم وبالعلوم وفعلهم الخير ، وتقدمهم فى الفنون والصنائع ، فكانت عبارات الاعجاب بما يرى تتوالى ٠ ثم انتقل الى الحديث عن البعثة ونظامها وبرنامجها الدراسى ، ليشرع بعد ذلك فى الحديث عن نفسه وعن تعلمه ، فيسرد العلوم التى قرأها ، وعلى من قرأها : من لغة فرنسية الى تاريخ وفلسفة جغرافية، أما فى الأدب فيقول : « وقرأت كثيرا من كتب الأدب فمنها مجموع نويل ومنها عدة مواضع من ديوان ولتير وديوان رسين وديوان رسو خصوصا مراسلاته الفارسية التى يعرف بها الفرق بين آداب الافرنج والعجم وهم أشبه بميزان بين الآداب المغربية والمشرقية ٠ (٠٠٠) وبالجملة فقد اطلعت فى آداب الفرنساوية على كثير من مؤلفاتها الشهيرة » (٢٥) ٠

درس فى باريس الكثير من العلوم والفنون ، كما درس الكثير من المؤلفات الأدبية الشهيرة ، وشرع ــ هناك ــ فى ترجمة الكثير مما قرأ من المؤلفات ٠ وكانت اقامته بباريس نقطة تحول فى حياته ، فقد تعلم اللغة الفرنسية ، كما تعلم الكثير من العلوم والفنون ، ودرس الكثير من المؤلفات الأدبية الشهيرة ، فعاد الى مصر سنة ١٨٣١ م بعقل جديد ورغبة فى التغيير مزودا بتلك المعارف ومعجبا بفرنسا مجتمعا ونظاما ٠

(جـ) نشـــاطه :

حظى الطهطاوى برضا محمد على ، لجده واجتهاده فى التعليم بفرنسا ، واتقانه اللغة الفرنسية ، ومكنه ذلك الرضى من تنفيذ مشاريع أهمها :

(أ) فى الترجمة : فور عودته عين ، سنة ١٨٣١ م ، مترجما من اللغة الفرنسية بمدرسة الطب بأبى زعبل ثم بمدرسة المدفعية بطره ، فترجم الكثير من المؤلفات العلمية فى المعادن والهندسة والجغرافية ٠٠٠ الخ ، وترجم أيضا رواية الأب فينيلون بعنوان : « مواقع الأفلاك فى حوادث تليماك » ، فيقدم ــ بذلك ــ أول أثر أدبى فرنسى للقارىء العربى ، سنة ١٨٥٠ م ٠

---

(٢٤) الطهطاوى : المرجع السابق ، ص ١٦٥ ٠

(٢٥) الطهطاوى : المرجع السابق ، ص ٣٣٤ ٠

٢ ــ التعليم : تعددت جهود الطهطاوى التعليمية ، فمن ترجمة الكتب المدرسية،الى تعليم الكثير من العلوم واللغتين العربية والفرنسية والترجمة، الى الاشراف على الكثير من المدارس وتأسيس البعض منها مثـل مدرسة الألسن (١٨٣٥ م) لتكون مدرسة المترجمين ، الى تأليف الكتب المدرسية مثل كتاب «جغرافية عمومى فى كيفية الأرض» ، وكتاب « التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية » ، وكتاب « المرشد الأمين للبنات والبنين » ، فيكون أول مؤلف للكتب التعليمية على الطرق الحديثة ، كما يكون أول مهتم بتعليم البنات ، كما هو واضح من عنوان كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » ٠

٣ ــ الصحافة والتأليف : الى جانب الأعمال السالفة الذكر ، تولى الطهطاوى ، سنة ١٨٤١ م ، الاشراف على القسم العربى من مجلة الوقائع المصرية ، فعمل على تعريبها كلية بكتابة الكثير من المقالات ، أو ترجمتها الى العربية ٠ كما ألف الكثير من الكتب فى مختلف المجالات الفكرية ، مثل « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » الذى يعد صورة لفرنسا ونظامها ، مع ترجمة نص دستورها ، وكتاب « منهـاج الألبـاب المصرية فى الآداب العصرية » ضمن مقالات فى الفكر السياسى والاقتصادى والاجتماعى ٠

وأسس،سنة ١٨٧٠م ، مجلة «روضة المدارس» ــ وهى نصف شهرية ــ لتثقيف المعلمين والطلبة ، فنشر فيها المقالات المتعددة من تأليفه أو ترجمته ركز فيها على تقديم العلوم والحياة العصرية لقرائه ، فكانت هذه المجلة من أهم المعالم الثقافية المتفتحة فى القرن التاسع عشر ٠ وكانت وفاة الطهطاوى سنة ١٨٧٣ م ، بعدما خلف الكثير من المدارس والكتب بين مؤلفة ومترجمة ومجلة نصف شهرية ، وتلاميذ معجبين بشيخهم يعدون بالآلاف ، سيعملون على انجاز أفكاره ، فيؤسسون ــ بالاضافة الى الشاميين المسيحيين ــ المطابع والمجلات الخاصة ، وينشطون الترجمة ، ويعملون على تأسيس مؤسسات تعليمية حديثة ، مثل مدرسة الحقوق ، ومدرسة دار العلوم ، لتكوين المعلمين على الطرق الحديثة ، والتى لا زالت قائمة حتى يومنا هذا ، مع نزوعها التاريخى الى الاعجاب بالثقافة الفرنسية ، والدليل على ذلك أنها رائدة الأدب المقارن فى الوطن العربى ، فمنها تخرج الدكتور محمد غنيمى هلال ، وفيها درس ، بعدما أكمل دراسته فى فرنسا ٠

خلاصة القول ، أن الثقافة الفرنسية بدأت تتسرب الى الوطن العربى، منذ قرنين على الأقل ، عن طريق منافذ متعددة أهمها :

الارساليات التبشيرية منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر (١٦٤٩ م) ، والحملة الفرنسية على مصر ، بما حملت معها من أفكار ونظم ووسائل ثقافية كالمطبعة والمجمع العلمى ، واستعانتها بالبعض من المسيحيين

المصريين أو الشاميين خريجي مدارس الارسـاليات ، ومحمد على بدولته العصرية التى نحا فى تأسيسها وتنظيمها منحى الدول الأوروبية ، فأسس المدارس وترجم العلوم والفنون ، وأرسل البعثـات الطلابية للتعلم فى أوروبا بصفة عامة ، وفرنسا بصفة خاصة.وأخيرا ، رفاعة الطهطاوى الذى أعجب كثيرا بفرنسا ، فحاول ـ طيلة أربعين سنة من التعليم والترجمـة والتأليف ـ أن يحتذى النموذج الفرنسى فى العلم والثقافة .

وكانت نتيجة كل ذلك ، أن تأسست مطابع كثيرة فى الشام ومصر ، وصدرت مجلات وجرائد ، واحتاجت المطابع والمجلات والجرائد الى مادة للنشر ، فظهرت كتب متعددة علمية وأدبية ، نسبة كبيرة منها مترجمة من الفرنسية . كما تأسست مؤسسات تعليمية مدنية حديثة . وهكذا ، تعددت الوسائط ومصادر الثقافة الفرنسية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى مصر والشام ، وبدأ المثقف العربى يطلع باستمرار على الثقافة الفرنسية ، ليتجلى ذلك الاطلاع فى تأثر الأدب العربى الحديث بالأدب الفرنسى فى مختلف فنونه كالنقد ، حيث ستظهر أسماء لنقاد عرب ، بدأت أصداء النقد الفرنسى تظهر فى كتاباتهم منهم : الشيخ نجيب الحداد ومحمد روحى الخالدى وقسطاكى الحمصى .

ثانيا : أصـداء النقد الفرنسى فى النقد العـربى أواخـر القرن التاسـع عشر

١ ـ الشيخ نجيب الحـداد :

حيـــاته وآثاره :

ولد نجيب سليمان الحداد ببيروت فى ٢٥ فبراير ١٨٦٧ م من أسرة كاثوليكية شهيرة ، وتوفى بمرض السل فىالاسكندرية ١٨٩٩ م (٢٧) . وتربى فى أسرة الحداد الكاثوليكية وأسرة اليازجى المعروفة بعلمها ، من جهة أمه ، ودرس فى مدارس الفرير الكاثوليكية العربية والفرنسية .

(٢٧) حول ترجمة نجيب الحداد انظر :

ـ العقيقى (نجيب) : **من الادب المقـارن** ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

ـ عبود (مارون) : **رواد النهضة الحديثة** ، ص ١٩٢ .

ـ د. الحسينى (اسحاق موسى) : **النقد الادبى المعاصر فى الربع الأول من القرن العشرين** ، ص ١٥ .

ـ سامى سباتنغ اليافى (ادوار) : **نجيب الحداد المترجم** ، ص ١٦ ـ ٢١ .

وعند انتقال أسرته الى الاسكندرية ، واصل تعلمه فى الأجواء نفسها حتى أجاد اللغتين ، وأبدى منذ صغره ذكاء وميلا أدبيا واضحا ، فاستدعاه سليم نقلا ـ مؤسس الأهـــرام ـ سنة ١٨٨٤ م للعمل محررا فى الجريدة ، فعمل بها محررا طيلة عشر سنوات كاتب مقالة صحفية ومترجما وشاعرا ، ليؤسس ، بعد ذلك ، مع أخيه «أمين» جريدة «لسان العرب» ، ومع غالب طليمات ، بعد ذلك ، جريدة « السلام » ، وتكون مجلة « أنيس الجليس » النسائية آخر مجلة يشارك في تحريرها سنة ١٨٩٨ م ٠

كتب الحداد طيلة خمس عشرة سنة فى مختلف الأجناس الأدبية ، فكتب المقالة بمختلف أغراضها فى الجرائد والمجـــلات التى ساهم فى تحريرها : (فأنتجت منها قريحته روائع وطرائف فطارت شهرته وبعد صيته » (٢٨) وأصبح علما من أعلام المقالة ، وجمعت مجموعة منها فى كتاب بعنوان « منتخبات الحداد » : « طبعت مرات لتهافت الناشرين عليها ٠ كانت مثالا لنا في ذلك الزمن نطبع على غراره ، أما موضوع هذه المقالات فأكثره أدبى اجتماعى ، لأن معالجة القضايا الأخلاقية كانت أغلب فى ذلك العصر ٠ وفيها أيضـــا مقالات متعددة ، سياسية وفيها حكايات وملح ، وقصائد معربة عن الفرنسية ، وكلهـــا ذات مغزى ترمي الى غرض أدبى اجتمـــاعى (٢٩) ٠

طرق الحداد فى مقـــالاته مواضيع اجتمـــاعية ، فتحدث عن الفقر والغنى ، والطبقية وأضرار الخمر ، وعن المودة وتحرير المرأة ٠٠٠ الى غير ذلك ، وكتب فى مواضيع سياسية ، فحمل حملات شعواء على الانجليز ، ممجدا الفرنسيين ، حاثا العرب على التحرر من النير العثمانى ، فكان بذلك من رواد فكرة القومية العربية ، اقتداء بالفرنسيين ونمطهم فى بناء قوميتهم ودولتهم العظيمة ٠

وكتب كذلك عن موضوعات أدبية ، فكتب عن الأدب وأهميته ، ودوره فى المجتمع ، وعن الصحافة والمسرح والتجديد فى النثر والشعر ، ضاربا أمثلة بالأدب الفرنسى الذى كان معجبا به شديد الاعجاب لدرجة قوله بأن فيكتور هوجو : « وصف معركة (واترلو) بما لا يقدر شاعر عربى على الاتيان بنظيره » (٣٠) ، تصريح مثل هذا ، فى أمة تعتبر نفسها أشعر أمة ، وفى أواخر القرن التاسع عشر بالذات ، دليل قاطع على مدى اعجاب الحداد بالأدب الفرنسى ، حتى لا نقول التعصب له ٠

---

(٢٨) عبود (مارون) : **رواد النهضة الحديثة** ، ص ١٩٢ ٠

(٢٩) عبود (مارون) : المرجع السابق ، ص ١٩٤ ٠

(٣٠) الحداد (نجيب) : **مقابلة بين الشعر العربى والشعر الافرنجى** ، منشورة ضمن كتاب « **مختارات المنفلوطى** » ، ص ١٣٦ ٠

كان ، اذن ، يصدر فى مقالاته عن اعجاب بالثقافة الفرنسية ، فترجم منها الكثير من النصوص الأدبية ، أهمها تلك المسرحيات التى تناهز العشرين ، ما بين معربة ومترجمة من أصل لغوى واحد هو اللغة الفرنسية (٣١) ٠

وكتب القصة ، فألف وعرب وترجم الكثير من القصص مثل الفرسان الثلاثة ، وجل قصصه المعربة أو المترجمة من أصل فرنسى أيضا ، كما كتب الكثير من القصائد الشعرية ، منها المنشور فى مختاراته ، وجلها منشور فى ديوان بعنوان (تذكار الصبا ، الاسكندرية ، ١٨٩٩ م) ٠ يحس قارىء آثار الحداد بمدى تأثره بالأدب الفرنسى ، وتتجلى ذروة تأثره فى مقالته الشهيرة : « مقابلة بين الشعر العربى والشعر الافرنجى » ٠

الحداد والنقد الفرنسى :

لم يكن الحداد ناقدا ، بل كان كاتب مقالة أولا ، وكاتبا مسرحيا وقصصيا ثانيا ، وشاعرا فى الأخير ، ولكن كتابة المقالة جعلته يتعرض للكثير من الموضوعات ٠ وفى هذا السياق كتب سنة ١٨٩٧ م مقالته سالفة الذكر ، ونشرها فى مجلة « الجنان » بطلب من خاله ابراهيم اليازجى : « وقد سألنى من لا تسعنى مخالفته أن أستعين بما توصلت اليه من قراءة الشعرين العربى والافرنجيّ على وضع مقالة أبين فيها المقابلة بينهما وأتكلم عن الفرق بيننا وبين أهل الغرب فى معانى الشعر وأنواع ايراده وأذواق ناظميه وطرائق البيان فى مآخذه ، وابراز المقاصد منه الى ما يتصل بذلك من قواعد نظمه اللفظية والمعنوية عند كل من الفريقين ، هو ولا شك مطلب عسير ونية بعيدة تقف دون غايتها سوابق الأقلام » (٣٢) ٠

طلب منه خاله أن يكتب المقالة ، فى هذا الموضوع الصعب ، لعلمه بملكة وقدرة ابن أخته الشعرية ، وتمكنه من اللغتين العربية والفرنسية ٠ وذلك ما يؤكده الحداد نفسه : « ولقد أولعت بهذا الفن منذ الصبا وصرفت له من أوقات الفراغ برهة طويلة قرأت فيها دواوين العرب ونظم المجيدين من شعرائهم ، ثم قرأت كثيرا من شعر الفرنسيين وشعر غيرهم منقولا الى

---

(٣١) حول هذا الموضوع يراجع :

ـ نجم (محمد يوسف) : **المسرحية فى الأدب العربى الحديث** ، دار الثقافة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٠ ٠

ـ الحداد (نجيب) : مسرحياته (اختيار وتقديم د٠ محمد يوسف نجم) ، دار الثقافة ، بيروت ٠

ـ سامى سبانخ (ادوار) ٠ **نجيب الحداد المترجم المسرحى** ، معهد البحوث والدراسات العربية ٠

(٣٢) الحداد (نجيب) : **مقابلة بين الشعر العربى والشعر الافرنجى** ، ص ١٢١ــ١٢٢ ٠

لغتهم » (٣٣) ، ويستجيب الحداد لمطلب خاله ، فيكتب المقالة موازنا فيها بين الشعرين العربى والفرنسى ، بادئا بتعريف الشعر قائلا :

« الشعر هو الفن الذى ينقل الفكر من عالم الحس الى عالم الخيال · والكلام الذى يصور أرق شعائر القلوب على أبدع مثال · والحقيقة التى تلبس أحيانا أثواب المجاز · والمعنى الكبير الذى تبرزه الأفكار فى أحسن قوالب الايجاز · وأخفى وجدانات النفس تتمثل للمرء فيحسبها سهلة وهى منتهى الابداع والاعجاز · بل هو الأنة التى تخرج من قلب الثكلان · والنغمة التى يترنح لترديدها الطروب النشوان · والشكوى التى تخفف لوعة الشاكى ويأنس بها المحب الولهان · بل هو الحكمة يجدها الحكيم فيبرزها بما يليق بها من محاسن اللفظ ، ويوازن بين أجزائها موازنة تحبب ورودها على الأذن وتقرب منالها من الحفظ · والجمال تراه العين فتحب أن تحفظ ذكراه فتبقيه صورة ماثلة يراه من لم يكن قد رآه » (٣٤) ·

من التمعن فى هذا التعريف ، أو هذه التعاريف ، نلاحظ أن المضمون هو أساس حد الشعر عند الحداد ، فالشعر عنده : فن وتصوير لشعائر القلوب ، وأنه نغمة وحكمة وجمال · وهذه التعابير جمعاء ، لا تخرج عن المضمون ، وهو مضمون جديد بالنسبة للتراث الشعرى العربى أو النقدى العربى الذى تعود على تسميات أخرى للمضامين الشعرية ، كالرثاء والوصف والمدح والهجاء ، وغير ذلك ·

كما نلاحظ أنه لم يحفل كثيرا بالشكل الذى أولاه التراث الشعرى ، أو النقدى العربى ، اهتماما كبيرا ·

ونلاحظ أيضا أن مضمون الشعر عنده يرشح برؤية رومانتيكية ، فهو فن الانتقال من عالم الحس الى عالم الخيال ، وتصوير أرق شعائر القلوب ، وأخفى وجدانات النفس وأنه الثكلان ، ونغمة النشوان ، ولوعة الشاكى والمحب الولهان ، والجمال الذى تحب العين أن تحفظ ذكراه · انها تعابير عاطفية جديدة ، وظفها الحداد لتعريف الشعر ، فجاء تعريفه رومانتيكيا ، نقل الشعر من وظيفة النظم والاطراب الى وظيفة التعبير عن الأحاسيس والشعور ، وبذلك يقدم مفهوما جديدا للشعر ، وبالتالى جديدا للشاعرية ، تنتج عنهما بالضرورة مقاييس جديدة لدراسة الشعر والعملية الشعرية ، أى مقاييس نقدية جديدة فى التعامل مع النص الشعرى ·

---

(٣٣) الحداد (نجيب) : المرجع السابق ، ص ١٢١ ·
(٣٤) الحداد (نجيب) · المرجع السابق ، ص ١٢٠_١٢١ ·

ومن هنا ، بدأت تظهر ـ شيئا فشيئا ـ مصطلحات نقدية جديدة فى التعامل مع النص الشعرى مثل : الصورة الشعرية ، الصورة النفسية ، وحدة الموضوع ، وحدة المضمون ، لصدء الفني ، الصدق الواقعى ٠٠٠الخ٠ وكلها مصطلحات تهدف ـ أولا ـ الى دراسة المضمون٠ويتعرض بعد ذلك الى قضية ترجمة الشعر أو نقل المعانى الشعرية الى قوالب نثرية ضمن عملية الترجمة ، فيبرز صعوبة العملية ، وأثرها السيىء فى افقاد المعانى والصور الشعرية ، اذا ما تمت العملية بين لغتين لا تنتميان الى أصل لغوى واحد ٠ اذا كان قصده من هذه الاشارة الاعتذار المسبق ، والحيطة للنقص الذى قد يلحق عمله هذا عند موازنته بين الشعرين العربى والافرنجي ، ونقله معانى شعرية افرنجية ومقارنتها بالمعانى العربية ، فقد أثار بذلك قضية مهمة جدا فى الدرس الأدبى ، هى قضية الترجمة فى الشعر ودورها فى افقاد الصور والمعانى الشعرية اثر الترجمة من لغة الى أخرى ، اللهم الا اذا كانت اللغة المترجم اليها من أصل لغوى واحد للغة المترجم منها فتشتركان فى البناء اللغوى العام ، فتتقارب التراكيب اللغوية بينهما ، الأمر الذى يسهل نقل المعانى أو الصور من بناء ووضعها فى بناء مماثل فى اللغة المترجم اليها (٣٥) ٠

بعد هذا التعريف الجديد للشعر ، والاعتذار المسبق عما قد يشوب حديثه عن الشعر الافرنجي من ثغرات أساسها صعوبة نقل المعانى الشعرية بين لغتين مختلفتى الأصل ، ينتقل الى تحديد أصل الشعر ومراحله عند العرب والافرنج : « ودرجات ارتقائه فى سلم الكمال من حيث نشأته الى هذا العهد وما تقلب عليه من أحوال المعانى وشؤونها بتقلب الأيام على أصحابه من الشعوب ، اذ هو مرآة الأخلاق وتاريخ ما كانت عليه الأمم فى مراقى تقدمها وحضارتها الى الآن ، وأبدأ من ذلك بما يقوله الافرنج عن أصل الشعر عندهم » (٣٦) ٠ ويذكر أن الشعر الافرنجى مر بثلاث مراحـــل :

المرحلة الأولى ، وتمثل عهد الأولين عندما كانت البشرية تعيش أسرا فى حياة مشاعية بسيطة ، شعرها غناء ٠

المرحلة الثانية ، وتمثل مرحلة انتقال البشرية من النظام الأسرى البسيط الى النظام القبلى ، فاحتل الأمير أو الملك منصب رب الأسرة ، وقامت الحروب بين القبائل والممالك ، فصور الشعر تلك الأحداث والوقائع وصار بذلك تأريخا وخرافة ، وكان الشعر الملحمى ٠

---

(٣٥) الحداد (نجيب) : المرجع السابق ، ص ١٢٣ ٠

(٣٦) الحداد (نجيب) المرجع السابق ، ص ١٢٤ ٠

المرحلة الثالثة ، وهى مرحلة النصرانية التى ارتقى فيها عقل الانسان من حال الى حال ، وانتقل الشعر عنده من دائرة الوهم الى حد الحقيقة ، فأصبح الشعر تصويرا للواقع الانساني (٣٧) ، منتقلا بذلك من شعر ملحمى الى شعر درامى ، أما الشعر العربى فهو : « شعر منفرد فى نفسه نشأ فى بلاد العرب بخصوصها وأجراه الله على ألسنة العرب وحدهم دون غيرهم لم يأخذوه عن أحد متسلسلا ، كما أخذ الافرنج شعرهم عن اليونان والرومان ومن قبلهما ولم يأخذ أحد عنهم كما أخذ عن غيرهم ، بل بقى منحصرا فيهم فتناولوه ارثا عن الطبيعة فى بداوتهم ولم يورثوه أحدا من غير قبائلهم والناطقين بلسانهم (···) وكان شعرهم فى أول أمره مقصورا على حوادث أنفسهم والابانة عما يكنه الشاعر من شكوى أو وجدان أو حكاية واقعة غرامية أو حماسة يبرزون المعانى الشعرية فى ذلك كله كما تصور لهم نفوسهم مجردة عن الاختلاق ودعوى غير الحقيقة وحكاية حوادث وهمية » · (٣٨) ·

نشأ الشعر العربى ، اذن ، فى البيئة العربية ارثا عن الطبيعة ! فلم يرثه العرب عن غيرهم ، ولم يورثوه أحدا ، فتلاءمت هذه النشأة مع طبيعة الشعر العربى النابعة من طبيعة البيئة العربية الصحراوية ، فكان شعرا واقعيا محسوسا ، لا يحفل بالمجردات أو الغيبيات · ومن ثم ، لم يتطور تطورا ملحوظا ، شكلا أو مضمونا ، لارتباطه بالبيئة العربية التى لم تعرف هى الأخرى تطورات كبيرة ·

من دراسته أصل الشعر العربى والافرنجي وتطورهما ، رأى الحداد أن الفرق الفاصل بين الشعرين نوعان : لفظى ومعنوى ·

١ ــ الفرق اللفظى بين الشعرين ويكمن فى بنائهما الموسيقى ، حيث يتكون وزن الشعر عند الافرنج من أهجية لفظية أساسها النبرة الصوتية المؤلفة من حرف مد منفرد ، أو حرف مد مقترن بحرف صحيح ، ويسمون تلك النبرات الصوتية « أقداما » ، فالبيت الشعرى الافرنجي يتألف من مجموعة أقدام أطولها البحر «الاسكندرى» ذو الاثنى عشر هجاء وأقصرها من هجاء واحد · وفى وسع شاعرهم أن ينتقل فى قصيدته بين عدة بحور حسب نظم كثيرة ، كما أن القافية عندهم متعددة فى القصيدة الواحدة ، الأمر الذى يتيح للشاعر الافرنجى الكثير من حرية التصرف فى بناء قصيدته ، عكس الشاعر العربى ، الذى يقيده وزن واحد وقافية واحدة فى القصيدة الواحدة ·

---

(٣٧) الحداد (نجيب) . المرجع السابق ، ص ١٢٤ ــ ١٢٧ ·

Hugo (Victor) : *cromwel* (Preface). G. Flammarion (GF) Paris, 1968, pp. 63-67.

(٣٨) الحداد (نجيب) : المرجع السابق ، ص ١٢٨_١٢٩ ·

٢ ـ تتمم هـذه الفروق اللفظيـة بين الشعرين فروق معنوية ، فالافرنج : « يلتزمون الحقائق فى نظمهم التزاما شديدا ويبعدون عن المبالغة والاطراء بعدا شاسعا ، فلا تكاد تجد لهم غلوا ، ولا اغراقا ، ولا تشبيها بعيدا ،ولا استعارة خفية ، ولا خروجا عن حد الجائز المقبول من المعانى الشعرية فى جميع وجوهها ومقاصدها ، فهم من هذا القبيل أشبه بالعرب فى جاهليتهم ، اذا مدحوا لم يبالغوا ، واذا وصفوا لم يغربوا ، واذا شبهوا لم يبعدوا فى التشبيه ، واذا رثوا لم يتعـدوا صفات المرثى وأخـلاقه فى المعانى السهلة المقبولة » (٣٩) ٠

ومن العيوب المعنوية أيضا ، أن الافرنج لا يقدمون شيئا بين أيدى أغراضهم الشعرية ، ويتجافون عن الفخر فى قصائدهم ولا يستعملون المدح فى كلامهم بل يعدونه عيبا ونقصا ٠ كما أنهم ينفردون دوننا بنظم الروايات التمثيلية ، ويعدونها من أبواب الشعر وأسمى درجاته ، ففى نظم الروايات الشعرية من الدلالة على الفضل والابداع أكثر مما فى نظـم الديوان من القصائد والمقطعات (٤٠) ٠

ان كل هذه الفروق ـ وتمثل خصائص الشعرالافرنجى ـ تؤدى الى فرق جوهرى بين طبيعة الشعر العربى والافرنجى له أهميته البالغة فى المجال النقدى ، اذ صارت طبيعة الشعر منطلقا نقديا للكثير من النقاد فى دراسة الشعر العربى ، يتلخص حسب قول الحداد فى : « أننا نفوقهم فى وصف الشىء وهم يفوقوننا فى وصف الحالة ، أى اننا اذا وصفنا الأسد أو الفرس أو القصر أو الفتى الجميل أو الغادة الحسناء ، أتينا فى ذلك بأحسن مما يأتون به وتوسعنا فيه توسعا لا يقدرون هم على الاتيان به ٠ وأنهم اذا وصفوا حالة من قتال رجلين أو معركة جيشين أو مقابلة محبين أو غرق سفينة أو مصاب قوم جاءوا فى ذلك بأحسن مما نجىء به ، وتوسعوا فيه بما لا نقدر أن نسبقهم بمثله ٠ ومثيل ذلك أن المتنبى وصف الأسد بما لا يقدر افرنجى على وصفه بمثله ، وهيجو وصف معركة واترلو بما لا يقدر شاعر عربى على الاتيان بنظيره ، فهم بذلك أقدر على تصوير الوقائع ونحن أقدر على تصوير الأعيان » (٤١) ٠

أدرك الحداد العلاقة النفسية القوية بين الشاعر الافرنجى وموضوع شعره ، لدرجة أنه أقدر من غيره على تصـوير مشاعره وأحاسيسه ازاء

---

(٣٩) الحداد (نجيب) : المرجع السابق ، ص ١٣٣ ٠
(٤٠) الحداد (نجيب) · المرجع السابق ، ص ١٣٥ـ١٣٦ ٠
(٤١) الحداد (نجيب) : المرجع السابق ، ص ١٣٧ ٠

موضوعه الشعرى ، وبذلك تكون قيمة الشعر الافرنجي في مضمونه ٠ أما علاقة الشاعر العربي النفسية بموضوعه الشعرى ، فهى أضعف ، لدرجة أنه يركز على وصف عناصر موضوعه الخارجية وعلى اجادة البناء اللفظي البلاغي ، وبذلك تكون قيمة الشعر العربي في بنائه الفني أي في شكله ، وليس في مضمونه ٠ لقد أورد الحداد في مقالته كل هذه الأفكار النقدية السالفة الذكر ، في نهاية القرن التاسع عشر ، وفي وقت كان النقد الأدبي لا يتعدى المماحكات اللغوية والبلاغية في الأزهر والمعاهد الدينية (٤٢) مستوحيا أفكاره تلك من النقد الفرنسي : « وأبدأ من ذلك بما يقوله الافرنج عن أصل الشعر عندهم وكيفية تدرجه ووصوله اليهم على سلسلة أول حلقاتها بدء الشعر في العالم منذ عهد آبائنا الأولين وآخرها ما صار اليه على عهد شعرائهم في هذا العصر نقلا عن فيكتور هيجو أكبر شعراء الفرنسيس وأشهرهم » (٤٣) ٠

تأثر الحداد بفيكتور هيجو كثيرا ، فترجم له المسرحيات ، وأخذ عنه فكرة ارتباط الأدب بالمجتمع وتطورهما المترابط في مراحل : « حيث ان الشعر ملتصق دوما بالمجتمع ، فاننا سنحاول أن نبين من خلال شكل المجتمع طابع الشعر في هذه العهود الثلاثة الكبرى للعالم : العصور البدائية ، العصور القديمة ، العصور الحديثة » (٤٤) ٠ كما أخذ عنه بقية الأفكار النقدية التي قدمها للقارىء العربي ، مع النموذج الشعرى الافرنجي وخصائصه ، مع تبيان محاسنه الكثيرة ومساوئه ٠ وأهم الأفكار النقدية الجديدة ارتباط الشعر بالمجتمع وصدوره عنه ، فاستنتج من جراء ذلك أن الشعر العربي مادى يصور الأشياء ولا يصور الحالات ٠ ولما كانت الأشياء جامدة فان الشاعر العربي تغلب على ذلك الجمود بالصنعة اللفظية ، فجاء شعره يحفل بالشكل على حساب المضمون ٠ وبين كذلك أن البناء الموسيقى للشعر العربي قيد يحده بقيود الوزن والقافية ، ولذلك لم ينظم العرب المطولات والملاحم ، فبيئتهم جرداء تحد الخيال ونظامهم الشعرى يخنق ما تجاوز البيئة الجرداء ٠

انها جملة من الأفكار النقدية ، كان لها أثرها في النقد العربي في الدراسات اللاحقة ، وهي في مجملها ، وبغض النظر عن موقفنا منها ، ثمرة من ثمار تأثر الحداد بالنقد الفرنسي ، فأصبح بذلك وسيطا بينه والنقد العربي ٠ وبذلك نستطيع القول : ان الحداد غذى النقد العربي الحديث

---

(٤٢) د٠ الأمين (عز الدين) : نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر ، ص ٤٤ ٠

(٤٣) الحداد (نجيب) : المرجع السابق ، ص ١٢٤ _ ١٢٥ ٠

(٤٤) Hugo (Victor) : *Crommwell Prefacei* G. Flammarion, Paris 1968, p. 63.

بمصطلحات ومفاهيم نقدية رومانتيكية نقلها من النقد الفرنسي ضمن انبهاره بالثقافة الفرنسية بصفة عامة والأدب بصفة خاصة . مبينا ضيق آفاق الشعر العربي الابداعية ، مقارنة بآفاق الشعر الافرنجي ، فدفع بذلك من والاه من العرب الى الاقتداء بالشعر الافرنجي ، كما دفع من خالفه الى اعمال الفكر في تبيان خطئه ، فكان بذلك دافعا للفريقين الى التفكير واعادة النظر في الكثير من القضايا الأدبية عموما والنقدية بصفة خاصة .

٢ ـ محمد روحي الخالدي المقدسي :

حياته وآثاره :

ولد محمد روحي بن ياسين بن محمد الخالدي المقدسي ، في مدينة القدس سنة ١٨٦٤ م من أسرة الديري الشهيرة بالعلم والفضل ، وتوفي في سنة ١٩١٣ م (٤٥) . بدأ تعلمه الابتدائي في مدينة القدس ، ليواصله في مدينة نابلس وأخيرا طرابلس الغرب في المدرسة الوطنية التي كانت تعتمد وسائل التعليم الحديثة والفنون العصرية . التقى خلال سفره الى الآستانة ١٨٨٠ م ، مع عمه عبد الرحمن نافذ أفندي الخالدي ، بشيخ الاسلام عرياني زاده أحمد أسعد أفندي الذي أعجب بذكاء الفتى وشجعه كثيرا على طلب العلم والمعرفة ، فلما عاد الى بيت المقدس : « أخذ يحضر دروس المسجد الأقصى ، ويتلقى فيه علوم الفقه والتوحيد والحديث والنحو والصرف والمنطق والبيان والبديع ، يتردد على مدرسة الألسن ، ومدرسة الرهبان البيض (الصلاحية) ليتقن اللغة الفرنسية » (٤٦) . فجمع بين التعليمين : العربي في المدارس الحكومية ودروس المسجد الأقصى ، والفرنسي في مدرسة الألسن الاسرائيلية ، ومدرسة الآباء البيض . واصل تعليمه الثانوي في بيروت ، والعالي في الآستانة في المكتب الملكي الشاهاني للعلوم السياسية والادارة . لما أدرك أن شهاداته العثمانية لا ترضي طموحه ، هجر الوظيفة وسافر الى فرنسا ، ليلتحق بمدرسة العلوم السياسية في باريس فأتم دروسها في ثلاث سنوات ، كما درس ، في الوقت نفسه ، فلسفة العلوم

---

(٤٥) حول ترجمة الخالدي انظر :

ـ د. الحسيني (موسى اسحاق) : **النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن العشرين** ، ص ٣٣ .

ـ د. الأسد (ناصر الدين) : **محمد روحي الخالدي ، رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين** ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٢٥ـ٤٦ .

ـ د. السوافيري (كامل) : **الأدب العربي المعاصر في فلسطين** ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٩ ، ص ٢٧٥ .

(٤٦) د. الأسد (ناصر الدين) . **محمد روحي الخالدي** ، ص ٣٢ .

الاسلامية والآداب الشرقية بجامعة السوربون ، التى تتلمذ فيها على مشاهير العلوم السياسية ، وتعرف على المستشرقين فتوثقت صلته بهم ، وعرفوا فضله وعلمه ، فدعوه الى الاشتراك فى مؤتمراتهم والقاء المحاضرات فى اجتماعاتهم ، كما عين مدرسا فى جمعية نشر اللغات الأجنبية فى باريس ٠

وعين سنة ١٨٩٨ م قنصلا عاما للخلافة العثمانية فى مدينة بوردو وتوابعها ، فمكث فى منصبه نحو عشر سنوات تزوج خلالها من سيدة فرنسية ٠ ثم عاد بعد ذلك الى بلده ، فانتخب نائبا عن القدس فى مجلس النواب العثمانى حتى وفاته ٠

استطاع الخالدى أن يظفر بتعليم عصرى عال ، فأتقن اللغة العربية والفرنسية والتركية ، كما درس العلوم السياسية والادارية والتاريخ والآداب الشرقية فى جامعة السوربون ٠ وأقام فى فرنسا حوالى ثلاث عشرة سنة ، احتك خلالها بالحياة الثقافية والاجتماعية ، فكانت نتيجة ذلك الكثير من الكتب والدراسات والمقالات فى مختلف العلوم ، يهمنا منها كتابه الفريد فى عصره « تاريخ علم الأدب عند الافرنج والعرب وفيكتور هيجو » الذى يعد بحق « كتابا فى الأدب المقارن عند الافرنج والعرب تخلله نظرات فى النقد الأدبى ، فكان أول دراسة مطولة فى الأدب الحديث بعد البحث الوجيز الذى وضعه نجيب الحداد » (٤٧) ٠

كتاب تاريخ علم الأدب عند الافرنج والعرب وفيكتور هيجو :

خلال اقامة الخالدى بفرنسا ، وفى سنة ١٩٠٢ م بالذات ، احتفلت فرنسا بالذكرى المئوية لميلاد شاعرها فيكتور هيجو ، فزينت مدينة باريس والمدن التى لها علاقة ما بفيكتور هيجو ، كتبت عنه الصحف والمجلات المقالات الكثيرة ، وأصدرت دور النشر له وعنه الكثير من المؤلفات ، وقدمت عروض مسرحية وفنية ٠

وفى السادس والعشرين فبراير من السنة المذكورة : « ابتدأ موسم الاحتفال بيوبيل هذا الشاعر واجتمع فى البانتيون الرؤساء والسفراء والعلماء والشعراء والمشخصون والمشخصات وكل من اشتهر فى باريس من الرجال والنساء وأكثرهم بالألبسة الرسمية والعسكرية والكساوى العلمية والقضائية موشحون بوسامات الافتخار (٠٠٠) ثم أنشد بعض المشخصين والممثلات شيئا من قصائد فيكتور هيجو وتلوا أجزاء من أحاديثه وانفض الجمع ليستأنفوا الاحتفال فى مواضع أخرى من باريس ، لأن حفلة

---

(٤٧) د٠ الحسينى (اسحاق موسى) : النقد الادبى المعاصر فى الربع الاول من القرن العشرين ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ٠

البانتيون لم تكن الا افتتاح موسم أدبي في عموم البلاد الفرنساوية ودامت الزينات والأفراح فيها سبعة أيام ولياليها وهم في كل يوم وليلة يرفعون الأعلام ويضيئون الأنوار يجمعون الجموع ويلقون الخطب ويأدبون المآدب ويشربون النخب يمثلون على المراسح الروايات » (٤٨) · وكان الخالدى من بين المشاركين في هذا الاحتفال بوصفه رئيس جمعية قناصل مدينة بوردو ·

أعجب بهذا الاحتفال — لميوله العلمية والأدبية — وبتعظيم الأمة الفرنسية لعلمائها — أمثال الكيماوى برتلو — (٤٩) وأدبائها ، وعقد العزم على المساهمة في هذه التظاهرة الثقافية ، فشرع في كتابة سلسلة من المقالات عن شاعر فرنسا الكبير فيكتور هيجو والأدبين العربى والفرنسى ، وصدرت تلك المقالات في مجلة «الهلال» بالقاهرة سنة ١٩٠٢ ثم طبعتها « دار الهلال » في كتاب سنة ١٩٠٤ تحت عنوان « تاريخ علم الأدب عند الافرنج والعرب وفيكتور هيجو » بتوقيع « المقدسى » بعدما كانت المقالات مجهولة المؤلف ، مخافة استبداد السلطة العثمانية على حد قول كاتب مقدمة الناشر للطبعة الثانية !

أثار الكتاب اعجاب القراء والأدباء ، فأعادت دار الهلال طباعته سنة ١٩١٢م للمرة الثانية ثم خفت ذكر الكتاب بعد ذلك ، حتى سنة ١٩٨٣م ، عندما قدم الدكتور حسام الخطيب دراسة للملتقى الدولى حول الأدب المقارن في الوطن العربى — عنابة من ١٤ الى ١٩ مايو ١٩٨٣ — بين فيها ريادة الخالدى للأدب المقارن في الوطن العربى بكتابه المذكور (٥٠) ، فأوصى المشاركون بضرورة الاهتمام بهذا الرائد وكتاباته (٥١) ، فصدرت عنه بعد ذلك عدة دراسات ، وأعاد الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين بدمشق طباعة كتابه للمرة الثالثة مع مقدمة وافية للدكتور حسام الخطيب عن الكاتب والكتاب في حوالى ثلاثين صفحة ، ثم طبع الكتاب للمرة الرابعة سنة ١٩٨٥ م ·

---

(٤٨) الخالدى (محمد روحى) تاريخ علم الأدب عند الافرنج والعرب وفيكتور هوكو ، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، دمشق ، ط ٤ ، ١٩٨٥ ، ص ٤٠ — ٤١ ·

(٤٩) الخالدى (محمد روحى) ، المرجع السابق ، ص ٤٠ ·

(٥٠) د· الخطيب (حسام) : الأدب العربى المقارن ، البداءات والتطورات الأولى : دراسة ضمن أعمال الملتقى الدولى حول الأدب المقارن عند العرب · ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٨٥ ، ص ٤٣ — ٥٨ ·

(٥١) توصيات الملتقى الدولى حول الأدب المقارن عند العرب ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، ص ٣٧٢ ·

وعندما صدر الكتاب لأول مرة واستقبل بحفاوة ، أصدر الخالدى فى مدينة بوردو منشورا بالفرنسية خاطب به الأدباء والقراء الفرنسيين عن مساهمته فى الاحتفال بذكرى شاعرهم من خــلال تأليفه الكتاب وما توخاه بذلك من أهداف ، قائلا أنه : «أراد بنشره هذا المؤلف سنتى ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣ م فى مجلة « الهلال » (...) المساهمة فى التظـاهرة الأدبية التى حدثت فى العالم المتحضر بمناسبة الذكرى المئوية للشاعر العظيم (...) كما أراد نشر الأفكار الحديثة ما بين اخوانه فى الدين وكل قراء لغة القرآن واعطاء الشعراء العرب الشبان فكرة دقيقة عن الأدب الفرنسى بصفة خاصة والآداب الأوروبية بصفة عامة .

وأخــيرا ، لقد أراد أن يعرف الكاتب المشرقيين من الجيل الجديد على مختلف الأجناس والموضوعات التى ينبغى على الشاعر المعاصر وطرقها .

لذا اضطر المؤلف الى تلخيص تاريخ الأدب العربى الحديث عن الفتح الاسلامى لأوروبا **لاثبات تأثير الأدب العربى فى الآداب الأوروبية للعصور الوسطى** ، ثم أبرز بعد ذلك الفرق بين المدرستين الكلاسيكية والرومانتيكية مترجما نصوصا مختارة لفيكتور هيجو مع مقارنتها بأشعار للمعرى أو المتنبى أو غيرهما من الشعراء العرب » (٥٢) .

بين الخالدى فى منشــوره مضــمون كتابه وأهدافه التى نستطيع اجمالها فى عنصرين أساسيين :

١ ـ تقديم رؤية جديدة للشعر والأدب من خلال شاعر فرنســا فيكتور هيجو .

٢ ـ تأثير الأدب العــربى فى الآداب الأوروبية الوسيطة ، وهــذه قضية علمية جــديدة على الأدب العربى ـ آنذاك ـ وأعتقــد أنه أول من درسها من العرب . لقد اطلع الخالدى على الآداب الأوروبية بصفة عامة ، والأدب الفرنسى بصفة خاصة ، وأعجب به كثيرا ، فدعا بنى قومه لدراسة آداب الأمم المتمدنة : « ولا يكمل علم الأدب للمتبحر فيه الا بعد أن ينظر فى أدب الأمم المتمدنة ولو نظرة عامة يطلع بها على مجمل تاريخ أدبهم وعلى بعض ما ترجم من مؤلفات المشاهير من كتبهم فيقف على ما عندهم من سعة الفكر وســمو الادراك وبلاغة المعانى ويعرف أساليبهم فى النظم والنثر وتصرفهم فى الكلام ويميز بين المتقدمين والمتأخرين منهم » (٥٣) .

---

(٥٢) الخالدى (محمد روحى) : تاريخ علم الأدب (النص من ترجمة الباحث) ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(٥٣) الخالدى (محمد روحى) : المرجع السابق ، ص ٦٠ .

اقتنع بالنموذج الفرنسى فى الأدب ومفهومه الذى يمثل فى أن : « أدب كل لسان ما حصل فيه الاجادة من الكلام المنظوم والمنثور . ويشمل على فنون الشعر والأغانى والروايات والقصص وضروب الأمثال والحكم والنوادر والحكايات والمقامات والتاريخ والسياسة والرحلة وغير ذلك » (٥٤) فالأدب اذن ، هو **الاجادة فى الكلام** شعرا أو نثرا ، وفى مختلف الأجناس الشعرية أو النثرية . ومعلوم أن هذا المفهوم الواسع للأدب كان شائعا بفرنسا فى القرن التاسع عشر ، فقد كان مصطلح « الآداب الجميلة **Lesbelles Lettres** يشمل كل ما ذكر الخالدى ، والشرط الوحيد للأدبية هو « **الاجادة فى الكلام** » ففيم تتمثل هذه الاجادة ؟

أوضح الخالدى مقياس أدبية الأدب قائلا : « والأصل فى الكلام للمعانى لا للألفاظ ، لأن اللفاظ قالب أو ظرف للمعنى يتخذه المتكلم أو الكاتب لسبك ما يصوره فى نفسه ويشكله فى قلبه من المعانى فينقل بذلك مقصوده للسامع أو القارىء حتى يعلمه كأنه يشاهده » (٥٥) .

ان اعتناق الخالدى لفكرة اعتماد المعنى مقياسا لأدبية الأدب ـ كما هو الشأن مع نجيب الحداد حسبما سلف ذكره سابقا ـ قد أعطى مفهوما جديدا لوظيفة الأدب ، الجر عنه أن الأدب بمعناه ، أى بمضمونه ، كما حددته الرومانتيكية التى : « أرجعت الشعر الى الحقيقة والطبيعة والحياة وتركت فيه التصنع وزخرفة الكلام وأجراس الألفاظ ولم تلتفت الى زعم أهل الطريقة المدرسية بأن زخرف القول من مقتضى الذوق السلبى للشاعر ، وأزالت جميع الحواجز التى تعرض أمام سجية الطبع وتصد الفكر عن نصور فيها الحقيقة وتوصيف الموجودات بحسب ما هو مغروس فيها سواء كان من صفات القبح أو صفات الجمال بلا تفريق بينها » (٥٦) .

لقد استقى الخالدى ، شأنه فى ذلك شأن الحداد ، مفهوم الشعر وطبيعته ووظيفته والمراحل التى مر بها من مقدمة مسرحية كرومويل (٥٧) لفيكتور هيجو : « ان الشعر له ثلاثة أدوار هى الغناء والحماسة والدرام . ولكل منها مناسبة بدور من أدوار الاجتماع الانسانى التى هى عمران العالم . فالقرون الابتدائية غنائية . والقرون القديمة حماسية . والقرون الجديدة درامية . والغناء يترنم فى الأزل والحماسة تحتفل بالتاريخ

---

(٥٤) الخالدى : المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(٥٥) الخالدى : المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(٥٦) الخالدى ، المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

(٥٧) Hugo 5 (Victor) : *cromwel*. (Préface) Garnier Flammarion Paris 1968, pp. 63-67.

والدرام يصور حياة الانسان ، وخاصة الأول السذاجة · وخاصة الثانى البساطة ، وخاصة الثالث الحقيقة » (٥٨) ·

مر الشعر اذن ، بثلاث مراحل ، طبيعته « الحقيقة النسبية » التى يشعر بها الانسان ، ووظيفته تصوير الحياة تصويرا حقيقيا قبحا أو جمالا · اقتبس الخالدى كل هذه المفاهيم الشعرية من فيكتور هيجو ، كما اقتبس منه الكثير من المصطلحات والأجناس الأدبية ، ليعرضها على قومه ضمن كتابه ، فشرح الطريقة المدرسية ـ التيار الكلاسيكى ـ والطريقة الرومانية ـ التيار الرومانتيكى ـ وقدم مفهوما جديدا للشعر ، ثم عرف القارىء العربى بأجناس أدبية جديدة مثل « الدرام » (المسرحيات) « والرومان » (الروايات) ، من خلال أعمال فيكتور هيجو ·

وتعرض الخالدى عند حديثه عن هيجو الى قضية تأثير الأدب العربى فى الآداب الأوروبية الوسيطة ، والأدب الفرنسى بوجه خاص ، متخذا الشاعر « هيجو » نموذجا لهذا التأثير الذى بدأ مع الفتوحات الاسلامية لجنوب فرنسا ، ثم تعزز فى القرن العاشر للميلاد عندما : « تغلب البابا سلفستر الثانى على التعصب الدينى وخرج من مدينة أورياق مسقط رأسه وقطع عقاب البيرينه ومياه الوادى الكبير وجاور فى اشبيلية ثلاث سنوات · وفتح لقومه باب العلم والمعارف فدخلوه طوعا أو كرها ، وارتحل الافرنج فى طلب العلم الى مدارس الأندلس وحضروا على مشايخها وعادوا لأوطانهم متنورين يلقون الدروس فى ساحات المدن الكبيرة وتجتمع حولهم الطلبة والعوامل على مألوف العادة الجارية ليومنا فى المدارس والجوامع الاسلامية (···) فتعلم الافرنج من العرب القوافى ورقة الغزل وآداب النظم والنثر وتلحين الأغانى والشعر ونقلوا عنهم القصص والحكايات والنوادر وضروب الأمثال والحكم المنقولة عن الفرس والهنود كما هو مفصل فى تواريخ الأدب الفرنسى والى ذلك أشار الموسيو رينه دوميك فى كتابه المتداول بأيدى طلبة العلم فى عموم المدارس الفرنساوية » (٥٩) ·

يشعر قارىء هيجو بمدى اعجابه بالشرق بصفة عامة ، فالكثير من قصائده موضوعها الأندلس ، رمز الشرق · والكثير من مسرحياته وقصصه جعلت الأندلس ميدانا لأحداثها · ومرد كل ذلك الى أن هيجو ولد وتربى فى مدينة بوزنسون الفرنسية التى خضعت للنفوذ العربى الاسلامى برهة ، فبقيت بها مسحة من روح الشرق ، ثم عاش مدة طويلة من طفولته فى اسبانيا مع أسرته التى تبعت والده الضابط فى الجيش ، فاحتك هناك

---

(٥٨) الخالدى : المرجع السابق ، ص ١٧٩ ·
(٥٩) الخالدى : المرجع السابق ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ·

بأحفاد العرب وسمع ألحانهم وشاهد مبانيهم ، فأعجب بهم ، وتجلى اعجابه فى آثاره الأدبية ٠

انتبه الخالدى الى عوامل تأثر الأدب الفرنسى بالأدب العربى تاريخيا ، كما انتبه الى المؤثرات الشرقية فى الشاعر فيكتور هيجو ، فأثار بذلك قضية التأثر والتأثير بين الآداب لتكون قضية نقدية جديدة قدمها الخالدى للقارىء العربى ، فأصبح رائد الأدب المقارن بدراسته هذه ٠

٣ ـ قسطاكى الحمصى :

حيـــاته وآثاره :

ولد قسطاكى بن يوسف بن بطرس بن يوسف بن ميخائيل الحمصى فى حلب سنة ١٨٥٨م ، وفيها تربى وعاش الى أن توفى سنة ١٩٤١م (٦٠)٠ ويذكر الزركلى أن الحمصى ذكر فى ترجمته المنشورة فى كتابه « أدباء حلب » بأن أســـرته فرنســـية الأصـــل ، جـــدها « بيير دى لاماس Pierre de la Masse » المكنى بمسعد،حضر الشام مع الصليبيين ثم استقر بحمص ٠ وذكر قسطاكى لهذه الرواية يعطيها قيمة نفسية ـ على الأقل ـ أهم من قيمتها التاريخية ، فهى دليل على تعلقه بفرنسا ولو نفسيا ٠

نشأ قسطاكى فى بيت من أعرق البيوتات الحلبية وجاهة وغنى ، وبدأ تعلمه فى أحـــد كتاتيب الروم الكاثوليك ، فتعـــلم فيـــه العربية والفرنسية والايطالية ، ثم انتقل الى مدرســة الرهبان الفرنسيسكان ، فاستزاد من تعلم اللغات الثلاثة ٠ وقام بعدة رحلات خارج الشام منها رحلته الى فرنسا لعدة أسباب تجارية وثقافية ٠

كان محبا للقراءة ، فطالع كتب الفصحاء بالعربية والفرنسية ، حتى عرف الناس فضله فترك التجارة سنة ١٩٠٥ م ، وانتخب عضوا فى مجلس ادارة حلب ، ومجلس المعارف ، والمجمع العلمى العربى بدمشق عام ١٩١٩م فاتصل بأدبائه ٠ وكتب الكثير من المقالات فى كبريات الصحف والمجلات، وألف مجموعة من الكتب منهـــا « السحر الحلال فى الشعر الدلال » ، و « أدباء حلب ذوو الأثر فى القرن التاسع عشر » الذى أرخ فيه للحركة

---

(٦٠) تراجع ترجمته فى :
ـ العقيقى (نجيب) : من الأدب المقـارن ، ج ٢ ، ص ١٧٨ ـ ١٧٩ ٠
ـ د٠ الحسينى (موسى اسحاق) : النقد الأدبى فى الربع الأول من القرن العشرين ، ص ٧٧ ٠
ـ الكيالى (سامى) : الأدب العربى المعـاصر فى سورية ، دار المعـارف بمصر ، ط ٢ ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ٠

الأدبية فى حلب و « ديوان شعر » و « مجموعة أغان » ، الا أن أشهر كتبه على الاطلاق هو كتابه : « منهل الوراد فى علم الانتقاد » ، وهو مجال اهتمامنا فى الصفحات التالية ·

الحمصي والنقد الفرنسي من خلال كتابه منهل الوراد :

نشر الحمصى الجزء الأول من كتابه « منهل الوراد فى علم الانتقاد » سنة ١٩٠٧ م بمصر فى مطبعة الأخبار ، ثم تبعه الجزء الثانى فى السنة نفسها · أما الثالث ، فلم يصدر الا بعد حوالى ثلاثين عاما من صدور الجزئين الأول والثانى ، ونشر فى حلب بمطبعة العصر الجديد · وقد شرح الحمصى فى مقدمة الجزء الأول أسباب تأليفه الكتاب قائلا : « وبعد ، فلا يجهل أحد من العلماء والكتاب والمتفننين الذين لهم فى الصناعات الجميلة فصل الخطاب ، ما للانتقاد من جزيل الفوائد اذا ما جاء من أهله وما ينجم عنه من المفاسد اذا جعله الغبى غرض جهله » (٦١) ·

حين لاحظ أهمية النقد ومكانته المرموقة ضمن الحركة العلمية والفنية عند الأمم المتطورة كما لاحظ حسناته اذا صدر عن أهله العارفين بأصوله وقوانينه ، وسيئاته اذا صدر عن غير أهله من الجهلة بأصوله وقوانينه ، فتكون نتائجه وخيمة ، أكب على دراسة هذا الفن فى كتب : « أئمته من الفرنسيين أصحاب الباع الطويل حتى صار ذلك هوى النفس لا تنزع الا اليه وشاغل الطرف لا يحب أن يقع الا عليه » (٦٢) ·

وبعد أن درس فن النقد فى كتب أئمته من الفرنسيس – على حد قوله – ولاحظ أهمية هذا النسق المعرفى ، عقد العزم على تأليف : « كتاب فى قواعد هذا الفن الجليل يبيح للطالبين استيعابها فى وقت قليل » (٦٣)·

وأراد بذلك تأليف كتاب تعليمى فى نظرية النقد ، بالمعنى العام للنقد ، يسهل على الراغبين فى هذا الفن استيعاب أسسه وقواعده فى وقت قليل ، أى أنه أراد وضع قواعد ثابتة يتبعها كل ناقد يباشر أى نوع من أنواع الممارسة النقدية ·

وبديهى أن هذه الفكرة مستحيلة التحقيق ، فموضوعات النقد/الفنون تختلف من حيث طبيعتها ومادتها ، وبالتالى لابد من اختلاف

---

(٦١) الحمصى (قسطاكى) : منهل الوراد فى علم الانتقاد ، ج ١ ، مطبعة الأخبار القاهرة ١٩٠٦ ، ص ١٠ ·

(٦٢) الحمصى (قسطاكى) : المرجع السابق ، ص ٤ ·

(٦٣) الحمصى (قسطاكى) : المرجع السابق ، ص ٥ ·

القواعد النقدية باختلاف الفنون . كما أن تطبيق قواعد ثابتة على فن واحد كالأدب مثلا ، سيؤدى حتما الى انفصام بين العملية الفنية الابداعية والعملية النقدية ، لعدم ثبات الأولى زمانيا ومكانيا ، لذا نستطيع القول ان فكرة الحمصى — على أهميتها — حملت فى طياتها أسباب فشلها . وقد أحس بذلك عندما طلب من أصحابه بباريس تزويده بكتب لأئمة هذا الفن من الفرنسيس ، فكانت خيبته عظيمة عندما وصلته أجوبة أصحابه : « تفيد أن ذلك شيء لم يؤلف فيه كتاب ولا شيد له أحد من علمائهم مغنى وأنهم يعتبرونه من الفنون الذوقية التى لا تخضع لقواعد علمية » (٦٤) . ومع ذلك لم ييأس ، بل شمر عن ساعده لوضع كتاب فى علم الانتقاد .

لم يكن كتاب الحمصى كتاب نقد أدبى ، كما أن وضع كتاب يجعل النقد علما أمر أثبت الزمن قلة جدواه ، الا أن كتاب « منهل الوراد فى علم الانتقاد » كان مع ذلك قفزة فى تأثر النقد العربى الحديث بالنقد الفرنسى . فقد خصص مؤلفه فى الجزء الأول فصلا لتاريخ النقد عند العرب ، وثلاثة فصول لتاريخ النقد عند سائر الأمم ، ركز فيها على النقد الفرنسى . أما بقية الفصول فهى خليط من القضايا النقدية وموضوعات مختلفة .

واستهل حديثه عن تاريخ النقد عند العرب بنفى معرفتهم له : « لم يكن النقد من العلوم المعروفة عند العرب فى عصر من العصور » (٦٥) ، اذ يعلن بعد استعراضه التجارب النقدية العربية منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث ، أنه لم يجد : « فى العرب من تكلم على هذا الفن ولا من أفراده فى كتاب انما جل وظيفة الناقد على ما رأينا من صنيع أكثرهم أن يسوىء على من ينتقد كلامه ما استطاع ويزيف كل حسنة له حتى تنقلب سيئة (....) أو أن يكون على عكس ذلك فيختال فى تخريج كل وهم يسقط عليه فى كلامه وتسديد كل هفوة تبدر منه كما فعله أكثر شراح الكتب العلمية » (٦٦) .

لقد نفى الحمصى اذن عن العرب معرفة النقد ، حسب تصوره للنقد فهم لا يعرفون له قواعد ثابتة ، ناسيا أن محاولاتهم تقنين النقد — على غرار ما وضعه ابن قتيبة وقدامة وابن طباطبا — باءت كلها بالفشل . فالنقد يتبع دوما الابداع المتغير ، وليس العكس . وينتقل بعد ذلك الى تاريخ النقد عند سائر الأمم : « وجل ما كتبته من تاريخ النقد عند سائر الأمم فى الفصلين الثانى والثالث وبعض الرابع استفدته من كتاب

---

(٦٤) الحمصى (قسطاكى) : المرجع السابق ، ص ٥ — ٦ .
(٦٥) الحمصى (قسطاكى) : المرجع السابق ، ص ١٠ .
(٦٦) الحمصى (قسطاكى) ، المرجع السابق ، ص ٤٦ .

موسوعات العلوم الكبيرة الفرنسوية فهى حجة بلا منازع وما سوى ذلك فهو بضاعة القريحة » (٦٧) ٠

فيقدم لمحة عن تاريخ النقد الأوروبى مع التركيز على النقد الفرنسى: « لما كان تاريخ النقد الفرنسوى كما سبق القول أقدم تاريخ متتابع للنقد فى بلاد المغرب كلها اقتصرت على ذكر أشهر علماء النقد الفرنسويين » (٦٨) ، الذين أعجب بهم ، وهكذا يتحدث عن فيكتور كوزان Victor Cousin (١٧٩٢ ـ ١٨٦٧) الذى نقد أسلافه نقدا دونه تدقيق علماء البحث فى أصل اللغات ، وكان نقده مخصصا لكتب القدماء ٠ ثم الناقد الكبير « سانت بوف » Saint-Beuve (١٨٠٤ ـ ١٨٦٩) الذى أمعن فى البحث ودقق فى شرح ما انتقده من الكتب وأصحابها ، وعلى يديه تحول فن النقد من فن مساعد للتاريخ الى آلة حقيقية للتحليل والتفتيش واكتشاف أسرار النفوس ٠

كما تحدث عن العالمين « رينان Renan » (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) و « تين Taine » (١٨٢٨ ـ ١٨٩٣) اللذين سدا الثلمة التى تركها سانت بو وخدما النقد خدمة لم يحلم بها عالم قبلهما (٦٩) ٠

يستعرض أشهر النقاد الفرنسيين ، مبينا خصائص كل واحد النقدية ، فيقدم بذلك للقارىء العربى نماذج لمناهج نقدية ، ونقادها ٠

ويبين خلال استعراضه لمراحل النقد الفرنسى ، وظائف الأدب ، بخاصة ضرورة تصويره للمجتمع : « اعلم أن القصائد القصصية المشهورة والنوادر المدهشة والحكايات والروايات لا تنحصر فوائدها فى فصاحة التعبير وبلاغة السبك فقط ، بل لها فوائد تاريخية فوق ذلك ، فان الياذة هوميروس للشاعر اليونانى ورواية هامليت للشاعر شيكسبير الانكليزى ومعلقة امرؤ القيس وحكايات كليلة ودمنة وما أشبه ذلك من النظم والنثر ، كلها تنطق بأفصح بيان عن زمن تأليفها وفى كل واحدة منها ايضاح وكشف عن أحوال تلك العصور وعوائد وأخلاق أهلها ومعتقداتهم وأزيائهم » (٧٠) ٠ قدم الحمصى بذلك للنقد العربى مقياسا نقديا جديدا يتمثل فى أن الأدب تعبير عن زمانه ومكانه ٠ ورغم اشارة الكثير من النقاد العرب القدامى الى علاقة الأدب بالزمان أو المكان ، فان فكرة تصوير الأدب للمجتمع ـ زمانيا ومكانيا ـ وصدوره عنه ، لم تتبلور مقياسا نقديا الا فى

---

(٦٧) الحمصى (قسطاكى) : المرجع السابق ، ص ٦ ـ ٧ ٠
(٦٨) الحمصى (قسطاكى) : المرجع السابق ، ص ٩٣ ٠
(٦٩) الحمصى (قسطاكى) : المرجع السابق ، ص ٨٩ ـ ٩٢ ٠
(٧٠) الحمصى (قسطاكى) : المرجع السابق ، ص ٧٦ـ٨٨ ٠

القرن التاسع عشر مع ازدهار التيار الرومانتيكي وفكرة النسبية في الذوق ، ثم تبلورت أكثر مع التيار الواقعي عندما أصبح الأدب تصويرا للمجتمع ، وبالتالي صار من مهام النقد : البحث في مدى تصوير الأدب للمجتمع أو عدم تصويره ، وبلغت هذه الفكرة حد التزمت عند الناقد الفرنسي « تين » ـ الذي أعجب به الحمصي ـ عندما جعل الأديب ، وبالتالي أدبه ، نتاجا لثلاثة عوامل : الزمان والمكان والجنس ، هي المجتمع اذا اجتمعت · ينتقل بعد ذلك الى تحديد موضوع النقد قائلا : « فالحقيقة سلاح النقد وكل جمال في الكون هو دون جمال الحقيقة وعماد النقد وأساسه هو الصدق ولا يكون مصيبا الا عندما يصيب كبد الحقيقة · وكلما بعد النقد عن الحقيقة كان فاسدا ومردودا · اذن موضوع الانتقاد قصد الحقيقة ، وبعبارة أخرى الانتقاد هو التفتيش عن الحقيقة » (٧١) ولكنه لا يفسر أية حقيقة يعني · هل يقصد الحقيقة الكلاسيكية المطلقة أو يقصد الحقيقة الرومانتيكية النسبية أو يقصد الحقيقة الواقعية ؟ ومهما كانت نوعية حقيقة الحمصي ، فان الوصول اليها يتطلب من الناقد الأخذ بمراحل العملية النقدية الثلاث : وهي : « الشرح والتبويب ، والحكم » (٧٢) ·

١ ـ **الشرح** : وهو تحديد الناقد علاقة الأثر المنقود بتاريخ العلوم الأدبية ، أي دراسة الأثر على ضوء العلوم الأدبية كاللغة والبلاغة والفلسفة والتاريخ ···· الخ ، ثم علاقته بغيره من الآثار الأدبية ، والمكان والزمان الذي ظهر فيهما لتحديد مدى الشهرة والذيوع ، أي تحديد المكانة ضمن التراث الأدبي · وأخيرا تحديد العلاقة بين الابداع ومبدعه ، أي مدى تعبير الأثر عن صاحبه (٧٣) ·

٢ ـ **التبويب** : والقصد من ذلك « تعيين بابة الكتابة المنقود أو مؤلفه وتحديد مرتبته بين أمثاله بالحجج العادلة والبراهين الساطعة (···) والذي عليه اليوم اجماع علماء النقد أن الموازنة هي الدليل الناطق ، والفاروق الصادق الذي يميز بين الفاضل والمفضول ، ويرتب بابات القرائح والعقول · وقد اقتدوا في ذلك بعلماء النبات وعلماء الحيوان » (٧٤) ·

ولا شك أنه يقصد بالموازنة ، المقارنة ، اقتداء بعلماء النبات والحيوان الذين أسسوا المنهج المقارن في الدراسة العلمية ، فالعموميات والخصوصيات لا تتضح الا بالمقارنة ضمن الجنس الواحد أو المجموعة الواحدة ·

---

(٧١) الحمصي (قسطاكي) : المرجع السابق ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ·
(٧٢) الحمصي (قسطاكي) : المرجع السابق ، ص ١٣٤ ·
(٧٣) الحمصي (قسطاكي) : المرجع السابق ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥ ·
(٧٤) الحمصي (قسطاكي) : المرجع السابق ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ ·

٣ ـ الحكم : والقصد بهذا المصطلح « الترجيح » و « التنزيل » : « أما الترجيح فهو التمييز بين فاضل ومفضول ، أو حسن وأحسن ، وهو الغالب ، اذ قل أن تجد بين البشر من انفرد بفن ، بحيث لا تستطيع أن توازنه مع سواه (٠٠٠٠) وأما التنزيل فهو ترتيب الشيء ، وتحديد درجته ، وتعيين طبقة المتفنن ، وهذا التنزيل قد لا يكون في الأكثر الا على وجه التقريب وصيغة التشبيه » (٧٥) ٠

واضح أن كلا من الترجيح أو التنزيل يعتمدان على الشرح والتبويب، اذ بذلك يستطيع الناقد أن يصدر حكمه على الأثر المنقود حسب القواعد التى وضعها الحمصى ٠

عندما نتمعن قليلا فى القواعد المقترحة نلاحظ أن الحمصى جمعها من النقد الفرنسى الذى كانت الصحافة الفرنسية مسرحا له فى نهاية القرن التاسع عشر : فالشرح تلخيص لتلك الرؤية العلمية فى النقد التى بدأت مع « سانت بوف » و « تين » لتبلغ ذروتها مع « برونتيير » Brunetiere (١٨٤٩ ـ ١٩٠٦) ٠ والتبويب تلخيص للرؤية التاريخية فى دراسة الأدب ، التى بدأت مع « أبيل فيلمان » Abel Villemain ١٧٩٠ ـ ١٨٧٠) و « جان جاك أمبير » J. J. Ampore (١٨٠٠ ـ ١٨٦٤) و « جوزيف بيديى » J. Bedier (١٨٦٤ ـ ١٩٣٨) لتتبلور مع « غوستاف لانسون » فى كتابه الشهير « تاريخ الأدب الفرنسى » ١٨٩٤ م ٠ أما الحكم فهو تلخيص لتلك المعركة النقدية الشهيرة بين التأثريين ـ بزعامة جول لومتر ـ الذين رفضوا الحكم على الأثر الأدبى ، والموضوعيين أو العلميين ـ بزعامة برونتيز ـ الذين نادوا بضرورة الحكم على الأثر الأدبى انطلاقا من مقاييس موضوعية ، فانتصر الحمصى للمجوعة الثانية وجعل الحكم خاتمة العملية النقدية ٠

وهكذا يتضح لنا أن الحمصى أدخل فى النقد العربى الحديث مفاهيم نقدية فرنسية ، وعرف القارىء العربى بالحركة النقدية الفرنسية وأعلامها ، فجاء كتابه زاخرا بأعلام النقد الفرنسى ، وبرؤى جديدة للنقد والأدب ، ومن ثم يمكننا القول أنه كان ـ هو الآخر ـ من رواد التوسط بين النقد العربى الحديث والنقد الفرنسى فى مطلع القرن العشرين ٠

ظهر كل من الشيخ نجيب الحداد ومحمد روحى الخالدى وقسطاكى الحمصى ، على التوالى ، فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين،وتعلموا اللغة الفرنسية فى مدارس الارساليات التبشيرية ٠ أعجبوا بالثقافة

---

(٧٥) الحمصى (قسطاكى) : المرجع السابق ، ص ١٩٦ ـ ١٩٧ ٠

الفرنسية والأدب الفرنسي ، فأرادوا نقل مثار اعجابهم الى القارىء العربى ، فترجموا نصوصا أدبية ، ثم تحدثوا عن الأدب الفرنسى ضمن كتاباتهم التى ظهرت فى عقد واحد (من سنة ١٨٩٧ الى ١٩٠٧) ، ضمن النشاط الأدبى لصحافة الشاميين بمصر ٠ فتحدثوا عن النقد الفرنسى وأعلامه ضمن حديثهم عن الأدب الفرنسى ، وقدموا مفاهيم نقدية جديدة نابعة من أدب يختلف عن الأدب العربى ، فبقيت تلك المفاهيم النقدية ظلالا نقدية ٠ الا أنها على غموضها مهدت الطريق أمام الجامعة المصرية التى حملت مشعل التجديد فى الدراسة الأدبية ، فقد قدمت منذ تأسيسها سنة ١٩٠٨ م دروسا فى اللغة العربية وأدبها على غرار ما يدرس فى الجامعات الأوروبية، فأحضرت المستشرقين من أجل ذلك ٠ « ولقد كان المستشرقون ذوى الفضل الأكبر فى تأثيل المنهج العلمى واصطناعه فى درس الأدب وغيره من دروس اللغة والحضارة التى نيطت بهم ، وحسبنا أن نذكر منهم جويدى ونللينو وسانتيانا وماسينيون وجاستون فييت وموللر ٠ ثم لا حاجة بنا الى المزيد ، فآثارهم العلمية تغنى عن البيان والتفصيل » (٧٦) ٠

كان دور المستشرقين فى تأثيل المنهج العلمى بالجامعة المصرية عظيما بتدريبهم الطلبة على أسس وقواعد المنهج فى الدراسة الأدبية ، وكتابات طلبتهم أمثال طه حسين فى الأيام ومقدمة ذكرى أبى العلاء ، وأحمد أمين فى حياتى ٠٠٠ خير دليل على ذلك ٠ ولكن كتابات أولئك الرواد ــ الحداد ، الخالدى ، الحمصى ــ كان لها دور فى تزويد أولئك بمعلومات جديدة عن النقد الفرنسى ، الأمر الذى حمسهم الى التهافت على تلبية طلب الجامعة للسفر الى فرنسا لمتابعة الدراسات العليـــا ، لاستخلاف المستشرقين ، فسافر كل من أحمد ضيف سنة ١٩١٢ م وطه حسين ١٩١٤ م ليجدا المنهج التاريخى فى الدراسة الأدبية موجة الوقت ، وليتتلمذ على غوستاف لانسون منظر المنهج التاريخى وأتباعه ، ثم تبعهما كل من زكى مبارك ومحمد مندور وسامى الدهان ومهدى البصير وغنيمى هلال وعلى جواد الطاهر ليتتلمذوا على يد لانسون ٠

ومن هنا ، يتسرب المنهج التاريخى أو اللانسونية الى النقــد العربى الحديث فى مصر أولا ، ثم بقية البلدان العربية ثانيا فمن هو لانسون ؟ وما هى اللانسونية ؟ ومن هم أبرز الطلبة العرب الذين تأثروا باللانسونية ؟ وكيف يتجلى تأثرهم ؟ انها جملة من الأسئلة ستكون الاجابة عنهـا فى الأبواب التالية ٠

---

(٧٦) د٠ مرزوق (حلمى) : تطور النقد والتفكير الأدبى الحديث فى الربع الأول من القرن العشرين ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٢٣٦ـ٢٣٧ ٠

الباب الأول

لانسون واللانسونية

الفصل الأول

لانسون

حياته وآثاره

١ ـ حيـــاته :

عرف المجتمع الفرنسي،في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، تطورا سريعا في مختلف المجالات • وتطورت نسبة الاستهلاك في سنوات قليلة لتتجاوز الأضعاف تبعا للتقدم والتطور الحادثين عنـد الفرد الفرنسي • وظهرت طبقات اجتماعية جديدة الى جانب البرجوازية الكبيرة التي قهرت النبلاء ورجال الكنيســة عقب الثورة الفرنســية ، وأهم هذه الطبقــات الجديدة : البرجوازية الصغيرة من المثقفين وأصحاب المهن الحرة ، ثم طبقة العمال التي صــار لها دور معتبر في تســيير المجتمع الفرنسي بوساطة نقاباتها • وقد أدى تعدد الطبقات الاجتماعية الى تعدد الاتجاهات السياسية، فاشـــتد الصراع بين الملكيين والجمهوريين من جهــة ، وبين الجمهوريين الاشتراكيين وغـير الاشتراكيين من جهــة أخرى ، ولازم ذلك الصراع السياسي شيوع نزعـة الانتقاد والمحاجة والمعارضة والتحليل في المجتمع الفرنسي حتى صارت سمة له •

عرف النقد الأدبي في ظل هذا الجو العام في فرنسا الحدة والتشدد في الآراء ، والتعصب لها ، فظهرت اتجاهات نقـدية متعارضة متناقضة أحيانا ، أهمها :

(أ) النقد العلمي أو الموضـــوعي ، ويمثله كل من « برونتيير » و « رينان » ويهدف الى اضفاء الطابع العلمي على النقد الأدبي ، باقتباسه قوانين وأسس من علوم ومعارف أخرى وتطبيقها في دراســة الظاهرة الأدبية ، وكان يمثل الجناح المحافظ سياسيا ودينيا في المجتمع •

(ب) النقد التأثري أو الذاتي أو الذوقي ، ويمثله كل من « جول لومتر » و « أناطول فرانس » وهو يرفض كلَ حكم على النص الأدبي ، لأن الأدب ابداع هدفه المتعة والامتاع ، والمتعة مسألة ذوقية تختلف من

شخص الى آخر ، ومن العبث تقنين ذلك . وكان يمثل المتفتحين سياسيا ودينيا (١) ، من جمهوريين واشتراكيين .

تربى في هذا الجو النقدى النشط غوستاف لانسون الذى ولد فى مدينة أورليان سنة ١٨٥٧ م ، من أسرة كاثوليكية تمتهن التجارة ، فقد كان والده صانع قفازات ، وكان جده من أمه صانع مرايا . فاذا عرفنا أن تدين أسرته كان فاترا (٢) ، يسهل علينا بالتالى تصور الجو الأسرى الذى ولد وتربى فيه .

فالدقة في العمل ديدن الأب ، والبعد عن التطرف فى المعتقد لحد الفتور جو أسرى ، والامكانات المادية متوفرة عند الأسرة .

دخل المدرسة الابتدائية سنة ١٨٦٥ م حتى سنة ١٨٦٩ م فى مسقط رأسه ، ثم التحق بوالديه فى باريس ، اللذين كانا قد ارتحلا اليها لأسباب عائلية ، وهناك التحق بثانوية شارل مانى الشهيرة ، وقطع بباريس بقية المراحل التعليمية المتوفرة آنذاك ، ليتخرج سنة ١٨٧٩ م الأول فى الآداب من مدرسة المعلمين العليا (٣) ، التى تعد من خيرة مؤسسات التعليم العالى بفرنسا حتى الآن .

التحق بعد التخرج من مدرسة المعلمين العليا ، بسلك التعليم ليقضى ست سنوات معلما باحدى المقاطعات الفرنسية ــ لأنه كان على الخريج الجديد أن يعمل فى عدة مقاطعات ــ فاكتسب شهرة كبيرة فى التعليم ، ولذلك وقع عليه الاختيار ليكون مربيا ومعلما فى اللغة الفرنسية لأبناء قيصر روسيا . ومكث هناك عدة أشهر فى القصر الملكى الروسى ، ليعود بعد ذلك الى باريس مباشرة ، ليعمل فى منصب أحرز عليه باحدى ثانوياتها (٤) .

كان انتقاله الى باريس خطوة مهمة فى حياته ، وفى سبيل تحقيق طموحه العلمى بوجه خاص ، اذ تمكن من معايشة تلك المرحلة التعليمية الجديدة المؤسسة سنة ١٨٨٢ م ، والتى سميت بالتعليم العالى أو الجامعى النظامى ، حيث تحولت جامعة باريس من جامعة عامة تشبه فى نظامها التربوى الجوامع الاسلامية الى جامعة نظامية لها مقرر ثابت وطلبة مجبرون على متابعة الدروس لاحراز شهادة بعد المرحلة الدراسية .

---

(١) Dupeux (Georges) : *La societe Française* (1789-1960), p. 165.

(٢) Pommier (Jean) : *Dialogues avec le passé*, p.p. 376-377.

(٣) Pommier (Jean) : Idem. p. 377.

(٤) Pommier (Jean) : Idem. p. 377.

وكانت نتيجة احتكاك « لانسون » بهذه المرحلة التعليمية ، مناقشة أطروحة نال بها لقب «دكتور» فى الآداب يوم ٢٨ ديسمبر ١٨٨٧ ، ثم نشر سنة ١٨٩٤م أشهر كتبه «تاريخ الأدب الفرنسى» لطلاب الثانويات والسنوات الأولى من التعليم العالى ، فأثار به فى الأوساط التعليمية والثقافية ضجة كبيرة بسبب طابعه المنهجى الجديد ، ورؤيته للأدب والنقد ، فأعجب به برونتيير ـ وكان متربعا وقتذاك على عرش مدرسة المعلمين العليا اداريا وعلميا ـ اعجابا كبيرا ، وأسند اليه مهمة الاستخلاف بمدرسة المعلمين عدة مرات فى السنة نفسها ، وبذلك وضع رجله الأولى فوق عتبة التعليم العالى .
أما الرجل الثانية فوضعها سنة ١٩٠٠ م عندما عين أستاذا محاضرا فى اللغة والأدب الفرنسيين بمدرسة المعلمين نفسها ، ثم كلف فى سنة ١٩٠٣م باعطاء دروس الفصاحة الفرنسية فى كلية الآداب بجامعة السوربون (٥) .
فتحقق بذلك طموحه ، ودخل التعليم العالى ليبدأ مرحلة أخرى من مراحل حياته . وكان قبل تعيينه فى كلية الآداب ، قد عين سنة ١٩٠١ عضوا فى مجلس ادارة جمعيـة التاريخ الأدبى لفرنسا خلفا للأستاذ المتوفى « بوتى دوجولفيل » Petit de Julleville (١٨٤١ ـ ١٩٠٠) نتيجة لصدى كتابه « تاريخ الأدب الفرنسى » وكتاباته الأخرى حول العديد من أعلام الأدب الفرنسى أولا ، وتعيينه سنة ١٩٠٠ م محاضرا فى مدرسة المعلمين العليا ثانيا . وبعد سـنة واحدة ـ أى فى سـنة ١٩٠٢ ـ أصبح أمين الجمعية بالنيابة ، وتكفل بتطوير العروض والتحليلات النقـدية بمجلة الجمعية ، فبدأ اسمه يتكرر أمام أنظار المهتمين بتاريخ أدب فرنسا كلما صدر عدد من المجلة .

وحـين توفى الأسـتاذان « جاسـتون بارى » Gaston Paris (١٨٩٨ ـ ١٩٠٣) و «لارومى Laroumet» (١٩٠٣) خلفهما «لأنسون» (٦) .
خلف الأول فى نيابة رئاسة جمعية التاريخ الأدبى ، أى صار المسئول الأول فيها ، لأن رئاستها شرفية ، وخلف الثانى فى كلية الآداب أستاذا مرسما فى كرسى الفصاحة الفرنسية ، وبذلك تربع على عرشين متكاملين : عرش جمعية التاريخ الأدبى لفرنسـا بمجلتهـا العتيـدة ، ولقاءاتها المثمرة ، ومناقشاتها المتعددة ، وتنوع الرؤى والأفكار التاريخية فيهـا . وعرش الفصاحة الفرنسية الذى سينطلق منه فى تغيير نهج الدراسـة الأدبية ، وتغيير وجه التعليم العالى فى فرنسـا بمساهماته فى وضـع البرامج ، وتنشيط اللجان العلمية والتربوية . واضاف سنة ١٩١٩ م مهمة أخرى الى مهامه التربوية والعلمية والثقافية ، تتمثل فى توليه ادارة مدرسـة

---

(٥) Pommier (Jean) : Idem. p. 377.

(٦) Compagnin (antoine) : *La troisieme republique des lettres*, pp. 60-6.

المعلمين العليا ، محتلا بذلك عرشا علميا ثالثا ، ينشر منه منهجه فى دراسة الأدب ، عن طريق خريجى المدرسة الذين تتلمذوا عليه أو قرأوا له على الأقل فى مختلف ثانويات فرنسا مدة طويلة ٠

وحين تأسس فى السوربون سنة ١٩٢٢ م كرسى جديد لتاريخ أدب القرن الثامن عشر الفرنسى باسم « ألفونس بيرا » Alphonse Peyrat كان من حظ « لانسون » ، فتخلى عن كرسى الفصاحة الفرنسية ليشغل الكرسى الجديد محققا بذلك أمنيته فى شغل كرسى لتاريخ الأدب الفرنسى (٧) ، حتى يكون انسجامه تاما مع اهتماماته العلمية ٠

أحيل على التقاعد سنة ١٩٢٧ م ، بعد ما يزيد عن ربع قرن من التدريس الجامعى والبحث والتأليف والنشر والمحاضرة فى مجال تاريخ الأدب والدراسة الأدبية ، لينزوى فى بيته دارسا ومنقبا كعادته ، مستقبلا تلاميذه وأشياعه حتى انطفأت الشعلة فى منتصف شهر ديسمبر من سنة ١٩٣٤ م ، ليستمر تلاميذه وتراثه وذكره فى مواصلة المسيرة ٠

كان طاقة من الانتباه ، يراقب نفسه مثلما يراقب غيره ، وأستاذا يتتبع أخطاء تلاميذه ، وباحثا يتتبع أخطاء الباحثين والدارسين (٨) ٠

فقضى حياته فى الحديث والكتابة وتوجيه أعمال الآخرين وتحسين أعماله بتواضع كبير ، رغم تشدده مع مريديه ومع نفسه قبلهم ، فكان يوحى لمريديه ولمعارفه بالثقة والأمان (٩) ٠ وكان فوق ذلك نموذجا للأستاذ الجامعى بحيائه وتواضعه وتشدده فى الدروس والبحث لحد الوسوسة (١٠) ٠ ثم بالدقة والتأنى والتريث والبعد عن التعصب ٠ وهذه هى صفات الباحث بالمعنى المتعارف عليه الآن ، وبما استطاع أن يقيم صرح التاريخ الأدبى أو المنهج التاريخى فى الدراسة الأدبية ٠

٢ ــ نشاطه وآثاره :

ارتبط اسم « لانسون » بالتعليم منذ تخرجه من مدرسة المعلمين العليا والتحاقه بالتعليم الثانوى حتى احالته على التقاعد أستاذا جامعيا شهيرا ٠ لقد لاحظ خلال سنوات التعليم الثانوى أن البرامج التعليمية تدرس الأدب وسيلة لدراسة قواعد البلاغة ، فيحفظ الطالب قواعد ومصطلحات لا يدرى

---

(٧) Pommier (Jean) : Op. cit., p. 378.

(٨) Moreaux (Pierre) : *Le victorieux 20eme siecle*, p. 113.

(٩) Pommier (Jean) : Op. cit., p. 378.

(١٠) Delfau (Gerard) et Roche (Anne) : *Histoire, Litterature*, p. 126.

ماذا يعمل بها . كما لاحظ أن طريقة تدريس الأدب الفرنسي عقيمة ، فالطالب لا يدرس النصوص لقيمتها الأدبية ، وانما لقيمتها اللغوية أو البلاغية أو الأخلاقية ، أو الدينية ، ومن ثم فالأدب لا يدرس لقيمته الأدبية، وانما يدرس وسيلة لخدمة علوم وفنون أخرى ، فيدرس الطالب الأدب سنوات ، وفي النهاية تكون حصيلته الأدبية كمن لم يدرس الأدب قط .

وبعد أن أدرك واقع الدرس الأدبي ، قرر مواصلة التعليم ، فأعد أطروحة عن « نيفيل دولاشوصي Neville de achaussé وملاهيه المأساوية » (١١) لتكون باكورة البحث والتأليف سنة ١٨٨٧ م ، تليها سير شيقة عن أشهر أعلام الأدب الفرنسي مثل « بوسوى Bossuet » سنة ١٨٩١ و « بوالو Boileau » سنة ١٨٩٢ (١٢) . ولكنه لم يستمر في هذا النهج من الكتابة لعامة القراء ، ففي سنة ١٨٩٤ م نشر كتابه الضخم : « تاريخ الأدب الفرنسي » موجها لطلبة الأقسام النهائية من التعليم الثانوي ، وطلبة الأقسام الأولى من التعليم العالي . يحس القارىء من مقدمة الكتاب بنغمة جديدة عندما يشير المؤلف الى أن : « دراسة الأدب لا تستطيع الاستغناء عن البحث ، حيث ان بعض المعلومات الدقيقة والموضوعية ضرورية لترسيخ وتوجيه أحكامنا .

ومن ناحية أخرى، فان المحاولات الى ربط أفكارنا وانطباعاتنا الخاصة، وابراز خط سير الأدب بصفة عامة مع نقاط التلاقي والتحول شرعية جدا عن طريق تطبيق الطرق العلمية » (١٣) .

ويبتدىء كتابه بالحديث عن ضرورة التعامل مع الأدب بطرق علمية، وضرورة المعلومات الدقيقة والموضوعية في ترسيخ الأحكام ، الا أنه لا يفسر ولا يشرح تلك الطرق العلمية التي دعا الى اتباعها ، ولا يحدد نوع المعلومات الدقيقة والموضوعية وطرق الوصول اليها .

أما هدفه من الدراسة الأدبية ، فكان غير ما تعود عليه الطلبة والباحثون ، وانما اقامة تاريخ أدبي بعد : « وصف الفرديات انطلاقا من حدس فردي » (١٤) . ثم تزداد الرؤية وضوحا عندما يعرف الأدب بأنه :

---

(١١) نيفيل دولاشوصي . كاتب فرنسي من مواليد ١٦٩١ م أو ١٦٩٢ ، توفي سنة ١٧٥٤م . كتب الكثير من المسرحيات أشهرها ملاهيه المأساوية التي حث فيها على الفضيلة بوساطة اثارة الانفعالات لدى جمهوره البرجوازي .
(Tieghem : *dictionnaire des litteratures.* T 2, p. 2856).

(١٢) Compagnon (Antoire) : Op. cit., p. 60.

(١٣) Lanson (Gustave) : *Histoire de la littérature française,*

(١٤) Lanson (Gustave) : Idem, p. VII.

« تدريب وتذوق ومتعة . اننا لا نعرف الأدب ، ولا نتعلمه : بل نمارسه ، نحفظه ، نحبه » (١٥) .

الأدب عنده متعة ومحبة وتذوق ، ودراسة الأدب هى التعامل بطرق علمية دقيقة مع المتعة والتذوق بغية اقامة تاريخ أدبى ، ومن ثم يعتمد المعرفة والاحساس ، دون توضيح أو تعمق ، أساسا لكتابه . وأصدر كتابه « رجال وكتب » سنة ١٨٩٥ ذكر فى مقدمته ضرورة اتباع طريقة علمية دون توضيحها . ثم أردفه بكتاب عن « كورناى » سنة ١٨٩٦ م ، وآخر عن « فولتير » فى السنة نفسها حاول فيهما تقديم صورة دقيقة وموضوعية عن الرجلين وآثارهما ، باعتماده على المصادر والمراجع أولا ، وعلى النزعة التأريخية فى تدقيق الأخبار والمعلومات ثانيا ، وتحليل آثارهما ووضعهما موضعها بالنسبة لما سبقها من تراث ، والشهرة التى أحرزت عليها . بدأت اشارات « لانسون » تتتالى عن المنهج ومنهجية الدرس الأدبى ، منذ التحاقه بالجامعة وتوليه سنة ١٩٠٤ م كرسى الفصاحة الفرنسية ، فراح يشرح لطلابه أهمية المنهج التاريخى وضرورة اعتماده فى الدراسة ، وألقى عدة محاضرات حول الموضوع فى الجامعة الفرنسية وفى بلجيكا : ثم نشر ما بين ١٩٠٤ م و١٩١٠ م مقالات عن المنهج التاريخى : أصوله ومكوناته وخطواته العملية وصعوباته وفوائده . وكانت نتيجة تلك المحاضرات والمقالات : مقالته الشهيرة عن « المنهج التاريخى فى الدراسة الأدبية » . التى سيرد تفصيلها فى الفصل التالى .

طبق لانسون منهجه فى جملة من الكتب أصدرها تباعا ، من أهمها : فن النثر ١٩٠٨ م ، والدليل البيليوغرافى للأدب الفرنسى الحديث فى عدة أجزاء ١٩٠٩ ـ ١٩١٤ ، ليصبح مرجع كل مؤرخ للأدب الفرنسى ، ثم حقق الرسائل الفلسفية لديكارت (١٩٠٩ م) ، والتأملات (١٩١٩ م) ، وخصائص الفكر الفرنسى (١٩٢٠م) ، والوجيز فى تاريخ المأساة الفرنسية (١٩٢٠ م) ، ومقالات مونتانى (١٩٣٠ م) ، وفوفناق (١٩٣٠) ، ودراسات فى تاريخ الأدب (١٩٣٠ م) . تضاف الى الأعمال السالفة الذكر العشرات من المقالات والدراسات المنشورة فى أشهر المجلات الأدبية وقتذاك ، مثل مجلة التاريخ الأدبى لفرنسا ومجلة العالمين وغيرهما .

خلاصة القول ان جل مقالاته ودراساته ومؤلفاته تدور حول دراسة الأدب الفرنسى والتأريخ له ، وتحقيق نصوصه ، اعتمادا على الجمع بين المعرفة والاحساس . وهما أساس المنهج التاريخى الذى سيكون دستور اللانسونية كما سنرى فى الفصل التالى .

---

(١٥) Lanson (Gustave) : Idem, p. VIII.

٣ ـ نشاطه السياسي ودوره في شهرته :

بدأ « لانسون » حياته المهنية أستاذا للتعليم الثانوى فى جو مضطرب اقتصاديا واجتماعيا · فقد كان المجتمع الفرنسى يعيش مرحلة من مراحل التطور الرأسمالى ، وبدأت الحركة العالمية تنمو اجتماعيا وسياسيا بنمو رأس المال الفرنسى ·

كما بدأ نمط الحياة اليومية يتغير تبعا لذلك ، فظهرت اصلاحات عديدة فى النظام التربوى ، أهمها تأسيس التعليم العالى النظامى ـ التعليم الجامعى ـ سنة ١٨٨٤ م · وكان لذلك التغير الاجتماعى أثر واضح فى الحياة الفكرية والأدبية ، فأصبح الصراع على أشده بين تيارات أدبية غزت الأدب الفرنسى كالرومانتيكية والواقعية والرمزية ، كما قام الصراع بين عدة اتجاهات نقدية أهمها :

ـ النقد العلمى أو الموضوعى بزعامة فرنان برونتيير ، الذى كان يرى أن الأجناس الأدبية تطورت مثل تطور الأجناس البشرية ، وعليه ينبغى تطبيق المنهج العلمى ـ النشوء والارتقاء ـ الوراثى فى دراستها · وضمن هذا الاتجاه كان « اميل هانكان » Emile Haneguin (١٨٥٨ ـ ١٨٨٨ م) يدعو الى نقد « علمى » بالمعنى الدقيق للعلم ، يقوم على تطبيق المنهج العلمى التجريبى فى الدرس الأدبى ·

ـ النقد التأثرى أو الانطباعى بزعامة « جول لومتر » (١٨٥٣ ـ ١٩١٤) الذى كان يرى : « ان الأدب ذوق واحساس ، والنقد تذوق الذوق أو الاحساس بالاحساس ، بعيدا عن أى حكم أو أحكام مسبقة · فالاحساس فردى ، ولا لزوم لأن يفرض انسان ذوقه أو احساسه على الآخرين فهو فردى ذاتى لا يمثل أية حقيقة موضوعية · يضاف الى هذا الجو العام حدث شغل فرنسا سنوات كان سببا فى رفع البعض درجات ، وخفض البعض الآخر درجات وشطر مثقفى فرنسا صفين متصارعين ، كل واحد منهما يدافع عنها ، ويحاول اثبات صواب رأيه بالحجة المنطقية والبرهان المادى · ويتمثل هذا الحدث فى قضية « دريفوس » (١٦) الشهيرة التى شغلت

---

(١٦) دريفوس ألفريد Dreyfus Alfred (١٨٥٩ ـ ١٩٥٣) . ضابط فرنسى من أصل اسرائيلى ، اتهم بالجوسسة لصالح ألمانيا بناء على وثائق تتضمن معلومات عسكرية كتبت بخط يماثل خطه ، حكم عليه بالنفى مدى الحياة ، رغم انكاره للتهمة · وبعد فترة ضبطت وثائق أخرى بالخط نفسه ، الأمر الذى عزز دفاع دريفوس وأسرته ، فأعيد النظر فى القضية ثانية · وأمام تعصب الجيش والمحكمة ، ثارت جماعة من المثقفين ، وناصرت دريفوس تحت لواء جمعية الدفاع عن حقوق الانسان ، فانشطر بذلك المجتمع الفرنسى الى معادين ومناصرين لدريفوس · قام بمناصرته الجمهوريون والاشتراكيون =

الرأى العام الفرنسى زمنا ، وأسالت الكثير من حبر المثقفين ، فكتبت عنها الصحافة واقيمت حولها الندوات ، وكانت مدار الأحاديث العامة والخاصة قرابة عشر سنوات ٠

قسمت قضية « دريفوس » المجتمع الفرنسى الى :

١ ـ أنصار له من اشتراكيين وجمهوريين وأعداء للعسكريين ، ومثقفين من صحافيين ومؤرخين وعلماء اجتماع وأدباء مبدعين ، تجمعوا تحت لواء « رابطة حقوق الانسان » ٠

٢ ـ أعداء له من يمينيين ورجال دين وعسكريين وأعداء للسامية ومجموعة كبيرة من أساتذة الأدب واللغة الفرنسية تجمعوا تحت لواء « رابطة الوطن الفرنسى » ٠

كان الصراع بين الفريقين شديدا ، عمل فيه الأول على اثبات براءة المتهم حتى تثبت ادانته ، خاصة وأن القضية لا تتوفر على أى دليل مادى قاطع ، زيادة عن الغموض الذى لف القضية ومراحلها ٠

وعمل الثانى على اثبات تهمة المتهم ، انطلاقا من أن التعامل مع العدو ـ ألمانيا ـ لا يصدر من فرنسى قح ، وانما من فرنسى دخيل مثل «دريفوس» الاسرائيلى الأصل ، الذى لا تهمه مصلحة فرنسا قدر ما تهمه مصلحته الخاصة ٠ وخط الوثيقة دليل كاف على خيانته البلد الذى آواه ومنحه الاستقرار والجنسية ، وبالتالى فهو يستحق أقسى عقوبة ممكنة حتى يكون عبرة لمن يعتبر ٠

كان « لانسون » من أساتذة الأدب واللغة الفرنسية القليلين جدا فى مؤازرة أنصار « دريفوس » ، وقع على عرائض التنديد والاستنكار ، وناقش فى الندوات ، وشارك فى المظاهرات ، وكتب المقالات ، وتتبع كل ما دار حول القضية ٠ كانت : « قضية دريفوس المحرك الأول لشهرة لانسون ٠ وحسب زعم أحد تلاميذه المخلصين فرنان بالدنسبيرجير (٠٠٠) فان قضية دريفوس أعطته طعم الحقيقة والشغف بالمصادر والهوس بالوثائق » (١٧) ٠

= والأدباء وعلماء الاجتماع والتاريخ ، ولم يناصره من أساتذة الأدب الا فئة قليلة ، منهم « لانسون » الذى اعتنى بقراءة الوثائق وتمحيصها ودراسة القضية دراسة وثائقية نابعة من اهتماماته ٠

شغلت هذه القضية فرنسا حوالى اثنتى عشرة سنة (١٨٩٤ ـ ١٩٠٦) ، وكانت سببا فى سقوط الحكومة سنة ١٩٠٢ ، وتولى الاشتراكيون مقاليد الحكم ، فانفتحت بذلك أبواب السلطة أمام أنصار دريفوس ٠

Dictionnaire Encyclopedique r'histoire T3 Bordas, Paris 1987, pp. 1454-1458.

(١٧) Compagnon (Antoine) : Opcit., pp. 61-62.

عندما بدأت كفة أنصار دريفوس تميل الى الرجحان ، تغيرت الحكومة سنة ١٩٠٢ م لتنتقل الى أيدى الاشتراكيين ، فحظى فى ظلها الدريفوسيون بنفوذ قوى فى الجامعة والحياة الثقافية بصفة عامة • فكان أنشط أستاذ أدب فى الحركة ، ومن ثم لا يستبعد أن يكون انتصارها السبب المباشر فى دخوله الجامعة وارتقائه السريع الرتب الوظيفية ، وتربعه على عرش الدرس الأدبى فى الجامعة والأوساط الثقافية ثلث قرن •

كانت قضية دريفوس المناسبة الملائمة لاتصال « لانسون » بالجمهوريين الاشتراكيين ، فأعجب بفكرهم ومبادئهم الانسانية ، وانضم سنة ١٩٠٤ م الى أسرة تحرير جريدة « الانسانية » الناطقة باسم الاشتراكيين الفرنسيين • وضمن هذه الحركة اقتنع بأن الأدب « مؤسسة اجتماعية » ، فربط الأدب بعلم الاجتماع ، مثلما ربطه بالتاريخ ، أى صار ينظر الى الأدب نظرتين متزامنتين متقاطعتين : النظرة العمودية (التاريخية أو الزمانية) ، والنظرية الأفقية (الاجتماعية أو المكانية) •

لم يكن لانسون سياسيا عتيدا أو محترفا ، كما أنه لم يكن من هواة المناصب الادارية أو السياسية ، فقد كان يحب البحث حبا جما لدرجة الهوس على حد تعبير تلاميذه الا أنه خاض أشهر معركة سياسية قانونية عرفها زمانه ، فصار بذلك من رجال التيار الاشتراكى الذى تبنى القضية ، وتولى مقاليد الحكم بفرنسا ــ بعد انتصار القضية ــ فى مطلع القرن العشرين ، فاستفاد لانسون من ذلك استفادة تامة ، ومن ثم نستطيع القول ان نشاطه السياسى ــ الى جانب قدراته العلمية بطبيعة الحال ــ كان من الأسباب الرئيسية فى شهرته التى أذاعت منهجه •

٤ ــ شهرته :

بدأ « لانسون » حياته المهنية أستاذا فى التعليم الثانوى ، وتنقل بين حوالى عشر ثانويات مدرسا للغة والأدب الفرنسيين • فاذا تصورنا أنه لم يدرس فى كل ثانوية سوى قسمان يضمان ما يقارب الأربعين طالبا ، لكان عدد طلبته حوالى أربعمائة ، سيصبح البعض منهم أساتذة أو صحافيين أو مسئولين كبارا فى أجهزة الدولة • أما البعض الآخر ، فسيتوزع على مختلف مجالات الحياة • ولما انتقل الى التعليم العالى درس الفصاحة الفرنسية وتاريخ القرن الثامن عشر الفرنسى الأدبى كما درس الأدب الفرنسى فى مدرسة المعلمين العليا وأدارها من ١٩١٩ حتى ١٩٢٧ م • وهذا يعنى أن أى طالب درس فى السوربون أو فى مدرسة المعلمين العليا خلال الفترتين السالفتى الذكر ، لابد أن يكون قد تتلمذ على يد لانسون نفسه فى مرحلة الدراسة الجامعية ، ويكون قد اعتمد على كتابه « تاريخ الأدب

الفرنسي » الذي كان مرجع كل طالب في الأدب الفرنسي طيلة الثلث الأول من القرن العشرين ·

كما أشرف على العشرات ــ وربما المئات ــ من الرسائل الجامعية التي تقدم بها خيرة الطلبة ، والذين سيصبحون أعلام الجامعة الفرنسية كما سنرى لاحقا ·

أعجب أغلب طلبته بأفكاره وطريقته في العمل ، فقرأوا كتبه ومقالاته ، واعتمدوها مراجع أساسية في دراساتهم ، وصار منهجه المنهج لديهم ·

أما القلة من طلبته الذين خالفوه الرأى ، لاختلاف في الرؤية السياسية أو الأدبية ، فان مخالفتهم ، ومهاجمتهم له كانت دعاية له ، مثل كتابات « شارل بيجي » Charles Peguy (١٨٧٣ ــ ١٩١٤) ومقالاته العنيفة التي سخر فيها من هوس « لانسون » بالقصاصات ·

ومن أبرز تلاميذه الذين تبنوا منهجه وطبقوه ودعوا له :

١ ــ جوستاف رودلير Rudler Gustave (١٨٧٢ م ١٩٥٧ م) : من أشهر أشياع لانسون وأنشطهم · كان دوما في مقدمة الحركة يذود عن منهج أستاذه لحد المبالغة (١٨) · شغل عدة مناصب تعليمية · فمن أستاذ بثانوية لوى لوغراند بباريس الى أستاذ في جامعة بوردو ، الى السوربون ، ثم المدرسة العليا للأساتذة · كما عمل محررا للركن الببليوغرافي في المجلة الجامعية ومديرا للنشرة الانتقادية للكتب الجديدة ،فأحرز على شهرة كبيرة في الوسط الجامعي أولا والوسط الثقافي ثانيا ، لينتقل الى بريطانيا سنة ١٩١٣ أستاذا للغة الفرنسية وأدبها في ثانوية بيدفورد الشهيرة بلندن ، ثم في جامعة أكسفورد العتيدة · ومكث هناك ينشر اللانسونية ويدعو لها حتى وفاته سنة ١٩٥٧ م ·

ألف عدة كتب أشهرها كتابه : « فنيات النقد والتاريخ الأدبي الفرنسي الحديث » سنة ١٩٢٣ م فجاء تجسيدا عمليا لمنهج أستاذه ، وصار عمدة الطالب الجامعي في منهجية النقد والبحث الأدبي طيلة الربع الثاني من القرن العشرين · يعد « رودلير » من غلاة اللانسونية ، دعا لها في كتاباته ودروسه بفرنسا ثم بريطانيا ، فلقنها لمجموعات كبيرة من الطلبة الفرنسيين وغير الفرنسيين ، وربما العرب أيضا ·

---

(١٨) Compagnon (Antoire) : Idem P. 157.

٢ ـ **دانيال مورني** Mornet Daniel (١٨٧٨ ـ ١٩٥٤ م) : زميل رودلير ورفيقــه في التشـيع للانسـون ، الا أنه كان أقـل غلوا ، وأكثر تعقلا : « كان حتى وفاته يسمى أستاذه « السيد لانسون » ، وكان يرى اللانسونية البديل لأى معتقد ، من أوفى الأفياء ، أصبح كاتب تحرير مجلة التاريخ الأدبي ومسيرهامنذ ١٩٢٢ م حتى وفاته ٠ خلف ، سنة ١٩٢٨ م ، أستاذه في كرسي تاريخ أدب القرن الثامن عشر » (١٩) ٠ كرس مورني حيـــاته لتطبيق اللانســـونية في دراســاته الأدبية ، ونشرها بين طلبته وقرائه ٠

كان من أوفى الأنصار،لدرجة أنه سعى حتى صار يسكن قرب أستاذه في عمارة واحدة ، فكان الاتصال بينهما مستمرا في العمل وخارجه ٠ ولذلك نستطيع القول أن مورني خير من يمثل اللانسونية بعد زعيمها ، فقد تمثلها جيدا ، وطبقها في أبحاثه ومؤلفاته ، ودعا لها بعيدا عن أى تعصب، تطبيقا لأحد أسسها : « على الباحث ألا يتعصب لرأيه » : ٠

٣ ـ **فرنان بالدنسبيرجير** Fernand Baldensperger (١٨٧١ـ١٩٥٨م): من المعجبين بمنهج لانسون ، وخصوصا بفكرة « الروح العلمية في التعامل مع النصوص تاريخيا » وانتقال الأفكار والموضوعات بين الآداب ، التي شغلت ذهنه كثيرا حتى صار من كبار أساتذة الأدب المقارن ، وأحد أعلام المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن ومنظريها (٢٠) ٠

عمل أكثر من نصف قــرن يتتبع الموضــوعات وأصــولها وتأثيراتها ضمن مجال الدراسات المقارنة ، انطلاقا من ضرورة البحث عن مصادر وأصول أى أثر أدبي ، ثم تأثيراته وشهرته في قومه وفي الخارج ، فكان بذلك من مطبقي النسونية ٠ ومن ثم ، نستطيع القول ان المنحى التاريخي للمدرسة الفرنسية في الأدب المقــارن يعــود الى ترعرعها في أحضــان اللانسونية ، بتتلمذ أشهر المقارنين الفرنسيين على لانسون نفسه ، فكان بذلك رجل المقارنين الفرنسيين الذين ظهروا في النصف الأول من القرن العشرين من أتباع اللانسونية ومطبقيها في دراساتهم ٠

٤ ـ **هازار (بـول)** Hazard Paul (١٨٧٨ ـ ١٩٤٤) : من تلاميذ لانسون اللامعين ٠ عمل أستاذا بالكوليج دوفرانس College de France وتوزعت جهوده ما بين مجالين أساسيين :

---

(١٩) Compagnon (Antoine) : Idem P. 160.

(٢٠) Tieghem (Philippe Van) : *Dictionnaire des littératures*, T. 1 p. 307.

(أ) الأدب المقارن حيث درس التطور الفكرى لأوروبا فى كتابين عظيمين ، الأول بعنوان « أزمة الضمير الأوروبى » والثانى « الفكر الأوروبى من منتسكيو الى ليسنغ » · وشارك مع صديقه بالدنسبيرجير فى تأسيس « مجلة الأدب المقارن » الفرنسية سنة ١٩٢١ م التى لا زالت تصدر حتى يومنا هذا بباريس ، وتعد من أهم مؤسسات الأدب المقارن فى العالم ، بما قدمت من دراسات وأبحاث خلال فترة زمانية طويلة ·

(ب) التاريخ الأدبى : درس الى جانب الأدب المقارن ، تاريخ أدب فرنسا · وكانت ثمرة عمله ذاك كتابه الشهير « تاريخ الأدب الفرنسى » (١٩٢٢ ــ ١٩٢٤) بالاشتراك مع جوزيف بيديى Joseph Bedier (١٨٦٤ ــ ١٩٣٨) أحد أعلام المنهج التاريخى · وأعيدت طباعة الكتاب فى ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ (٢١) ·

كان هازار مؤرخ أدب ، فى أزهى فترة لتاريخ الأدب · دفعته دراساته « العلمية » الى تتبع موضوعات وأفكار تسربت الى الأدب الفرنسى عبر عصوره المختلفة ، فجمع بذلك بين الأدب المقارن والتأريخ الأدبى ، انطلاقا من المنهج التاريخى محور الأدب المقارن وتاريخ الأدب ، فكان للانسون فضل عليه فى المنهج ، وكان له دور فى ذيوع ذلك المنهج وانتشاره ·

هذه نماذج من تلاميذ لانسون وأتباعه الذين يعدون بالعشرات ــ حتى لا نقول بالمئات ــ اقتنعوا بمنهجه وطبقوه فى دراساتهم ، وعملوا على نشره من خلال دروسهم وكتاباتهم ·

لم يكن تأثير لانسون حكرا على الفرنسيين ، فقد أثر فى الطلبة الأجانب الذين تتلمذوا عليه مباشرة ، أو على تلاميذه المتحمسين له أمثال « رودلير » و « مورنى » و «بالدنسبرجير » وغيرهم · ومن الطلبة العرب الذين تتلمذوا عليه مباشرة : أحمد ضيف ، وطه حسين · أما الذين تتلمذوا على تلاميذه فمنهم : زكى مبارك ، ومحمد مندور ، وسامى الدهان ، وسهير القلماوى ، ومحمد غنيمى هلال ، وجودت الركابى ، وعلى جواد الطاهر وغيرهم · وتتلمذ على تلاميذه أو على تلاميذ تلاميذه مجموعة كبيرة جدا مثل شكرى فيصل وناصر الدين الأسد ومحمد يوسف نجم ، وعبد المحسن طه بدر · وتلا هذه المجموعة جيل كبير من الدارسين العرب المعاصرين فى كل البلدان العربية · وفى فصول لاحقة سنبحث عن مظاهر اللانسونية وتطبيقاتها عند أبرز هؤلاء النقاد العرب من الذين تتلمذوا على لانسون نفسه أو على تلاميذه المباشرين ، تاركين البقية من النقاد لأبحاث ودراسات أخرى، فالموضوع شاسع لا يسعه بحث واحد حجما وجهدا ·

---

(٢١) Tieghem (Phillippe Van) : Opcit., T. 2, p. 1745

الفصل الثانى

اللانسونية

نشأتها وأسسها وخطواتها وتعريفها

اللانســونية ، مصطلح أطلقه جماعة من الأدباء والنقاد الفرنسيين أمثال شارل بيفى وأغاطون Agathor (١) وغيرهما سخرية واحتقارا للمنهج التاريخى فى دراسة الأدب والتــأريخ له ، كما حدده لانســون ، لارتباط ظهور المنهج وانتشاره ـ وقتذاك ـ بجملة من الاصلاحات والتغييرات فى المدرسة العليا للأساتذة والسوربون الجـديدة اعتمدت على الاقتداء بالدراسات الجرمانية فى تجديد المقررات والمنــاهج الدراسية ، والغــاء المقررات والمناهج القديمة (٢) · فرأى هؤلاء المعارضون فى هذه الاصلاحات خطرا داهما يهدد العبقرية الوطنية والذوق الفرنسى ، وهاجموا كل من توسموا عنده قابلية للتأثر والاقتداء بالمناهج الجرمانية · وكان لانسون وأتباعه من أبرز المتحمسين للاقتداء بالمناهج العلمية مهما كان مصدرها ، لايمانهم بأن العلم انســانى ، يتعــدى الحدود القومية ، ويمقت التعصب أيا كان سببه ·

---

(١) أغاطون Agathor . لقب استعاره كل من هنرى ماسيس Massis H. (ألفريد دوتارد Detarde Alfred خلال حملتهما ضد « عقلية السوربون الجديدة » التى كان « لانسون وتلاميذه من أبرز اعلامها ومنشطيها · واللقب فى الأصل اسـم شاعر يونانى هو : أغاطون شابر تراجيدس ابن تيسامينوس الاثينى ولد فى حدود ٤٥٠ ق·م· ، تأثر بفلسفة السفسطائيين . وكان متهما بعدائه للديمقراطية · وكان مجددا فى فن التراجيديا متحررا من تقاليد المسرح ولم يكن خاليا من الموهبة (د· لويس عوض : نصوص النقد الأدبى ، اليونان ، الجزء الأول دار المعــارف ، ١٩٦٥ ، ص ١٩٣) ·

وحمل اللقب نفسه القديس أغاطون الذى عاش فى بالرمو خلال القرن السابع الميلادى ، وحارب « بدعة التوحيد » · (Larousse Universel) ويتضح أن هذا اللقب يدل على التحرر فى الفن والابداع من جهة ومعاداة التحــرر الدينى وما ينجم عنه من جهة أخرى ·

(٢) Pommier (Jean) : Opᵒ cit., p. 389.

حظي مصطلح « اللانسونية » بذيوع وانتشار في الأوساط الجامعية والثقافية الفرنسية ـ باعتبارها وجها من وجوه قضية دريفوس ـ فقد تداوله أعداء لانسون سخرية واحتقارا ، وأعجب به أنصاره ، فتداولوه مصطلحا يدل على المنهج التاريخي في دراسة الأدب والتأريخ له ، كما حدده لانسون ، فكيف كانت نشأة هذا المنهج ؟

١ ـ النشـــأة والتطـور :

لم يظهر المنهج التاريخي (اللانسونية) فجأة ، ولم يكن اختراعا أو بدعة ابتدعها لانسون ، وانما ظهر نتيجة لجهود أجيال وأجيال في الدراسة والبحث منذ أقدم العصور ، يصعب تحديد بدايتها الأولى ، والمرجح أنها بدأت مع ظهور أول نص أدبي : « قال فكاهي : ان أول ناقد وأول مكتبي ظهرا في اللحظة نفسها • فعندما انتهى أول مؤلف من تأليف كتابه انتقده الأول مجرحا ، وخزنه الثاني بعيدا عن القراء •

وتدل هذه الطرفة ـ على الأقل ـ على أن النقد الأدبي والببليوغرافية فنيات قديمة قدم الأدب المكتوب نفسه • وللعدل ، ولابد من اضافة أستاذ الأدب الى المجموعة ، حتى يتكفل هو الآخر بتشريح الكتاب ليقزز تلاميذه من الكتاب » على حد تعبيره الفكاهي » (٣) •

ولكي يجرح ناقد ما مؤلفا معينا ، يتحتم عليه الاستعانة بمعايير وقيم جمالية يستند اليها لابداء آرائه واصدار أحكامه النقدية • وللوصول الى استنباط المعايير والقيم الجمالية ، لابد من توفر تراث أدبي كبير يعبر عن مجتمع بلغ مستوى حضاريا معينا ، وهـذا ما فعله كل من أفلاطون ، ثم أرسطو اللذين حددا المفـاهيم الأساسية للمثـال والجمال والنظـام الشعري ، ووضعا للدرس الأدبي سلما للقيم والمعايير النقدية (٤) •

وضع الاغريق الأسس الأولى للدرس الأدبي ، بوضعهم معايير نقدية لدراسة النص الشعري ، فكانت المحك النقدي للنص الأدبي بعيدا عن أي عامل آخر • ثم امتزج الفكر الاغريقي بالفكر الشرقي المعاصر له متجسدين في الفكر الهلنستي ، الذي جعل من مكتبة الاسكندرية الشهيرة رمزا له : « ان تاريخ الأدب لم يولد بعد ، ولكن شروط ولادته أصبحت متوفرة : اذ مثلما أمدته أثينا بالهيكل الثقافي والجمالي ، ها هي الاسكندرية تمده بفنيات الحفظ والترتيب الزماني » (٥) •

---

(٣) Escarpit (René) : *Histoirede l'histoire de la littérature* (In histoire des litttratures T 3) Gallimard. Paris 1958. p. 1744.

(٤) Escarpit (R) : Idem. p. 1746.

(٥) Escarpit (R.) : Idem, p. 1748

أمدت الاسكندرية الدرس الأدبى بفكرة الفهرسة والتوثيق والترتيب الزمانى . وتبلور كل ذلك طيلة العصور الوسطى - غربا وشرقا - فى التأريخ للشخصيات الأدبية بترجمات وسير أدبية ، تتسم بالعمومية فى سرد الأحداث وتحليلها بأساليب خطابية انشائية ، مثل معجم الأدباء لياقوت الحموى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وكتابات ابن القفطى والصفدى ، ثم فى تجميع النصوص الأدبية وترتيبها ، قصد المحافظة عليها ، وتسهيل الوصول اليها ، مثل الأغانى والعقد الفريد واليتيمة والذخيرة . ولم تتبلور الروح التاريخية فى البحث شرقا أو غربا الا فى القرن الرابع عشر للميلاد عند ابن خلدون : « المؤرخ الحقيقى الوحيد للاسلام (...) الا أن الأدب لا يحتل سوى جزءا بسيطا من تاريخه الكبير .

لقد استشف ، قبل فيكو Vico (٦) بأمد طويل ، الملامح العامة لفلسفة علم الاجتماع والتاريخ ، الا أنه جاء قبل الأوان أو بعده ، للتسرب عن طريق اسبانيا ، فضاعت رسالته بالنسبة للغرب » (٧) .

اذا كانت رسالة ابن خلدون العلمية قد ضاعت بالنسبة للغرب ، لأنه جاء قبل الأوان اللازم للتأثير فى أوروبا أو بعده ، فانها قد ضاعت بالنسبة للشرق أيضا ، لأنها جاءت فى عصر خلد فيه الفكر العربى الى الجمود ، ولم ينفض عنها الغبار الا فى مطلع القرن العشرين ، بعدما صار المنهج التاريخى - فى أوروبا - حقيقة علمية فى العديد من الحقول المعرفية، فتحول الاهتمام برؤية ابن خلدون التاريخية الى اهتمام بجزء من التراث التاريخى .

ظهر تاريخ الأدب فى أوروبا بفضل جهود أجيال عديدة ، وتراكم أحداث متنوعة مثل اختراع المطبعة التى ثبتت النصوص وسهلت تبادلها وحددت تواريخها ، ونشأة قوميات كبيرة حول لغة معينة لها كتابها الذين سيبدعون أدبا معبرا عن تلك القومية (٨) ، ولها ساستها الذين سيعملون

---

(٦) Vico (Giovani Battista) :

فيكتور جيوفانى باتيستا (١٦٦٨ - ١٧٤٤) مؤرخ وفيلسوف ايطالى ، أستاذ البلاغة فى جامعة نابولى . أصدر فى سنة ١٧٢٥م كتابه الشهير : « أسس فلسفة التاريخ » الذى ترجمه الى الفرنسية « ميشلى » سنة ١٨٢٥م وتأثر به كثيرا .

انتقد فيكو فى مؤلفه هذا المنطلق الديكارتى مفضلا عليه المقارنة . اقتداء بفقه اللغة ، فى دراسة نشأة وتطور وتدهور الأمم ، التى تمر حسب رأيه بثلاث مراحل متتالية : عصر الآلهة ، عصر الأبطال ، عصر الرجال . ورغم بعض الأخطاء فانه يعد رائد علم التاريخ .

(٧) Escarpit (R) : Idem, p. 1755.

(٨) Escarpit (R.) : Idem. p. 1756.

جهدهم لابراز الحدود الجغرافية والسياسية واللغوية الفاصلة بينهم وبين جيرانهم · ولتقوية الروح القومية ، عمل أساتذة الأدب على ابراز تمايز الأدب القومي عن الآداب الأخرى ـ قديمة وحديثة ـ بدراسته والتأريخ له باعتباره نشاطا قوميا منفردا بمكوناته وخصائصه ·

حدث ما سبق ذكره ، عندما تخلص الأدب من كل الكتابات الفلسفية والدينية والتاريخية والسياسية والأخلاقية وغيرها ، متبلورا فى نشاط فكرى ابداعى يعبر عن حاجيات المجتمع الأوروبى الجديد ، المجتمع البرجوازى وبذلك : « ولد الأدب كما نعرفه الآن فى الصالونات وعند الناشرين تلبية لحاجة فن التراجم أو السير العتيق الذى أنعشته الروح القومية ، وللنقد الأدبى المنتعش بالمحاجة الثقـافية · (···) ويـكفى الآن أن تتطور المؤسسات ، وأن يخرج علم التاريخ من حيزه الضيق ليتم اللقاء ، وليبرز فى الأخـير تاريخ الأدب ، غنيـا بكل التجـارب التى تعاقبت عبـر العصـور » (٩) ·

تم اللقاء بين الأدب وعلم التاريخ ، بمعناهما المتعارف عليه الآن ، فى القرن التاسع عشر بين أحضان الفلسفة الوضعية ابنة الفكر الفلسفى الألمانى : « ويتجلى الأثر البديهى للفلسفة الألمانية فى تاريخ الأدب من عقليتها الأصولية التى زودته بها · وبمعنى آخر ، لقد طرحنا حتى الآن مشكل النوايا · ومنذ بداية القرن التاسع عشر ، طرح مشكل المناهج بدلا من مشكل النوايا ، وتحول السؤال من : لماذا ؟ الى : كيف ؟ » (١٠) وصادف هذا اللقاء بين الأدب وعلم التـاريخ ، تطور التعليم العـالى فى فرنسا ، وتحوله من نشاط ثقافى عام ، الى نشاطات معرفية دقيقة ومنظمة، لها قوانينها المسيرة لها بغية تحقيق أهداف معينة ، فتأسست الدروس النظامية المغلقة ، ببرامج محددة ، وأصبح التعليم الجامعى قطاعا أساسيا فى الحياة الثقافية ، لجمهوره ـ طلابا وأسـاتذة ـ متطلبـاته المعرفية والجمالية ، فظهر تبعا لذلك النقد الجامعى الى جانب النقد الصحافى ، الذى كان سائدا طيلة القرن التاسع عشر : « ارتبطت نشأة حرفة النقد بطائفتين لا وجود لهما قبل القرن التاسع عشر : طائفة الأساتذة وطائفة الصحافيين » (١١) ·

---

(٩) Escarpit (R.) : Idem. pp. 1767-1768.

(١٠) Escarpit (R.) Idem. p. 1772.

(١١) Thibaudet (Albert) : *Phisiologie de la critique*, Nizet-Paris, 1971. p. 9.

• عرفت فرنسا ، فى أواخر القرن التاسع عشر ، نمطين من النقد :

الأول جامعى موجه الى الطلاب والأساتذة همه جرد الماضى ، والثانى صحافى همه متابعة الحاضر الأدبى (١٢) • ومن البديهى أن يهتم النقد الصحافى بمتابعة الحاضر الأدبى ، تلبية لرغبة القارىء العادى فى الاطلاع ومتابعة النتاج الأدبى دون تنقيب وتدقيق واضاعة الوقت فى السعى وراء المصادر والمراجع وتحرى الحقيقة ، فالمطبعة لا تنتظر ، والقارىء لا يطلب ذلك • أما النقد الجامعى ، فهو موجه الى طلاب وأساتذة ذوى مستوى ثقافى وعلمى عال ـ بالنسبة للقارىء العادى ـ همهم اكتساب معلومات تسهل عليهم بناء نسيج معرفى حول أديب أو أدب ما ، لذا فهو يعنى بدراسة الأدب القديم لثباته أولا ، وتوفر مادة علمية حوله ثانيا ، والاتفاق العلمى او التربوى حول نموذجيته ثالثا ، ثم لسهولة تطبيق فنيات البحث عليه رابعا •

ان هذا الاختلاف بين النمطين النقديين هو الذى يفسر اعتناء النقاد العرب ـ الذين ينشرون نقدهم فى الصحف ـ بالنتاج الأدبى الحديث أو المعاصر لأن القارىء العادى يهتم بالنتاج الحديث أكثر من النتاج القديم ، على العكس من الطالب الجامعى أو الأستاذ اللذين يتعاملان مع منهاج أو مقرر عادة ما يكون ثابتا • وهذا ما يفسر تطبيق المنهج التاريخى فى النقد الجامعى عند العرب على الأدب العربى القديم •

لقد أدى ظهور طوائف النقاد ، والروح التأريخية ، ونزعة التحرر القومى ـ فلسفيا وسياسيا ـ الى ظهور تيارات نقدية متباينة فى الصحافة والجامعة تجسدت فى تيارين كبيرين :

١ ـ **التيار العلمى** ، وبدأت ملامحه تتضح مع ظهور الناقد الكبير سانت بوف (Saint Beuve) (١٨٠٤ ـ ١٨٦٩) فى مقالاته الصحافية العديدة التى حاول فيها رسم شخصيات منقودية ، ثم ترتيبهم فى مجموعات وفصائل تربطها روابط مشتركة (١٣) • واستطاع بثقافته الواسعة ، وحدسه الشفاف ، ودقة ملاحظته أن يقدم تحليلات دقيقة ومقنعة لشخصياته فى محاولة لاستكشاف العبقرية الفردية لكل أديب أو أديبة ، وبذلك وظف الدرس الأدبى لاستكشاف عناصر شخصية المبدع ، فكان نقده مقدمة علمية للنقد العلمى الذى تبلور أكثر عند هيبوليت تين « والحقيقة أنه لم يكن أول من حاول ربط مناهج تاريخ الأدب بمناهج العلوم الوضعية •

---

(١٢) Thibaudet (Albert) : Idem. p. 11.

(١٣) Beuve (Saint) : *Oeuvres*. T 1 *Bibliotheque de la Pléade*, Paris, 1956, pp. 978-979

ولكن تاريخه للأدب الانجليزى (١٨٦٤ ـ ١٨٧٢) كان أول نجاح للوضعية فى هذا المجال انه لنجاح نهائى ، اذ لم يعد ممكنا ، بعد تين ، تجاهل الأدب باعتبـــاره ظاهرة ـ خاضـعة لحتميـــة القوانين العلمية الكبرى » (١٤) .

صاغ « تين » حتميــة القوانين العلمية فى نشأة الظـاهرة الأدبية وتفسيرها ضمن نظريته الشهيرة : « الجنس والبيئة والزمان » (١٥) . حيث رأى أن هذه العوامل الثلاثة هى أساس كل ابداع ، تطبعه بطابعها . ولا يفهم أو يفسر الا على أساسها . وعلى الرغم من أن هذه العوامل مجتمعة أو متفرقة ، تفسر العديد من الظواهر الأدبية ، الا أنها لا تفسرها كلها ، كما أنها لا تفسر جميع جوانبها ، والدليل على ذلك أنها لا تخلق مبدعين متشابهين يشتركون فيها ، ولا تخلق بالضرورة مبدعين يعبرون عنها .

لقد كانت نظرية « تين » خطوة كبيرة فى دراسة الأدب بربطه الظاهرة الأدبية بالمجتمع اذ جعلها تصدر وتعبر عنه ، فالعناصر الثلاث هى مكونات المجتمع الأساسية وهكذا عد الأدب تعبيرا عن المجتمع فى التراث النقدى .

ثم يتقــدم فردينان برونتيير بالمنهج العلمى خطوة أخرى ، عنــدما يقتدى بنظرية « داروين » فى تطور الجنس البشرى ، ويدرس بناء على ذلك تطور الشعر الغنائى بفرنسا فى القرن التاسع عشر (١٦) محــاولا البرهنة على أن الأدب يتطور مثلما تطور الجنس البشرى ، نتيجة لعوامل وراثية متتابعة ، ومن ثم تطور الشعر الغنائى عبر مراحل أولها الشعر الدينى ، وآخرها الشعر الوجــدانى العاطفى . وقد كان معجبا بالعلوم التجريبية ومناهجها ، فحاول اخضــاع الدرس الأدبى لقوانين علمية ، مقتبسة من علوم أخرى : « لقد جدد المنهج المقارن كل شىء حولنا فى قرننا هذا . واذا كنا لا نســمع ، وبحق ، سوى الحــديث عن علم التشريح ، والفسيولوجيا ، وفقه اللغة ، والميثولوجيا المقارنة ، ولا أحد منكم يعلم ما يدين به التاريخ والمعرفة الانسانية من تقــدم لهذه الوسائل المزعوم تجاوزها ، فانه لمن الغريب أن نبقى الوحيــدين ـ نحن النقاد ومؤرخو الأدب ـ الذين حرم علينا هذا المنهج ؟!

بهــذا المنهج يســتطيع كل من النقـــد وتاريخ الأدب عقـــد آمال التجدد » (١٧) . كان معجبا بالمناهج العلمية التجريبية التى شاعت فى

---

(١٤) Escarpit (Opcit) p. 1779.

(١٥) Taine (H.) : *Histoire de la littérature Anglaise*. Paris 1863, pp. 22-23.

(١٦) Brunetiere (Fernand) : *L'évolution de la poésie française au XIX siècle*. Librairie Hachette T 1, Paris 1839, pp. 30-32.

(١٧) Escarpit (Opcit., p. 1779.

القرن التاسع عشر فى ظل الفلسفة الوضعية ، وغالى فى محاولة تطبيق تلك المناهج لدرجة التزمت ، فصدر نقده عن قناعات علمية مسبقة فعد بذلك رمزا للنقد المذهبى أو العقائدى (Dogmatique) : « لقد كان وضعيا باتجاهاته وثقافته ، دفعته تأملاته المحافظة والواعظة فى الأخير الى التقيد المذهبى المتزمت » (١٨) ٠

وهكذا نرى أن النقد العلمى تطور فى القرن التاسع عشر بفرنسا ، من نقد يعتمد على الذوق وشفافية الحدس ودقة الملاحظة مع الأخذ بشىء من الروح العلمية فى التصنيف عند « سانت بوف » الى نقد يحاول تطبيق المناهج العلمية المطبقة فى العديد من العلوم التجريبية على الأدب عند « برونتيير » ولو تم ذلك بالتمحك ، الأمر الذى جعل الدرس الأدبى يخرج بنتائج وأحكام لا يستسيغها الذوق ولا يقبلها العقل ٠ فالشعر الدينى لم يتحول الى شعر عاطفى وجدانى ، وانما ضعف الشعر الدينى ، وبرز الشعر العاطفى الوجدانى لتغير الظروف الاجتماعية التى أوجدت الأول فى حينه ، وظهور ظروف أخرى أوجدت الثانى ٠

٢ ـ **التيار التأثرى** ، الذى يرى أن النص الأدبى خلق وابداع للمتعة والامتاع والتلذذ بمعانيه وصوره الجميلة التى يعبر بها المبدع عن رؤواه وخيالاته وتصوراته ٠ ومن ثم ، لا يحق للناقد أن يعبث بالنص ويفتته الى أفكار وجمل لتصنيفه والحكم عليه ٠ فليس من حق أحد الحكم على أفكار شخص آخر وعواطفه ، فالناس أحرار فى عواطفهم واحساساتهم ٠ وما على الناقد الا الاستمتاع والتلذذ بقراءته للأثر الأدبى ، وتسجيل تأثره وتبليغه للقراء حتى ـ يساعدهم على ورود مواطن الجمال التى أحس بها فى الأثر الأدبى بذوقه المرهف والمدرب ٠ ولذا رفضت التأثرية الحكم على الأثر الأدبى ، واعتبرته تعديا على المبدع أولا ، وعلى القارىء ثانيا ٠ وكان لومتر أكبر مدافع عن التأثرية ، وزعيمها الأكبر ٠

عرف التاريخ بفرنسا فى نهاية القرن التاسع عشر اهتماما كبيرا ٠ اذ شاع فى الأوساط الجامعية الاتجاه الرافض لأدبية التاريخ « بفعل الفلسفة الوضعية والتطور العلمى ، وساد القائل بأن « التاريخ علم » ، له قوانينه المتحكمة فيه والمفسرة له ، فعد بذلك « تاريخ الأدب » جزءا من العلم (التاريخ) ، لأنه جزء من التاريخ الانسانى العام ٠ فشرع مؤرخو الأدب ، نظرا للمكانة العلمية التى أحرز عليها المؤرخون فى ذلك العهد ، فى تقليد المؤرخين فى أواخر القرن التاسع عشر ، بالعمل على جعل تاريخ

---

(١٨) Simon (P. H.) : *Histoire de la littérature française* au XX. siècle T 1, p. 35.

الأدب علما ، شأنه شأن التاريخ (١٩) · وهكذا ظهر تاريخ الأدب ، فى فرنسا ، مؤسسة علمية سنة ١٨٩٣ م بتأسيس « جمعية التاريخ الأدبى لفرنسا » التى ضمت كبار أساتذة الأدب الفرنسيين آنذاك أمثال « غاسطون بارى » ، و «جوزيف بيديى» ، و«فيردنان برونو» Ferdinand Bruno (٢٠) (١٨٦٠ ـ ١٩٣٨) الذين أرخوا للآداب القديمة ، يونانية ولاتينية ، ثم الوسيطة ، أما الأدب الحديث فترك للأدباء الخلص ·

فى هذا الجو العلمى المشبع بالفلسفة الوضعية والصراع العنيف بين النقد العلمى والنقد التأثرى ، بدأ اسم « غوستاف لانسون » يتردد فى الأوساط الجامعية منذ نشر كتابه الشهير : « تاريخ الأدب الفرنسى » سنة ١٨٩٤ م ، مقترنا بالثورة على النقدين العلمى والتأثرى معا ، وهكذا قدم سنة ١٩٠٩ م فى جامعة «بروكسيل» محاضرة حول « الروح العلمية ومنهج تاريخ الأدب » أعلن فيها : « دراستنا تاريخية · ومنهجنا سيكون اذن منهج التاريخ » (٢١) ·

ثم نشر فى العاشر من أكتوبر سنة ١٩١٠ م بمجلة الشهر Revue du Mois مقالته الشهيرة « منهج تاريخ الأدب » محددا أسس وخطوات المنهج التاريخى فى دراسة الأدب وأصبحت تلك المقالة قانون اللانسونية ودستورها المتبع ·

٢ ـ اللانسونية :

يقر « لانسون » فى مستهل مقالته أنه لم يخترع أو يبتكر المنهج التاريخى ، وكل ما فعله أنه استخلصه من التفكير فى الخطة التى سار عليها أسلافه والبعض من معاصريه فى دراسة الأدب الأوروبى والفرنسى قديمه ووسيطه (٢٢) · وكان الوصول الى منهج واستخلاصه من التفكير فى أعمال الآخرين أمر هين ! لقد بدأ المنهج التاريخى فى دراسة الأدب

---

(١٩) Compagnon (A.) : Opn cit., pp. 23-26.

(٢٠) Bouvier (E.) : *Les lettres Françaises au TYe diècle*. Puf. Paris 1962, pp. 65-66.

(٢١) Lanson (Gustave) : *L'esprit scientifique et l'hitoire litteraire*. (In Methodes de l'histoire litteraire et hommes et livres Ressources Paris-Geneve 1979, p. 28.

(٢٢) لانسون : **منهج البحث فى تاريخ الادب** : ترجمة د· محمد مندور · منشور ضمن كتابه · « النقد المنهجى عند العرب » ، ص ٣٩٥ ·

ملاحظة : راجعت ترجمة د· مندور على الأصل الفرنسى ، فوجدتها أقرب ما يمكن من الأصل ، ولم أستطع الاتيان بافضل منها · فاعتمدت الترجمة مع الرجوع باستمرار الى الاصل ، وحتى لا أذكر المرجعين معا ، سأذكر النص المترجم ·

يتبلور عند الألمان ، مع ظهور كتاب « تاريخ الأدب الألماني سنة ١٨٨٣ م للكاتب الشهير « شيرر W. Scherer (١٨٤١ – ١٨٨٦) الذى كان الفيصل بين فقه اللغة والفولكلور · فصار النقد الأدبى الألمانى وقتذاك مشبعا بالروح الوضعية متمثلة فى تحقيق النصوص ، والأبحاث الببليوجرافية ، ودراسة الأصول ، والتأثيرات ، وسير المؤلفين (٢٣) · ولقيت الدراسات الجرمانية اهتماما كبيرا عند فئة من الأساتذة الفرنسيين المتفتحين ، أمثال « غاسطون بارى Paris Gaston المؤثر القوى فى لانسون : « كان « غاسطون بارى » نموذجا لأستاذ الأدب ، فاقتدى به لانسون · لقد كان هذا الدستورى ذو الهمة العالية السخية أحد مؤسسى دراسات العصور الوسطى الفرنسية · ففى سنة ١٨٦٥ م نشر « التاريخ الشعرى لشارلمانى » حسب المفهوم الوضعى الدقيق ، أى فى الوقت الذى كان فيه « تين » تاريخ الأدب الانكليزى تقريبا ، ثم كرس بقية عمره لاتقان مناهج فقه اللغة (٢٤) ، وبخاصة تلك التى تهتم بتحقيق النصوص (....) ·

عرف فقه اللغة الألمانى – الذى كان غاسطون بارى تلميذا له – عصره الذهبى فى نهاية القرن · فقد أعطاه « هيرمان بول » Herman Paul قاعدته المذهبية والفنية فى كتابه « مجمل فقه اللغة الألمانى (Grundriss Der Germanischen Philologie) الذى صدر من ١٨٩١ م الى ١٨٩٣ م · مقدما بذلك تحليلا قويا لمفهوم الأدب » (٢٥) ·

طبق المنهج التاريخى أول ما طبق فى المـانيا ، ثم طبقه جماعة من الأساتذة الفرنسيين مثل الأخوين ألفريد وموريس كروازى Alfred et Maurice Cooiset (١٨٤٥ – ١٨٤٦/١٩٢٣ – ١٩٣٥) وغاسطون بواسيى Gaston Boissier (١٨٢٣ – ١٩٠٨) وغاسطون بارى وجوزيف بيديى وغيرهم (٢٦) ، فى التاريخ للآداب القديمة والوسطى · فتشجع «لانسون» لتطبيق هذا المنهج فى التأريخ للأدب قديمه ووسيطه وحديثه أيضا اقتداء بخطة هؤلاء الأسلاف والأساتذة ، وبخاصة عند اطلاعه على كتاب الفيلسوف الفرنسى « فريديريك راو » Frederic Rauh (١٨٦١ – ١٩٠٩) بعنوان

(٢٣) Delfau (G) et Rochel (A) : Opcit., pp. 129-130.

(٢٤) ليس المقصود بفقه اللغة « علم أو علوم اللغة فى ذاتها » كما هو معروف عند العرب وانما المقصود عند الغربيين : دراسة النصوص القديمة وتحقيقها وشرحها · أى دراسة التراث اللغوى والأدبى دراسة تاريخية ·

(٢٥) Escarpit (R.) : Opcit., pp. 1738-1784.

(٢٦) لانسون : المرجع السابق ، ص ٢٩٥ ·

« المنهج فى علم نفس الاحساس » ، واستنتاجه أن لا وجود لعلم عام ، « وانما هناك منحى علمى عام » (٢٧) ٠

أى هناك روح علمية يؤخذ بها فى كل علم خاص نابع من طبيعة المادة المدروسة ٠

تتضمن مقالة لانسون عناصر أساسية ، تكون المنهج هى : الأسس النظرية للمنهج ، ثم الخطوات العملية ، فالصعوبات ، وأخيرا متفرقات مثل علاقة تاريخ الأدب بالتاريخ العام ، وأهمية تاريخ الأدب ، وتعريف الأدب ، وارتباط المنهج بالوطنية الحقة ٠

(أ) **الأسس النظرية :** تتكون اللانسونية من جملة أسس نظرية ، لابد أن يأخذ بها الباحث ، حتى يكون تأريخه لأى أدب أو ظاهرة أدبية عملا علميا أهمها :

(أ) **الأخذ بالروح العلمية :** وتتمثل فى البعد عن تلك المحاولات العديدة لاقتباس مناهج علمية ، خاصة بعلوم معينة وتطبيقها فى دراسة الأدب أو التأريخ له ، لأنها لا تجعل من الدرس الأدبى علما : « لقد كان تقدم علوم الطبيعة خلال القرن التاسع عشر سببا فى محاولة استخدام مناهجها فى التأريخ الأدبى غير مرة ، وذلك أملا فى اكسابه ثبات المعرفة العلمية وتجنيبه ما فى تأثرات الذوق من تحكم ، وما فى الأحكام الاعتقادية من مسلمات غير مؤيدة ٠ ولكن التجربة قد حكمت باخفاق تلك المحاولات » (٢٨) ٠ لذا ينصح « لانسون » الباحث بالابتعاد عن محاولة تطبيق مناهج نابعة من علوم أخرى ـ كما فعل تين وبرونتيير وغيرهما (٢٩) ـ والابتعاد عن المعادلات العلمية والخطوط البيانية (٣٠) ، لأنها لا تفيد الدرس الأدبى فى شىء ، وانما تضفى عليه هالة كاذبة من النتائج غير الثابتة لعدم ثبات الأدب نفسه فالروح العلمية لا تكمن اذن فى الأخذ بمناهج العلوم الأخرى ، وانما فى الأخذ بروحها : « ذلك أنه يلوح لنا أن ليس هناك علم عام أو منهج عام ، وانما هناك منحى علمى عام ٠ لقد خلط الناس لزمن طويل بين الروح العلمية فى ذاتها وبين منهج هذا العلم أو ذاك بسبب النتائج الدقيقة التى توصل اليها » (٣١) ٠

---

(٢٧) لانسون : المرجع السابق ، ٤٠٨ ٠

(٢٨) لانسون : المرجع السابق ص ٤٠٥ ٠

(٢٩) لانسون المرجع السابق ، ص ٤٠٦ ٠

(٣٠) لانسون : المرجع السابق ، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ ٠

(٣١) لانسون : المرجع السابق ، ص ٤٠٨ ٠

ان الروح العلمية ، كما يفهمها لانسون ، مجموع صفات ، على الباحث أن يتحلى بها فى التعامل مع مادة بحثه ، ومن ثم على دارس الأدب ومؤرخه أن يتحلى بها أهمها : ـ الموضوعية فى التعامل مع مادة البحث ، من خلال طرح كل الأفكار المسبقة ، والأهواء والنزعات الشخصية ، والصدوع بالحقيقة مهما كانت طبيعتها ·

(أ) النزوع الى استطلاع المعرفة والرغبة فى الاستزادة العلمية حبا فى العلم ، اذ يصعب على من يأخذ بهذا الأساس مواصلة البحث ومكابدة مشاقه ، فالمعرفة عادة ما تكون صعبة المنال ، وكلما تقدم فيها الانسان خطوة اكتشف أنه يجهل الكثير ·

(ب) الصبر الدؤوب وذلك هو الضمان الوحيد لتجاوز الصعاب والعراقيل التى تعترض سبيل الباحث خلال سعيه وراء الحقيقة ، وكلما كانت الصعاب والعراقيل كثيرة كلما احتاج الباحث الى الكثير من الصبر ، فتعظم بالتالى نتائج عمله ، اذ عادة ما ترتبط قيمة البحث بصعوبته ·

(جـ) الاستعصاء على التصديق لأن العديد من الباحثين يخطئون كثيرا بتصديق نتائجهم الأولية بسهولة ، تقديرا لجهودهم ، فتأتى نتائجهم النهائية بعيدة عن الحقيقة ، ولا ضمان لتفادى ذلك سوى الاستعصاء على التصديق السريع اللهم الا اذا كان الدليل قاطعا والبرهان ساطعا · ومن سبل محاربة التصديق السريع ضرورة النقد والمراجعة والتحقيق باستمرار · اذ مثلما ينقد الباحث آراء غيره ويراجعها ويحققها ولا يأخذها مسلمة ، عليه أن ينقد ويراجع ويحقق آراءه · فمعارف الانسان وأحاسيسه تتغير وتنمو بتقدم العمر ، وتطور المعارف الانسانية وتغير الظروف المادية العامة والخاصة به (٣٢) ·

٢ ـ **المزج بين الذوق والمعرفة :** وهما فى الحقيقة أساس اللانسونية حيث جمع بهما بين النقد العلمى والنقد التأثرى ، مضيفا اليهما عناصر تقوى الربط بينهما ليكون منهجه بعيدا عن تزمن « العلميين » وتسيب « التأثريين » : « انطلق لانسون من مبدأ يتمثل فى أن كل حكم أدبى نزيه وكامل يتضمن عاملين : أحدهما غير ذاتى وهو المعلومة التاريخية · والآخر ذاتى وهو تذوق الأثر ، حسب ذوق كل واحد » (٣٣) ·

---

(٣٢) لانسون · المرجع السابق ، ص ٤٠٨ ·

(٣٣) Tuffrau (Paul) : *Complément pour "Histoire de la littérature de Lanson"*, p. 1193.

كانت هجومات «لانسون» ، ضد «تين» و « برونتيير » ، وكل من حاول علمنة الأدب والنقد ، عنيفة ، ولكنه احتفظ بمبدأ التعامل مع الأدب تعاملا علميا ، بمفهوم يختلف • فالمعرفة عنده لابد أن تنبع من طبيعة الأدب نفسه ، تتمثل في جملة مبادىء وأسس على الباحث الالتزام بها ، كما سلف القول ، ثم جملة من الخطوات العملية الخاصة بتحقيق الأثر الأدبي وشرحه والحكم عليه •

أما الذوق ، فبرغم استهجان « لانسون » للنقد التأثرى ، وحملاته العنيفة ضده ، الا أنه يقر ضرورة التذوق في أى نقد : « لن نعرف قط نبيذا بتحليله تحليلا كيماويا أو بتقرير الخبراء دون أن نذوقه بأنفسنا • وكذلك الأمر في الأدب فلا يمكن أن يحل شيء محل « التذوق » » (٣٤) •

فالأدب أحاسيس وأفكار يحاول مبدعها بعثها فينا بمفردات صاغها صياغة معينة حتى تثير عند القارىء أو المتلقى معادلا لتلك الأحاسيس أو الأفكار ، فان لم يكن التذوق وسيلة التجاوب مع النص ، فكيف نتجاوب معه اذن ؟

لقد أدرك « لانسون » صعوبة التخلي عن التذوق في دراسة الأدب ، لانه المفتاح الى القلب ، فأقر العمل به : « وما دامت التأثرية هي المنهج الوحيد الذى يمكننا من الاحساس بقوة المؤلفات وجمالها فلنستخدمه في ذلك صراحة ، ولكن لنقصره على ذلك في عزم ولنعرف ــ مع احتفاظنا به ــ كيف نميزه ونقدره ونراجعه ونحده ، وهذه هي الشروط الأربعة لاستخدامه » (٣٥) •

تتمثل الخطوة الأولى لأى ناقد في تذوق الأثر الأدبي تذوقا شخصيا نابعا من حساسيته الفردية الفنية ، ثم تذوقه بعد ذلك تذوقا تاريخيا ، أى بذوق العصر الذى ظهر فيه الأثر الأدبي وحساسيته ، وعلى الناقد الاستعانة لأجل ذلك بكتب تاريخ الأفكار والذوق المعاصرة لنشأة أى أثر أدبي •

ان التذوق عند لانسون وسيلة يستعين بها الناقد في بناء حكمه النقدى ولذلك هاجم كثيرا التأثرى ــ كما ورد عند لومتر ــ الذى يزعم أن أحكامه النقدية نهائية لا تقبل المحاجة ، وأوصى باستخدامه والاستعانة به

(٣٤) لانسون : المرجع السابق ، ص ٤٠٢ •
(٣٥) لانسون : المرجع السابق ، ص ٤٠٤ •

اذا اعتبر وثائق تدل على أذواق أصحابها ويستدل بها في تحديد ذوق فترة أو عصر ازاء أثر معين (٣٦) · ان التذوق ضروري ، شريطة بقائه مجرد وثيقة تبين ذوق صاحبها ، مهما كانت مكانته العلمية ، وليس حكما نقديا مطلقا · ومع تعدد الوثائق النابعة عن التذوق حول أثر واحد ، يستطيع الناقد الاستعانة بها لتتبع تاثرات الناس بأثر معين ، مستنتجا من ذلك رؤية أقرب الى الموضوعية · ويعتمد لانسون كذلك على التأثرات باعتبارها وثائق تبين حقيقة أصحابها في استجاباتهم لأثر معين ، فانه لا يرفض الأحكام النقدية المذهبية أو العقائدية ، لأنها تعبر عن أصحابها الذين يصـــدرون عن مذهب أو معتقد سياسي ، فلسفي أو ديني معين ، فيستعين بها لأنها لا تمثل حقيقة الأثر المنقود وانما تمثل حقيقة الناقد ، وبالتالي فهي الأخرى وثائق تاريخية تدل على مواقف شخص أو مجموعة اشخاص نحو أثر معين وأسباب ذلك (٣٧) ·

جمع لانسون بين المعرفة والذوق في دراسة الأدب والتأريخ له ، مع وضع ضوابط معينة تكبح جماح الحساسية الشخصية وتضع تأثرات الغير موضعها الملائم لها ، وشرح معنى العلمية وشروطها وآلياتها في دراسة الأدب · وبعد تشبع الباحث بهذه الأسس النظرية اللانسونية ، عليه بعد ذلك تطبيق الخطوات العملية التالية :

(ب) **الخطوات العملية :** وتتلخص في : « معرفة النصوص الأدبية ومقارنتها بعضها ببعض لنميز الفردي من الجماعي والأصيل من التقليدي ، وجمعها في أنواع ومدارس وحركات · ثم تحديد العلاقة بين هذه المجموعات وبين الحياة العقلية والأخلاقية والاجتماعية » (٣٨) · بتطبيق الخطوات التالية خلال دراسة أي نص أو نتاج أديب أو أدب ما ·

(أ) معرفة النص (تحقيقه) : والقصد بذلك ، الوصول الى دراسة النص الأدبي كاملا ، كما أبدعه صاحبه وأخرجه للناس ، من خلال طرح التساؤلات التالية والاجابة عليهـــا : (٣٩) هل نسبة النص صحيحة ؟ فالعديد من النصوص منسوبة لغير أصحابها وبخاصة نصوص الآداب القديمة التي نسب النساخ العديد منها لغير أصحابها خطأ أو عمدا ، لاشهار نص بنسبته الى عالم ، أو للحط من قيمة علم بنسبته لنص غير لائق اليه ، أو لأسباب أخـرى كالترويج لأفكار معينة ، أو التهرب من السلطة ·

---

(٣٦) لانسون المرجع السابق ، ص ٣٩٦ ·
(٣٧) لانسون . المرجع السابق ، ص ٣٩٦ ·
(٣٨) لانسون المرجع السابق ، ص ٤٠٩ ·
(٣٩) لانسون : المرجع السابق ، ص ٤٠٩ ـ ٤١٠ ·

فالبحث البيبليوغرافى ، وفن تمييز الأساليب ، ودراسة شخصية المؤلف دراسة متعمقة ، فنيات كفيلة بالكشف عن حقيقة نسبة النص ، وبذلك لن نصدر أحكاما حول نص لأديب معين ، بينما الأديب برىء تماما مما ورد فى ذلك النص من جمال أو قبح أو عبقرية أو فجاجة ٠

هل هذا النص كامل غير منقوص أو مشوه ؟ اذ كثيرا ما تتعرض النصوص الى التشويه والتغيير والنقصان بفعل ريشة النساخ ــ قديما ــ التى حذفت فقرات غير واضحة ، ونسيت فقرات ، ثم الأرض التى تغذت بالكثير من أجزاء النصوص ، معششة داخل المخطوطات ، أما حديثا فقد تحولت ريشة الناسخ الى ناشر يتصرف فى النصوص حسب رغبات القراء ، وحسب الظروف الفنية للطباعة ٠ وعادة ما يكثر التصرف فى المذكرات والخطب ، والمؤلفات التى تصدر بعد موت مؤلفيها ، لأسباب تجارية أو أخلاقية وغيرها ٠ وحتى لا نحكم على أثر حكما يمجده لأن أسوأ أجزائه محذوف ، أو يحط منه لأن أحسن أجزائه محذوف ، علينا بالتأكد من كمال النص أولا ، ثم الحكم عليه بناء على ذلك ثانيا ٠

ما هو تاريخ النص ؟ ان معرفة التاريخ الدقيق لتأليف النص يجنبنا الحكم عليه أو له من منطلق غير سليم ٠ فالنص المؤلف فى تاريخ معين من حياة مؤلفه ، قد يفهم فهما غير صحيح ، لارتباطه بحادث معين فى حياة المؤلف ، أو بمرحلة فكرية معينة فى حياته ، فان لم ننتبه الى تواريخ تأليف النصوص ، واجتثثناها من اطارها الزمانى ، قد نصدر أحكاما خاطئة لا تطابق الحقيقة ٠

وزيادة عن هذا المزلق الناجم عن قلة التدقيق فى تاريخ تأليف النص ، ثمة مزلق ثان عندما تتعدد أجزاء النص أو الأثر ، وتتباعد تواريخ تأليفها ، فتنمو خلال ذلك الأفكار ، وربما تتغير أحاسيس المبدع وآراؤه ، الأمر الذى يجعل الحكم على النص أو الأثر بأكمله ، دون مراعاة تواريخ تأليف أجزائه المختلفة ، مجانبا للصواب فى أغلب الأحيان ٠ وبديهى أن البحث البيبليوغرافى العميق والدقيق هو الكفيل بتجنيب الباحث هذه المزالق ٠ وهذه الخطوات مجتمعة تكون القاعدة الأساسية لتحقيق النصوص القديمة ، فأصدر أعلامها طبعات كثيرة لأهم مؤلفات الأدب الفرنسى الوسيط ، ثم الحديث ، فساهمت بذلك فى ازالة الغبار عن العديد من النصوص الأدبية وتقديمها الى القراء كاملة ، أو مع تبيان أوجه نقصها عندما تكون ناقصة ٠

٢ ــ **سيكولوجية ابداع النص** : من خلال دراسة نفسية المبدع التى تتضح فى تحويراته فى النص بوساطة معرفة ما يلى :

١ ـ تغير النص من الطبعة الأولى الى الطبعة الأخيرة التى طبعها المؤلف ، ودراسة أوجه الحذف والزيادة التى يجريها المؤلف فى النص عبر الطبعات المختلفة · ومن دون شك ستكشف لنا هذه العملية عن تطور ذوق المبدع وأفكاره وأحاسيسه ، وقد تكشف لنا عن المخاوف والكبت الذى دفعه الى حذف فقرات معينة وربما كلمة واحدة لا ترضى السلطة أو المجتمع أو جهة معينة · كما قد تكشف الزيادات عن الشجاعة والجرأة أو الطمع اذا تملق ·

(ب) كيف تكون النص من المسودة الأولى الى الطبعة الأولى ؟ وعلام تدل المسودات ان وجدت ، من حيث ذوق الكاتب ومبادئه الفنية ونشاطه النفسى ؟ ان دراسة مسودات الكاتب تكشف مقارنة مع الطبعة الأولى عن مراحل رسم المبدع للصورة الأدبية ، وأسلوبه فى توظيف الكلمة المناسبة . ومن ثم يستطيع الدارس تلمس نشاط المبدع النفسى ، والمراحل النفسية التى مر بها خلال عملية الابداع صعودا أو هبوطا ، عنفا أو لطفا والمفردات والصيغ والتراكيب الموظفة لذلك (٤٠) ·

لقد استعان (لانسون) بالمنهج النفسى فى وضع فنيات توضح جوانب من النص الأدبى · الأمر الذى يجعل الباحث العربى يتساءل : أين أجد مسودات الأدباء العرب ؟ وحق له أن يتساءل · فالقدماء منهم لا نعلم حتى الآن علم اليقين ان كان ابداعهم ابن قريحتهم حقا ، وقد قيل كلام كثير فى ذلك · أما المحدثون أو المعاصرون ، فلا يهتمون بمسوداتهم وحفظها فى المكتبات العامة أو فى مكتباتهم الخاصة على الأقل ، فهذا ليس من تقاليدنا الفكرية بعد ، ولكن هذا لا يجرى على الأدباء الفرنسيين أو الأوروبيين ، فعادة ما يحتفظون بمسوداتهم ويحافظون عليها · وربما سيأتى يوم يجد فيه الباحث المسودات الأولى مسجلة بصوت مبدعها مع تعبيراته الجسدية خلال تصوره الأول ، لأن وسائل التسجيل الحديثة تستطيع حفظ كل شىء ·

٣ ـ شرح النص ، من خلال :

(أ) اقامة المعنى الحرفى للنص بشرح مفرداته وتراكيبه وجمله ، مستعينين فى ذلك بتاريخ اللغة ، والنحو ، والمعجم التاريخى لتحديد دلالة الألفاظ كما كانت شائعة زمن صدور الأثر ، وليس كما نعرفها الآن · ثم شرح العلاقات الغامضة بين الجمل والفقرات والاشارات التاريخية للنص ، ثم الاشارات المتعلقة بحياة الكاتب نفسه حالة كون النص مرتبطا

---

(٤٠) لانسون : المرجع السابق ، ص ٤١٠ ·

بخياته ، أى اقامة العلاقات بين حياة المبدع وابداعه ، فالأدب ، عند لانسون، تعبير عن المجتمع من خلال الكاتب (٤١) ٠

(ب) اقامة المعنى الأدبى للنص ، بشرحه وتحليله تحليلا أدبيا وتحديد معناه العام ، وابراز ما تضمنه من قيم عقلية وعاطفية وفنية بوساطة توظيف المؤلف اللغة توظيفا يختلف عن الاستعمال السائد لها في عصره وتحليل ذلك ٠ ولبلوغ ذلك يجب على الباحث أن يوظف ذوقه وأحاسيسه توظيفا علميا ودقيقا حتى ينفذ الى أعماق النص ويستخلص ما يرقد تحت المعنى العام من أفكار وصور وآراء أخلاقية واجتماعية وفلسفية ودينية ٠ أى يكشف المعنى العميق والخفى الذى قد يعارض احيانا المعنى الظاهرى للنص ٠ ولا يستطيع كشف هذه الزوايا والخفايا الا الباحث المتسلح بذوق مشبع بالأفكار وبثقافة الأدب المدروس (٤٢) ٠

اهتم « لانسون » بشرح النصوص اهتماما بالغا ، مذ كان أستاذا فى التعليم الثانوى ثم واصل ذلك الاهتمام فى الجامعة ، عندما جعل شرح النصوص بفنياتها ، خطوة عملية أساسية فى دراسة الأدب والتأريخ له ٠ ولا يقتصر عنده شرح النصوص على معرفة الأسرار النحوية والصرفية والبلاغية ومعانى المفردات للنص ، وانما يتجاوز ذلك الى معرفة المعنى الاجمالى للنص ، وتذوق صوره ، بغية استخلاص تربية مدنية من النص المدروس ، أى بغية استخلاص القوانين والأعراف والمبادىء الاجتماعية والأخلاقية والوطنية (٤٣) ٠

وظف لانسون « شرح النصوص » فى دراسة الأدب وتدريسه ، وبخاصة فى التعليم الثانوى ، ليتحول من غاية أدبية الى وسيلة تعليمية وعملية تكمل وسائل أخرى فى البحث عن الحقيقة ٠

٤ ــ **الأصول والمصادر** : لا يظهر الأثر الأدبى من عدم ، فهو ثمرة استجابة مزاج معين لملابسات معينة ٠ فلكل مبدع استعدادات شخصية ابداعية ، ينميها محيط زمانى وجغرافى ، وتغذيها بيئة اجتماعية وثقافية ليتمكن بذلك من التجاوب مع الحياة تجاوبا يختلف عن تجاوب الانسان العادى ، فهو يشعر بما لا نشعر به ، ويرى ما لا نراه ، أو يراه بطريقة مختلفة ٠

---

(٤١) لانسون ٠ المرجع السابق ، ص ٤١٠ ٠
(٤٢) لانسون المرجع السابق ص ٤١٠ ٠
(٤٣) *Compagnon* (A.) : Opcit., pp. 83.

ولكشف هذه الجوانب ، لابد من دراسة حياة المؤلف دراسة دقيقة ، بدءا بالمحيط الأسرى الذى نشأ فيه ، واستفاد منه عاطفيا وعقليا وماديا ، الى المراحل التعليمية المختلفة ومدى استفادته منها ، وانتهاء بالبيئة الثقافية التى ترعرع فيها ونهل منها . وبمعنى آخر لابد من دراسة حياة المؤلف دراسة تاريخية مفصلة ضمن اطارها العلمى والثقافى منذ الولادة حتى الوفاة ، وربط كل ذلك بابداعه .

ومن الواضح أن لانسون يؤكد على ارتباط الابداع بحياة المبدع ، لايمانه أن الأدب تعبير عن المجتمع . وضمن الاهتمام بحياة المبدع يؤكد « لانسون » على دراسة المصـــادر والأصـــول التى استقى منهـا المؤلف موضوعاته ، أو صوره الأدبية ، فكثيرا ما يستقى الأدباء موضوعاتهم من التراث الأدبى ، يحاكون أعمالا سابقة ، ويستوحون ، وربما يسرقون فى بعض الأحيان .

ولقد انتبهت مختلف الآداب العالمية لهذه الظاهرة ، فتحدث عنهـا الرومان والعرب والفرنسيون ، الا أن اهتمام نقاد هذه الأمم بهذه الظاهرة لم يتعد الاهتمام الأخلاقى ، والاستحسان والاستهجان (٤٤) .

أما لانسون ، فقد اهتم كثيرا بدراسة مصادر المبدع وأصوله الأدبية، بمختلف أنواعها المكتوبة منها والشفوية ، الفصيحة والشعبية ، الوطنية والأجنبية ، فاتحا بذلك مجالا للدراسة عريضا ، تمثل فى دراسة المصادر والأصول دراسة تاريخية ، لمعرفة من أين استقى المبدع موضوعاته ، أو أفكاره أو صوره ، وماذا أضاف أو ماذا أنقص ولماذا فعل ذلك ؟ ومن هنا كان الربط بين المنهج التاريخى فى دراسة الأدب والأدب المقارن ، واتصاف المدرسة الفرنسية فى الأدب المقـارن بالتاريخية . فالعـديد من أعلامها البارزين دارت دراساتهم وأبحاثهم حول « المصادر والأصول » وجلهم من تلاميذه أو أنصاره .

٥ ـ **التأثير والنجاح** : لا يتم تأليف الأثر الأدبى الا بذيوعه بين الناس مسموعا أو مقروءا . فيستقبح لعدم تلاؤمه مع ذوق وفكر المتلقى لاسفافه أو رقيه ، ويكون مصـيره النسـيان الدائم أو المؤقت ، وقد يستحسن لمناسبته ذوق الجمهور الموجه له وفكره ، فينجح ويشتهر ويحدث تأثيرا فى الجمهور . ولا يعنى النجاح بالضرورة التأثير . فقد ينجح أثر ما وتتكرر طبعـاته ، ولكنه لا يحدث أى أثر فى الجمهور ، أو فى الحيـاة الثقافية ، مثل تلك الأعمال الأدبية التى تتسم عادة بطابع تجارى .

---

(٤٤) لانسون : المرجع السابق ، ص ٤٤١ .

وقد لا ينجح الأثر تجاريا ، فلا تتكرر طبعاته ، ولا يكون اقبال القراء عليه كبيرا ، ولكنه قد يؤثر فى الحياة الثقافية للبلد ، كأن يقلده أدباء ويصبح منطلق مدرسة أو مذهب أو تيار • وقد يقتنع بما ورد فيه من أفكار ، شخصيات سياسية ، فيكون سببا فى تطورات فكرية أو اجتماعية عميقة • اذن ، نجاح الأثر الأدبى شيء ، وتأثيره فى أدبه القومى أو مجتمعه أو فى العالم شيء آخر : « وتحديد التأثير الأدبى ليس الا دراسة عكسية للمصادر » (٤٥) •

لأن المصادر تأثير للغير فى الأديب • أما التأثير فهو تحول هذا الأديب الى مصدر لغيره • وهكذا تكتمل رؤية المدرسة الفرنسية فى الأدب المقارن ، والمتمثلة فى دراسة التأثير والتأثر عند الأدباء ، من خلال دراستها للمصادر والأصول •

أما دراسة نجاح أثر ما ، وتأثيره فى المجتمع ، فعملية مهمة وشاقة ، اذ يتحتم على الدارس أن يبحث عن عدد طبعات الأثر ، وتوزيع النسخ بين تجار الكتب لمعرفة نسب البيع ، والمؤسسات التعليمية والثقافية كالمكتبات لمعرفة عدد القراء وانتماءاتهم المختلفة ، ثم المناطق والفترات التى عرف الأثر فيها انتشارا • ثم البحث فى تعليقات الصحف ووسائل الاعلام، والخطابات الخاصة والمذكرات (٤٦) ، والقيام باجراء استبيانات فى أوساط اجتماعية مختلفة لمعرفة مدى اهتمام الناس بالأثر •

والملاحظ أن دراسة نجاح أثر ما وتأثيره فى المجتمع عملية شاقة وشيقة فى الوقت نفسه لأنها الوسيلة التى تبين لنا مدى تحقيق الأدب لوظيفته الاجتماعية • ونتبين مما سبق ذكره أن دراسة نجاح وتأثير أثر أدبى فى المجتمع كان بداية لنشأة علم الاجتماع الأدبى • وهكذا نلاحظ أن خطوات « لانسون » العملية التسعة ، والتى جمعناها فى خمس خطوات أساسية ، تتتبع النص من مجرد انفعال أو احساس أحس به الأديب وجسده فى نص ، علينا أن نتأكد من كماله ونعرف المراحل التى مر بها حتى صار نصا أدبيا متداولا ، الى نص أدبى نتعامل معه فنشرح ونفسر ما غمض منه ، لنتذوقه ونستفيد من معانيه ومضمونه ، ثم نكشف عن أصوله وانتشاره لمعرفة مدى أصالته بالنسبة للماضى والحاضر • ولتنفيذ هذه الخطوات العملية تنفيذا دقيقا يؤتى ثماره المتوخاة ، على الباحث التسلح

---

(٤٥) لانسون ، المرجع السابق ، ص ٤١١ •
(٤٦) لانسون • المرجع السابق ، ص ٤١١ ــ ٤١٢ •

بالعلوم المساعدة : « وبخاصة تاريخ اللغة والنحو وتاريخ الفلسفة وتاريخ العلوم وتاريخ الأخلاق » (٤٧) ٠

لمساعدته فى الكشف عن العديد من الخبايا والزوايا ٠ وبذلك قد نصل الى معرفة دقيقة بالنص ، ثم تطبق هذه العملية على نصوص أخرى للمؤلف ، ثم لبقية مؤلفى العصر الواحد ، فمؤلفى الأدب القومى ، حتى تصبح معرفتنا بأديب أو أدب قومى معين خالية من النقص ما أمكن ثم نجمع الكتب المدروسة : « تبعا لما بينها من وشائج فى الموضوع وفى الصياغة ٠ وبفضل تسلسل الصياغات نضع تاريخ التيارات العقلية والأخلاقية ٠ وبالمشاركة فى بعض الألوان وبعض المناحى الفنية المشتركة بين الكتب التى من نوع أدبى واحد ومن نفوس مختلفة نضع عصور الذوق » (٤٨) ٠

قد يكون تاريخ الأدب عند لانسون ، تاريخا لفنون أو الأجناس الأدبية اعتمادا على الصياغة أو تاريخا للتيارات الأدبية أو المدارس أو المذاهب اعتمادا على الأفكار والاحساسات (المضمون) منطلقا للتصنيف ٠ وقد يكون تاريخا لعصور الذوق – وليس العصور الزمانية أو العصور المرتبطة بشخص أو مكان – باعتماد المشترك بين الكتب من ألوان وفنيات منطلقا للتصنيف ٠ وواضح أن الفصل بين هذه الأصناف لتاريخ الأدب صعب ، لصعوبة الفصل بين الأفكار والاحساسات من ناحية والألوان والمناحى الفنية من ناحية أخرى ٠ ومع ذلك ، فقد كانت هذه الأصناف منطلقا لدراسات عديدة فى الأدب الفرنسى ، وفى العديد من آداب العالم أنتجت كتبا قيمة فى التأريخ للأجناس الأدبية وللتيارات الأدبية ، والعصور الأدبية من منطلق ذوقى ٠

(ج) الصعوبات والأخطاء :

تقوم اللانسونية على الجمع ما بين الذوق أو التأثر من جهة والمعرفة أو العلم من جهة أخرى ، وانطلاق الباحث من أسس علمية عليه أن يتقيد بها ، ثم اتباعه خطوات عملية دقيقة لكشف خبايا النص ٠ وينتج عن ذلك صعوبات وأخطاء نابعة من طبيعة المنهج قد يقع فيها العديد من الدارسين ، أهمها :

١ – الصعوبات : يبحث الدارس فى الأثر الأدبى عن خصائصه الحسية والفنية منطلقا فى البدء من ذوقه ، معرضا نفسه بذلك للصعوبة

---

(٤٧) لانسون . المرجع السابق ، ص ٤٠٩ ٠

(٤٨) لانسون : المرجع السابق ، ص ٤١٢ ٠

الأولى ، اذ من الصعب على المرء التحكم فى أحاسيسه تحكما تاما ، فان تغلبت عليه جانب الصواب ، وان تغلب عليها هضم الأثر الأدبى حقه ٠ وهكذا تتجلى الصعوبة الأولى فى تأرجح الدارس بين موضوعية أحاسيسه وذاتيتها ٠

يهتم المؤرخون بالأحـــداث أو الوقائع العـــامة التي تكون ظواهر تاريخية ٠ ولذا فهم يحذفون الوقائع والأحداث الخاصة مثل خوف جندي في معركة ، ولا يحفلون به الا اذا عم وتسبب فى تغير الأحداث ٠ أما مؤرخ الأدب ، فهذا ما يهمه بالذات ، لأن خوف الجندي اذا كان مبدعا ، سيكون سببا فى ابداع أدبى أو عدة ابداعات ٠ أما خوف الجنود كلهم ، فلا يهم مؤرخ الأدب فى شيء ان لم يؤد الى أى ابداع ٠ ومعلوم أن الكشف عن الوقائع والأحداث العامة أسهل بكثير من الكشف عن الأحداث والوقائع الخاصة ، لعمومية الأولى وتفرد الثانية ٠ وبذلك يكون عمل مؤرخ الأدب حسب لانسون أدق وأمعن في التاريخ من عمل المؤرخ الذى يكتفى بالأحداث العامة (٤٩) ٠ وهذه هى الصعوبة الثانية سواء أوافقنا « لانسون » أم لم نوافقه فى تفضيل مؤرخى الأدب على المؤرخين ، النابع من صراع علمى بين المؤرخين الذين أقنعوا الناس بعلمية التاريخ ، وأساتذة الأدب الذين كانوا يحذون حذو المؤرخين ٠

الصعوبة الثالثة ، تتمثل فى البحث عن أصالة المبدع ومظهرها المتفرد المستقل بين التراكم الأدبى : « فأكثر الكتاب أصالة هو الى حد بعيد راسب من الأجيال السابقة وبؤرة للتيارات المعاصرة ، وثلاثة أرباعه مكون من غير ذاته » ، وتكمن الصعوبة فى السعى للفصل ثم الربط بين العنـاصر المكتسبة والفطرية فى تكوين أصالة المبدع ، اذ نكاد ننزلق فى جدل بيزنطى حول علاقة المبدع ببيئته ومجتمعه وأيهما يؤثر فى الآخر ٠ وبصرف النظر عن هذه الاشكالية ، فان فرز الفردى الخالص من الجماعى أمر صعب جدا ، يحتاج الى اطلاع واسع ومعرفة عميقة بالتضاريس الفكرية أو العاطفية أو السياسية ٠

أما الصعوبة الرابعة ، فتتمثل في صعوبة الفصل بين تأثير الأثر الأدبى فينا وتأثرنا به ، لأن خاصية الأثر الأدبى اثارة استجابات فى ذوق القارىء وأحاسيسه وخياله ، وكلما كانت تلك الاستجابات أعمق ، كنا أقل استعدادا لفصل أنفسنا عن ذلك الأثر ، فننساق وراء تخيلاتنا بدلا

---

(٤٩) لانسون : المرجع السابق ، ص ٣٩٩ ــ ٤٠٠ ٠

(٥٠) لانسون : المرجع السابق ، ص ٤٠٠ ٠

من الملاحظة ، ونعتقد أننا نعلم عندما نحس (٥١) ، فنجانب المنحى العلمى السـليم ٠

وزيادة عن هذه الصعوبات الأربع ، ثمة صعوبات أخرى أهمها تلك الصعوبة المرتبطة بطبيعة مادة تاريخ الأدب والمتمثلة فى المؤلفات الأدبية التى تشبه الآثار التاريخية من حيث انها مادة تاريخية ، الا أنها تختلف عنها اختلافا جذريا ٠ فالأولى ميتة بامكان المؤرخ التعامل معها بموضوعية ٠ أما الثانية فمادة تاريخية هى الأخرى ، ولكنها حية تؤثر فينا ، كما كانت تؤثر فى أول جمهور عرفها (٥٢) ٠ وتكمن الصعوبة هنا فى تعامل الدارس مع مادة حية ، قد يتعاطف معها فيستحسنها لتوافق ما ، بينها وبين ذوقه، وقد ينفر منها ويستقبحها ، خصوصا وأن أول خطوة فى الدرس الأدبى هى تعريض النص لذوقنا الشخصى ٠

وعموما هذه جملة من الصعوبات نابعة من طبيعة المنهج ، على الباحث التغلب عليهـا بالتزامه أسس المنهج النظـرية وخطواته العملية التزاما دقيقا وذكيا ٠

٢ ــ **الأخطـاء** : سبق القول بأن منهج « لانسون » يقوم على : « التأثر الشخصى والمعرفة الموضوعية التى تحد من ذلك التأثر وتراجعه وتفسره لصالحها » (٥٣) :

وسبق تبيان الصعوبات الناجمة عن التأثر الشخصى ، أما الأخطاء التى قد يتعرض لها الباحث أثناء اعداده لتلك المعرفة الموضوعية :

(أ) أول خطر قد نتعرض له خلال تطبيقنا لخطوات المنهج العملية هو الزيف أو النقص أو الكذب الذى يغلف معرفتنا بالنصوص أو الوقائع المرغوب دراستها ، نتيجة لجهلنا ببعض أعمال سابقينا والنتائج المحرز عليها ، أو لكسلنا ، حيث نسجل بسهولة ما انتهى اليه سابقونا نتائج نهائية ، وبخاصة اذا كانت تلك النتائج لا تتعارض ومعتقداتنا الشخصية٠ وعلم المراجع هو العلاج ، بما يوفره من معلومات متنوعة تساعدنا على الاقتراب من الحقيقة ما أمكن ٠ ولكن هذا العلم جاف لا طعم له ، يبذل فيه الباحث وقتا طويلا ، متنقلا بين المكتبات لمراجعـة الفهارس والموسوعات والمصادر والمراجع ، مسمرا فوق كرسى صلب ، يجمع الجذاذات وكأنه فأر مكتبة ــ على حد تعبير خصوم لانسون ــ وقد يحتاج إلى وسائل مادية

---

(٥١) لانسون : المرجع السابق ، ص ٤٠١ ــ ٤٠٢ ٠

(٥٢) لانسون : المرجع السابق ، ص ٣٩٦ ــ ٣٩٨ ٠

(٥٣) لانسون : المرجع السابق ، ص ٤١٤ ٠

معتبرة · الا أن هذا العيب قد يتقلص عندما يدرك الباحث أن علم المراجع وسيلة ، وليس غاية للكشف عن الحقيقة العلمية ، فيتحول البحث فى المراجع الى عمل علمى دقيق له حسناته الى جانب سيئاته ·

(ب) يكمن الخطر الثانى فى اقامة علاقات غير صحيحة ، اما لجهلنا وقلة معلوماتنا ، واما لتسرعنا فى استخلاص النتائج ، أو لثقتنا بالتفكير المنطقى ثقة عمياء ، علما بأن التفكير المنطقى فى العلوم التاريخية خداع لا يعطى نتائج مؤكدة الا فى العمليات البسيطة المباشرة ذات النتيجة الواحدة · أما التفكير المنطقى المركب ، فكثيرا ما يؤدى فى العلوم التاريخية الى نتائج مزيفة لأن مادة الأدب العواطف والأحاسيس ، وعادة ما تكون أعقد من التفكير المنطقى · وتفاديا لما سبق ذكره علينا « أن نخضع لنظام عقلى وأن نأخذ أنفسنا بالعمل البطىء الذى تنضج معه الفكرة » (٥٤) · أى لا نثق فى استنتاجاتنا الا بعد مراجعات ومقارنات مع غيرها من نتائج الآخرين ·

(ج) ويتمثل الخطر الثالث فى اسرافنا فى تقدير ملاحظاتنا والانسياق الأعمى وراءها ونسيان الامكانات الأخرى ، ثم السرعة فى تقدير نتائج ملاحظاتنا · فعندما نلاحظ تشابها بين كاتبين بينهما رباط ما ، نسرع الى الجزم بتأثر أحدهما بالآخر ، ونهمل احتمال تأثر الاثنين بمصدر واحد بقى مجهولا لدينا ، لقلة تنقيبنا عنه ·

يكمن خطر الاسراف فى تقدير ملاحظاتنا فى تركيز نشاطنا العقلى كله حول الواقعة التى ندرسها ، واهمالنا لبقية الوقائع ذات العلاقة بموضوع درسنا · فاللانسونية مثلا ، استمدت أصولها من فقه اللغة الألمانى ، الا أن هذه المعلومة لا ينبغى أن نضخمها حتى تحجب عنا الأصول الأخرى ·

(د) الخطر الرابع ، وذلك عندما نطلب من منهج خاص اعطاءنا نتيجة لا يعطيها الا غيره ، مثل محاولتنا تحديد قيمة عقلية أو أخلاقية لأثر ما ، من خلال حياة المؤلف ، انطلاقا من أن الابداع انعكاس لحياة المبدع · ولكن سرعة الاستنباط المنطقى تقودنا فى هذا الرأى النقدى الى نتائج خاطئة فقد يكون الأثر الأدبى انعكاسا لحياة المبدع ، وقد يكون رسما للوضع الاجتماعى الذى وجه له أو تبشيرا بما سيكون ·

(هـ) الخطر الخامس ، يكمن فى المبالغة فى قيمة النتائج المحرز عليها ، لأننا لا نحب أن يذهب جهدنا سدى ، فنبالغ فى قيمة ما توصلنا

---

(٥٤) لانسون · المرجع السابق ، ص ٤١٥ ·

اليه . فيصبح الممكن احتمالا ، والاحتمال ترجيحا ، والترجيح واقعا واضحا ، والفرض حقيقة ثابتة ، ويختلط الاستقراء والاستنباط بالوقائع التى صدر عنها . واذا بهما فى قوة الملاحظات المباشرة ، وبذلك نبتعد عن الموضوعية درجة أو درجات . على الباحث أن يتحلى بالحذر والقسوة على النفس تلافيا لذلك . بعد استعراض أسس اللانسونية وخطواتها وصعوباتها وأخطارها ، وما يتحتم على الباحث القيام بها لمجابهة كل ذلك نتساءل : أى منهج هذا ومن يقدر على تطبيقه ؟ لقد انتبه « لانسون » الى أن منهجه يبعث الرهبة فى النفوس ، ويصعب على فرد واحد تطبيقه بحذافيره فى التأريخ لأدب قومى معين : « والذى لا ريب فيه هو أنه لا يمكن أن تكفى حياة واحدة للمعرفة الكاملة » .

ولكن ما يعجز عنه عمر تستطيع أعمار أن تعمله . ان تاريخ الأدب الفرنسى مشروع جماعى . فليحمل كل حجره وقد أحسن تسويته ، وهذا لن يمنع أى انسان من أن يقرأ ما يريد للذته الخاصة » (٥٥) .

يكمل الحل ، اذن ، فى تقسيم العمل بين الباحثين ، اما تقسيما وظيفيا كأن يتخصص البعض فى تهيئة المادة الأولية ـ التحقيق ـ والبعض الآخر فى اعداد تراجم الأدباء ، وغيرهم فى شرح النصوص ، ليتمكن آخرون من التأليف فى المسائل الكلية اعتمادا على الأعمال الجزئية . واما تقسيما كميا كأن يخصص كل باحث أبحاثه لأديب واحد أو جنس أدبى أو عصر ، ليأتى غيره فيستخلص النتائج من الأبحاث المختلفة . وهكذا تنمو المعرفة الأدبية، شيئا فشيئا ، حتى يصبح التأريخ لأدب قومى تأريخا عمليا ، عملية ممكنة .

٥ ـ نحو تعريف اللانسونية :

من خلال استعراضنا للمنهج التاريخى ، كما حدده لانسون ، نستطيع القول : ان اللانسونية خطة عملية لدراسة الأدب والتأريخ له ، حسب المنهج التاريخى ، تتجمع بين الذوق والمعرفة فى التعامل مع الأثر الأدبى ، قصد الاستمتاع به ، وفهمه فهما عميقا ، بغية الحكم عليه ووضعه موضعه الخليق به ضمن نتاج مبدعه أولا ، ثم ضمن نتاج عصره ثانيا . وأخيرا لترتيبه ضمن جنس أدبى من حيث صياغته ، وضمن تيار فكرى من حيث افكاره ، وضمن عصر معين من حيث ذوقه .

---

(٢٥) لانسون : المرجع السابق ، ص ٤٢٠ .

ان اللانسونية منهج علمى لتقيدها بالروح العلمية فى خطوات البحث النابعة من طبيعة المادة الأدبية نفسها ، تسعى الى الاستمتاع بالنص الأدبى ومعرفته معرفة موضـوعية ما أمكن ، مستعينة فى ذلك بعلوم المساعدة لكشف خبايا النص · والقصد من كل ذلك ، الكشف عن خبايا النفس البشرية ـ ممثلة فى الآثار الأدبيـة ـ بكسر القيـود والحواجز الفردية والقومية ، سعيا نحو ذوق وفكر انسانيين ·

الفصل الثالث

تجليات اللانسونية

رأينا في الفصل السابق كيف جعلت اللانسونية تاريخ الأدب مؤسسة علمية (١) ، لها منهجها في البحث ، وميدانها ، ومختصوها ، فتميز تاريخ الأدب عن النقد بميدانه الذى يشمل : « نقد السيرة ، دراسة الوسط ، التأثيرات ، الحركات ، المدارس ، كل ما يتطور عبر الزمن ، كل ما يربط الأثر الأدبي بالماضي ، بالحاضر وبالمستقبل ، كل ما يضع الأدب موضعا معينا في الحضارة العامة » (٢) · فصار بذلك تاريخ الأدب جزءا من تاريخ الحضارة ، لأنه مظهر من مظاهر الحياة القومية ، نجد فى سجله الفنى الطويل كل تيارات الأفكار والمشاعر التى غذت الأحداث السياسية والاجتماعية · كما نجد الحياة النفسية الدفينة ، بآلامها وأحلامها ، التى لم تتحقق فى الحياة العملية وتحققت أفكارا وعواطف وأحاسيس ، فى آثار أدبية تنمو وتتطور بتطور الانسان عبر الزمان والمكان · وعلى هذا الأساس يتتالى صدور كتب تاريخ الأدب برؤية « لانسونية » فى فرنسا ، وفى غيرها من البلدان ، مبرزة عصورا وفنونا وتيارات وأذواقا ، مثل كتابات أحمد ضيف ، وطه حسين ، ومحمد مندور وشوقي ضيف ، وعلي جواد الطاهر ، وناصر الدين الأسد ، وجودت الركابى ، وغيرهم فى التأريخ للأدب العربى عصورا وفنونا وتيارات وأذواقا ·

لقد استعانت اللانسونية بالروح العلمية لضمان أكبر قدر من الموضوعية فى تطبيقها للمنهج التاريخى · كما استعانت بجملة من العلوم المساعدة والفنيات حتى تنفذ الى أعماق النص الأدبى ، مطورة بذلك فنيات

(١) Ehrad (Jean) : *Histoire des idées litterained (In Problèmes et methodes de l'histoire littéraire)* société d'histoire litteraire de france, p. 68.

(٢) Rudler (Gustave) : *Techniques de la critique et de l'histoire litteraire*. Ressources. Paris, Geneve 1979, pp. 14.

كثيرة للبحث الأدبي مثل التنقيب عن النصوص أو تحقيقها ، وشرح النصوص · كما وسعت حقولا معرفية تشترك معها في جوانب مثل الأدب المقارن وعلم اجتماع الأدب · وفي الصفحات التالية سنحاول توضيح دور اللانسونية في تطور تلك الفنيات ، وتوسع الحقول المشار اليها ، أي سنبحث عن تجليات اللانسونية من خلال الفنيات والحقول المذكورة ··

١ ـ اللانسونية والتحقيق « Erudition »

رأينا ، أثناء استعراضنا لخطوات المنهج التاريخي العملية ، مدى اهتمام لانسون بتحقيق النصوص ، فهو يرفض دراسة نص غير محقق لأن أول شرط للدراسة العلمية الانطلاق من نص ثابت النسب ، كامل ، مفهوم ، كي تكون أحكامنا في محلها لا يشوهها نقص أو تحوير · وللوصول الى نص تتوفر فيه الشروط المذكورة ، لابد من القيام بأبحاث وتنقيب حول النص وصاحبه والسبل التي سلكها حتى وصل الينا ، مستعينين في ذلك بعلم المخطوطات والدراسات الببليوجرافية ، ودراسة سير وتراجم المؤلفين ·

لقد وضح لانسون أهمية التنقيب والتحقيق في مقدمة خطوات المنهج العملية ، ثم في المراحل الثلاث الأولى ، عندما أبرز أهمية الانطلاق في البحث من نص ثابت كامل ، الا أنه لم يفسر آليات التنقيب (التحقيق) أو يشرحها شرحا كافيا ، رغم أن الكثير من الاشارات التاريخية لأسلوب عمله مع تلاميذه تتحدث عن احتفائه بالتنقيب عن النصوص ، وتسخير تلاميذه للقيام بذلك ، لدرجة أن أعداءه عابوا عليه تحويل درس تاريخ الأدب الى بحث ببليوجرافي عقيم ، أساسه مقابلة النسخ المختلفة وجمع البطاقات وترتيبها ، الأمر الذي لا يفيد الطالب شيئا في تكوين ملكته الأدبية · ومهما كانت قيمة هذا الرأي ، فانه يدل على تدريب « لانسون » لطلابه على التنقيب عن النصوص وتحقيقها قبل دراستها · لقد أصدر تلميذه جوستاف رودلير اعتمادا على دروسه ونصائحه كتابه الشهير «تقنيات النقد وتاريخ الأدب » (١٩٢٣) خصص الفصل الرابع منه لما أسماه : « النقد التصحيحي Critique de restitution » ، واستهله قائلا : « لا ينبغي أن نعمل الا على نص صاف » (٣) ·

وللحصول على نص صاف ، لابد من بحث وتنقيب وترميم ، حتى تحذف الزيادة أو يستكمل النقص ، وتتضح نسبته ومستغلقاته · شرح « رودلير » في هذا الفصل كل تقنيات التصحيح ، على حد تعبيره ، أو

---

(٣) Rudler (G.) : Idem, p. 59.

النتقيب ، على تعبير أستاذه ، أو التحقيق كما هو متعارف عليه الآن ، بالنسبة للنصوص المخطوطة والمطبوعة على حد سواء · بدأ « رودلير » الفصل بالاشارة الى أن الكثير من النصوص المطبوعة خاطئة نظراً لتراكم الأخطاء المطبعية من طبعة الى أخرى لأسباب عدة ، أو لنشر مخطوط لا يمثل النص كاملا ، ومن ثم فالتحقيق يشمل المخطوط والمطبوع أيضا (٤) · ولتحقيق نص لابد من جمع نسخة (مخطوطات ، أو طبعات مختلفة) ، وترتيبها انطلاقا من النسخة الأم الى أبعد نسخه (٥) ، حسب شروط ترتيب النسخ المعروفة الآن ، ثم تدرس من حيث الورق والخط والحبر والمعلومات التاريخية الواردة فيها ، وما سجل فى حواشيها من ملاحظات القراء وانطباعاتهم ، لتكون كل تلك الأمور مفاتيح تهدى المحقق الى استخراج النص الأسلم (٦) ، عن طريق قراءة النص جملة جملة انطلاقا من النسخة الأم وانتهاء بآخر النسخ ، ثم الرجوع الى القواميس اللغوية التاريخية والموسوعات والكتب المحققة حول الموضوع أو المجال نفسه ، لتبين ما قد يصدر عن صاحب النص وما لا يصدر عنه ، لترجيح النص النهائى ، مع الاشارة الى الفروق الجوهرية بين النسخ (٧) · وبذلك يصل المحقق الى النص الصافى أو الأقرب من الصفاء ·

لقد شرح « رودلير » فنيات التحقيق خطوة خطوة ، مقدما أمثلة توضيحية على كل خطوة ، مقننا بذلك توجيهات أستاذه ، لتساهم بذلك اللانسونية فى تطوير « منهج التحقيق » الذى أحيا روائع أدبية كاد النسيان أن يطويها فى مختلف الآداب · ثم أضاف المستشرق الفرنسى « ريجيس بلاشير Blachere Regis » (١٩٠٠ ــ ١٩٧٣) ــ الذى كان من اللانسونيين (٨) ــ لبنة أخرى فى بناء صرح « فن التحقيق » اللانسونى عندما ألف كتابه « قواعد تحقيق النصوص العربية وترجمتها » (٩) بالاشتراك مع المستشرق سوفاجى Sauvaget فصار ذلك الكتاب عمدة الطلاب العرب الذين درسوا بفرنسا ، بعدما كان دروسا متداولة يستقيها خلف عن سلف · فليس من قبيل الصدفة ــ اذن ــ أن يعرف «منهج التحقيق» ازدهارا كبيرا فى الوطن العربى ، ابتداء من عشرينيات هذا القرن ، ليبلغ

---

(٤) Rudler (G.) : Idem pp. 59-60.

(٥) Rudler (G.) : Idem pp. 61-64.

(٦) Rudler (G.) : Idem. pp. 65-68.

(٧) Rudler (G.) : Idem. pp. 68-96.

(٨) د· الكيلانى (ابراهيم) : مقدمة لترجمة كتاب تاريخ الأدب لبلاشير ، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ١٩٨٥ ، ص ٦ ·

(٩) Blachere et Sauvaget : Regles pour edition et traduction de textes Arabes.

ذروة عطائه فى منتصف القرن ، فحققت نصوص أدبية عديدة ساهمت فى نشأة وتطور تاريخ الأدب العربى · وبذلك ، يمكننا القول ان الكثير من المحققين العرب لانسونيون من حيث لا يدرون ، فهم يطبقون خطوات لانسونية ، وينجزون مرحلة من مراحل العمل اللانسونى ·

٢ ـ اللانسونية وشرح النصوص :

ترجع صلة « لانسون » بشرح النصوص الى فترة عمله أستاذا فى التعليم الثانوى ، حيث حلل وشرح الكثير من نصوص الأدب الفرنسى لتلاميذه ضمن مقرر « شرح النصوص » · وفى سنة ١٩٠٢ م ، كان لآرائه وأفكاره حول اصلاح التعليم الثانوى القسط الوافر فيما يتعلق بمقرر « شرح النصوص » حيث صار كتابه « تاريخ الأدب الفرنسى » كتاب الأستاذ ، يزوده بكل المعلومات التاريخية التى يحتاجها لشرح نصوصه (١٠) · ولما نشر مقاله حول « المنهج التاريخى » (١٩١٠ م) خصص ضمن الخطوات العملية الخطوة السادسة للمعنى الحرفى للنص ، والخطوة السابعة للمعنى الأدبى · ويقصد بالمعنى الحرفى ـ كما سلفت الاشارة ـ شرح المفردات والصيغ والتراكيب ، وتحليل البناء اللغوى للنص حسب المعنى الذى ذهب اليه مبدعه ، وليس حسب المعنى الدلالى لتلك المفردات والصيغ والتراكيب الآن واذا أراد الباحث أن يصل الى المعنى اللغوى الذى قصد اليه المؤلف ، فان عليه أن يرجع الى القاموس اللغوى التاريخى ، وكتب فقه اللغة ، والكتب التى تناولت فترة ابداع النص ، للكشف عن دلالات النص فى عصره · أما المعنى الأدبى ، فهو تحليل النص تحليلا أدبيا ، اعتمادا على الذوق أولا بغية الكشف عن قيمه الفنية والعقلية والعاطفية التى نراها باحساساتنا وذوقنا ، ثم باحساسات المؤلف وذوقه ثانيا ، من خلال الرجوع الى سيرته والظروف التاريخية المحيطة به (١١) · ويفصل الحديث فى مقالته « كلمات حول شرح النصوص » (١٢) (١٩٢٣م) حول هذا الموضوع ، فيتتبع نشأته مذ كان وسيلة للوعظ والارشاد فى التعليم الدينى ، ثم وسيلة للبحث البلاغى والنحوى ، فمعلومات عامة حول الأديب وأدبه · وحين نضجت اللانسونية صار « شرح النصوص » تحليلا للنص بالكشف عن مكوناته (المفردات ، التراكيب ، الجمل) وتذوق مضمونه (المعنى الأدبى : الأفكار والأحاسيس والصور ، وغير ذلك) ، بغية

---

(١٠) Compagnon (A.) : Opcit., pp. 82-83.

(١١) لانسون : المرجع السابق ، ص ٤١٠ ·

(١٢) Lanson (G.) : *Quelqued mots sur l'explication des textes* : (in Methodes de l'hirtoire litteraire et hommeset livres), pp. 38-57. (Annexe).

الاستمتاع بالنص والاستفادة من معانيه وأفكاره • ثم يفصل الحديث عن المعنى الحرفى للنص وأهمية معرفة مكوناته فى الفهم ، وبالتالى فى التذوق الذى لا يمكن أن يحدث قبل الفهم ، ليصل بذلك الى تنمية أذواق الطلاب الأدبية ، وتزويدهم بأفكار ومبادىء تجعلهم مواطنين صالحين • وبديهى أن يحظى شرح النصوص بهذا الاهتمام عند لانسون الأستاذ والمربى ؟ فبدون ذلك لا تتم العملية التربوية فى مجال الأدب ، اذ بعد العلم بالنص ورؤيته لابد من قراءته ، وكل قراءة لا تتم ذهنيا الا باستيعاب القارىء لمضمون النص والاستمتاع به ، وللوصول الى ذلك عليه أن يغوص فى أعماقه ، يقوده الى ذلك الأستاذ بتحليل المعنى الأدبى والمعنى اللغوى ، أى بشرح النص • ومهما تغير مصطلح هذه العملية بين المدارس النقدية ، فان جوهرها يبقى وصول القارىء الى مضمون النص وتذوق بنائه اللغوى والأدبى ، والا ستبقى القراءة مجرد عملية ميكانيكية صوتية يقوم بها القارىء دون أى هدف •

لقد اعتبر لانسون « شرح النصوص » خطوة عملية أساسية فى منهجه ، يستعين بها مؤرخ الأدب للكشف عن جوانب الظاهرة الأدبية حتى يسهل عليه ، بعد ذلك ، الحكم الأدبى ولا يتم التأريخ لأدب معين الا بعد شرح نصوصه وفهمها ، فصار بذلك شرح النصوص مجالا من مجالات اللانسونية ، يكتفى به بعض الدارسين ، فيشرحون نصوصا ويكشفون جوانبها ليأتى بعد ذلك مؤرخ الأدب فيستعين بنتائج تلك الأعمال ليكمل صرح بنائه التاريخى •

والخلاصة أن « اللانسونية » أخرجت « شرح النصوص » من العموميات التى كانت تسبح فيها فى القرن التاسع عشر ، وحولته الى منهج له وسائله ووظيفته •

٣ ـ اللانسونية والأدب المقارن :

من عناصر اللانسونية الأساسية ، البحث عن مصادر وأصول الأثر الأدبى ، ثم تتبع تأثيراته فى معاصريه واللاحقين (١٣) • فقد لاحظ لانسون أن المصادر والتأثيرات وجهان متعاكسان لشىء واحد هو الأثر الأدبى ، حيث يستقى المؤلف موضوعاته وأفكاره وصوره من مصادر ، فيتمثلها ثم يصوغها بطريقته الخاصة محورا فيها أو مضيفا اليها أو منقصا منها حسب ما تمليه عليه عبقريته ، وبيئته ، ويبثها فى الناس ، ليتأثر بها غيره ،

---

(١٣) لانسون : المرجع السابق ، ص ٤١١ •

وبذلك تصبح مصادر للغير ، وتدور بذلك عجلة التطور الفكرى · وقد يعتقد قارىء « مقالة لانسون » أن المصادر والتأثيرات المشار اليها فى المقالة لا تخرج عن نطـاق الأدب القومي الواحد ، الا أن كتبه ومقـالاته تقول غير ذلك ·

ففى مقاله له « حول مفهوم التأثر » (١٩٠١ م) ، يرى أن « التأثر الحقيقى هو أن نلاحظ فى أدب ما ، فى اتجاهه أو شكله ، تحويرا مفاجئا لا يشرحه الموروث الأدبى ولا الأصالة الفردية ، لأن الشرح الوحيد لذلك هو دخول شيء من روح أو ذوق أجنبيين » (١٤) ·

لا يقتصر التأثر أو التأثير اذن على الأدب القومي وحده ، بل يتعدى ذلك الى الآداب الأجنبية ، حيث نجد من حين لآخر موضـوعات وأفكارا وصورا أدبية تظهر فجأة فى أدب قومي معين لا أصل لها فى تراث الأدب القومي ، ولا مبرر لظهورها فى تلك البيئة ، ولا يكشف سرها الا البحث عن التأثيرات والتأثرات المتبادلة بين الآداب · وللتأثيرات الأجنبية دور مهم فى اثراء الأدب القومي وتجديده وتغذيته بأفكار جديدة تكون المنطلق لتوليد أفكار أخرى ، وبذلك يكتسب الأدب القومي حيوية وقدرة على التجديد ، تساعده على الانعتاق من تكرار النموذج القومي الموروث ، الذى يتحول الى قيد عندما يصبح النموذج المقتدى · وهذا ما بينه لانسون فى مقالة حول « وظائف التأثيرات الأجنبيـة » (١٩١٧ م) عندما أوضح أن التأثيرات الأجنبية فى أدب قومي معين ليست عيبا أو مصيبة وطنية ، فالعقل الوطنى هو الذى يلجأ اليها سعيا نحو المزيد من الحقيقة ومزيد من الجمال ، فيكون الرابح دوما عندما يكتسب فكرة جديدة · فالعقل الوطنى هو الذى يكتسب الأفكار الأجنبية ويستفيد منها ، وليست الأفكار هى التى تستفيد من العقل الوطنى ، فهى ليست بحاجة اليه ، الا فى القليل النادر من الحالات ·

اذن فالتأثيرات الأجنبية تجديد للعقل وليست انقاصا له ، كما أنها تحرر العبقرية الوطنية من تمسكها بآثار قومية صارت قوالب يتحتم على المبدعين النسج على منوالها ، فتأتى التأثيرات الأجنبية بنماذج جديدة ، لتحرر العبقرية الوطنية من الجمود (١٥) ·

حظى التأثير والتأثر باهتمام كبير عند « لانسون » ، لادراكه المبكر (١٩٠١ م) بأن ثلاثة أرباع الأثر موروث ، بين موروث قومي ، أو موروث

---

(١٤) Lanson (G.) : *Sur la notion d'ınfluence in Essais de me-thode, de critique et d'histoire litteraire*, p. 96.

(١٥) Lanson (G,) : *Donctions des influences étrangMres* (in : Essais de methode). pp. 89-91.

أجنبي ، وأن أى أدب قومي لا يتجدد ، ولا يكسر قيود نماذجه الابداعية ، الا بالتأثر بغيره من الآداب ، فيطعم الأحاسيس ، ويجدد الأفكار ، فتدور بذلك عجلة التطور الأدبي ·

كانت فكرة التطور الأدبي ، عند لانسون ، منطلقا جديدا للأدب المقارن بفرنسا (١٦) ، أكسبته ميادين جديدة مثل : المصادر والتأثير ، والتأثر ، والنجاح ، والشهرة ، خلصته من المقارنات الاعتباطية المبنية على الصدفة أو مجرد التشابه بين أدباء لا تربطهم أية صلة ، لتجعل من الصلة التاريخية الثابتة منطلق الدراسة الأدبية المقارنة ، قصد تبيان عبقرية أحد طرفي المقارنة ، عند الكشف عن الاضافة التي أضافها الى مصدر التأثير ، أو النقصان الذى ألحقه ، وأسباب كل ذلك · فخرج الأدب المقارن بذلك من الدراسات والنتائج الاعتباطية ، متحولا الى منهج علمي ، ينطلق من أسباب ثابتة ليصل الى نتائج معينة ، ومن ثم يكون تعليل النتائج ذا فائدة علمية ·

من هنا ، ارتبطت مسيرة الأدب المقارن في فرنسا بالمنهج التاريخي : « لئن استطاع الأدب المقارن أن يحقق تقدمات خطيرة في فرنسا على يد تيكست ومن نهجوا على غراره وأكملوا عمله ، فلأن مناهجه قد سارت على خطى مناهج التاريخ الأدبي القومي (···) وانكم لتعلمون أن الذى بدأ هذه الحركة التجديدية في تاريخ الأدب الفرنسي المعاصر ، وزاده هذه الدراسة دقة ووثوقا ، سواء من الناحية الفيلولوجية أو من الناحية التاريخية ، هو جوستاف لانسون ، الذى غدا تأثيره ابتداء من عام ١٨٩٥م ، فوق كل تأثير · فكان يدعو ، من قريب ومن بعيد ، بتدريسه في دار المعلمين والسوربون ، وبتوجيهاته العملية وارشاداته ، وكتبه ومقالاته ، الى دراسة مسائل التاريخ الأدبي بعد توسع في الاطلاع ومع دقة في النقد ، مما كان يفرض نفسه أكثر ، فكان لهذا الجو الفكرى الذى أوجدته نصائحه وأوجده الاقتداء به تأثير محقق في نمو الأدب المقارن ، واستطاع تلاميذه ، وقد سلحهم أستاذهم الذى ترعرع في مدرسة مختلفة عن هذه المدرسة كل الاختلاف بأدوات كان عليه أن يصنعها لنفسه واحدة واحدة ، استطاع هؤلاء التلاميذ أن يوغلوا في هذا الطريق ، وأن يصلوا الى أبعد مما وصل اليه أستاذهم » (١٧) · ساهم لانسون في تطوير المدرسة الفرنسية للأدب

---

(١٦) Baldens perger (Fernand) : *Literature comparée : le mot et la chose. Revue de la littérature comparée*. No. 1. Paris, 1921. pp. 24-25.

(١٧) تيجم (فان) : **الأدب المقارن** (المترجم مجهول) ، دار الفكر العربي ، د·ت · ص ٤٢ ـ ٤٣ ·

المقارن ، بمنهجه التاريخي ، الذى أصبح فى مجمله منهج الأدب المقارن(١٨)، وباشرافه على الكثير من رسائل وأطراحات الأدب المقارن (١٩) ، وبتلاميذه الذين ساعدوا كثيرا على تطور الأدب المقارن وبلورته ، انطلاقا من اهتمامهم الكبير بدراسة المصادر والتأثيرات أمثال « رودلير » الذى خصص فصلا كاملا لدراسة التأثيرات في الأدب المقارن ، منطلقا من أن المصادر والتأثيرات وجهان متعاكسان للظاهرة الأدبية « تكون دراسات التأثير فى صورتها الأولية ، دراسات معكوسة بالتقريب للمصادر » (٢٠) · ومن ثم ، فالأدب المقارن عنده لا يتعدى نطاق التأثيرات : « الأدب المقارن حالة خاصة لنقد التأثيرات · تأسست فنياته مؤخرا بسبب تعقد مسائله التى تتطلب مناهج ثابتة ، مرتبطة بتطور تواريخ الآداب القومية · وبصفة عامة ، نرى الأدب المقارن تاريخا للتبادلات أو تداخل الشعوب » (٢١) ·

تشبعت المدرسة الفرنسية فى الأدب المقارن ، بالروح التاريخية ، لانطلاقها منها في دراسة المصادر والأصول من جهة ، ثم التأثيرات والانتشار والشهرة من جهة ثانية · وبذلك ، ارتبط الأدب المقارن بالتاريخ الأدبى عند كبار المقارنين الفرنسيين : « ان الأدب المقارن فرع من التاريخ الأدبى لأنه دراسة العلائق الروحية والصلات الواقعية التى توجد (····) بين المنتجات والالهامات ، بل بين حيوات الكتاب المنتمين الى آداب عدة » (٢٢)· ومن ثم ، نستطيع القول أن اللانسونية كانت المنطلق العلمى للمدرسة الفرنسية فى الأدب المقارن ، طبعتها بطابعها التاريخي ، ووسعت ميادين بحثها بتدقيق منهجى صارم ، عيب عليها أحيانا · ويصعب الفصل عموما بين اللانسونية والمدرسة الفرنسية فى الأدب المقارن ، حتى منتصف القرن العشرين ، أى طيلة فترة ازدهار اللانسونية وذيوعها ، الأمر الذى يجعلنا نستنتج أن المقارنين العرب الأوائل ، أمثال الدكتور محمد غنيمى هلال ، والدكتور حسن النوتى ، والدكتور أنور لوقا ، والدكتور عطية عامر ، الذين تتلمذوا على جان مارى كارى J. M. Carré تلاميذ للانسونية ، درسوا الأدب المقارن دراسة تاريخية (٢٣) ، ناشرين بذلك المنهج التاريخى

---

(١٨) تيجم (فان) : المرجع نفسه ، ص ٦٦ ·

(١٩) تيجم (فان) : المرجع نفسه ص ٤٥ ·

(٢٠) Rudler (G.) : opcit., p. 159.

(٢١) Rudler (G.) : Idem. p. 160.

(٢٢) كارى (جان مارى) : مقدمته للكتاب جويار مايوس فرانسوا : **الأدب المقارن** (ترجمة محمد غلاب) لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٥٦ . ص ٥ ·

(٢٣) د· عامر (عطية) : **تاريخ الأدب المقارن فى مصر** ، ضمن أعمال الملتقى حول الأدب المقارن عند العرب ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ص ٣٦ ـ ٣٨ ·

فى الجامعات المصرية أولا ، وفى جامعـــات عربية بوســـاطة كتاباتهم وتلاميذهم ٠

من هنا ، يحق القول بأن المدرسة الفرنسية فى الأدب المقارن وجه من وجوه اللانسونية ٠

٤ ـ اللانســونية وعلم الاجتمــاع :

تتلخص علاقة علم الاجتماع بالدرس الأدبى ، أو ما يسمى بعلم اجتماع الأدب ، عموما فى ثلاثة مجالات أساسية (٢٤) ٠

١ ـ المضمون الاجتماعى للأدب ، على اعتبار أن الأدب تصوير للمجتمع وتعبير عنه ، من خلال حساسية وذوق المبدع ٠ ولقد تطورت هذه الرؤية منذ بداية القرن التاسع عشر حتى الآن ، بتطور الفكر السياسى والأدبى ٠

٢ ـ تأثير الأدب فى المجتمع ، من حيث أن المبدع لا يبدع لنفسه ، وانما لغيره ، لأن العملية الابداعية لا تتم وظيفيا الا اذا تم اللقاء بين المبدع والمتلقى ، جمهورا معينا كان أو خياليا ، وحدوث عملية التأثير ، عن طريق استيعاب وتقبل المتلقى للأثر أو رفضه بعد الاطلاع عليه ، واتخاذ موقف منه : وتدرس هــذه الظــاهرة بالبحث عن مظــاهر نجاح الأثر وشهرته وتأثيراته ٠

٣ ـ سوسيولوجيا الكاتب وحرفة الأدب ومؤسساته ، أو المؤسسة الاقتصادية للانتاج الأدبى ، فيدرس الدارس المبدع دراسة اجتماعية معتمدا فى ذلك على حياته وثقافته وبيئته الاجتماعية التى كونت شخصيته ، منتهيا باقتصاديات الآثر الأدبى ، فيدرس الطباعة والنشرة والقراءة وعلاقة كل ذلك بالأثر الابداعى ٠ يرجع الاهتمام بعلاقة الأدب بالمجتمع الى مطلع القرن التاسع عشر ، عندما تحدثت الســيدة دوستايل Mme De Stael (١٧٦٦ ـ ١٨١٧ م) عن « الأدب وعلاقته بالمؤسسة الاجتماعية » ، ضمن كتابها الذى يحمل العنوان نفسه ، ثم تبعها « تين » بنظريته الشهيرة التى تمثل المجتمع بعناصرها الثلاثة ٠ « وفى بداية القرن العشرين (٠٠٠) تساءل لانسون عن علاقة تاريخ الأدب بعلم الاجتماع » (٢٥) ، فى محاضرة ألقاها سنة ١٩٠٤ م ، بطلب من زميله عالم الاجتماع الشهير اميل دوركايم،

---

(٢٤) وارين (أوستن) ورويليك (رينيه) : نظرية الأدب (ترجمة محيى الدين صبحى) المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، دمشق ، ١٩٧٢ ، ص ١٢١ ٠

(٢٥) Tadié (Jean Yves) : *La critique litiraire au* 20ème siècle. Belford, Paris 1987, p. 155.

على طلبة مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية ، ثم نشرها فى مجلة « الميتافيزيقا والأخلاق » فى السنة نفسها ·

ذكر فى هذه المحاضرة أن الاهتمام بعلاقة الأدب بالمجتمع يرجع الى السيدة دوستايل ، ففيلمان وتين وبرونتيير الذين اهتموا بعلم الاجتماع الأدبى ، من خلال ربطهم بالمجتمع فى علاقات متنوعة ومتداخلة ، كل حسب رؤيته (٢٦) · أما هو فيرى أنه : « كل أثر أدبى ظاهرة اجتماعية · فهو فعل فردى ، الا أنه فعل اجتماعى للفرد · فالطابع الأساسى للأثر الأدبى ، أن يكون تواصل فرد مع مجتمع » (٢٧) · ومن هذا التواصل بين الفرد والمجتمع أو العكس ، بوساطة الأثر الأدبى ، يستنتج لانسون علاقة تاريخ الأدب بعلم الاجتماع ، وتتمثل فى المضمون الاجتماعى للأدب ، أو تعبير الأدب عن المجتمع ، ثم تأثير الأدب فى المجتمع ، وأخيرا الاهتمام بالأديب من حيث حياته وبيئته (٢٨) · وبذلك يكون « لانسون » قد سطر محاور علم الاجتماع الأدبى منذ سنة ١٩٠٤ م ، وأبرز أهميته بالنسبة للعلم بصفة عامة ، وتاريخ الأدب بصفة خاصة · وتواصل اهتمام اللانسونية بعلم الاجتماع الأدبى عند أتباعها لاقتناعهم بأنه ــ أى علم الاجتماع الأدبى ــ لا يخرج عن نطاق « التأثير » بمفهومه الواسع : « يدرس النقد الاجتماعى علاقات الأدب بالمجتمع ، من خلال الآثار الأدبية ، الشاهد الأفضل وربما الوحيد ، على عادات وتقاليد وأفكار وأحاسيس ، ومؤسسات وتيارات وحركات ، أثرت فى محيط أوسع من المحيط الأدبى · وبالتالى فالنقد الاجتماعى فى مجمله نقد للتأثيرات » (٢٩) ، وبذلك يكون علم الاجتماع الأدبى دراسة عكسية للمصادر والأصول ، كما هو مبين سابقا · جعل لانسون دراسة « حياة الكاتب » وصدور الأثر الأدبى عن مزاج أو أمزجة معينة ونجاح الأثر الأدبى وتأثيره عناصر أساسية فى خطوات منهجه العلمية (٣٠) ، راسما بذلك الوجه الآخر للمصادر والأصول ، ومن ثم يجعل المنهج التاريخى سلسلة من الحلقات الاجتماعية ، لأن أى تأريخ دراسة لوضع اجتماعى معين · وهكذا ، يمكننا القول بأن لانسون انتبه الى العلاقة المتينة والمتشابكة ما بين الأدب والمجتمع ، فدرسها وأبرز أهميتها ووضع أسسها العلمية مساهما بذلك فى تطور علم الاجتماع الأدبى الذى تحول الى منهج علمى مهم ، قدم نتائج علمية مهمة فى دراسة الأدب ،

---

(٢٦) Lanson (G) : *L'histoire litteraire et la sociologie* (In essais de methode), pp. 64-65.

(٢٧) Lanron (G) : Idem. pp. 65-66.

(٢٨) Lanson (G) : Idem. pp. 66-80.

(٢٩) Rudler (G.) : Opcit., pp. 176-177.

(٣٠) لانسون : المرجع السابق ص ٤١١ ·

والمساهمة فى التاريخ له ، من خلال دراسات متعددة للانسونيين • ومن ثم، يمكننا القول بأن الكثير من الدراسات الاجتماعية للآداب صدرت عن المدرسة اللانســونية ••

٥ ـ انتشـــار اللانســـونية :

كانت اللانسونية رؤية تركيبية (Synthese) للجو النقدى والفلسفى والعلمى الذى ساد فرنسا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، جمع فيها لانسون ما بين حلاوة الذوق ونقاء المعرفة فى التأريخ للأدب تأريخا يقترب من الحقيقــة ما امكن • فجاءت نغمــة جديدة ترضى أذواقا عديدة بطابعها التركيبى ، فاعجب بها شــباب الجامعــة الفرنسية ، ثم تعدى الاعجاب الحرم الجامعــى (٣١) ، لتصبح موجة علمية ســادت الأوساط الجامعية الفرنسية ، وأوساطا جامعية أخرى ، طيلة النصف الأول من القرن العشرين (٣٢) • انتشرت اللانسونية وذاعت بفضل جهود «لانسون» نفسه ، الذى كرس حياته للتعليم والبحث والكتابة • ففى مجال الكتابة ، الف الكثير من الكتب أشهرها كتابه « تاريخ الأدب الفرنسى » ١٨٩٤ م ، الذى كان المرجع لطلبة الجامعة والثانوى من فرنسيين وأجانب (٣٣) ، ونشر الكثير من المحاضرات والأبحاث والدراسات ، منها مقالته الشهيرة التى حـــدد فيهـــا أسس وقواعــــد وخطـــوات « المنهج التـــاريخى فى دراسة الأدب » •

وفى مجال التعليم ، درس الفصاحة الفرنسية ، ثم تاريخ الأدب الفرنسى فى القرن الثامن عشر ، للمئات من الطلبة الفرنسيين والأجانب الذين أعجبوا بمنهج أستاذهم وروحه العلمية • كما أشرف على العديد من الرسائل والأبحاث لطلبة ، صاروا جيش اللانسونية ، الناشر لها والمدافع عنها ، منهم جوستاف رودلير ، ودانييل مورني ، وأندرى موريتز ، وجورج أسكولى ، وجوستاف كوهين ، وجوستاف ميشو ، وفيرنان بالدنسبرجر ، وفان تيجم ، وبول توفرو ، وهنرى بيرى ، وجان مارى كارى ، وريجيس بلاشير ، وغيرهم • أعجب تلاميذ « لانسون » بمنهج أستاذهم ، فطبقوه فى دراساتهم وأبحاثهم كل حسب تخصصه ، ثم وجهــوا تلاميذهم من فرنسيين وأجانب ، نحو هذا المنهج ، فصارت اللانسونية بذلك منهج البحث الأدبى فى جل الجامعات الفرنسية •

---

(٣١) Poncet (André François) : Lanson. *Société des amis de l'écolenormle*, p. 11.

(٣٢) Escarpit (R.) : Opcit., 1783.

(٣٣) Pommier (Jean) : Lanson. *société des amis de l'école* p. 44.

كما انتشرت « اللانسونية » خارج فرنسا بفضل تلاميذ لانسون وأنصاره ، فالى بريطانيا حملها « جوستاف رودلير » التلميذ المتعصب ٠ والى الولايات المتحدة الأمريكية حملها أندرى موريتز (٣٤) ٠ والى كندا حملها جوستاف كوهين ٠ وحملها ، الى مختلف أصقاع العالم ، الكثير من الطلبة الأجانب الذين تتلمذوا على لانسون نفسه أو على تلاميذه ٠ وهكذا عرفت اللانسونية انتشـــارا واسعا فى فرنســا ، ثم بريطانيا وأمريكا وغيرها من بلدان العالم ، وصار المنهج التاريخى ، منهج البحث الجامعى فى الأدب طيلة النصف الأول من القرن العشرين وأنتج الكثير من تواريخ الآداب القومية ، مثل تاريخ الأدب الفرنسى للانسون ، وتاريخ الأدب العربى لريجيس بلاشير ، والكثير من الرسائل والأطروحات الجامعية فى تاريخ الأدب ، والأدب المقارن ، وعلم الاجتماع الأدبى ، والتحقيق ، وغير ذلك من الدراسات والأبحاث ٠

٦ ــ التطرف فى اللانســـونية :

كانت اللانسونية فى أساسها حربا على التعصب والتزمت : فقد حارب لانسون التعصب فى البحث ، رافضا محاولات سابقيه الرامية الى ايجاد تفسير مطلق وثابت للأدب فى شكليه العلمى أو الذوقى ٠ كما حارب التزمت المنهجى ، داعيا الى النزاهة والموضوعية ، ولكن اعجاب تلاميذه به وبمنهجهالوسطى ، دفعهم الى التزمت والغلو فى تطبيق اللانســـونية : « أكبر لانسونية من لانسون ، كنا نرغب أن نرى فى تاريخ الأدب علما صارما ، وكنا نطلب الشمولية فى أى بحث » (٣٥) ٠ وأشـــهر غلاة اللانسونية جوستاف رودلير الذى دافع عنها دفاعا عقائديا ، ثم دانييل مورنى وفيرنان بالدنسبرجير اللذان كانا أقل تعصبا من رودلير فى تزمته لفنيات المنهج ، الا أنهمـــا غرقا فى العملية (٣٦) ٠ فأدى التطرف فى اللانسونية الى رد الفعل المعاكس ، تمثل فى الثورة عليها واتهامها بالتهم التى كالتها لغيرها من المناهج ٠ فقد عابت على النقد التقريرى والتأثرى اطلاقهما أحكاما مطلقة حول النص الأدبى ، وها هم أنصـــارها يريدون الشمولية فى أى بحث !! ٠ والشمولية لا تكون الا ضمن أحكام مطلقة تعتقد أن الباطل لا يأتيها من خلفها أو من أمامها ، وأنها أصابت كبد الحقيقة ٠ وعابت على النقد التأثرى خلوه من أى مضمون معرفى ، واعتماده

---

(٣٤) Peyré (Herri) : Introduction au livre de Lanson : *Essais* de methode, pp. 12-13.

(٣٥) Clarac (Pierre) : Lanson : Société des amis de l'école normale, p. 53.

(٣٦) Compagnon (A.) : Opcit., pp. 157-162.

الكلى على أحاسيس الناقد وذوقه ، واذا بالبعض من أنصارها يحولون فنياتها المعرفية كالبحث البيبليوجرافي ، وشرح النصوص ، والتحقيق ، من مجرد وسيلة تخدم المنهج الى غاية فى حد ذاتها ! فأين المضـــمون الذى يسفيده الباحث من قائمة ببليوجرافية حول أثر معين دون ربطها بخطوات تالية توسع مدارك القارىء وأحاسيسه حول الأثر · لقد كرس الكثير من اللانسونيين جهودهم لدراسة ظروف الحياة الأدبية أو الأفكار والتأثيرات ، غير مكترثين بخصائص الآثار ، التى زعم البعض منهم ، حصرها فى مكوناتها الجمالية بالتطبيق الصـــادم للمنهج ، فدعموا بذلك دون وعى خرافة اللانسونية المميتة للذوق ، بينما لم يكن لانسون نفسه يطلب سوى الحد الأقصى من النزاهة فى اصدار الأحكام (٣٧) ·

تطرف الكثير من أنصار اللانسونية ، فزودوا بذلك خصومها بالحجج القاتلة ، الا أن التطور العلمى السريع ، وتفرعاتها المختلفة فسحت لها المجال للتطور الى مناهج عديدة تملأ ساحة الدرس الأدبى الآن ·

أما فى الوطن العربى ، فان الحديث عن « اللانسونية » يكاد ينعدم ، رغم تسربها الى جل الجامعات العربية مع تلاميذ لانسون وتلاميذ تلاميذه من الفرنسيين والعرب ، وصار المنهج التاريخى - بوعى أو بغير وعى - المنهج السائد فى اعداد الرســائل واطروحات الجامعية ، تحت أسـماء مختلفة ، فمرة يسمى المنهج العلمى ، ومرة التحليلى النقدى ، ومرة التكاملى، وغير ذلك من المصـــطلحات التى تختلف فى معناها المعجمى ، الا أنها لا تختلف كثيرا فى مضمونها العلمى ، وبذلك صار العرب من « غلاة » اللانسونية من حيث لا يدرون ·

---

(٣٧) **Tuffrau (Paul)** : **Complement pour** : *histoire de la littera-ture française* de **Lonson**, p. 1194.

الباب الثانى

أحمد ضيف واللانسونية

الفصل الأول

أحمد ضيف
حياته وصلته باللانسونية

١ ـ مقـــدمة :

في منتصف القرن التاسع عشر ، بدأت جهود الارساليات التبشيرية الى المشرق العربي ، وحملة نابليون على مصر ، وارساليات محمد على الطلابية الى فرنسا ، تثمر ، كما هو مبين في مدخل هذا البحث ، حيث تطورت الطباعة ، وازدهرت الصحافة ، فعرف الربع الأخير من القرن التاسع عشر نشأة النقد الصحافي ، تزعمه نقاد هواة من الشام أعجبوا بالفكر الأوروبي عامة ، والفرنسي منه بصفة خاصة ، فراحوا يمجدون الأدب الفرنسي ابداعا ونقدا ، مثل الشيخ نجيب الحداد ، وسليمان البستاني ، ومحمد روحي الخالدي ، وقسطاكي الحمصي · كما ظهر ، في هذه الفترة ، نظام تعليمي مدني جديد ، الى جانب النظام التعليمي الديني المتمثل في الكتاتيب والمدارس القرآنية ، لينتهي بمدارس عليا ، كالقرويين في المغرب ، والزيتونة في توس ، والأزهر في مصر ، وظهرت عرضا عن ذلك مدارس ابتدائية وأخرى صنائعية ، للانتهاء بمدارس عليا مثل مدرسة الحقوق ، ومدرسة دار العلوم لاعداد الأساتذة ، ومدرسة الألسن للترجمة · وضع أسس هذا التعليم المدني في مصر رفاعة الطهطاوي ، وطوره تلميذه على مبارك باشا ، فكانا من الحلقات المهمة في تسرب الفكر الفرنسي الى مصر ، كما هو مبين ســـابقا ·

أمد هذا النظام التعليمي الجـديد الحيـاة الثقافية بمصر بالكثير من القراء والمثقفين الذين آزروا تيار التفتح على الفكر الحديث في مختلف صـــوره ، ازاء التيار المحافظ المنبعث من الأزهر ومؤسساته التعليمية

والثقافية ، والداعى الى الحفاظ على الأصالة العربية الاسلامية ، والتصدى للأفكار الغربية الدخيلة ٠

وهكذا عرفت مصر وبقية الأقطار العربية ، فى نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية العشرين ، صراعا فكريا وأدبيا حادا بين التجديد والتفتح على الغرب ، رغبة فى التطور والرقى ، وأنصار الحفاظ على الأصالة ، برفض الأفكار الدخيلة ، خوفا من الانحلال والضياع ٠

فى هذا الجو ، ولد فى أسرة قاهرية متوسطة الحال•أحمد بن على ابن اسماعيل ضيف سنة ١٨٨٠ م ٠

٢ ــ تعلمه فى مصر :

لم تحفل كتب النقد والتراجم والأدب العربى الحديث بترجمة أحمد ضيف رغم ريادته العلمية ، عدا نتف بسيطة جدا فى كتاب الأعلام للزركلى (١) ، وكتاب تقويم دار العلوم لمحمد عبد الجواد (٢) ، وسيرته الذاتية التى كتبها بالفرنسية بالاشتراك مع الكاتب الفرنسى ف٠ج٠بونجان F. J. Bonjean صدر منها جزءان فى باريس،الأول بعنوان : « تاريخ طفل من بلاد مصر : منصور » (٣) ، والثانى : « تاريخ طفل من بلاد مصر الأزهر » (٤) ٠

فى الجزء الأول من السيرة (منصور) يرسم المؤلفان طفولة منصور أو أحمد ضيف الذى ولد فى أحد أحياء القاهرة القديمة فى بيت جده من أمه ، حيث كان يعيش أخواله وخالاته ووالداه ، فكان البيت بذلك نموذجا للبيت المصرى القديم ، بفنائه الواسع الممتلىء نساء طول النهار ، وتعدد حجراته الصغيرة ذات النوافذ الضيقة ، وكثرة سكانه وضجيجهم (٥) ٠

وقد أصر والده لأسباب أسرية على الانفصال عن أصهاره ، فاستأجر بيتا قرب مسجد ابن طولون ، استمتع فيه الصبى بالفرجة على خصومات ساكناته الدائمة (٦) ، فكانت متعته المفضلة حينئذ ٠ وخلال سنوات

(١) الزركلى : **الاعلام** ١ ــ ١٨٤ ٠

(٢) عبد الجواد (محمد) **تقويم دار العلوم** ، دار المعارف بمصر ١٩٥٢ ٠

(٣) Bonjean (G. J.) et Deif (Ahmed) : *histoire d'un enfant du pays d'egypte* : Mansour, F. rieder et cie editeurs. Paris, 1924

(٤) Bonjean (F. J.) et *Deif* (Ahmed) : ***Histoire d'un enfant du pays d'egypte*** : *El-Azhar*, les editiors Rieder, Paris, 1927.

(٥) Banjean et deif : *Mansour*. pp. 9-19.

(٦) Banjean et Deif : *Mansour*, pp. 20-25.

طفولته الأولى ، كان والده لايزال طالبا أزهريا يدرس الشريعة ، فعرفت الأسرة الصغيرة الضيق وضنك العيش ، ونشأ الصبى فى جو دينى داخل البيت وخارجه ، ملوءه العادات والتقاليد والأساطير والخرافات (٧) ، فقد كان جده من والده شيخا كبيرا من شيوخ الصوفية ، تشد اليه الرحال ، وتقام فى بيته الحلقات بما فيها من انشـــاد ومديح ورقص صوفى ، وحكايات وخرافات ، فلما توفى ، خلفه الابن الأكبر مصطفى ــ عم الصبى ــ فى مواصلة النشاط الصوفى ، واقامة الحضرة : « عندما حضرت لأول مرة حلقة من حلقات الخميس عند عمى مصطفى ، كان عمرى فى حدود الثامنة ٠ فاختلط عندى ذكرى هذه الأمسية ، بكل الأمسيات اللاحقة ٠

وصلنا فى حدود الثامنة ، ودخلنا فناء شاسعا له أسوار بيضاء عالية عارية ٠ انه الفناء الذى قضى فيه الشيخ الكبير الساعات الطويلة بين أتباعه ، تضيئه ثريا محملة ببضعة فوانيس زيت اضاءة خافتة ٠ (٠٠٠) اقتربت من عمى ، وقبلت يده ، ووضعتها على جبينى ٠ جلس أبى بجانبه ٠ وكنا الأوائل فى الوصول دوما ، وكنت أعلم أن هذا الفضـــاء الواســع سيمتلىء بالاتباع ، فكنت أشعر وأنا واقف بجانب الدكة بغبطة ملك يرى عرشـــه يتضـــخم دقيقة بعد أخرى ٠ كان النـــاس يأتـــون من كل الأوساط (٠٠٠) وتذكرت بكبرياء شروح والدى : ــ من أتباع الشيخ الكبير أوائل المسلمين ، الكثير من الطلبة ، وحتى بعض الدكاترة ، منهم شيخ الاسلام سلطتنا العليا ، وأنا حفيده ! » (٨) ٠ ترعرع أحمد ضيف فى هذا الجو الدينى ، فجده شيخ صوفى ، ووالده وعمه أزهريان ورثا عادات وتقـــاليد والدهما وغـــذيا الصبى بهما ، فصـــار طموحه الكبير أن يتعلم « العلم ! » على أحد الشيوخ ، ولذلك تعلم القرآن ومبادىء اللغة العربية فى كتاتيب الحى ومساجده متنقلا بين الشيوخ حتى يلغ سن المراهقة ، فوضع نصب عينيه التعمق فى « العلم ! » شأنه فى ذلك شأن والده وعمه وشيوخه الذين نهلوا العلم من الأزهر ٠

وفى يوم من الأيام ، وجد الصبى نفسه مسافرا الى الاسكندرية مع أسرته للالتحاق بوالده الذى أحـــرز على وظيفـــة « شيخ » فى مســـجد من المساجد ، وهناك أحس أنه انتقل الى عالم آخر ، فالمدينة نظيفة ، والبيوت مختلفة عن بيوت القاهرة ، وعدد الأوروبيين كثير جدا : « كنا نتجول أحيانا فى الأحياء الأوروبية ، فكان يتهيأ لى بأننى لست فى مصر ٠ لا أسمع الا الحديث بالفرنسية فى كل مكان ٠ ولا يدور الحديث الا عن الفرنسيين وعن باريس ٠ كنت أعتقد أن الأوروبيين والفرنسيين كلمتان مترادفتان

---

(٧) Bonjean et Deif : Idme. pp. 26-37.

(٨) Bonjean et Deif : Idem. pp. 38-39.

تقريبا . كنت أحب رؤية قصر العدالة ، وأعمدة البورصة ، ومحلات شارع شريف باشا الكبيرة بلافتاتها المكتوبة بالفرنسية التي كنت أحاول فك رموزها » (٩) . لقد انتقل أحمد ضيف الى عالم آخر ، شد انتباهه ، وأثار اعجابه ، وفتق ذهنه على عوالم أخرى ، ما كان يتصورها وهو في القاهرة . من هنا بدأ يفكر في مستقبله : أيكون شيخا مثل والده ؟ أم عليه أن يسلك سبيلا آخر ؟ ولكنه اختار في النهاية السبيل الآخر .

لقد مل الكتاب ، وعزم على الالتحاق بمدرسة حديثة يتعلم فيها العلوم الحديثة واللغة الفرنسية ليصبح « أفنديا » ، فقد يحرز بذلك على وظيفة في الحكومة (١٠) . وهكذا طلق التعليم الديني ، وتنقل بين عدة مدارس حديثة بحثا عن « علم حديث » فاختلط بالكثير من الشباب المتحضر : « بدأت الخروج مساء ، والبقاء في المقهى الأوروبي بصحبة فؤاد . لم يكن والدى يلومنى البتة . وشيئا فشيئا ، عرفنى فؤاد ، الذى هجر المدرسة للالتحاق بالجمارك ، بمن أعتبرهم سعادة شبابى . وحضر فؤاد ذات صباح لاسطحابى الى حفل توزيع جوائز معهد الاخوة . فشاهدت أوروبيات في أناقة كاملة . قدمت مسرحيات صغيرة بالفرنسية . أحسست بجرأتي لحضوري حفلا وسط نساء كبيرات وشعرت برغبة كبيرة في الاحتكاك بهذه الأوساط ، مع احتفاظي بعقيدتي صافية . ولأجل ذلك ، لابد من تعلم الفرنسية » (١١) . راح أحمد ضيف يسعى جاهدا لتعلم الفرنسية ، فلم تسعفه ظروف أسرته المادية في تحقيق رغبته ، لتبقى مجرد رغبة من بين الرغبات ، ويبقى يتنقل بين مســـاجد الاسكندرية وكتاتيبها ومدارسها عدة سنوات من شبابه ، مثل الكثير من أترابه .

وفي يوم من الأيام ، وصلت الأسرة رسالة من عمه « مصطفى » يطلب فيها من أخيه أن يرسل الصبي لمتابعة دراسته في الأزهر على نفقته مرافقا لابن عمه الذى بدأ ينحرف عن جادة الطريق السوى (١٢) .

التحق بالأزهر ، وتتلمذ على الكثير من الشيوخ ، وأعجب اعجابا خاصا بكل من الشيخ عليش والشيخ محمد عبده ، الذين كانوا يتزعمون حركة التجديد الفكرى ، والتجديد العلمي كل حسب تخصصه (١٣)

---

(٩) Bonjean et Deif : Idem. p. 161.

(١٠) Bonjean et Deif : Iem. p. 176.

(١١) Bonjean et Deif : Idem. pp. 206-207.

(١٢) Bonjean et Deif : Idem. pp. 272-273.

(١٣) Bonjean et Deif : El-Azhar. pp. 125-170.

اعجب بهم لولعه بالجديد والتجديد ، كما أعجب بمصطفى كامل ، الشاب الوطنى الذى درس الحقوق فى باريس ، وتسلح هناك بفكر سياسى نير ، سخره لخدمة وطنــه ، والثورة على الانجليز (١٤) ، بخطبه الملتهبة حول الوطنية وأركانها المستمدة من الفكر السياسى الفرنسى ٠

قضى أحمد ضيف خمس سنوات طالبا فى الأزهر ، معجبا بالبعض من شيوخه لنزعتهم التجديدية ، كارها للعديد منهم لجمودهم وضيق مداركهم ، وكان طيلة مدة دراسته الأزهرية يتساءل عن مستقبله ، وعن الطريق التى سيسلكها فيما بعد ٠ التحق عقب تخرجه من الأزهر بمدرسة دار العلوم ، أعلى مؤسسة تعليمية فى اللغة العربية وآدبها وقتذاك ، ليتخرج منها سنة ١٩٠٩ أستاذا فى اللغة العربية وآدابها (١٥) ٠

فى دار العلوم درس اللغة العربية بطريقة مختلفة عن طريقة الأزهر ، فالمقرر محدد ، والأساتذة ملزمون به وبتتبع مساره التدريجى ٠ كما درس الأدب العربى بطريقة جديدة لا عهد للأزهريين بها ، فالأدب العربى مقسم الى عصور وأجناس ، وتحول درس النص الأدبى من الاهتمام بالقواعد النحوية والبلاغية الى البحث عن فكرة صدرت عن شاعر أو كاتب عاش فى زمان ومكان معينين ٠ ونستطيع القول بمعنى آخر أن دراسة الأدب فى « مدرسة دار العلوم اتسمت بشىء من الروح التاريخية منذ ١٨٩٨ م نتيجة لدروس الأستاذ حسن توفيق العدل » (١٦) ٠

وحين تخرج من دار العلوم ، عمل مدرسا للغة العربية وأدبها فى التعليم الثانوى من سنة ١٩٠٩ م الى ١٩١٢ م ٠ وخلال دراسته فى الأزهر ثم فى دار العلوم ، وكذلك أثناء عمله فى التعليم الثانوى ، كانت كتابات نجيب الحــداد ومحمد روحى الخالدى وقسطاكى الحمصى تشغل الحياة الثقافية وتشد أذهان المثقفين الشباب الى ذلك العالم النقدى الذى تزخر به كتابات أولئك الكتاب ٠ وتأسست فى الفترة نفسها الجامعة المصرية (١٩٠٨ م) على غرار النموذج الفرنسى من حيث مقررها الذى وضع أسسه أولئك المستشرقون الذين استقدمتهم لتدريس ما لا يحسن الشيوخ

---

(١٤) Bonjean et Deif : *Idem pp.* 214-240.

(١٥) عبد الجواد (محمد) : **تقويم دار العلوم** ، ص ١٦٤ ٠

(١٦) حسن توفيق : (١٨٦٢ ـ ١٩٠٤) من مواليد الاسكندرية ، تعلم فى الأزهر ثم دار العلوم ٠ اختير معلما للغة العربية فى المدرسة الشرقية ببرلين حيث قضى أكثر من خمس سنوات تعلم فيها اللغة الالمانية ودرس أدبها ٠ بعد رجوعه الى مصر ، عين مفتشــا فى المعــارف ، ثم أستاذا للغة العربية وأدبها فى مدرسة دار العلوم ٠ جمع دروسه فى كتاب طبع سنة ١٨٩٨ بعنوان : « **تاريخ اداب اللغة العربية** » فكان أول كتاب فى تاريخ الأدب العربى بالمنهج الحديث ٠ الزركلى : **الاعلام** ١٨٦/٢ ٠

تدريسه من حيث المحتوى أو الطريقة بوجه خاص ، ثم سرعان ما شرعت في التهيئة لاستخلافهم بمصريين يتمتعون بمؤهلات مشابهة لمؤهلات أولئك المستشرقين ، ولبلوغ هذا الهدف كان لابد من ارسال طلبة الى فرنسا يدرسون العلم من أصوله ، ويحرزون على الشهادات العلمية العليا ، قصد تعويض المستشرقين الذين بدأوا يحدثون تململا في الأوساط الطلابية للصعوبات اللغوية التى كانوا يتعرضون لها خلال عملية التوصيل ، كما بدأوا يرهقون كاهل الجامعة ماليا واداريا ·

لقد كان اعلان الجامعة عن بعثتها الأولى الى فرنسا سنة ١٩١٢ حدثا مهما جدا في حياة أحمد ضيف استيقظت فى نفسه كل الأحاسيس والآمال والطموحات التى غذت مراهقته وشبابه فى الاسكندرية ، فراح يتصور نفسه طالبا فى باريس ينهل العلم من منابعها ويعيش عصره · لذا صمم على الفوز بهذه المنحة ، فأعد لها العدة ، وكان الفائز بمنحة الجامعة لدراسة الأدب ، وسافر الى فرنسا سنة ١٩١٢ م للحصول على الدكتوراه فى الأدب ·

٣ ــ دراسته في فرنسا وصلته باللانسونية :

سافر الى فرنسا سنة ١٩١٢ م ، متوجها الى باريس ، عاصمة العلوم والفنون ومدينة اللهو والسرور (١٧) ، وهناك انغمس فى الحياة الفرنسية منذوقا ملذاتها حسب امكاناته المادية وحدوده الأخلاقية، تعرف على فنونها بارتياد المسارح والمتاحف والمعارض الفنية ، كما تذوق الجمال فى شتى صوره ، فازداد ذوقه رقة ورهافة · أما العلوم ، فقد سجل نفسه فى جامعة باريس ــ السوربون ــ حيث قضى السنتين الأوليين يتعمق فى اللغة الفرنسية ، بحضوره دروس اللغة ، واعداده فى الوقت نفسه دبلوما فى الأدب الفرنسى ، أحرز عليه سنة ١٩١٤ م (١٨) · يعد حصوله على دبلوم فى الأدب الفرنسى ، دليلا على اجادته وتمكنه من اللغة الفرنسية أولا ، ثم اطلاعه على الأدب الفرنسى ، بمختلف أجناسه ، وعصوره المختلفة ثانيا ، فاعداد دبلوم يتطلب اجادة اللغة والالمام بميدان البحث · ومن ثم فقد درس أحمد ضيف الأدب الفرنسى فى جامعة باريس (١٩١٢ ــ ١٩١٤) فى فترة عنفوان المنهج التاريخى ، وازدهاره بها ، بوجود كل من شارل سينيوبوس C. Seignobos وشارل لانغلوا C. Langlois ، ولاسير Lasser فى التاريخ ، ودوركايم ، فى علم الاجتماع ، والأخوين كروازى

---

(١٧) د· ضيف (احمد) : باريس بين الحرب والحب (ضمن كتاب : باريس الأحمد الصاوى محمد ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٣ ، ص ٣٠٢ ·

(١٨) عبد الجواد (محمد) : تقويم دار العلوم ، ص ١٦٤ ·

ولانسون في الأدب ، وبذلك كان اعداده دبلوم الأدب الفرنسي تدريبا له على المنهج التاريخي من خلال كتاب « تاريخ الأدب الفرنسى » للانسون ، الذى كان مرجع كل طالب فى الأدب الفرنسى ، ثم معايشته لأعلام المنهج التاريخي السالفى الذكر · شرع في اعداد رسالة لنيل درجة الدكتوراه ، فور الانتهاء من الدبلوم ، ببحث عنوانه : « بحث في الغنائية والنقد الأدبى عند العرب » · باشراف الأستاذ « م· ج· رينيى M. G. Reynier » أستاذ الأدب الفرنسي في كلية الآداب (١٩) ·

وقدم بحثه للمناقشة في مطلع سنة ١٩١٨ م فأحرز به على درجة دكتوراه الجامعة فى الأدب ، ليكون ــ حسب ما أعرف ــ أول دكتور عربى يتخرج من جامعة السوربون ، بعدما قضى ست سنوات ، من التلمذة على أقطاب المنهج التاريخى بالاستماع الى الدروس ومتابعتها ، والمحاضرات العامة التى كانت تقدم هنا وهناك ، وحضور مناقشات الرسائل الجامعية ، ثم اعداده رسالة الدكتوراه باشراف الأستاذ « رينيى » أحد أتباع لانسون ومحبيه المخلصين (٢٠) ·

وارتبط ، زيادة عن التلمذة على أقطاب المنهج التاريخي ، بعلاقة صداقة ومودة مع ألفريد كروازي ، عميد كلية الآداب آنذاك ، الذي ترك فيه أثرا بالغا ، بسبب حسن استقباله ، والمساعدات التي أمده بها (٢١) · وبديهى أن يكون اعجاب أحمد ضيف بكروازى دافعا له على التأثر بكتاباته التاريخية حول الأدب اليونانى القديم (٢٢) ·

٤ ــ آثاره واعمـــاله :

لقد آثر العودة فور مناقشة رسالة الدكتوراه سنة ١٩١٨ م الى مصر في سفينة هربا من من ويلات الحرب العالمية الأولى ، رغم مخاطر السفر · فقذفت السفينة فى عرض البحر المتوسط بقذائف أغرقتها ، ولم ينج من الركاب سوى عدد قليل جدا ، كان أحمد ضيف أحدهم ، وقد سجل حكاية غرقه فى خمس مقـــالات بعنوان « أنا الغريق » نشرها فى مجـــلة « الثقـــافة » (٢٣) ·

---

(١٩) Deif (Ahmed) : *Essais sur le lyrisme et la critique litteraire chez les arabes*. Jouves et cie editeurs. Paris. 1917, p. 03.

(٢٠) Melanges offert par ses amis et ses élève à Mr G. Lanson. Librairie Hachette. Paris, 1922, p. 27.

(٢١) Deif (Ahmed) : *Edsais sur le lyrisme*, p. 3.

(٢٢) لانسون : **منهج البحث فى تاريخ الأدب** ، ص ٣٩٥ ·

(٢٣) د· ضيف (أحمد) : **أنا الغريق** ، مجلة الثقافة ، الإعداد ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٨ من سنة ١٩٣٩ ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٩ ·

رجع الى مصر ، حاملا لقب « دكتور » ، فعين في السنة نفسها أستاذا للأدب العربي في كلية الآداب ، بالجامعة المصرية (٢٤) ، فقضى بها ما لا يقل عن سبع سنوات متربعا على كرسي الأدب العربي الذي كان مطمح العديد • وقد وجه دروسه خلال عمله بالجامعة نحو موضوعين اثنين : تمثل الأول منهما في جملة من الدروس النظرية العامة حول النقد ومنهجية الدرس الأدبي جمعها سنة ١٩٢١ م في كتابه « مقدمة لدراسة بلاغة العرب » • أما الثاني ، فتمثل في دروس حول الأدب الأندلسي وتاريخه مع نماذج من النصوص الشعرية والنثرية وجمع تلك الدروس سنة ١٩٢٤ م في كتابه « بلاغة العرب في الأندلس » •

وخلفه طه حسين في سنة ١٩٢٥ م على كرسي الأدب العربي لأسباب علمية تتمثل في غزارة انتاج طه حسين وقلة انتاج أحمد ضيف ، وأسباب غير علمية تتمثل في الصراعات الحزبية وآثارها على الجامعة حيث كان طه حسين عنصرا مساهما فيها عكس أحمد ضيف ، فنقل الى وزارة المعارف مدرسا بمدرسة المعلمين العليا (٢٥) مدة سبع سنوات أخرى ، لينتقل بعدها الى دار العلوم سنة ١٩٣٢ م أستاذا للأدب العربي ، فوكيلا لها سنة ١٩٣٨ م ، حتى احالته على التقاعد سنة ١٩٤٠ م • عندما تقاعد من دار العلوم ، رجع ثانية الى الجامعة المصرية مدرسا للأدب العربي حتى وفاته في شهر فيفريبي (فبراير) من سنة ١٩٤٥ م بالقاهرة (٢٦) ، بعدما قضى أكثر من ربع قرن في تدريس الأدب العربي وفقا لما تعلم في جامعة السوربون •

وشارك زيادة عن نشاطه التعليمي ، مع كل من طه حسين وأحمد الاسكندري وأحمد أمين وعبد العزيز البشري ، أواخر العشرينيات ، في اعادة النظر في مناهج الأدب العربي للمدارس الثانوية (٢٧) • فكانت نتيجة أعمال تلك اللجنة ، مقترحات قبلتها وزارة المعارف المصرية لتكون منطلقا منهجيا لتأليف سلسلة كتب مدرسية للمدارس الثانوية ، كلفت اللجنة باعدادها ، وبذلك ساهم أحمد ضيف في تأليف الكتب المدرسية التـــالية :

١ ـ المجمل في تاريخ الأدب العربي • صدر سنة ١٩٢٩ م •

---

(٢٤) عبد الجواد (محمد) : المرجع السابق ، ص ١٦٥ •

(٢٥) عبد الجواد (محمد) : المرجع السابق ، ص ٦٥ ١•

(٢٦) عبد الجواد (محمد) : المرجع السابق ، ص ١٤٦ ـ ١٦٥ •

٢ ـ المفصل فى تاريخ الأدب العربى (جزءان) صدر بعد سنة ١٩٢٩ وقبل سنة ١٩٣٣ م ، سنتا صدور أول السلسلة وآخرها ٠

٣ ـ المنتخب من أدب العرب سنة ١٩٣٣ م ، متضمنا نصوصا أدبية ، شعرا ونثرا ، من مختلف عصور الأدب العربى ليكون معينا للأستاذ والطالب فى الاطلاع على النصوص الأدبية المعبرة عن مؤلفيها وعصورها ٠

وتمثلت مشاركة أحمد ضيف فى هذه السلسلة فى كتابته للفصول الخاصة بالعصور الأندلسية (٢٨) ضمن كل كتاب ، حيث كان يعتبر حينئذ بين زملائه مؤرخ الأدب الأندلسى (٢٩) ، لتأليفه كتاب « بلاغة العرب فى الأندلس » الذى يعتبر لحد الآن ـ حسب اعتقادى ـ أول كتاب فى التأريخ الأندلسى على الطريقة الحديثة ٠ ولم يترك أحمد ضيف آثارا كثيرة ، فقد كان من الأساتذة المقلين فى الكتابة ، لأنه لم يشارك فى النقد والخصومات والمعارك الأدبية التى كانت شغل زملائه الشاغل ، ثم ان النكسات التى لحقته فى حياته الوظيفية حالت بينه وبين ذلك حيث تنقل بين عدة مؤسسات سبق ذكرها ، وكانت رغبته البقاء فى الجامعة ، ولكن طبعه الهادىء ونزعته الى العزلة والانزواء أبعده عن خضم الصراعات السياسية والاجتماعية والأدبية القائمة آنذاك والموجهة لكثير من القرارات الوظيفية ٠

لقد ساهم على قلة نتاجه فى التأليف العلمى برسالته للدكتوراه ، وكتابيه المشار اليهما سابقا ، وفى التأليف التربوى بمشاركته فى تأليف الكتب المدرسية السابقة الذكر ٠ وأخيرا فى التأليف القصصى باللغة الفرنسية مع الكاتب الفرنسى « ف٠م٠ بونجان » بتأليفهما سيرة أحمد ضيف أصدرا منها جزئين ، فكانت مرجعنا الأساسى فى التأريخ لطفولته وصباه (٣٠) ٠ وأعتقد أنه عمد لتأليف سيرته بالفرنسية دون العربية لما تضمنت من أفكار وصور وتصريحات جريئة جدا بالنسبة لذلك الوقت ، يضاف الى ذلك أن المجتمع المصرى لم يكن قد تعود على قراءة سير الناس والاستمتاع بأسرارها استمتاعا ثقافيا ، بعيدا عن الأحكام الأخلاقية ، مثل الفرنسيين ، ولذا آثر تقديم سيرته للفرنسيين ، فكان بذلك أحد رواد فن السيرة فى الأدب العربى الحديث ان لم يكن الرائد فيه ٠

---

(٢٧) طه حسين (وآخرون) : **المجمل فى تاريخ الأدب العربى** ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٢٩ ، ص ١ ٠

(٢٨) **المجمل فى تاريخ الأدب العربى** ، ص ٣ ٠

(٢٩) Peres (H.) : *la littérature arabes et l'islam.* librairie d'amérique et d'orient. Paris 1977, p. 136.

ولا ريب أن تلاميذ أحمد ضيف هم أهم آثاره ، فقد صاروا علامات بارزة في الأدب العربي الحديث ، حيث كان أستاذا مؤثرا ، محبوبا ، غرس في تلاميذه حب الأدب : « أما حظه في الجامعة فحسن جدا خليق بالغبطة ، فقد وفق الأستاذ لأن يفتح أمام تلاميذه مناهج جديدة للبحث سلكوها فوفقوا فيها لخير كثير • ولقد حدثتك غير مرة عن تلميذ للأستاذ تناول ألوانا من البحث الأدبي فكان حظه من الاجادة عظيما ، هو الدكتور زكي مبارك • وسأحدثك عن تلميذ آخر للأستاذ تناول الأدب العربي في الأندلس فأظهر كتابا لا بأس به ، وهو كامل افندي الكيلاني • وليس بالشيء القليل على أستاذ أن يكون من تلاميذه المؤلفون الذين لا يسيئون التأليف ولما يمض الأستاذ في مهنة التعليم الا أعواما قصارا » (٣١) •

تعد هذه الشهادة الصادرة عن طه حسين ، المنافس الأكبر لأحمد ضيف في الجامعة دليلا قويا على مكانته التربوية في الجامعة وقدراته التعليمية • كما أن تتلمذ زكي مبارك عليه قد يكون السبب في خصومة زكي مبارك وطه حسين ، فليس مستبعدا أن يكون قد تأثر بأستاذه ففعل ما لم يقدر هو على فعله من مجابهة طه حسين ، ومواجهته •

يلاحظ المتتبع لسيرة أحمد ضيف أنه لم يخلف تراثا علميا كبيرا رغم المدة الزمنية الطويلة التي قضاها في التعليم العالي من جهة ، ومؤهلاته العلمية من جهة أخرى ، فقد كان دكتورا في الأدب ، درس في فرنسا ، ويجيد اللغة الفرنسية ، ومن ثم ، كان المفروض أن يكون نشاطه العلمي أوفر حظا مما كان عليه ، فما هو السر في ذلك ؟ من الصعب العثور على اجابة لهذا السؤال فيما كتب من معلومات بسيطة حول الرجل ، الا أن قراءتي لسيرته الذاتية ، وللمعلومات البسيطة التي كتبها معاصروه ، واتصالي بأسرته (٣٢) ، تجعلني أعتقد أن مرد ذلك عوامل عدة تعاونت على تثبيط همته أذكر منها : تربيته الدينية ، في أسرة تقليدية ، علمته على القناعة والتأني والمسالمة ، الأمر الذي جعله يبتعد عن الصراعات الحزبية ، والمعارك النقدية ، مؤثرا السلامة والهدوء وراحة البال ، فقد كان : « لا يميل الى الطنطنة والشهرة ، يفضل الانزواء (••••) كان يسخر

---

(٣٠) نشر الجزء الأول والثاني منها في باريس ، سنة ١٩٢٤ بالنسبة للجزء الأول ، و ١٩٢٦ بالنسة للجزء الثاني •

(٣١) طه حسين : حديث الأربعاء ، ج ٣ ، دار المعارف ، ط ١٠ ، القاهرة • ص ٧٣ •

من كل ما يزعمه بعض الناس مجدا » (٣٣) . انها رؤية للحياة تكاد تكون زهدية ، ربما أفادت صاحبها فى تفادى العديد من صعاب الحياة التى جابهت معاصريه ، الا أنها جنت عليه علميا ، فى الصراع الفكرى ، لينزوى فى حجرات الدرس ، وبذلك تكون تربيته قد أضرت به علميا أكثر مما أفادته ، فقد كان زيادة عما سبق ذكره صبورا ، لا يحب الاساءة لأحد : « ومن أخص صفاته ، الوفاء لأصدقائه واخلاصه فى صداقته . يذكر بعض اخوانه أنه بكى مرة لما أدرك أنه أساء الى صديق . وكان رحمه الله شديد الحرص على صحته وحياته » (٣٤) . هذه صفات وخصال ، تحد من الجرأة العلمية ، وتجعل صاحبها يتريث فى انتقاد فكرة لزميل أو رأى لصديق ، وبذلك ينزع شيئا فشيئا الى تقبل الآراء والنتائج العلمية حفاظا على علاقات الود والصداقة .

ومن عوامل قلة نشاطه ، تتابع أحداث ثبطت همته ، أولها غرقه خلال رحلة العودة من فرنسا ، فسكنه الخوف على حياته وصحته ، ثم اخراجه من الجامعة ليخلفه فى تدريس الأدب العربى طه حسين المتخصص فى التاريخ (٣٥) ، ثم عدم الاستعانة به فى المناصب الادارية ، حيث لم يحمل مسؤولية أكثر من وكيل كلية دار العلوم . تجمعت هذه العوامل لتتلاءم وتربيته التى أثمرت صفاته السابقة الذكر ، فكانت نتيجة كل ذلك انعزاله عن المساهمة الفعالة فى تطوير الحياة العلمية ، وانزوائه داخل قاعات التدريس ، مكتفيا بآثار قليلة ، وتلاميذ سيفعلون ما لم يفعل أستاذهم .

وخلاصة القول ان أحمد ضيف ، كان أول من أحرز على درجة الدكتوراه فى الأدب من فرنسا ، وأول من اتصل تاريخيا باللانسونية عن طريق تتلمذه على أعلامها الأوائل ، وأول من درس النقد ومفاهيم حديثة فى الدرس الأدبى فى الجامعة المصرية ، فهل كان لزيارته هذه ، دور فى تأثره باللانسونية أو لا ؟ ان استعراض كتبه هو الكفيل الوحيد بتبيان ذلك !

---

(٣٢) فى سنة ١٩٨٤م ، تمكنت من الاتصال بابن أخيه وزوج ابنته الدكتور خيرت ضيف ، أستاذ فى كلية التجارة جامعة عين شمس ، الذى أمدنى بمعلومات حول أسرة المرحوم لا أهمية لها بالنسبة للبحث ، فقد وجدت أسرته لا تمتلك حتى آثاره .

(٣٣) عبد الجواد (محمد) : المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

(٣٤) عبد الجواد (محمد) : المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

(٣٥) من البديهى أن قدرة طه حسين الادبية أفضل بكثير من قدرة أحمد ضيف ، الا أن أسبقية ضيف الى المنصب وتخصصه العلمى يضمنان له البقاء فى منصبه .

الفصل الثانى

أحمد ضيف
والدعوة للمنهج التاريخى

١ ــ مقدمـــة :

بينا فى الفصل السابق صلة أحمد ضيف التاريخية باللانسونية ، من خلال تتلمذه على الكثير من أعلامها فى جامعة السوربون ، فدرس المنهج التاريخى فى دراسته الأدب الفرنسى ، وعرف شروطه وفنياته ، خلال اعداده رسالة الدكتوراه مع الأستاذ « رينى » أحد أتباع لانسون ، فعرف بذلك أن دراسة الأدب تقوم على الذوق من جهة ، والمعرفة من جهة ثانية ، وأن للذوق شروطا وحدودا لا ينبغى تجاوزها ، سواء فى تذوق الأثر الأدبى أو فى تقدير ذلك الذوق واعتماد نتائجه ، وأن للمعرفة فنيات وخطوات يعتمدها الباحث وسائل تجريبية تقربه من الحقيقة ما أمكن .

عرف من دون شـــك كل هذا ، كما عـــرف أن على دارس الأدب الاستعانة بعلوم مساعدة كالتاريـــخ والفلسفة وعلوم اللغة وغيرهـــا من العلوم ، لتفتح أمامه مغاليق النص ، وتساعده على فهم أسراره فهما دقيقا فى مستويين مختلفين : الأول فهمه انطلاقا من عقلية واحساس وفهم المبدع نفسه ، بالاعتماد على المعرفة التـــاريخية . والشـــانى انطلاقا من عقـــلية واحساس وفهم الدارس نفسه انطلاقا من ذوقه وتذوقه المبنى على احساساته ومعارف عصره .

ان معرفة أحمد ضيف بالمنهج التاريخى لا تعد دليلا علميا على التأثر به . فالدارس عادة ما يتعرف على الكثير من المناهج والأفكار أو الآراء ، حيث لا يتأثر الا بالقليل منها ، لأسباب منها الموضوعية ومنها الشخصية الذاتية ، كأن يكون الدارس أميل الى الابداع من البحث مثلا ، ثم لأن المعرفة أو الاتصال شىء ، بينما التأثر شىء آخر . ومن الصعب الاجابة

نفيا أو تأكيدا على تأثر أحمد ضيف باللانسونية الا بعد فحص آثاره ، والبحث فيها عن دعوته لهذا المنهج أو تطبيقه له ، أو الدعوة والتطبيق معـــا ٠

تتمثل آثار أحمد ضيف العلمية في كتبه الثـلاثة : « بحث فى الغنائية والنقد الأدبي عند العرب » ، و « مقدمة لدراسة بلاغة العرب » و « بلاغة العرب فى الأندلس » ، اتسم الأول والثالث بطابع تطبيقى ، بينما اتسم الثاني بطابع نظرى عام ٠ ومن هنا ، سنحاول تلمس دعوته الى المنهج التاريخي من خلال كتابه « مقدمة لدراسة بلاغة العرب » فى هذا الفصل ، ثم نحاول تلمس تطبيقه للمنهج من خـلال كتابيه « بحث فى الغنائية والنقد الأدبى عند العرب » ، و « بلاغة العرب فى الأندلس » فى الفصل الثالث ٠

يتكون كتاب « مقدمة لدراسة بلاغة العرب » (٢) من جملة مباحث ، قدمها أحمد ضيف دروسا لطلابه فى الجامعة المصرية من سنة ١٩١٨ م الى سنة ١٩٢١ م حول أهم القضايا النقدية التى رأى ضرورة اطلاع طالب الأدب العربى عليها ، ومعرفته لها ، مثل : الكلام البليغ ودراسته ، الأدب والبـلاغة ، أنواع البلاغة ، البـلاغة والمجتمع ، الأديب والمجتمع النقدى الأدبى ، النقد الأدبي في فرنسا : مراحله ومدارسه ، النقد الأدبى عند العرب وموازنته بالنقد الفرنسى ٠

وكان ، قبل دراسته هذه الموضوعـات ، قد رفـع راية التجديد والثورة على طرق دراسة الأدب العربى السائدة آنذاك ، فى أول درس قدمه بالجامعة المصرية ، ثم جعل خلاصته تمهيدا لهذا الكتاب (٢) ٠

أوضح فى التمهيد أن دراسة الآداب العربية بالطرق الحديثة لا تزال حديثة العهد ، فعقول الدارسين والقراء العرب لم تتحرر بعد من قيود الطرق القديمة ، والانتصار لها ، وتعتبر الخروج من القديم خروجا عليه ،

---

(١) ليس المقصود بمصطلح « بلاغة » تلك الفنون المتعارف عليها عند العرب مثل التشبيه والاستعارة والمجـاز ، وانما يقصد المؤلف بهذا المصطلح « الأدب الابداعى » من شـعر ونثر فني ، على أساس أنهما الفنان الأدبيان البليغـان ٠ أما مصطلح « أدب » ، فيعنى به جملة الكتابات ، عدا العلمية الصرفة منها ، أى يقصد الكتابات التـاريخية والفلسفية والاجتماعية والنفسية والنقدية ، وكل ما ينضوى تحت اسم « كلية الآداب » وسار هذه الوجهة اقتداء بالفرنسيين الذين أطلقوا مصطلح « آداب : "lettres" » على مجمل الكتابات غير الابداعية ، ومصطلح « بلاغة "littérature" » على الأدب الابداعى من شعر ونثر ٠ (د٠ أحمد ضيف : مقدمة لدراسة بلاغة العرب ، ص ١٢ ، و ص ٢١) ٠

(٢) د٠ ضيف (أحمد) : مقدمة لدراسة بلاغة العرب ، مطبعة السفور ، القاهرة ١٩٢١ ، ص ٣ ٠

لايمانها الراسخ بأن القدماء وصلوا الى أقصى ما يمكن أن يصل اليه العقل البشرى ! • ولذا فان الأدب العربى على سعته وثرائه مشوش مختلط ، لازال على حالته الأولى من الجمع والدرس (٣) •

انه هجوم علمى دقيق وصائب ، على الطرق المتبعة ، آنذاك ، فى دراسة الأدب العربى وتدريسه ، الا أنه هجوم مؤدب لا يتهم أشخاصا أو مؤسسات ، وبذلك لا يثير غضبا أو صراعا بين جهات معينة • فالأدب العربى لازال بحاجة الى جهود عديدة حتى يجمع ويدرس درسا علميا دقيقا بعيدا عن الأحكام المبنية على التقليد والنقل عن القدماء احتراما وتقديسا لآرائهم •

وبعيدا عن العادات والاعتقادات العلمية الثابتة المتناقضة مع روح العلم الحديث ، فقد أدرك أحمد ضيف لن الأدب العربى بحاجة الى بحث علمى دقيق يخرجه من حالة الاعجاب بالبناء اللفظى أو البلاغى الى حالة التفاعل مع المجتمع ، ليصبح أدبا يستمد أفكاره وأحاسيسه وموضوعاته من الحياة الاجتماعية ، فيمثل الزارع فى حقله ، والتاجر فى متجره ، والشيخ بين أهله ، والشباب فى مجونه وغرامه وعبثه (٤) •

تنبع دعوته هذه من اقتناعه بأن الأدب العربى اللفظى ، همه الأول السعى نحو البناء اللفظى الكامل • أما المضمون أو الأفكار ، فهى مطروحة على الطريق _ كما قال الجاحظ _ ومن ثم ، اقتنع أن الأدب العربى لا يصور المجتمع بمعناه الواسع ، فدعا الى تغيير ذلك الواقع الأدبى ، ليصبح الأدب العربى أدبا اجتماعيا ، اقتداء بالآداب الأوروبية المتطورة •

كما لاحظ أن اعجاب العرب باللفظ لم يتوقف عند الابداع الأدبى ، وانما تعداه الى النقد ، حيث انغمس هو الآخر فى بركة الألفاظ ، فراح تبعا لذلك يستحسن أو يستقبح النتاج الأدبى بناء على شكله ، على بنائه اللفظى أو البلاغى ، اعتمادا على آراء الأقدمين ، فتجمد النقد العربى فى دائرة ضيقة لا تتعدى الاعجاز اللفظى •

وللخروج من هذا الوضع النقدى أولا ، والابداعى ثانيا ، كان لابد من الأخذ بالمناهج العلمية الجديدة وتطبيقها فى دراسة الأدب العربى، فيتطور النقد العربى ويتحرر من دائرة الاهتمام باللفظ ، لينعكس ذلك على الأدب الابداعى فيما بعد ، فيتحرر هو الآخر من طابعه الشكلى ، ليمتلىء مضمونه بالحياة الاجتماعية : « والطريقة التى نريد أن ندرس بها الأدب العربى هى طريقة نقدية ، اذ بدون هذه الطريقة لا يمكن لأية دراسة من نوع

---

(٣) و (٤) د• ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ٥ _ ٦ •

ما أن تنتج أو تثمر ، ولا لأى فكر أن يرقى أو يتقـــدم ، ولا يمكن أن تتخطى العقول أطوارها اللازمة ، مادامت مقيدة بتأييد فكرة أو رأى تعمل على اثباته • نريد بطريقة النقد ، البحث فى العوامل الحقيقية التى اعترت اللغة العربية وبلاغتها ، بحثا مبنيا على الأسباب العلمية والاجتماعية • ثم الحكم على ذلك حكما صحيحا ، بقدر ما تهتدى اليه عقولنا ، وترشدنـا اليه مباحثنا ، وبدون أن نرجع الى أقوال القدماء الا من حيث أنها مراجع ، أو شيء من تاريخ اللغة ، لا أنها عمدة الأراء أو قادة الباحثين (••••) نريد أن ندرس الأدب دراسة علمية كما يقول الأوروبيون • ولا يعـنى بالمدارسة العلمية ، كما لا يعنى الأوروبيون أنفسهم أيضا ، أن الأدب يصبح ذا قواعد لا يتعداها ، كما فى العلوم الرياضية أو الطبيعية • ذلك لن يكون، لأن الأدب فن من الفنون الجميلة الحكم فيه موكول الى الذوق السـليم والادراك الصحيح ، وانما نتبع خطة ذات قواعد وقوانين » (٥) •

يقترح أحمد ضيف ، طريقة لدراسة الأدب العربى ، عوضـا عن الطرق التقليدية السائدة ، تتلخص فى جملة من الأسس والأفكار النقدية يمكن حصرها فيما يلى :

ـ النقد بحث فى الأسباب والعوامل الحقيقية لابداع الأثر الأدبى • وهذا يعنى أنه يريد من الناقد ربط الأدب بكل العناصر المكونة له من أحداث تاريخية ، وزمان ومكان وأشخاص ، وتراث قومى ، وتراث انسانى ، أى ربط الأدب بأصوله ومصادره وبيئته ، على أسـاس أن الأدب نابع من مجتمع ومصور له بطريقة أو أخرى •

٢ ـ لا ينبغى للباحث أن يعتمد على آراء الأقدمين ، الا من حيث انها وثائـق تبين الذوق أو الدلالة أو الفهم اللغوى فى مرحلة معينة • وينبع هذا الرأى من أن آراء القدماء ليست حقائق علمية ثابتة ، وانما مجرد آراء تدل على حقيقة معتقد أصحابها أكثر مما تدل على حقيقة الأثر نفسه ، ومن ثمة يحق للباحث الاعتماد عليها باعتبـارها وثائق دالة ، وليست حقائق ثابتة •

٣ ـ النقد دراسـة علمية ، والقصـد من ذلك ليس اتباع قوانين العلوم الرياضية أو الطبيعية ، وانما اتباع قواعد وقوانين نابعة من الأدب نفسه ، لأن الأدب فن جميل لا يفهم الا بالتذوق النابع من ذوق سليم • وبهذا يكون معنى العلمية فى الأدب نابعا من طبيعة الأدب نفسه ، أى تقيد الناقد بقواعد وقوانين مستوحاة من الأدب ، وليس تطبيق مناهج علوم أخرى ، وانما الاعتماد على الروح العلمية أو المعرفة •

---

(٥) د• ضيف (احمد) : المرجع السابق ، ص ٨ •

٤ ـ من أسس الطريقة النقدية فى الأدب الدراسة العلمية ، التى تعتمد على قوانين وقواعد أدبية ، ثم الاعتماد على الذوق السليم والادراك الصحيح • فالذوق السليم لا يكون الا عند الناقد الذواقة الحساس الذى يتحكم فى تذوقه حتى لا يكون مجرد انفعالات • أما الادراك الصحيح ، فلن يتأتى للناقد الا اذا راجع نفسه ولم يعتبر آراء غيره حقائق ثابتة ، وانما تمحصها وراجعها وقارنها•وعموما ، فان الاشارة الى « الذوق السليم » و « الادراك الصحيح » توحى بدقة المنهج وعلميته ، خاصة اذا أضفنا الى الذوق والادراك ، الدراسة العلمية النابعة من الأدب نفسه ، وبذلك يجمع أحمد ضيف بين المعرفة الأدبية والذوق الأدبى فى دراسة الأدب والتاريخ له ، فيضع بذلك أمام القارئ أساس المنهج التاريخى ، المتمثل فى الجمع ما بين المعرفة والذوق فى الدرس الأدبى •

٥ ـ ونتيجة هذه العوامل اصدار حكم نقدى صحيح أو أقرب ما يكون الى الصحة ، خال من الأحكام المسبقة ، ودون الاعتماد على آراء الأقدمين الا من حيث أنها وثائق دالة ، وبذلك يكون الهدف من العملية النقدية الوصول الى حكم نقدى صحيح ما أمكن ، وبديهى أن يكون ذلك الحكم النقدى هدفا معرفيا من جهة ، وخطوة معرفية فى الترتيب واستنتاج نتائج أخرى من جهة ثانية • فالغرض عند أحمد ضيف من تطبيق الطريقة النقدية العلمية هو : « البحث عن روح اللغة العربية كما يقولون • وحل ما بها من الشعر والنثر حلا نفسيا ، والبحث عن صلة ذلك بالاجتماع ، وعن المؤثرات التى أحدثت فى نفس الشاعر أو الكاتب ميلا خاصا الى هذا النوع من البلاغة ، ثم صلة ذلك بمواهب الكاتب الفطرية ، وقيمةما عنده من فنون البلاغة وضروب التعبير المختلفة ، وما له من الشخصية ، أى الابتكار والابداع فى ذلك • وهذا يستلزم استيعاب ماكتبه الكاتب أو الشاعر بالقراءة والدرس قراءة دقيقة خالية من الميول والأهواء الشخصية بقدر الامكان » (٦) •

تهدف الدراسة النقدية العلمية فى رأى أحمد ضيف الى ابراز علاقة الأدب شعرا أو نثرا بالمجتمع من خلال الكشف عن مختلف المؤثرات التى غذت المبدع أولا ، ثم عبقريته الفردية فى العملية الابداعية ، اعتمادا على الدرس الدقيق ، الخالى من الميول والأهواء الشخصية • والواضح من هذه الفقرة أن أحمد ضيف يوجه الدارس الى الاهتمام بمصادر وأصول الأثر الأدبى من خلال البحث عن المؤثرات التى غذت المبدع ، ثم البحث عن العبقرية الفردية للمبدع ، بعد تبيان استجلاء العوامل المؤثرة ، وبذلك يستطيع الدارس تفسير الظاهرة الابداعية وعلاقتها بالمجتمع الذى أوجدها ،

---

(٦) د• ضيف (احمد) : المرجع السابق ، ص ٩ •

لنستنتج من ذلك أن الأدب تصوير للمجتمع لصدوره عنه • وهذا ما ذكره أحمد ضيف في بداية التمهيد ثم بين العملية النقدية النابعة منه •

ربط أحمد ضيف ربطا وثيقا بين المبدع وابداعه في العملية النقدية، لاقتناعه بصدور الأدب عن المجتمع وتصويره له ، عن طريق المبدع الذى يتمثل تراث قومه ، ثم يوظفه في التعبير عن مجتمعه ، أو عن نفسه في علاقتـه مع المجتمع ، انطلاقـا من قدراته واسـتعداداته الفطرية المكونة لعبقريته • ومن ثم على الناقد أن يدرس :

(أ) المبدع وحياته بتتبع الزمان والمكان والأحداث التاريخية ، وأثر كل ذلك في نمو شخصيته •

(ب) مصادر وأصول وتأثرات المبدع ، بدراسة بيئته الثقـافية ومؤثراتها القومية والأجنبية •

(جـ) عبقرية المبدع ، اذ بعد تحديد الأصول والمصادر والمؤثرات يبقى جزء من المبدع قد يصغر وقد يكبر ، لا أصول له ولا مراجع ، ولم يكن نتيجة تأثير أجنبى ، هو عبقرية المبدع الفردية واستعداداته الفطرية التى تعطى ابداعه طابعا خاصا •

(و) تأثير المبدع في المجتمع من خلال تصويره له تصويرا انتقاديا لأوضاع قائمة ، أو تبشيريا بأوضاع محبذة •

وللوصول الى نتائج علمية صحيحة في العملية النقدية ، على الباحث أن يبتعد : « عن أهوائه وميوله عندما يقرأ كاتبا أو شاعرا يريد أن يفهمه كما هو • ولا بد أن يتخلى أيضـا عن أذواقه الخاصـة ، لأن الاستسلام الى ذوق الشخص ينافى طريقة النقد الصحيح • هذه الطريقة ، طريقة تخلى القارىء عن ذوقه الخاص ، وعن المؤثرات التى تحيط به ، تجعله يفهم الكاتب بذوق الكاتب ، ويفهم الشاعر بنفس الشاعر التى قال بها شعره ولابد من وضع القارىء نفسـه في الظروف والأحوال التى أحاطت بالكاتب وقت كتابته • هذه الطريقة هى التى تمكن القارىء أو الناقد من فهم روح الكتابة• ولابد من أن ينسى الانسان نفسه بين صفحات الكتاب الذى يريد أن يقرأه • فاذا انتهى من تحليل الكتابة وفهمها على طريقة الكاتب نفسه ، رجع الى معلوماته الشخصية ، والى ذوقه الشخصى ، والى ما اكتسبه من النقد بالتجربة والدرس في الحكم على المؤلف » (٧) •

لاينبغى أن يكون الحكم على أثر معين حكما نابعا من وضعنا ومفاهيمنا وذوقنا الحالى ، وانما على الناقد أن ينطلق في فهمه للأثر الأدبى من أوضاع

---

(٧) د• ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ٩ ــ ١٠ •

الكاتب وعصره ومفاهيمه وذوقه ، حتى لا يحاسب الناس على ما لا يعرفون أو مالا يستسيغون • فلا يحق للناقد المعاصر أن يستهجن أشعار الجاهليين لتعصبهم القبلي أو بكائهم على الأطلال ، وإنما عليه أن يحكم على تلك الأشعار منطلقا من أن العصبية القبلية هي النظام السائد ، والحامي للفرد من الضياع آنذاك ، وأن البكاء على الأطلال تصوير لحياة الترحال التي كان الجاهلي يحياها ، ومن ثم ، فان التصوير الدقيق ، والتعبير المبدع عن هذين الموضوعين المستهجنين الآن ، محمدة كبيرة للشاعر الجاهلي •

ولكي يدرس الناقد الأثر الأدبي بروح عصره ومفاهيمه ، وبعقلية مبدعه واحساسه ، عليه أن يتحلى بالموضوعية ، والابتعاد عن ذوقه الخاص، وعن المؤثرات المحيطة به ، وعن الأفكار السائدة ، أي عليه بالموضوعية البعيدة عن أي حكم مسبق أو معتقد مهما كان نوعه • وهكذا ، تتمثل الطريقة العلمية في دراسة الأدب لأحمد ضيف في العناصر التالية :

١ ـ اتباع طريقة علمية ذات قواعد وقوانين خاصة بالأدب،وليست مستقاة من العلوم الأخرى •

٢ ـ المزج بين الذوق والمعرفة برجوع الباحث الى ذوقه الشخصي، وما اكتسبه من النقد بالتجربة والدرس (٨) •

٣ ـ الموضوعية في الدرس بابتعاد الباحث عن أهوائه وعن الآراء السائدة ، وأحكام القدماء الا من حيث انها وثائق (٩) دالة يستعين بها في اصدار أحكام •

٤ ـ البحث عن أصول ومصادر المؤلف وتأثراته المختلفة قصد تحديد الموروث في ابداعه •

٥ ـ عبقرية المؤلف واضافاته الشخصية ، بعد الكشف عن أصوله ومصادره •

٦ ـ تأثير المبدع في المجتمع من خلال تصويره له بالكشف عن عيوبه ورسم ما ينبغي أن يكون عليه •

٧ ـ ضرورة قراءة الباحث للنص المدروس بنفسه ، وعدم الاكتفاء بما ذكر في الفهارس والموسوعات والدراسات السابقة : « اذ لابد من قراءة الكتب نفسها والحكم عليها بناء على معرفة الشخص نفسه » (١٠)

---

(٨) د• ضيف (أحمد) . المرجع السابق ، ص ١٠ •
(٩) د• ضيف (أحمد) • المرجع السابق ، ص ٩ ـ ١٠ •
(١٠) د• ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ٣ •

فان لم يفعل ذلك ، فانه سيفقد الموضوعية فى الدرس وكل روح علمية ، اذ سيكون عمله مجرد تكرار لأقوال وآراء وأحكام السابقين ٠

٨ ـ ضرورة الاستعانة في العملية النقدية بعلوم مساعدة ، تساعد الباحث على كشف مغاليق النص : « ومدرس الأدب يلزمه أن يطلع على أكثر ما كتب فى اللغة ليقف على روحها ومؤلفيها ، وليعرف الكتاب والشعراء والفلاسفة والمشرعين وغيرهم » (١١) ٠ فالأدب تعبير عن المجتمع، وللكشف عن مختلف جوانب ذلك التعبير ، على الباحث أن يعرف مختلف جوانب ذلك المجتمع المعبر عنه ، بدراسة الكتب اللغوية والتاريخية والفلسفية والدينية ، وكل ما ينضوى تحت مصطلح « الأدب » بمفهومه الواسع عند أحمد ضيف ٠

٩ ـ النزوع الى استطلاع المعرفة والتنقيب والبحث فالعقل : « ان لم يكن طلعة محبا للبحث لا ينتج ولا يدرك حقائق الأشياء » (١٢) ٠

هذه جملة من الأسس والمبادىء ، اقترحها أحمد ضيف في تمهيد كتابه على الباحث أو الناقد ، ان عمل بها كان نقده عملا علميا جديدا ٠

ومن الواضح أن هذه الأسس والخطوات لا تخرج عن أسس وخطوات المنهج التاريخى ، كما حدده لانسون ٠ الا أن منهج أحمد ضيف ، كما يتجلى من هذه الخطوات يتسم بالعمومية ، فهل اكتفى بهذه المبادىء العامة التى دعا الدارسين الى الأخذ بها أو أنه أوضح مقترحاته فى بقية أقسام الكتاب ؟

يحدد أحمد ضيف وظيفة الأدب فى الموضوع الأول من الكتاب « الكلام البليغ ودراسته » موضحا أن وظيفة الامتاع والتسلية قد تجاوزها الزمن ، وصارت وظيفة الأدب نفعية ، لأنه أصبح : « صورة للأفكار والعقول وشيئا من الحياة العقلية والعلمية للأمم ، وجزءا كبيرا من تاريخ الانسان٠ ورأى بعض كبار الأدباء بأن البلاغة كالتاريخ من حيث الاستدلال بها على حياة الشعوب ، غير أن التاريخ يدل على الحركة السياسية ، والبلاغة تدل على الحركة العقلية والاجتماعية ٠ أو يدل التاريخ على حياة الانسان العملية والبلاغة على حياته النفسية » (١٣) ٠

ارتبط الأدب عند أحمد ضيف بالتاريخ ، فهو جزء كبير من تاريخ الانسان ، والفرق بين التاريخين الكبير والصغير أن الأول يصور الحياة السياسية أو العملية للانسان ، بينما يصور الثانى الأفكار والحياة

(١١) د٠ ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ٣ ٠
(١٢) د٠ ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ٤ ٠
(١٣) د٠ ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ١٢ ٠

العقلية للأمم · ونظرا لهذا الارتباط الوثيق بين الأدب والتاريخ ، فان دراسة الأدب لابد أن تكون دراسة تاريخية على حد تعبير أحمد ضيف(١٤) مقتديا في ذلك بأستاذه لانسون الذى انطلق في منهجه التـاريخي من الصلة العضوية بين الأدب والتـاريخ مستنتجا أن المنهج لابد أن يكون تاريخيا (١٥) · وترجـع صـلة الأدب بالتـاريخ الى وظيفته التصويرية للمجتمع، اذ يتحول تصوير المجتمع، مع مرور الزمن، الى شيء من التاريخ، ومن ثم ، تصبح دلاسة الأدب تاريخية ، تتمثل في البحث على الملاحظة بمجتمعه أخذا وعطاء ، ثم علاقة الأثر الأدبي بالمجتمع ، دون اعتماد على آراء مسبقة باعتبارها حقائق ثابتة ، والاعتماد في البحث على الملاحظة الصحيحة ، والموازنة والمقارنة ، بالاعتماد على علوم مساعدة : « لابد أن يكون الغرض من تدريس البـلاغة البحث العـلمي المبني على المعلومات الصحيحة للوصول الى الفهم الصحيح الخالي من التعصب القومي والميول المذهبية (···) قال المسيو موريس كروازيه في مقدمة الجزء الأول من كتاب تاريخ الأدب اليوناني : ان جملة لخطيب أو بيت شعر لشاعر أشبه بمرآة ينعكس فيها صورة منها تدل على ماضي اللغة والتاريخ لشعب من الشعوب · وتدل على الفتى الذى وهبها هذا الشكل » (١٦) ·

وضح أحمد ضيف تصوير الأدب للمجتمع ، مستشهدا على ذلك ، برأى للأستاذ موريس كروازى أحد أعلام المنهج التاريخي الأوائل ومطبقيه، ليؤكد ضرورة اتباع المنهج العلمي المبني على المعلومات الصحيحة ، بغية الوصول الى فهم صحيح خال من التعصب والمذهبية · ولن يحصل الباحث على معلومات صحيحة ، الا اذا استعان بعلوم مساعدة : « ولأجل التمكن من الوصول الى ذلك ، لابد للبـاحث في اللغة والأدب من أن يطلع على الفنون ، ويعرف الأخـلاق والنظام الاجتماعي ، لترشده الى قوة الذكاء للأمم ، وأثر الحوادث في ذلك · ولابد من الاعتماد على المخطوطات ، لأن الغرض الأول من دراستها معرفة العقول التي يظهر آثارها في المؤلفات الفنية بواسطة العبارات الأصلية وضروب البيان » (١٧) ·

ندرك من هذا المقال أن أحمد ضيف يقترح المنهج التاريخي ، كما طبقه موريس كروازى في دراسة الأدب اليوناني ، ولانسون في التاريخ للأدب الفرنسي · فزيادة عن عنـاصر المنهج التاريخي السالفة الذكر ، يتحدث في المقال نفسه عنضرورة الحرية الفكرية ، وربط الأدب بالمجتمع

---

(١٤) د· ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ١٥ ـ ٢٠ ·

(١٥) Lanson (G.) : *L'esprit scientifique et l'histoire litteraire* (In Methodes re litteraire et hommes et lettre). p. 28.

(١٦) د· ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ١٨ ـ ١٩ ·

(١٧) ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ١٩ ·

ودراسة التاريخ العقلى والنفسى للأمم من خلال كبار العقول ، ودراسة حياة المبدعين لفهم ابداعاتهم ، والاعتماد على الملاحظة الصحيحة والموازنة والمقارنة والفهم اللفظى واللغوى ، والفهم الأدبى، والاعتماد على المخطوطات وما يتبعها من عمليات للوصول الى العبارات الأصلية وضروب البيان ، مع الاستعانة بالفنون والأخلاق والنظام الاجتماعى ، لفهم مدى تصوير الأدب لمجتمعه ٠

كل هذه العناصر المنهجية ، عناصر تضمنها المنهج التاريخى ٠ ومن ثم ، يمكننا القول ان أحمد ضيف دعا الى لعمل بالمنهج التاريخى ، كما درسه ودرس تطبيقاته الصارمة فى فرنسا ، رغم ادراكه صعوبة تطبيقه وقتذاك على الأدب العربى : « وهذا هو أساس ما يسمونه الآن طريقة علمية، لأنها مبنية على نوع من التحقيق العلمى الذى لا يتطور اليه الشك٠ ولكن ذلك من الصعوبة بمكان فى أدب العرب ، لأن الوقوف على « النسخة الأصلية » كما يقولون لا يكاد يتحقق فى كل المؤلفات ، ولا سيما مجموعات الشعر والنثر القديم ، غير أن ذلك لا يمنع من العمل على ذلك بقدر الاستطاعة ٠ على أن الظاهر لنا أن معرفة المؤلفات الأصلية ، ربما لا تتحقق فى الأدب العربى » (١٨) ٠

من الممكن أن يلتزم الدارس بمبادىء المنهج، من موضوعية ، وحياد، وعدم انسياق وراء القدماء ، ويتذوق الأثر الأدبى ويدرسه فى علاقاته مع مبدعه ، ثم مع مجتمعه اعتمادا على العلوم المساعدة فيعرف كنهه اللغوى مكتشفا ما يعج فيه من أفكار وأحاسيس ، الا أن الصعوبة الكبرى تكمن ، فى نظر أحمد ضيف ، فى تحقيق النصوص لعدم توفر النسخ الأصلية لنصوص الأدب العربى القديم ٠ وباثارة هذه الصعوبة ، يربط أحمد ضيف الدراسة الأدبية ، ومنهجه المقترح بصفاء أو نقاء النص الذى يعد ، حسب اللانسونية الشرط الأساسى لأية دراسة علمية ، فالحكم على أديب من خلال أثر أدبى لا يكون حكما صحيحا اذا لم تكن النسبة صحيحة ، أو لم يكن النص كاملا أو لم يكن خاليا من أى تشويه كما بين ذلك لانسون فى بنود المنهج ٠ يبدو المنهج التاريخى ، كما اقترحه أحمد ضيف غامضا ، كما تبدو خطواته العملية غير مرتبة وغير واضحة ، وهذا أمر طبيعى ، فالمنهج عموما أمر جديد على الطالب العربى وقتذاك٠أما المنهج التاريخى ، فيكاد يكون بدعة بمبادئه التى تنسف الكثير مما ألفه وتعود عليه الطلاب العرب ، ويحتاج من يدعو اليه ، الى جرأة وشجاعة لا يجرؤ عليهما أحمد ضيف ، فهو خجول يؤثر السلامة كما رأينا فى ترجمته ، ولذا راح يشير اشارات خفيفة ، محتجا بأن ما يقوله وما يكتبه موجه الى الطلاب

---

(١٨) د٠ ضيف (أحمد) . المرجع السابق ، ص ٢٠ ٠

المبتدئين (١٩) ، ناصحا النقاد والعلماء بالرجوع الى مصادر الآراء الحديثة، فلا يكن بذلك مسؤلا عما سيجدون في تلك المصادر الحديثة : « أما كبار العلماء ، وأساتذة الأدب ، فلا يجدون في هذه الآراء ما يشفي غلتهم ، أو يسكن حب الاستطلاع لديهم · فعليهم أن يرجعوا الى كتب الفرنجة الحديثة ، وفيها كل التفصيل لما أجملنـاه وأوجزناه » (٢٠) · وهكذا يوحى بانه لم يقل كل ما عنده حول المنهج لأسباب تعليمية ، داعيا العلماء والأساتذة الى الرجوع الى كتب الفرنجة الحديثة التي كانت كلها تدعو في ذلك الوقت الى المنهج التاريخي ·

ثم يواصل اشاراته العلمية الجديدة ، ضمن بقية مقالات الكتاب يمكن جمعها في النقاط المنهجية التالية :

١ ـ **مفهوم الأدب وطبيعته** : ثار أحمـد ضيف على مفهـوم الأدب المتعارف عليه وقتذاك : « قالوا الأدب كل ما تأدب به الانسان ، يقصدون بذلك كل ما صـح أن يعرف فهو من الألفـاظ التي ليست لها معـان محدودة » (٢١) · انه مفهوم غامض لا يدل على شيء معين أو محدد لأن العرب درسوا الأدب باعتباره وسيلة لشرح الظواهر اللغوية أو الدينية ، ولم يدرسوه على أنه غاية في ذاته ، لم يدرسوه باعتباره نشاطا فنيا مثل بقية النشاطات كالرسم والموسيقى والرقص · ومن ثم دعا طلابه وقراءه الى هجر المفهوم المتعارف عليه آنذاك للأدب والأخذ بالمفهوم الجديد الذي يفرق بين « الأدب » بمعناه العام و « البلاغة » باعتبارها مصطلحا يدل على « الأدب الابداعي » : « البلاغة دراسة العقول وحالة الاجتماع فهي عبارة عن معلومات عامة ، وملاحظات للكاتب ، وتأثرات اكتسبها من الخارج ، دخلت في نفسه وخرجت للناس لابسة شخصيته ·

ولم تغير حركة الايجابيين (Positivistes) (٢٢) العلمية من البلاغة الا طريقة التصور والخيال ، أما البلاغة من حيث انها فن سره في تركيب اللفظ ، ووحي النفس ، فلم يتغير بحال » (٢٣) ·

ميز أحمد ضيف بين الأدب الابداعي ، والدرس الأدبي من حيث

---

(١٩) د· ضيف (أحمد) . المرجع السابق ، ص ١ ·
(٢٠) د· ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ١ ·
(٢١) د· ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ٢١ ـ ٢٢ ·
(٢٢) استعمل أحمد ضيف مصطلح « الايجابيين » بالمعنى اللغوى المعجمى المباشر للمصطلح الفرنسى · أما المعنى الاصطلاحى الفلسفى الدال على الوضع العلمى الذى اشتق منه مصطلح « الوضعية » ، فظهر متأخرا فى العربية بالنسبة لأحمد ضيف ·
(٢٣) د· ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ٣٤ ـ ٣٥ ·

طبيعة كل واحد منهما أولا ، ومن حيث وظيفته ثانيا ، مؤكدا على المفهوم الجديد للأدب الابداعي : « البلاغة اما أن تكون عبارة عن اظهار ما يجول فى نفس الانسان ، من عواطف واحساسات وخيالات وغيرها ، مما يدل على شخصية الكاتب أو المتكلم فحسب ، واما أن تكون صورة غير صورة نفس الكاتب أو الشاعر ، أى صورة من الحياة العامة للانسان ــ أو جزءا من تاريخ الانسانية كما يقولون ــ فالأولى هى البلاغة الوجدانية والثانية هى البلاغة الاجتماعية » (٢٤) ٠

الأدب اذن ، تعبير عن المجتمع ومشاكله ، أو تعبير عن المجتمع من خلال احساسات المؤلف ومواقفه الفكرية والنفسية ، أى أن الأدب « جزء من تاريخ الانسانية كما يقولون على حد تعبير أحمد ضيف ٠ وبتعبير « لانسون » « تاريخ الأدب جزء من تاريخ الحضارة » (٢٥) ٠ دون شك فان مفهوم أحمد ضيف التاريخى للأدب ، نابع من ثقافته الفرنسية المستمدة من الفلسفة الوضعية بشهادته ٠

أما طبيعة الأدب ، فتكمن فى سره النابع من قدرة الأديب على ايصال أفكاره وأحاسيسه بوساطة تحكمه فى اللغة ، وفى صياغته المتميزة للألفاظ ، راسما بذلك ما لا يراه غيره ، ومثيرا بتلك الصياغة فى ذهن القارىء ووجدانه الأفكار والأحاسيس التى جالت فى ذهن ووجدان المبدع نفسه ٠

تستلزم طبيعة الأدب ، بهذا التصور ، وظيفة لابد من القيام بها ، تتمثل فى الامتاع والاعجاب بالصياغة وحسن التركيب من جهة ، ثم التهذيب والتوجيه والاصلاح بما يتضمن من أفكار وأحاسيس من جهة ثانية ، أى صار للأدب وظيفتان متلازمتان : « والرأى الصحيح السائد هو أن الغرض من البلاغة اعجاب القارىء أو السامع ببراعة الكاتب أو المتكلم ، وأنه لا يطلب من البليغ أن يملأ كلامه بشىء من المعلومات الصحيحة ، وليس الشاعر مضطرا لأن يأتى بالفلسفة والحكمة فى شعره، كما أن الغرض من التصوير هو اعجاب الناظر ، والاستيلاء على حواسه الظاهرة ٠ بما فى الصورة من الابداع والاتقان (٠٠٠) والأدباء العصريون الآن يرون أن البلاغة فن من الفنون الجميلة مثل التصوير والموسيقى ، الغرض منها تهذيب النفس وترقيق العواطف ، وتقوية الملاحظة » (٢٦) ٠

لا يختلف مفهوم الأدب عند أحمد ضيف ، عن مفهومه عند لانسون ،

---

(٢٤) د٠ ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ٢٧ ــ ٣٨ ٠
(٢٥) لانسون . المنهج التاريخى ، ص ٢٩٧ ٠
(٢٦) د٠ ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ٣٢ ٠

فهو عند كليهما تعبير عن المجتمع ، أو عن الأديب الذى يصدر فى أفكاره وأحاسيسه عن المجتمع ، قصد امتاع القارىء واثارة احساسه وانفعالاته وخياله بفضل خصائص الصياغة والأسلوب ، ثم ترقية ذوقه وتوجيه احساساته وأفكاره بفضل الصور الفكرية أو العاطفية المقدمة اليه بصياغة جميلة أو أسلوب مميز (٢٧) ، ومن ثم نستطيع القول ان مفهوم الأدب عند أحمد ضيف طبيعة ووظيفة مفهوم لانسونى .

٢ ـ تاريخ الأدب ووظيفته : ترجع صلة الأدب الوثيقة بالتاريخ الى ارتباط الأدب بالمجتمع صدورا وانعكاسا ، لأن الأدب جزء من النشاط الانسانى ، وبالتالى فهو جزء من التاريخ الانسانى .

ومن هنا نستطيع القول ان المنهج التاريخى نابع من طبيعة الأدب التاريخية ، فهو يشمل عمليات بحث متعددة تكشف مختلف جوانب الأثر الأدبى وتضعه موضعه من التسلسل الفكرى والفنى مستعينا لأجل ذلك ، بعلوم وفنون مساعدة . ومن ثم يتضح لنا أن تاريخ الأدب أشمل وأوسع من النقد الأدبى . فالنقد يدرس الأثر ذاته . أما تاريخ الأدب فيضيف الى ذلك دراسة الأدب فى علاقاته المختلفة . وهذه الرؤية التاريخية للأدب هى التى دفعت أحمد ضيف الى القول ان : « تاريخ البلاغة هو البحث فى مجموع ما تنتجه قرائح الأمة من علوم وفنون . أو هو مجموع الحركة الفكرية فى الأمة (...) وعلى كل حال ، فتاريخ البلاغة بالطريقة المعروفة الآن ، لا يوجد فى كتب العرب بهذا التسلسل ، كما هو عند الأوروبيين » (٢٨) .

لم يحدد أحمد ضيف ، تاريخ الأدب الابداعى ، وانما وسعه ليشمل « مجموع الحركة الفكرية فى الأمة » ، وهذا لارتباط الأدب الابداعى بالمجتمع ، أى لارتباطه ببقية النشاطات الفكرية التى تؤثر فيه من جهة ، وتكشف العديد من جوانبه من جهة أخرى . ولا يتضح تاريخ الأدب عنده ومنهجه الا عندما يستعين برأى أستاذه « لانسون » فى تحديد وتوضيح ذلك : « وظن جماعة من الأدباء أيضا أنه يكفى الاطلاع على تاريخ البلاغة وتصفحه، ليقف الانسان وقفة اجمالية على سير الحركة الفكرية ، وليكتفى بذلك من عناء قراءة كل كاتب أو شاعر أو مؤلف . ومن بين هؤلاء رنان Renan (...) ورد عليه فى ذلك الأستاذ لانسون Lanson فى مقدمة كتابه تاريخ البلاغة الفرنسية ، وقال ان ذلك معنى سلبى للبلاغة لأنه يجعلها أشبه بتاريخ للأفكار أو الأخلاق ... قال : « ولا مناص من الرجوع

(٢٧) لانسون : المرجع السابق ، ص ٣٩٥ ـ ٣٩٩ .

(٢٨) د. ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ٣٠ ـ ٣١ .

الى المؤلفات نفسها ، لا الى الملخصات والمختصرات ، اذ لا يكفى معرفة فن التصوير بقراءة تاريخية ، بدون أن ينظر الانسان الى الصور نفسها • والبلاغة كالفنون لا يمكن التفرقة بينها وبين شخصية الكاتب » (٢٩) • اذ أنها تحتوى على معان ودقائق تتجدد كلما أنعم الانسان النظر فيها • كما أن القصيدة الواحدة كلما قرأها القارىء تأثرت نفسه بأثر جديد ، وفهم منها شيئا جديدا ، بل هى عبارة عن تمرين فكرى ، ونوع من ترقية الذوق ، وضرب من السرور ، وقال الأستاذ لانسون Lanson : « والبلاغة لا تتعلم ولا تحفظ ، ولكن يتعهدها الانسان بالتنمية ، ويميل اليها ويحبها » (٣٠) • فمن خواصها أنها توجد للنفس لذة عقلية وسرورا نفسيا ، وذلك يساعد على تربية الذوق واستعداد الفكر لقبول الجمال • كما أنها وسيلة من وسائل تربية النفس تربية فنية » (٣١) •

لقد اعتقد نقاد كبار خطأ أن تاريخ الأدب هو البديل عن قراءة العديد من المؤلفات الأدبية ، بتقديمه لخلاصات وأفكار وآراء ، الا أن هذا المعتقد مناقض لروح المنهج التاريخى الذى يهدف الى تدريب ذوق القارىء وترقيته ، بتبصيره بمختلف زوايا الغموض فى الأثر الأدبى ، جامعا من أجل ذلك ، ما بين الذوق والمعرفة ، لامتاع القارىء وتعليمه فتطوره وتقدمه من جراء ذلك • اعتمد أحمد ضيف فى تبيسان ضرورة قراءة النصوص الأدبية ، وعدم الاكتفاء بملخصاتها ، والاعتماد فى ذلك على الذوق والمعرفة على آراء لانسون ، المبثوثة فى مقدمة كتابه « تاريخ الأدب الفرنسى » ففهم الأدب وتاريخه فهما لانسونيا ، ودعا طلابه الى تبنيه ، لاقتناعه أن تطور الأدب العربى مرتبط بتحرره من المفاهيم الأدبية السائدة آنذاك عند العرب ، مقدما المفهوم اللانسونى بديلا •

٣ ـ **مفهوم النقد** : سبق القول أن النقد مرتبط بتاريخ الأدب ، فهما متكاملان ، حيث يدرس النقد الأدبى ويحكم عليه ، ثم يأتى تاريخ الأدب ليضعه موضعه بالنسبة للمبدع أولا ، ثم الأدب القومى ثانيا ، اعتمادا على عدة مهارات ومعارف حددها « لانسون » وتبعها أحمد ضيف ، الذى يشرح النقد مستعرضا أهم صوره عند الفرنسيين والعرب • فالنقد لديه يتمثل فى : « القراءة والفهم والتفسير والحكم ، هى أصول النقد وهى حده أيضا • اذ لا يمكن حد النقد حدا تاما ، لعدم اندماجه فى قانون عام ، لأنه ليس علما من العلوم التى لها قواعد خاصة ، وانما هو فن من

---

(٢٩) Lanson (G.) : *Histoire de la litterature française*. hachette Edition 43, p. VI.

(٣٠) Lanson (G.) : Idem, p. IX.

(٣١) د• ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ٣٣ ـ ٣٤ •

الفنون التى تضبط بالعلوم وتتقدم بتقدمها ، فانه مبنى على قوة الذكاء وسلامة الذوق : وذلك ليس داخلا تحت قانون عام ، فضلا عن أنه لابد من ظهور أثر الناقد الشخصى فى حكمه على ما يقرأ ، لأنه انما يحكم على غيره بمزاجه الخاص · ولذلك كانت الفروق كثيرة بين آراء النقاد · لأن النقد صور عقولهم المختلفة » (٣٢) · يتمثل النقد اذن ، عند أحمد ضيف، فى جملة من الفعاليات الذوقية ثم الذهنية ، تبدأ بقراءة الأثر الأدبى وتذوقه ، ثم فهمه بالاستعانة بعدة علوم وفنون ومعارف ، وتحليله بناء على المعلومات الدالة حول المبدع والمجتمع ، للانتهاء باصدار حكم نقدى على الأثر الأدبى ، حكما يكون بعيدا عن التعصب والهوى · وبديهى أن هذا المفهوم جزء من عناصر المنهج التاريخى، لاعتماده على عنصرى « الذوق » و « المعرفة » وهما أساس المنهج التاريخى فى دراسة الأدب · فالذوق هو الوسيلة للنفاذ الى جمال الأثر الأدبى ، والمعرفة هى الحبل الذى يربطه بالبيئة والمجتمع والتاريخ ، أى الحبل الذى يربطه بالعلم · وهكذا ، فالنقد عنده يتمثل فى الجمع بين « الذوق » والمعرفة » بعيدا عن أى تعصب أو نزعة مذهبية شأنه فى ذلك شأن « لانسون » الذى جمع هو الآخر ما بين « الذوق » و « المعرفة » نابذا كل تعصب أو نقد مذهبى · فمثلما رفض « لانسون » النقد المذهبى ، متمثلا فى نظرية « تين » ثم نظرية « برونتيير » ، رفضه أحمد ضيف : « ولو أردنا أن نشرح مذهب تين بتفصيل أوسع لطال بنا البحث ، وربما عاد علينا ذلك بالملل ، لأن الرجل غير معروف عندنا ، ولأننا لم نتعود اندماج الأدب فى الفلسفة ، ولأن مذهبه مذهب علمى جاف لا يسوغ لنا قبوله » (٣٣) · كما رفض مذهب « برونتيير » بعد استعراضه لأنه يصبو الى جعل النقد علما من العلوم بينما الأدب فن ، ومن ثم فان نظرية « برونتيير » لم تتحقق بعد ، ولن تتحقق (٣٤) ·

ومثلما رفض لانسون المنهج التأثرى الصرف ، رفضه أحمد ضيف بعد تقديمه للقارىء وشرح أسسه وأهدافه وفنياته : « ولكن هذا المذهب ليس له طريقة خاصة تتعلم ، بل هو مذهب شائع بين القراء · فكل انسان يمكنه أن يشعر ويتأثر بما يقرأ (···) مهما أنكر مذهب التأثير والانفعال بالقواعد والقوانين العامة للنقد الأدبى ، فلا يمكن انكار أن هناك جهة عامة تتفق فيها جميع الأذواق : هذه الجهة فى رأينا هى ما يوجد فى الفنون من المعانى الانسانية العامة » (٣٥) ·

---

(٣٢) د· ضيف (أحمد) · المرجع السابق ، ص ٩٠ ·
(٣٣) د· ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ١٢٣ ·
(٣٤) د· ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ·
(٣٥) د· ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ·

لقد رفض المنهج التأثيرى فى دراسة الأدب ، لاقتنـاعه بأن النقد أو الدرس الأدبى ذوق وفكر ، أى تمتع وتعلم ، ومن ثم أنكر على المنهج التأثرى ما أنـكره عليه لانسون (٣٦) • وهكذا انتقد أحمد ضيف النقد العلمى كما تجلى عند تين وبرونتيير ، كما انتقد النقد التأثرى كما تجلى عند جول لومتر ، مقترحا الجمع ما بين الذوق والمعرفة • يلاحظ دارس كتاب أحمد ضيف « مقدمة لدراسة بـلاغة العرب » أنه اسـتهل حياته العلمية بثورة مهذبة على مناهج دراسة الأدب العربى وتدريسه آنذاك • فقد لاحظ أن مفهوم الأدب عند العرب عـام جدا لدرجة الغموض ، وأن مناهـج دراسته وتدريسه لاتحفل الا بالجانب الشكلى اللفظى ، بينما الأدب تصوير للحياة العقلية ، فهو تعبير مباشر عن المجتمع أو غير مباشر عن طريق تصوير آلام وأفراح المبدع ، وبالتالى يكون تصويرا للمجتمع •

نتج ارتباط الأدب بالمجتمع ، فى ذهن أحمد ضيف ، عن أنه عد الأدب وتاريخه جزءا من تاريخ العقول البشرية ، أى عده جزءا من التاريخ العام ، ومن ثم ، فالمنهج الملائم لدراسة هذا الجزء من التاريخ العـام هو المنهج التاريخى الذى يتمثل فى الجمع ما بين الذوق من جهة والمعرفة من جهة أخرى ، على النقيض من ذلك المناهـج النقدية التى تعصبت للعلم وحده أو الذوق بمفرده ، فيرفض من ثم النقـد العلمى البحت والنقـد التأثرى الصرف داعيا الى اعتماد القواعد والقوانين العلمية النابعة من الأدب نفسه، مع الذوق الرفيع والمدرب ، بعيدا عن كل تعصب قومى أو دينى أو مذهبى• ثم الاعتماد على علوم وفنون كالمخطوطات والتاريخ والفلسفة لفهم النص الأدبى بعد قراءته وتذوقه وفهم لغته ومضمونه كل هذه الأسس المنهجية ، والخطوات العملية ، والآراء النقدية ، لا تخرج عن المنهج التاريخى ، الذى تعلمه أحمد ضيف من أستاذيه لانسون وكروازى •

لقد أعجب بالمنهج التاريخى أسسا وقواعد وخطوات ، ودعا طلابه لاتباعه فى دراستهم للأدب العربى ، فهو الكفيل بتطوير الدرس الأدبى ، مثلما تطور درس الأدب عند الأوروبيين •

والملاحظ أنه لم يكن دقيقا وواضحا فى تقديم المنهج تقديما منهجيا، حيث جاءت دعوته مبعثرة بين حنايا الكتاب • ومرد ذلك فى رأينا ، ميله الى التدرج فى نقل الأفـكار النقدية الجديدة تماشيا مع شخصيته الهادئة المتجنبة لمختلف مظاهر الصراع ، ثم ادراكه بأن الواقع العلمى المصرى غير مؤهل لتقبل المنهج التـاريخى بحذافيره ، لأن ذلك قد يقلب الكثير من الحقائق والمفاهيم مثيرا زوابع نقدية ، هو فى غنى عنها ، ثم لأن الظروف

---

(٣٦) لانسون : المرجع السابق ، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٥ •

العلمية من نصوص محققة وغيرها ما كانت ملائمة بعد ، وأخيرا قد يكون لمستوى استيعابه للمنهج دور في ذلك أيضا ·

وعموما، فانه أول من ثار على مناهج دراسة الأدب العربي وتدريسه، واقترح بديلا عن ذلك ، يتمثل في الاقتداء بالأوروبيين ، وتطبيق المنهج الجامع ما بين الذوق والمعرفة بعيدا عن أي تعصب علمي أو مذهبي أو ذوقي ، والاستعانة بالعلوم المساعدة للوصول ما أمكن الى الحقيقة الصحيحة ، فكان بذلك أول لانسوني عربي من حيث الصلة والدعوة ·

الفصل الثالث

أحمد ضيف

وتطبيقاته للمنهج التاريخي

درس أحمد ضيف في جامعه السوربون خلال سيادة المنهج التاريخي ، فتتلمذ على موريس كروازى ولانسون ، وأعد رسالة لنيل دكتوراه الجامعة باشراف الأستاذ (م·ج· رينيي M. G. Reynier) أحد أتباع لانسون · ولذلك ، أعجب باللانسونية منهجا للبحث ، فدعا طلابه - بعد عودته - الى ترك الطرق المتبعة في دراسة الأدب العربي وتدريسه آنذاك ، مقترحا عليهم المنهج العلمي الذى طبقه الغربيون في دراسة آدابهم أمثال كروازى ولانسون ، كما هو مبين في الفصل السابق · وبذلك ، كان أول دعاة اللانسونية في النقد العربي الحديث · لقد كان واضحا في مهاجمة طرق دراسة الأدب العربي وتدريسه ، لادراكه أن تلك الطرق لا تحفل الا باللفظ ، لاعتبارها الأدب مجرد متعة ، بينما الأدب متعة ومعرفة عند الأمم المتطورة · وللوصول الى النتيجة نفسها ، لابد من اتباع مناهجهم التي يعد المنهج التاريخي خلاصتها · فهل اتبع أحمد ضيف منهجه المفضل في كتابيه التطبيقين ؟ ذلك ما سنحاول الاجابة عنه في الصفحات التالية من خلال دراستنا لكتابيه :

- بحث في الغنائية والنقد الأدبي عند العرب (١) ·
- بلاغة العرب في الأندلس ·

---

(١) نشر هذا البحث لأول وآخر مرة بفرنسا سنة ١٩١٦م ، اما المناقشة فتمت في شهر يناير من سنة ١٩١٨ م ·

Deif (Ahmed) : *Essais de lyrisme et de critique litteraire chez les arabes. Jouve* & cie editeurs. Paris, 1917.

قد يتساءل قارئ كتاب « بحث في الغنائية والنقد الأدبي عند العرب » عن موضوعه المركب من موضوعين قابلين للانفصال درسهما أحمد ضيف في بحث واحد ، الا أن أحمد ضيف أجاب عن ذلك في المقدمة شارحا اشكالية هذا العنوان المركب من موضوعين ، قد يتبادر الى الأذهان انفصالهما عن بعضهما ، ولكن الملاحظة الدقيقة المتأنية تبين غير ذلك ٠

فالشعر العربي غنائي من حيث طبيعته ، لم يعرف شكله تغيرا يذكر منذ أقدم عهوده حتى الآن ، ولم تعرف مضامينه تطورات جذرية ، ومن ثم فان الثبات سمة الشعر العربي الأساسية ونجد سمة الثبات هذه لصيقة النقد العربي ، لأنه نقد تقريري ثابت لثبات الشعر العربي ٠ ان الثبات سمة أساسية في الشعر العربي وغنائيته في النقد العربي وتقريريته في التصوف ووحدانيته ٠ انه ثبات نابع من ثبات وسكون البيئة الصحراوية العربية بسعتها وجدبها ، فهي لا تقدم لساكنها سوى رؤية حسية بسيطة ، أو رؤية تأملية مجردة تجرد الصحراء ، رؤية مطلقة لا يحدها حد فلا تدفع صاحبها للتصور أو التخيل ، فكل شيء مبسوط أمامها (٢) ٠

سعى البحث وصاحبه ، اذن ، الى الكشف عن أصول وأسباب هذا الثبات الذي وسم الشعر والنقد العربيين ، وأعاقهما عن التطور والنمو ، مثل بقية آداب العالم ٠ ويمكن أفضل سبيل للوصول الى ذلك في : « دراسة الشعر الغنائي والنقد العربي في توازنها كما سيتضح من محاولتنا ٠ وتنبع أدق خصائص الأدب العربي في نهاية الأمر ، من طابعه الأساسي المستوحى من الصحراء التي لا تستطيع تزويد التأمل العربي الا بما تملك : الجلال والنبل من جهة ، والفقر والقحط من جهة أخرى ٠ وذلك هو عمق الاحساس الذي سيغذي الشعر العربي البدائي ٠ وستمكننا دراسة دقيقة لهذا الالهام الشعري الأساس من فهم موقف النقد ازاءه ، ذلك النقد الذي صار نقدا تقريريا منذ بدايته لتشبعه بالمبادئ لا غير »(٣) لقد بنى أحمد ضيف اشكالية بحثه على خصائص البيئة الصحراوية العربية وأثرها في الشعر العربي الذي اتسم بالثبات في غنائيته ، مؤثرا بذلك على النقد العربي الذي اتسم هو الآخر بثبات تقريريته تماشيا مع ثبات الشعر ٠ ومن ثم ، جعل محور بحثه السعي الى استجلاء أصول ذلك الثبات وأسسه ونتائجه في الشعر والنقد العربيين ، لانطلاقه في كل ذلك من موقف نقدي يعد هو أسس المنهج التاريخي ، ويتمثل في ارتباط الأدب

---

(٢) Deif (Ahmed) : *Essays sur le lyrisme et la critique chez les ...* arabes, pp. 1-8.

(٣) Deif (Ahmed) : Idem. 7-8.

بالمجتمع ، يصدر عنه ثم يصوره • فجعل الشعر العربى يصدر عن البيئة العربية الصحراوية الثابتة بجلالها ونبلها وفقرها وقحطها ، ثم يصورها ، فيكون بذلك قد صدر عن ثبات ليصور الثبات ، ويكون النقد العربى قد فعل الشىء نفسه لارتباطه بذلك الشعر الصادر من الثبات والمصور له • وهكذا ، يمكننا القول أن تشبع أحمد ضيف بالمنهج التاريخى كان السبب الأساسى فى توجيه بحثه هذا ، الوجهة المنهجية هذه •

يدرس فى الباب الأول من البحث غنائية الشعر العربى النابعة من مخزون عاطفى والهام عارم، غير أن صدور ذلك المخزون العاطفى ، والالهام العارم من بيئة صحراوية فقيرة مجدبة طبعهما بقلة التنوع فى الأصل وخلال التطور وفى الهدف ، لينعكس كل ذلك على أجناس الشعر العربى فى كل تجلياتها (٤) •

تنبع غنائية الشعر العربى ، اذن ، من المخزون العاطفى والالهام العارم للانسان العربى العاطفى جدا ، شأنه فى ذلك شأن كل الساميين(٥) ، فهو لا يستطيع كبح جماح عواطفه وانفعالاته واحساساته ، فلا يتعدى شعره ، بناء على ذلك ، التعبير عن احساس شخصى أو حالة نفسية للشاعر نفسه ، أى التعبير عن انفعال • وعادة ما يكون الانفعال حبا أو كرها ، فتغنى الشاعر العربى لذلك بانفعالات الحب فى الغزل والنسيب والخمريات والرثاء والوصف ، كما تغنى بانفعالات الكراهية فى الهجاء والفخر ، ولذلك لم تتعد قصائده المائة بيت فى الكثير من الأحيان •

اعتمد فى رأيه هذا على نظرية الجنس فى الابداع ، كما تبلورت عند الناقد الفرنسى رينان Renan (٦) ، حيث يرى أن الجنس السامى عاطفى لا يستطيع التحكم فى أحاسيسه ، ويفتقر الى التفكير المنطقى وسعة الخيال • ومعروف الآن أن نظرية رينان فى تفسير الابداع تفسيرا عرقيا وذلك بتقسيم البشرية الى ساميين وحاميين وآريين ، لا تسندها حقائق علمية ثابتة ، كما أن اختلاط البشرية عبر العصور طمس الصفاء العرقى ان وجد ، لدرجة أن الابداع قد يظهر عند فرد من أسرة ، لم تعرف الابداع قط ، وقد يظهر فرد لاعلاقة له بالابداع فى أسرة مبدعة • فالابداع معادلة صعبة مكونة من عناصر عديدة ومتداخلة كالوراثة والظروف الأسرية والظروف الاجتماعية العامة والزمان والمكان والصدفة فى بعض الأحيان •

---

(٤) Deif (Ahmed) : Idem p. 9.

(٥) Deif (Ahmed) : Idem. pp. 11 et 181.

(٦) Deif (Ahmed) : Idem. p. 11.

لقد كانت نظرية رينان العلمية ، بغض النظر عن قيمتها وموقفنا منها ، كانت من منطلقات أحمد ضيف في اثبات أصل أو نشأة الغنائية في الشعر العربي ، فلم تكن مذهبا فنيا أو اختيارا حرا ، وانما كانت حتمية بيولوجية ، زادتها نموا وازدهارا البيئة الصحراوية بسعتها ورتابتها وتشابه مناظرها ، فهي مصدر الهام الشاعر العربي العاطفي الانفعالي ، لا تقدم له سوى صور مادية محسوسة ثابتة لا تغير فيها ولا تجديد ، فجاء شعره متواتر الايقاع رتيبا ، متشابه الأغراض والموضوعات ، فلا تغير ولا تجديد في الصور فمن أين سيأتي بذلك ؟! .

لقد جعلت الصحراء العربي انسانا متأملا أكثر منه مفكرا ، فالتحم بها وصدر عنها في أحاسيسه وصوره ، فجاء شعره صادرا ومعبرا عنها (٧) . كانت الصحراء بسعتها ورتابتها السبب الثاني في تطور غنائية الشعر العربي ، وفي الحفاظ على هذه الغنائية بانغلاق آفاقها أمام العرب وعزله عن الثقافات الأخرى ، فراح يتوهم أن أفضل عالم عالمه ، وأفضل شعر شعره ، ولم يكترث لأي فكر أجنبي (٨) ، ومن ثم لم يتعد مضمون القصيدة العربية حياة الشاعر البدوية من الوقوف على الاطلال ووصف الناقة والتغزل، فالوصف والمدح وغير ذلك من الأغراض الشعرية التي تمثل حياة العربي اليومية ، فصار مضمون القصيدة متشابها عند الشعراء ، كما صار شكلها متشابها أيضا ، وصارت المعلقات النموذج الشعري المحتذى شكلا ومضمونا (٩) . اقتنع العرب بأن المعلقات هي النموذج الشعري الأمثل ، فأغراضها تصور حياتهم اليومية في مختلف مظاهرها ، وبناؤها يسهل حفظها وترديدها ويتلاءم في رتابته وتكراره مع رتابة الحياة العربية وتكرارها، ولذلك راح الشعراء يصبون انفعالاتهم وأحاسيسهم في ذلك القالب الشعري الثابت ولم يحاولوا الخروج عليه ، فانسدت أمامهم أبواب التجديد في الموضوعات وفي البناء ، وراحوا يغالون في الصور البلاغية هروبا من الرتابة والتكرار ، ويتألقون في تعابيرهم وألفاظهم ، مفضلين بذلك اللفظ على المعنى ، لارتباط سبل التجديد والتطور عندهم باللفظ . أما المعنى ، فمشترك ومتفق عليه لاشتراك العرب في حياة يومية ذات نمط واحد عندهم (١٠) .

حجبت الصحراء الأفكار الأجنبية عن العرب ، فانشغلوا بتفتيق لغتهم حتى أخذوا بها ، وصار التعبير اللغوي هدفا في حد ذاته ، وتحولت الصحراء بذلك من مصدر للالهام الحي الى منبع للقيود والحدود العائقة

---

(٧) Deif (Ahmer) : Idem. pp. 21-22.

(٨) Deif (Ahmed) : Idem. pp. 26-27.

(٩) Deif (Ahmed) : Idem. p.p. 46-47.

(١٠) Deif (Ahmed) : Idem. p.p. 48-49.

لأى تطور في الشــعر العربى (١١) ، فطبعت ســاكنها بطابــع المحافظة والتمسك بالعادات والتقاليد والموروثات ، خوفا من الجديد الذى يهدد ذهنه، ومن ثم تشبع العربى بتقديس القديم.وتقليده ، مقيما لنفسه جدارا أمام التجديد والتطور العقلى مكتفيا بالتجديد اللغوى (١٢) ٠

وجد الشــاعر العربى نفسه مكبلا بقيود أصــله السامى وبيئته الصحراوية فى ابداعه الشــعرى ، فاضطر الى التزام مضامين وأشــكال شعرية متفق عليها للتعبير عن انفعالاته نحو عالمه المغلق ، فلم يجد لنفسه متنفسا سوى التألق اللفظى ٠

عندما جاء الاسلام ، ازدادت قيود الشــاعر العربى ، حيث فرض عليه النمط الاجتماعى الجديد علاقات اجتماعية جديدة ذات مبادىء وقيم تحتم عليه التخلى عن العديد من الأغراض الشعرية المرتبطة بمبادىء وقيم هجرت لاعتبارات دينية أخلاقية،فتقلصت المضامين الشعرية ، ثم اكتسبت اللغة قداسة لارتبــاطها بالقرآن الكريم وثبتت معانيها بثبــات النص المقدس ، فسدت كل المنافذ أمام الشعر العربى المقهور (١٣) ٠ ان هذه الظروف التى مر بها الشعر العربى تمثل فى رأى أحمد ضيف الخوارج التى أعاقته ومنعته من التطور خارج غنائيته مكونة العــامل الثالث فى غنائية الشعر العربى ٠

ترجع غنــائية الشــعر العربى اذن ، عند أحمد ضيف ، الى ثلاثة عوامل موضوعية وجهت الشعر العربى هذه الوجهة : أولها الأصل السامى للانسان العربى اعتمادا على نظرية رينان (١٤) فى تفسير الابداع تفسيرا عرقيا ٠ وثانيها البيئة العربية الصحراوية الثابتة الجرداء وتفاعلها مع العنصر السامى ، انطلاقا من نظرية « تين » المتمثلة فى « العرق والبيئة والزمان » حيث تفــاعل العنصر الســامى مع البيئــة الى الحياة الاسلامية التى زادت الشــعر العربى انغلاقــا ، بنمط الحياة الاجتماعية الجديد المتزمت ، وارتباط اللغة بالنص القرآنى ، حسبما جاء فى كتاب « رونى باسى Basset René (١٥) من تحليل لتطور الشعر العربى وغنائيته ، ثم

---

(١١) Deif (Ahmed) : Idem. p. 53.

(١٢) Deif (Ahmed) : Idem) : Idem. p.p. 53-54.

(١٣) Deif (Ahmed) : Idem. p.p. 60-61.

(١٤) Renan : *Histoire des langues sémitiques.*

(١٥) Basset (René) : *La podsie Arabe Anté-islamique,* Ersest leroux editeurs. Paris, 1880.

جموده بفعل القيود الدينية واللغوية التى قيدهم بها الاسلام (١٦) وهو العامل الثالث فى غنائية الشعر العربى وثباته ٠

وهكذا فسر غنـــائية الشعر العربى اعتمادا على العوامل السالفة الذكر ، من منطلق منهجى ، يتمثل فى ربط الظـاهرة الأدبية بمجتمعها صدورا وتصويرا ، معتمدا فى ذلك كتاب « رونى باسى » من حيث تحليله وتتبعه لتطور الشعر العربى ، وكتاب لانسون « تاريخ الأدب الفرنسى » فى مقــارنته لظواهر ســلبية أو ايجابية من الشـعر العربى بالشـعر الفرنسى (١٧) ٠ لقد درس فى الباب الثانى النقد الأدبى عند العرب ، مستهلا بحثه باستعرض نشأة النقد الفرنسى وتطوره معتمدا فى ذلك على كتاب « تاريخ الأدب الفرنسى » للانسون (١٨) مستخلصا من ذلك أن النقد العربى عرف مكانة مرموقة ضمن الآداب الغربية بصفة عامة والأدب الفرنسى بصفة خاصة لدوره الرئيسى فى تطور الآداب وتوجيهها توجيها علميـا : « النقد حكم على أثر ٠ حكم مبنى على مبدأ ما ٠ ولولا خشـية التحذلق لقلنا : حكم ذو معيار ٠ ومن الممكن أن يكون هذا المعيار متعدد الأنواع ، فيتعدد التمييز ما بين الصالح والطالح ، الجمال والقبح ٠ ومن ثم يمكن وجود أنواع عديدة من النقد ، بمعايير مختلفة ، الا أنها تلتقى جميعا فى التفكير بأن يكون الحكم على الأثر الأدبى مبنيا على أسس » (١٩)٠

لم يظهر النقد الأدبى فى الآداب الأوروبية بهذا المفهوم ، وانما مر بعدة مراحل من التطور ، بعد ظهور تراكم أدبى مكن النقاد الأوائل من استخلاص الأسس والقواعد النقدية ٠ وعلى هذا الأساس ، لم يظهر النقد الفرنسى الا ابتداء من القرن السادس عشر ، أى بعدما تجمع تراث أدبى فرنسى أفرز قضـية الصراع ما بين « الجديـد » الفرنسى و « القـديم » اليونانى اللاتينى ٠

نشـأ النقد الفرنسى مع قضـية الصراع بين « القـديم » المتشبث بالتراث اليونـانى واللاتينى ومعـاييرهما الجمالية المطلقة والخـالدة ، و « الجديد » الداعى الى الاقتـداء بالآداب الحديثة وقتذاك مثـل الأدب الايطالى محاولا تسفيه آراء أنصار القديم ، ضمن جماعة « الثريا » كما بين ذلك لانسون فى كتابه « تاريخ الأدب الفرنسى » (٢٠) وشيئا فشيئا ،

---

(١٦) Basset (R) : Idem. pp. 41-51.

(١٧) Deif (Ahmed) : Irem. p.p. 49-50.

(١٨) Deif (Ahmed) : Idem. p.p. 65, 66, 67, ... elc.

(١٩) Deif (Ahmed) : Idem. p. 68.

(٢٠) Deif (Ahmed) : Idem. p.p. 63-67, et Lan on (G.) : *histoire de la literature française*, p.p. 275-336.

تطور : « النقد الفرنسي حتى عرف وجهه الجديد في القرن التاسع عشر ، كما سلف القول ، بمساعدة التاريخ » (٢١) • فأصبح النص الأدبي يفهم من خلال الوسط الاجتماعي والعصر الذي ظهر فيه • تتبع أحمد ضيف تطور النقد الفرنسي مذ كان نقدا اجماليا همه الأساسي التراكيب اللغوية السليمة أو الصور البلاغية الجميلة ، أو المضمون الديني ، أو العبرة الأخلاقية ، حسب ذوق المرحلة ، حتى صار نقدا تاريخيا يربط النص الأدبي بالبيئة التي ظهر فيها متغذيا منها ومصورا لها ، ثم بالزمان الذي ظهر فيه وعما اعتوره من أحداث • وبذلك ربط الأثر الأدبي — من منطلق نقدي — بما سبقه من تراث وأصول ، وما سينتج عنه من التأثير في الآداب الأخرى ، كل ذلك قصد ترتيب الآثار الأدبية وترتيب الأدباء فالأثر الأدبي لا يفهم بمعزل عن مبدعه (٢٢) • وهكذا نخلص الى أن ذروة النقد الأدبي عند أحمد ضيف تكمن في النقد التاريخي كما عرفه الفرنسيون ، وكما قرأه في كتاب لانسون •

بعد استعراض نشأة النقد الفرنسي وتطوره ، واستخلاص مفهوم النقد الأدبي من خلال ذلك ، انتقل الى استعراض النقد العربي ومقارنته بالنقد الفرنسي حيث لاحظ منذ الوهلة الأولى اختلاف نشأة النقد العربي عن الفرنسي (٢٣) ، فهو لا يرجع الى تراث أدبي قديم ، كالتراث اليوناني أو اللاتيني بالنسبة للنقد الفرنسي ، ولم يعرف التأثر بآداب أجنبية معاصرة له ، فارتبطت نشأته بنشأة الشعر العربي نفسه ، فكان اما استحسانا واما استقباحا ، اما مدحا واما ذما ، شأنه في ذلك شأن الشعر العربي الذي كان اما مدحا واما هجاء ، كما سلف القول •

لم يكن النقد العربي وليد عمل فكري متعمد ، وانما كان وليد انفعالات واحساسات ذوقية أو خلقية لا تخضع منزعة أو شروط موضوعية تتحكم فيها أو تحد من تطرفها ، فكان تبعا لذلك مجرد أحكام لا تستند على أي بحث أو مقاييس • فلما اعتمد المعلقات نماذج شعرية مثلى ، تحولت غنائية الشعر العربي الى تلاعب رائع بالكلمات ، فاكتسب النقد بذلك مقاييس نقدية — تتمثل في الالتزام بالنموذج الشعري الأمثل ومحاكاته — حولته الى نقد تقريري همه الوحيد البحث في أي نص شعري عن مدى مشابهته للنموذج الشعري الأمثل ، أي المعلقة (٢٤) • وبناء على هذه الفرو، في النشأة والتطور ما بين النقدين العربي والفرنسي ، أقام أحمد

---

(٢١) Deif (Ahmed) : Idem. p. 69.
(٢٢) Deif (Ahmed) : Idem. p.p. 70-71.
(٢٣) Deif (Ahmed) : Idem. p.p. 71-72.
(٢٤) Deif (Ahmed) : Idem. p. 73.

ضيف مقارنة ، ليستنتج بعدها ، أفضلية النقد الفرنسى ، فهو نقد حى ، نام ، له آفاق متفتحة على الآداب القديمة والحديثة · أما النقد العربى ، فهو ابن بيئته الأدبية ، آفاقه الفكرية والجمالية محدودة ، لم يعرف أى تأثر ، ومن ثم فهو نقد ثابت منذ نشأته (٢٥) ، عاجز عن التطور بعجزه عن تطوير الأدب العربى المكبل بالعوامل الثلاثة السالفة الذكر : « تتلخص مختلف أسباب هذا العجز ، السالفة الذكر ، فى عاملين : غياب تام للتأثير الأجنبى ، وخضوع النقد الى تقاليد دينية أو أدبية سابقة له » (٢٦) ومكبلة له جعلته نقدا تقريريا منذ نشأته ·

عرف النقد العربى القديم ، خلال تطوره ، مرحلتين أساسيتين . الأولى مرحلة النص القرآنى التى كان من الممكن أن تطوره ، الا أن نزول القرآن الكريم بلسان عربى مبين سد مرة أخرى منافذ التطور أمام النقد ، فالنص القرآنى مقدس ومعجز · ومن ثم ، تركزت جهود النقاد والدارسين والشارحين فى فهم هذا النص فهما دقيقا بكشف أسراره اللغوية ، فنشأ بذلك علم النحو والمعاجم ، ثم الكشف عن بعض أوجه اعجازه فنشأ علم البلاغة والمعانى ·

لم تؤد دراسة القرآن الكريم الى تفتح على الآداب الأجنبية ، فهو بلسان عربى مبين ، بهر العرب بلغتهم ، فما الدافع اذن الى الانتقال منه الى آداب أجنبية مادامت الصلة بينه وبينها ضعيفة جدا لا تتعدى اشارات قصصية تمثل تراث المنطقة المشترك أو ألفاظا أخضعت لقوالب اللغة العربية · كما لم تؤد دراسته الى دراسات نقدية ذات طابع أدبى ، فهو مقدس من حيث المضمون ، ومعجز من حيث البناء ، فماذا عسى الناقد الأدبى أن يقول ؟

اكتسبت اللغة العربية من القرآن الكريم قداسة ، فاكتسبت بالتالى قضية اللفظ شيئا من القداسة ، محرزة أهميتها بالنسبة للمعنى فى النقد العربى بعد ذلك ، ومن هنا فضل النقاد العرب اللفظ على المعنى ، فاللفظ جزء من اللغة العربية ، لغة القرآن ، فهو بذلك جزء من القرآن الكريم ، ورمز للوجود العربى فى العالم حيث يرتكز وجودهم على الدين الاسلامى الذى يتضمنه القرآن الكريم ، العربى اللسان · انه وجود مبنى على « الكلمة » وبالتالى يجب أن تكون الكلمة أساس كل ابداع أدبى · أما المرحلة الثانية التى عرفها النقد العربى القديم ، فهى مرحلة الصراع ما بين القديم والجديد فى عهد بنى العباس ، حيث اختلط العرب بالعنصر

---

(٢٥) Deif (Ahmed) : Idem. p.p. 75-76.

(٢٦) Deif (Ahmed) : Idem, p. 81.

الفارسى اختلاطا بلغ حد الامتزاج أحيانا ، فتعصب العرب « للقديم » الذى يمثل نموذجهم الشعرى فى المعلقات ونموذجهم اللغوى والأدبى فى القرآن الكريم وتزعم هذا التيار علماء اللغة العربية الذين كانوا يرون فى القرآن الكريم وفى الشعر الجاهلى نموذجهم اللغوى الذى لا ينبغى الميل عنه ، حتى لا يبعد الناس عن الفهم السليم للقرآن ، ومن ثم ارتبط « القديم » بالحفاظ على اللغة ونصاعة فصاحتها ، دون الاكتراث بابراز القيم الجمالية أو الأدبية لهذا « القديم » ، كما فعل الفرنسيون الذين تحزبوا « للقديم » وقيمه الجمالية والأدبية دافعين بذلك أنصار « الجديد » الى تقديم حجج مختلفة وقوية : (٢٧) : أما الجديد فتعصب له الفرس والمولدون بعقلهم الآرى : « العقل الخيالى الخلاق والقوى من الأسرة الهندو أوروبية الكبيرة ، العقل الفنان ، الفلسفى والمفكر ، الذى سيؤثر بقوة فى الأدب العربى منذ هذا الحين ، وسيمكنه من التطور فى كامل أنحاء امبراطورية الخلفاء » (٢٨) ٠

رفض العقل الآرى ، ممثلا فى الفرس والمولدين ، التقاليد الأدبية العربية ، فهجر شعراؤه أمثال بشار بن برد وأبى نواس وابن الضحاك وغيرهم لغة الجاهليين ، وثاروا على بنية القصيدة الجاهلية ، فعل أبى نواس الذى لم يفهم عقلية الأعرابى الذى يبكى الرسوم البالية تاركا خمارة البلد حيث الأنس والمتعة ٠ وحق لأبى نواس أن لا يفهم ، فهو حضرى ولد وتربى وعاش فى المدينة ٠ أما الأعرابى ، فهو لا يبكى الرسوم لذاتها حزنا على ما لحق بها من خراب ، وانما يبكى ما تثير فيه من ذكريات الصبا والحب والبطولة والحياة اليومية ٠ انهما أسلوبان حضاريان مختلفان نبعا من نمطين اجتماعيين مختلفين ، يخلقان بالضرورة ذوقين مختلفين يلائم كل منهما النمط الاجتماعى الذى نبع منه ٠ وبذلك فان الكثير من الأحكام النقدية على أدب أو شعر المولدين والفرس بحاجة الى اعادة نظر ٠

ثار أنصار « الجديد » على « القديم » فتخففوا من صلابة لغة الجاهليين وخاضوا موضوعات شعرية نهى الاسلام عن الخوض فيها كالخمريات والغزل بأنواعه والمدح والهجاء ، فرجع المجددون الى الموضوعات الجاهلية ، دون استحداث أجناس أدبية أو مذاهب جديدة ، فقويت شوكة أنصار القديم عندما أدركوا أن دعاة التجديد لم يضيفوا جديدا لم تعرفه العرب ، وبذلك ضاعت الأحاسيس النقدية الجديدة فى خضم « النزعة التقعيدية » للغة ، وظهرت أعمال نقدية نزعت هى الأخرى نزعة تقعيدية « نظرية »

---

(٢٧) Deif (Ahmed) : Idem. p.p. 102-103.

(٢٨) Deif (Ahmed) : Idem. p. 104.

لا علاقة لها بالآثار الأدبية من حيث التطبيق : « والغريب هنا ، كما هو الشأن عند كل النقاد العرب ، أن النقد نظرى بحت يقترح قواعد على غرار النحو ، الا أنها قواعد لا علاقة لها بالآثار أو المؤلفين ·

فى أوروبا ، ينبع النقد من الأثر نفسه (···) ويستمد أصوله من عبقرية الكاتب ، أما عند العرب فالأمر عكس ذلك تماما ، فالنقد سابق للآثار ، وعلى الأديب أن يتبع النموذج المقترح · فاذا ما ذكرت أشعار ، فلتطبيق القواعد النقدية عليها » · (٢٩) وبذلك صار النقد العربى نقدا تقريريا بأتم معنى الكلمة ، رغم ظهور نقاد كبار مثل : ابن قتيبة (ت ٢٧٧ هـ ـ ٨٢٨ ـ ٨٨٩) ، وقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ/٩٠٧) ، وأبى هلال العسكرى (ت ١٠٠٥ م) ، وابن رشيق (٩٩٥ ـ ١٠٦٤) ، وعبد القاهر الجرجانى (٤٧١ هـ/١٠٧٨) ، والباقلانى (٩٤١/١٠١٣) ، وعبد العزيز الجرجانى (ت ١٠٠٢/٣١٢ م) ، والآمدى (ت ٣٧١ هـ/ ٩٨٧ م) وغيرهم · وكانت لكل واحد منهم رؤية نقدية خاصة ليس لها امتداد بارز فى التراث النقدى العربى ، لأنها رؤية نظرية غير مستمدة من استقراء التراث الأدبى ، فتكون غير قابلة للتطبيق النقدى العلمى ، وتبعا لذلك لم يعرف العرب نقدا أدبيا أو تيارات نقدية وهذا ما جعل أحمد ضيف يستنتج : « أن العرب عرفوا نقادا كبارا ، ولم يعرفوا منهجا نقديا ، بمعناه الدقيق فى أدبهم » (٣٠) ·

انه استنتاج منطقى ، نكاد نوافقه عليه تماما ، لولا أنه نسى أن النقد العربى لم يعرف أصول النقد الفرنسى ومراحله التطورية ، وبالتالى فالاختلاف بينهما أمر طبيعى وحتمى ولكن اعجابه بالنقد الفرنسى أنساه هذا الأساس الذى يقوم عليه النقد الفرنسى نفسه ·

لقد أنساه اعجابه بالأدب الفرنسى عموما ، والنقد بصفة خاصة أحيانا ، أنه يدرك أدبا يختلف فى نشأته وأسسه وتطوره عن الأدب الفرنسى ونقده ، وبذلك أصدر أحكاما نقدية قد تنطبق على الأدب الفرنسى ونقده أفضل مما تنطبق على الشعر العربى ونقده ·

وعموما ، نستطيع القول أن أحمد ضيف بنى بحثه هذا بناء تاريخيا عندما تبنى المقولة التاريخية : « الأدب ظاهرة اجتماعية » فهو يصدر عن المجتمع ويصوره من خلال المبدع الذى يعد نتاجا له بنسبة كبيرة ، الأمر الذى جعله يربط ما بين الشعر العربى والمجتمع العربى من حيث العرق أولا والبيئة الجغرافية الصحراوية ثانيا والبيئة الاجتماعية ثالثا ، من

---

(٢٩) Deif (Ahmed) : Idem. p. 141.

(٣٠) Deif (Ahmed) : Idem : p. 188.

خلال أهم حدث تاريخي عرفته ، هو الاسلام ونصه المقدس • وبتفاعل هذه العوامل اتسم الشعر العربي بالثبات شكلا وموضوعا ، ووجد الشاعر العربي نفسه مقيدا بقيود نابعة من العوامل السالفة الذكر ، فقصر همه على اقتداء النموذج الشعرى العربى، وبذلك انتقل الثبات الى النقد الأدبى، الذى لم يستطع كسر قيود العوامل المقيدة للشعر العربى ، منساقا الى العناية باللفظ على حساب المعنى لأسباب بيئية ودينية ، وعندما حاول التقعيد لم ينطلق من النص الأدبى ، وانما جاء بقواعد نقدية نظرية غير مستمدة من التراث الأدبى ، فبقى تبعا لذلك النقد فى واد والشعر العربى فى واد آخر ، ومن ثم عرف العرب نقادا كبارا ولم يعرفوا نقدا منهجيا •

انها نتائج أدبية لها قيمتها النقدية والتاريخية ، ما كان من الممكن الوصول اليها وقتذاك لو لم يتبع أحمد ضيف المنهج التاريخي فى تحديد موضوع بحثه أولا ودراسته ثانيا وزيادة عن منطلقه المنهجى التاريخي ، نستشف ملامح المنهج التاريخي من خلال بناء البحث بناء منهجيا ، حيث اعتمد على مراجع عربية وأخرى فرنسية ، استقى منها مادة بحثه مقارنا الآراء والأفكار ، مراعيــا تسلسلها الزمنى ، سعياً منه الى اصدار آراء وأحكام موضوعية ، بتعدد مصادرها ، ثم بنزاهة علمية لاستعماله طريقة « التهميش » بدلا من طريقة « التضمين » الشائعة فى المؤلفات العربية حتى ذلك الوقت اعتناء بالفكرة دون مصدرها ، ومعلوم أن هذه العملية من أوليات المنهج التاريخي •

لقد طبق المنهج التاريخي فى بحثه هذا تطبيقا يتناسب مع طبيعته الهادئة الراغبة عن اثارة الجدل والخصومات من جهة ، ثم مع واقع التراث العربى وقتذاك ، حيث كان يصعب على البــاحث جمع نصوص ومصادر محققة وموثقة لقلة وانعدامها فى بعض الموضوعات من جهة أخرى ، وأخيرا مع ما كان عليه المستوى العلمى المنهجى العربى آنذاك ، حيث لم يكن قد تلقى فى الأزهر ودار العلوم تعليما منهجيا حديثا ، وبالتالى فان تحصيله المنهجى فى فرنسا كان محدودا ، كما أن البيئة العلمية الجامعية العربية لم تكن قد تعودت بعــد على التطبيقــات المنهجية الصارمة التى قد تثير تساؤلات كثيرة ، ونتيجة كل هذه العوامل وغيرها جاء تطبيق أحمد ضيف للانسونية — رغم اعجابه ودعوته للاقتداء بالمنهج العلمى — محتشما ، وجاءت نتائج بحثه الأدبية والنقدية هادئة رغم جدتها وقتذاك • وبذلك يمكننا الجزم أنه طبق المنهج التاريخي فى هذا البحث ، وجاء بنتائج أدبية ونقدية ، تكررت عند معاصريه وتلاميذه ولاحقيه ، فيما بعد وعدت حينئذ ثورات أدبية لطابع العنف والتجريح الذى اتسمت به • وبالتالى يعد كتابه « بحث فى الغنائية والنقد الأدبى عند العرب » باكورة التــاليف العلمى العربى الحديث فى ميدان النقد ، وترجمته الى العربية — رغم قدمه

الآن – ستكشف عن أصل الكثير من الأحكام النقدية التى غذت النقد العربى الحديث ، والتى كانت نابعة من رؤية لانسونية ٠

أما كتابه «بلاغة العرب فى الأندلس» ، فيستهله بتكرار رأيه حول مفهوم الأدب ووظيفته رافضا المفهوم العربى الشائع آنذاك الذى يرى الأدب: « ضربا من الفكاهة والتسلية (٠٠٠) أو عبارة طريفة ، أو حكمة بليغة ، أو بيت شعر يملك النفس ، ويسحر اللب بتركيبه البليغ وألفاظه الفصيحة » (٣١) ، مفضلا عليه المفهوم الجديد الذى يرى أن الأدب تعبير عن المجتمع ، بكل ما يضطرب فيه من أحاسيس وانفعالات وأفكار وآراء وأحداث : « ان البلاغة – أو الأدب كما يقولون – هى خلاصة كد العقول والأفهام ، وثمرة هذا الاضطراب الفكرى الذى ما برح دليلا على قوة الادراك وحياة النفوس العاقلة ٠ والغرض من الكتابة البليغة أن يجعل الكاتب أو الشاعر الألفاظ وسيلة من وسائل التعبير عن لحظة من لحظات الحياة لا يكتفى أن يدركها عقله ادراكا ثم يتركها تمر ولا تعود ، ولكنه يحرص عليها ويحيطها بعبارات تكشف عن أسرارها وتبين حقيقتها »(٣٢)٠ انه تعبير عن لحظة من لحظات الحياة الفردية للأديب أو الاجتماعية للمجتمع الذى غذاه ٠

تكرر هذا المفهوم الاجتماعى للأدب فى كل أعمال أحمد ضيف ، لاقتناعه بأن الأدب ظاهرة اجتماعية ، تصدر من المجتمع وتوجه اليه ، ومن ثم اقتنع أن تاريخ الأدب جزء من التاريخ الانسانى ، وأفضل منهج لدراسة الأدب هو « الطريقة التاريخية » على حد تعبيره هو نفسه ، والطريقة تعنى المنهج عنده ٠ أرخ أحمد ضيف للأدب الأندلسى فى كتابه هذا ، مطبقا المنهج التاريخى ، فكان الكتاب من المؤلفات الحديثة فى التاريخ للأدب الأندلسى ، ان لم يكن أولها ٠ استهله المؤلف بسرد قائمة من المصادر الأدبية والتاريخية باللغتين العربية والفرنسية اعتمد عليها فى التأليف ، فدل بذلك على خروجه عن نظام الرواية والتضمين الذى كان معمولا به حتى ذلك الوقت فى التآليف العربية ٠ ومعلوم أن هذا النظام يحرص على نسبة الأفكار لأصحابها دون ذكر دقيق لمصادرها ، فلا يعين القارىء أو الباحث على التأكد من سلامتها أو مراجعتها فالمؤلف الذى يقول : قال الجاحظ كذا وكذا ، لا يذكر عادة من أى كتاب استقى هذه المعلومة ورقم صفحتها وبنسخ أى وراق الى غير ذلك من المعلومات الببليوجرافية المساعدة للباحث ، وانما يكتفى بذكر اسم صاحب الفكرة ،

---

(٣١) د٠ ضيف أحمد . **بلاغة العرب فى الأندلس** ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٢٤ ، ص ١ ٠

(٣٢) د٠ ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص أ – ب ٠

وتعد هذه العملية خطوة خطاها العرب فى طريق الأمانة العلمية ، الا أنها لم تتبع ببقية الخطوات التى تعلمها أحمد ضيف فى فرنسا ٠

كما أن سرده لمؤلفات فرنسية له دلالة منهجية ، اذ يعنى ذلك أنه عمل بفكرة ضرورة الأخذ عن الثقافات الأجنبية ، وتجاوز الرأى الواحد ، للعمل بعقلية مقارنيةبين ما نقول عن أنفسنا وما يقول الغير عنا ٠ وهذا من أسس المنهج التاريخى المبنى على الفروق ٠ وزود كتابه فى نهايته بفهرس للموضوعات المدروسة ، دالا بذلك على النظام المنهجى فى التأليف، مبتعدا عن نظام « الخطبة » أو نظام « الحديث المدون » الذى كان النظام السائد حتى ذلك الوقت٠ أما صلب الكتاب ، فتضمن ، الى جانب التمهيد، دراسات تمهيدية درس فيها كل العوامل الرابطة بين الأدب والمجتمع ، فدرس بذلك دخول العرب الى الأندلس والعصور السياسية التى مروا بها ثم العصور الأدبية ، ثم الحياة العقلية بما فيها من علوم وتعليم وعناية بالكتب وانتشار للغة العربية ، منتقلا بعدها الى دراسة الفنون الأندلسية وأثرها فى أوروبا وبخاصة مجالس الغناء والأدب وأثرها فى تطور الأدب الأندلسى ، ليخلص فى النهاية الى دراسة النثر فى الأندلس بأنواعه وأساليبه والشعر فى الأندلس ، مع أوجه التشابه بينه وبين الشعر فى المشرق ، وأسباب ذلك ٠

خلال دراساته التمهيدية هذه تحدث عن البيئة الجغرافية وتنوع مناظرها بين الجبال والسهول والوديان عبر الفصول المختلفة ، وتحدث عن العنصر الأعجمى (الأسبانى) من حيث جنسه ودينه ولغته وتعلق العديد من العرب بالروميات لسحر جمالهن ٠ كما تحدث عن « تفاعل العناصر السالفة الذكر فيما بينها ، وأثر كل ذلك فى الأدب الأندلسى شعرا أو نثرا ، وبذلك انتقل الى دراسة طائفة من الشعراء الأندلسيين حسب التسلسل الزمانى ٠ درس أشهر شعراء الأندلس مبتدئا بأبى عامر ابن شهيد (٣٨٢ هـ ــ ٤٢٦ هـ) فابن زيدون (١٠٠٣ م ــ ١٠٧٠ م) وابن عبد ربه (٨٦٠ م ــ ٩٤٠ م) وابن دراج القسطلى (٣٤٧ هـ ــ ٤٢١ هـ) والمعتمد بن عباد (١٠٤٠ م ــ ١٠٩٥ م) الى أن يتوقف عند لسان الدين بن الخطيب (١٣١٣ م ــ ١٣٧٤ م) والموشحات الأندلسية ، متبعا فى دراسته لهم المنهج التاريخى ، حسب الامكانات العلمية المتاحة له آنذاك ، فكان يبدأ دراسته لكل شاعر بايراد ترجمة له فى الهامش ــ صنيع لانسون فى التاريخ للأدباء الفرنسيين فى كتابه تاريخ الأدب الفرنسى ــ يذكر فيها نسبه وميلاده ووفاته وظروف حياته بشىء من الاختصار ، رابطا بين الشاعر وبيئته التى ولد وعاش فيها ، ثم يورد نماذج من شعره مبديا رأيه فيها، محاولا تبيان علاقة الأثر الأدبى بالبيئة الثقافية والاجتماعية ٠ فعندما تحدث عن ابن الحداد (ت ٤٨٠ هـ) مثلا أورد فى

الهامش (٣٣) نبذة عن حياته ، وفي المتن رسم له صورة تبين شخصيته ومكانته في عصره ، وأثر ذلك في ابداعه الشعرى ، مركزا على أثر حبه للنصرانية في شعره : « واشتهر عنه أنه أحب في صباه فتاة نصرانية ذهبت بلبه ، وكان يسميها نويرة قد اتخذ عشقها وسيلة للتكلم في أوصاف المسيحية والقسس والكنائس والصلوات ، من الأشياء النادرة في الشعر العربى ، فخرج عن عادة الشعراء في الاقتصار على أوصاف النفوس وآلامها عند الكلام على العشق . وهذا يدل على شيء من الابتكار وسعة الخيال ، وتأثر الشعر وعقول الشعراء بما يرون في الحياة » (٣٤) .

درس أحمد ضيف الأدب الأندلسى انطلاقا من البيئة الأندلسية بعواملها الطبيعية والبشرية والحضارية والثقافية ، وأثرها في المبدع ، كما هو الشأن عند ابن الحداد الذى أورد له عدة مقطوعات شعرية مستوحاة من الوسط المسيحى الذى كان يعاشره لأجل حبيبته « نويرة » متحدثا فيها عن الكنائس والصوامع ويوم الفصح والأسقف والقس وتقاه المظهرى ، وتراتيل الراهبان لصحفهن بحسن الألحان (٣٥) ، الى غير ذلك من الأمور المسيحية التى لا تظهر في شعر أى شاعر ، ومن ثمة فان ظهورها في شعر مسلم يحتاج الى دراسة تاريخية توثيقية تبين علاقة الشاعر بذلك الوسط الدينى ، ثم جوانب تأثره به .

وهكذا دأب أحمد ضيف مع بقية الشعراء والكتاب الأندلسيين ، درس كل واحد منهم ضمن اطاره الزمانى والجغرافى والثقافى منقبا عن مصادره وأصوله أولا ، ثم تصويره لبيئته ثانيا ، فطبق بذلك مقولة اجتماعية الأدب على الأدب الأندلسى ، ورتب أدباءه ترتيبا زمانيا بعد دراسة كل واحد منهم دراسة تاريخية ، حسب الوسائل العلمية المتوفرة لديه . كما طبق في كتابه هذا فنيات بحث ترجع الى المنهج التاريخى في ذلك الوقت مثل المصادر والمراجع والهوامش والفهرس ، وبذلك نستطيع القول أنه طبق في هذا الكتاب أيضا المنهج التاريخى تطبيقا محتشما لقلة الوسائل العلمية أولا ، وضعف الرؤية العلمية آنذاك في الوسط الجامعى بما في ذلك تكوينه المنهجى الذى اعتقد أنه كان هشا بسبب دراسته الأزهرية والدارعمية ثانيا وطبعه الميال الى الهدوء والبعد عن الصراع العلمى ثالثا ، الأمر الذى جعله يطبق المنهج التاليخى تطبيقا هادئا . ومع ذلك أرخ للأدب الأندلسى ، وحسب نتائج البحث في قوائم التاليف الحديث ، يبقى كتابه هذا أول كتاب حديث في التاريخ للأدب

---

(٣٣) د. ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ١٨٢ ـ ١٨٥ .
(٣٤) د. ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ١٨٥ .
(٣٥) د. ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ .

الأندلسي ، وأضيف حسب المنهج التاريخي· خلاصة القول ان أحمد ضيف درس المنهج على أعلامه أمثال الأخوين كروازى ولانسون ورينى ، فأعجب به ، واقتنع أنه المنهج الأليق لدراسة الأدب العربى دراسة علمية حديثة اقتداء بالأوروبيين ، فدعا طلابه وقراءه الى العمل به · ثم تجاوز ذلك الى التطبيق ، فحاول تطبيقه فى رسالته حول « الغنائية والنقد الأدبى عند العرب » منطلقا من أن الأدب ظاهرة اجتماعية ، وأن الشعر – مثل بقية الأجناس الأدبية – يصدر عن المجتمع ويصوره من خلال المبدع وتفاعله مع ذلك المجتمع أخذا وعطاء ، وبذلك استنتج أن الشعر العربى غنائى لصدوره عن أناس ينتمون الى العرق السامى ذى الخصائص الانفعالية ، وعن بيئة صحراوية قاحلة ثابتة تحد من أفق المبدع وتسد عليه التأثيرات الأجنبية ، ثم استنتج تبعا لذلك أن النقد الأدبى ارتبط هو الآخر بالشعر العربى من حيث النشأة ثم التطور ، فبدأ أحكاما ذوقية انفعالية صادرة عن أناس لهم خصائص وراثية انفعالية ، ثم ثبت على طابعه الذوقى ذاك لثبات الشعر نفسه ، حيث لم يستطع الخروج من البيئة العربية المغلقة ، فصب جل اهتمامه على اللفظ باعتباره المتنفس الوحيد للشاعر · ولما جاء الاسلام ، ازداد النقد تقيدا وثباتا لاكتساب اللغة العربية قداسة ، مرجعها قداسة النص القرآنى العربى اللسان من جهة ، ومنع الاسلام الشاعر من الخوض فى موضوعات وأغراض تتنافى والنمط الاجتماعى الجديد ، فوجد الشاعر نفسه مكبلا من حيث المضامين بالمحرمات والمكروهات ، ومن حيث اللغة بقداسة النموذج القرآنى ، وانعكس كل ذلك على النقد الذى لجأ الى التقعيد ، اقتداء بالنحو ، الا أنه تقعيد فكرى نظرى غير مستمد من التراث الأدبى نفسه ، وبذلك يخلص أحمد ضيف الى أن العرب عرفوا نقادا كبارا ولم يعرفوا نقدا منهجيا ، حسب المفهوم التاريخي للمنهج بطبيعة الحال فهو يرى أن العرب لم يعرفوا النقد المنهجى لأن نقدهم لم يصدر عن استقراء للتراث الأدبى وهذه خاصية من خاصيات المنهج التاريخى ، ومن ثم ، فكل النتائج التى توصل اليها جاءت لاتباعه المنهج التاريخى · كما طبق المنهج التاريخى فى تأريخه للأدب الأندلسى ، حيث انطلق فى تأريخه من ارتباط الأدب الأندلسى بالبيئة الأندلسية المتعددة الجوانب ، ليستنتج أن التجديد الذى عرفه الشعر الأندلسى يرجع من حيث المضامين والأغراض الى ثراء الحياة الأندلسية طبيعيا وبشريا واجتماعيا ، فالطبيعة زاهية متغيرة ، والبشر خليط من الأجناس والعقليات ، والمجتمع ثرى ثقافيا وحضاريا ، فجاء الشعر الأندلسى مزينا بموضوعات طريفة ، أما من حيث الشكل ، فيرجع التجديد الى التفاعل البشرى والثقافى بين مختلف عناصر المجتمع الأندلسى من عرب وبربر ويهود ونصارى ، وتجلى تفاعل كل تلك العناصر فى تطور شكل القصيدة العربية من قصيدة ذات وزن واحد الى قصيدة ذات وزن متغير وألفاظ بسيطة ، بعضها عامى ، سميت بالموشح ،

ومن ثم ، فالموشحات نتيجة حتمية ملائمة للمجتمع الأندلسي الذى يشبه في تركيبه بناء الموشح نفسه · كما يتجلى تطبيقه المنهج التاريخى من خلال فنيات البحث التى اعتمدها كذكر المصادر والمراجع عربية وفرنسية والتهميش ، وهذه فنيات أساسية فى المنهج التـاريخى نعدها الآن من بديهيات البحث ، أما زمن أحمد ضيف ، فكان التأليف العربى خلوا منها ، واعتمادها يعد تطورا منهجيا كبيرا ·

والقول بأن أحمد ضيف دعا الى تطبيق المنهج التاريخى أو عمل على تطبيقه ، لا يعنى أنه كان متمكنا من المنهج وأسسه وفعالياته · فقد جاء حديثه عن المنهج أو « الطريقة » مضطربا · فكثيرا ما يكرر الفكرة الواحدة مرات كثيرة ، وعادة ما يذكرها دون شرحها الشرح الكافى · كمـا جاء تطبيقه للمنهج باهتا ، فهو ينطلق فى دراساته التطبيقية من أن الأدب ظاهرة اجتماعية ، ثم يبدأ في دراسة العوامل المكونة للمجتمع دراسة نظرية تحتاج الى الدقة العلمية المعتمدة على الوثائق المتنوعة ، لينتقل بعد ذلك الى البرهنة على الصلة الوثيقة بين الشعر والعوامل الاجتماعية من خلال أحكام عامة تحتاج الى الدليل التاريخى الموثق · كما أنه عادة ما يصدر أحكاما أساسها الذوق · أما اعتماده الفنيـات المنهجية ، فالعملية تكاد تكون سطحية · فرغم دعوته فى كتابه « مقدمة لدراسة بلاغة العرب » الى الرجوع الى النصوص الأصلية واعتماد المخطوطات ، فانه لم يعتمد على المخطوطات فى دراساته التطبيقية ، واستعماله المصادر والمراجع لم يبلغ مستوى من الدقة العلمية ، تسهل على القارىء الاستفادة منها ، خاصة وأن هوامشه تحتاج الى الدقة العلمية ·

لقد كان حديثه عن المنهج التاريخى مضطربا ، تنقصه الدقة ويعوزه الوضوح ، كما كان تطبيقه هشـا تنقصه الصرامة والجرأة ، ومرد ذلك حسب اعتقادنا أمور ثلاثة مجتمعة أو متفرقة تتمثل فى :

أولا : تلقى أحمد ضيف تعليما دينيا فى الأزهر ، وشبه دينى فى دار العلوم ، فسـافر الى باريس جاهلا لأبسط مقومات المنهج ، وبذلك صعب عليه الانتقال التام من عقلية الى نقيضها واستيعاب النقيض تماما ·

ثانيا : اذا افترضنا أنه استوعب المنهج التاريخى تمام الاستيعاب ، فان تطبيقه فى دراسة الأدب العربى يتطلب توفر أمرين اثنين : أولهما مواد البحث العلمى من كتب ومصادر ومجلات ومكتبات ، كانت كما هو معروف فى بداية نشأتها وقتـذاك ، وثانيهما توفر جـو علمى أكاديمى يستسيغ المناهج الحديثة وما قد تثير من زوابـع علمية تخص الحقائق المتعارف عليها ، وهذا ما لم يكن قد تأصل بعد ·

ثالثا : شخصيته الهادئة المؤثرة للراحة والهدوء ، والنافرة من كل مظاهر الصراع • وباجتماع هذه العوامل الثلاثة ، يصعب على صاحبها أن يكون داعية مجددا أو باحثا مبتكرا •

ومع ذلك ، فقد عد رائدا مجددا : « ونحن لا نبالغ فى تقدير ذلك المفكر ، لأنه خرج على التقاليد التى كانت مرعية فى فهم الأدب ودراسته ، ونظر اليه بعين المفكر الذى يعتقد أن التجديد فى ذلك واجب عليه لبلاده ولغته وأمته » (٣٦) • وقد لا تكون أصداء تجديده قوية وبارزة فى تآليفه لقلتها وقلة ذيوعها ، الا أن أصداء تجديده تغلغلت وانتشرت بفضل أفواج طلابه الذين أعجبوا به ، واتبعوا طريقه حتى شهد له بذلك صديقه أو عدوه الدكتور طه حسين : « أما حظه فى الجامعة فحسن جدا خليق بالغبطة ، فقد وفق الأستاذ لأن يفتح أمام تلاميذه مناهج جديدة للبحث سلكوها فوفقوا منها لخير كثير » (٣٧) • ولكن طه حسين عاب عليه قلة أبحاثه وسرعته فى التأليف ومله مستنتجا أنه مؤلف غير مجيد رغم امكانياته العلمية واللغوية ، الا أنه اعترف له بالتوفيق فى فتح آفاق طلبته العلمية على مناهج جديدة للبحث سلكوها ووفقوا فيها، ففعلوا ما لم يفعل أستاذهم ، ليحقق بهم ما لم يستطع تحقيقه بنفسه • لذا ، يمكننا القول انه كان رائد اللانسونية فى النقد العربى الحديث حسب ظروفه وقدراته العلمية ، دعا الى تطبيقها وحاول ذلك فى دراسته للشعر العربى ونقده ، ثم فى الأدب الأندلسى ، فكان أول من أصدر أحكاما أدبية ونقدية جديدة فى الدرس الأدبى عند العرب •

---

(٣٦) دياب (عبد الحى) : **التراث النقدى قبل مدرسة الجيل الجديد** ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١١٦ •

(٣٧) طه حسين : **حديث الأربعاء** ، ج ٣ ، ط ١٠ ، دار المعارف ، مصر ، ص ٧٣•

الباب الثالث

طه حسين واللانسونية

الفصل الأول

طه حسين

حياته وصلته باللانسونية

١ ـ الميلاد والنشأة :

ولد طه حسن فى ضاحيـــة من ضواحى قرية « مغاغة » بالصعيد الأوسط ، يوم ١٤ نوفمبر ١٨٨٩ م فى أسرة متوســـطة الحال (١) ، كانت تتمتع بدخل منتظم ، ولو كان محدودا ، فقد كان والده موظفا فى شركة السكر ، فكانت الأسرة تطمح الى تثقيف بعض أبنائها العديدين الذين وجد « طه » نفسه ضائعا بينهم ، فقد : « كان سابع ثلاثة عشر من أبناء أبيه ، وخامس أحد عشر من أشقته · كان يشعر بأن له بين هذا العدد الضخم من الشباب والأطفال مكانا خاصا يمتاز من مكان اخوته وأخواته· أكان هذا المكان يرضيه ؟ أكان يؤذيه ؟ الحق أنه لا يتبين ذلك الا فى غموض وابهام » (٢) ·

لم يتبين موضعه بين اخوته الكثير لسببين : أولهما أنه كان متوسطا اخوته وأشقاءه ، فلم يحظ بفرحة الأوائل ، ولا بعطف الأواخـــر · وثانيهما أنه أصيب فى سنواته الأولى بالرمد ، فأضاع علاج شعبى بصره الى الأبـــد ·

أحس باختلافه عن اخوته وأشقائه ، لوضعه الخاص فى أسرته حيث : « كان يحس من أمه رحمة ورأفة ، وكان يجد من أبيه لينا ورفقا ،

---

(١) تراجع ترجمة فى :

ـ د· السكوت (حمدى) و د· مارسدن (جونز) . طه حسين (سلسلة أعـلام الادب المعاصر فى مصر) ، الجامعة الامريكية بالقاهرة ، ١٩٧٥م ·

ـ على (أحمد) : طه حسين : رجل فكر وعصر ، دار الآداب ، بيروت ١٩٨٥ م ·

(٢) طه حسين : الايام ، ج ١ ، ط ٢٩ ، دار المعـارف بمصر ، ص ١٧ ·

وكان يشعر من اخوته بشيء من الاحتياط فى تحدثهم اليه ومعاملتهم له ٠ ولكنه كان يجد الى جانب هذه الرحمة والرأفة من جانب أمه شيئا من الاهمال أحيانا ، ومن الغلظة أحيانا أخرى ٠

وكان يجد الى جانب هذا اللين والرفق من أبيه شيئا من الاهمال أيضا ، والازورار من وقت الى وقت ٠ وكان احتياط اخوته وأخواته يؤذيه ، لأنه كان يجد فيه شيئا من الاشفاق مشوبا بشيء من الازدراء » (٣) ٠

وشيئا فشيئا ، أدرك أنه لايستطيع فعل كل ما فعله كل ما يفعله اخوته وأخواته ، ثم أدرك أن لغيره من الناس عليه فضلا ، فهو أعمى لا يرى ما يراه غيره ، فلا يستطيع فعل ما يفعله الغير ٠

أدرك واقعه المر ، لأنه عالة على غيره فى أبسط الأمور ، فحز ذلك فى نفسه ، وأثار حفيظته ، خاصة وأنه : « كان من أول أمره طلعة لا يحفل بما يلقى من الأمر فى سبيل أن يستكشف مالا يعلم » (٤) ٠ فوطن نفسه على مكابدة الصعاب ، والصبر على الألم فى سبيل معرفة كل ما لا يعرف ، واجتياز كل العقبات التى تعترض سبيله ، ليكون الأفضل دائما ٠ وقد أدخل الكتاب فى سن مبكرة ، فحفظ القرآن كله ، ولما يتعد التاسعة من العمر (٤) ، فلم يبق أمامه الا الالتحاق بالأزهر ليصبح « شيخا » يعلم الصبيان ، ويقرأ القرآن فى المآتم مثل أمثاله من العميان حسب تفكير والده ٠ أما هو ، فكان طموحه أكبر ، وكان يرى الأزهر قبلة العلم ٠

٢ ـ فى الأزهر :

كان يطمح الى أن يكون عالما أزهريا ، بلباسه المميز ، وأن يتزود بالعلم الوافر من نحو وفقه ، فدخله سنة ١٩٠٢ م ٠ ولكن آماله سريعا ما خابت ، وتيقن أن ما يسمع من دروس لاتختلف كثيرا عما سمع فى الكتاب ٠ فاشمأز من شيوخه وطرقهم التعليمية : « ولبث الصبى دقائق لا يميز مما يقول الشيخ حرفا ٠ حتى اذا تعودت أذناه صوت الشيخ وصدى المكان سمع وتبين وفهم (٠٠٠) سمع الشيخ يقول : « ولو قال لها أنت طلاق » أو أنت ظلام أو أنت طلال أو أنت طلاة ، وقع الطلاق ، ولا عبرة بتغير اللفظ ٠ « يقول ذلك متغنيا به ، مرتلا له ترتيلا فى صوت لا يخلو من حشرجة ، ولكن صاحبه يحتال أن يجعله عذبا » ٠ وأدرك

---

(٣) طه حسين : المرجع السابق ، ص ١٧ــ١٨ ٠
(٤) طه حسين : المرجع السابق ، ص ١٩ ٠
(٥) طه حسين : المرجع السادق ، ص ٣٣ ٠
(٦) طه حسين : المرجع السابق ، ص ١٤٤ ٠

أن شـيوخ الأزهر لا يقدمون علما ، وانما يتغنـون ، أو يكررون كلاما محفوظا ، يكون في بعض الأحيان بعيدا عن المنطق ، والا فما علاقة الطلاق ببقية الكلمات المذكورة ، عدا حرفى الطاء واللام ، ومن ثم يرتبط مستقبل انســانين أو أســرة كاملة ، حسب هـذا الشيخ ، بالتفـوف بحـرف أو حرفين ! ٠

ثارت ثائرته على الأزهر والأزهريين لمثل هذه الأمور ، ولم يشعر الا وهو يتحدى بعض شيوخه ساخرا منهم ومسفها كلامهم ، فأثار حفيظة البعض منهم ، ولم يستثن في حملته الا القليلين جـدا أمثـال الشيخ سيد المرصفى الذى عده نغمة جديدة في الأزهر بدروسه حول « ديوان الحماسة » ، حاول فيها دفع الطلاب الى دراسة الشعر وفهمه وتذوقه ، فكانوا معجبين به من جهة ، وغير مبالين بتندره على شـيوخهم وكتبهم الأزهرية (٧) من جهة أخرى ! ٠

لم ير الطلبة في درس المرصفى الأجانب التسلية ـ أما « طه حسين » ومجموعة قليلة من أصحابه ، فرأوا فيه الشيخ النموذجي ٠ فهو دائم الثورة على الأزهر وشيوخه ، حفاظة للشعر ، ذواقة ، عالم بدقائق اللغة مستقيم الخلق ، قريب الى الناس ٠ ولذا توطدت الروابط بينه وبين «طه» ، فربطتهما صداقة متينة أثارت غضب مشيخة الأزهر على المرصفى ، وأوصلت « طه » وصاحبيه الى مجلس التأديب لقوله : ان الحجاج لم يكفر وانما أساء الأدب والتعبير عندما رأى الناس يطوفون بقبر النبى ومنبره فقال ، أى الحجاج ، « انما يطوفون برمة وأعواد » (٨) ٠

عوقب وصديقيه على هذه الخاطرة التى خطرت له في درس من دروس الأدب ، لأنه رأى في كلام الحجاج حقيقة تاريخية ، الا أن تعبيره عنها لم يكن يليق بمقام النبى عليه الصلاة والسلام ، وبذلك فان الحجاج قد أساء الأدب لا غير ٠ أما مشيخة الأزهر فكانت ترى أن مجرد اساءة الأدب فى مثل هذا المقام قد تتحول الى كفر اذا لم تردع فى حينهـا ٠ والغريب فى الأمر أن مشيخة الأزهر لم تعلم بهذه الخاطرة الا بوساطة وشاية طالب ، اعتمدتها مصدرا موثوقا به ، فتألم « طه » لذلك مرتين ، مرة لأن المشيخة اعتمدت الوشاية دون تحر ، ومرة أخرى لأنها بقبولها وشاية الطلاب ببعضهم البعض تعلمهم أخلاقا لا تحمد عقباها ٠

لم ير « طه » حلا لمشكلته مع الأزهر أفضل من كشفه عن حقيقته أمام الناس ، فكتب مقالا لاذعا ، هاجم فيه الأزهر وشيخه ، مبينا مساوىء

---

(٧) طه حسين الأيام ج ٢ ، ط ٢٩ ، دار المعـارف بمصر ، ص ١٥٨ـ١٦٠ ٠

(٨) طه حسين : المرجع السابق ، ص ١٦٦ـ١٧٠ ٠

الأول وعيوب الثانى ، واتصل بالسيد أحمد لطفى السيد مدير « الجريدة » لنشر المقال ، فأثناه عن ذلك رغم اعجابه بالمقال ، وبأسلوب صاحبه وجرأته ازاء الأزهر ، رمز الجمود ، خاصة وأنه - أى لطفى السيد- كان مفكر الطبقة البرجوازية ، المنادى بالفكر الليبرالى للأخذ بأسبابه(٩) ٠ وعرض عليه الاتصال المستمر بينهما ، فاتحا بذلك أمامه عالما جديدا : « وفى مكتب مدير الجريدة ظفر الفتى بشىء طالما تمناه ، وهو أن يتصل ببيئة الطرابيش بعد أن سئم بيئة العمائم » (١٠) وازداد ضيقا وتبرما ببيئة « المعممين » بفقرهم وبؤسهم وقناعتهم المادية والفكرة ، عندما تعرف على بيئة « المطربشين » حيث انفتحت أمامه آفاق جديدة وعوالم لم تكن تخطر له ببال ٠ فالناس فى هذه البيئة أثرياء ، يحيون حياة مرفهة ، يعملون فى وظائف متنوعة ومهمة ، والعلم عندهم مختلف عن « علم الأزهر » ٠

عزم على الانضمام الى هذه البيئة « المطربشة » مقتديا برمزها أحمد لطفى السيد المفكر الليبرالى ، فكانت الجامعة منفذة الى البرجوازية المصرية والى الفكر الليبرالى : « واذا صاحبنا يقبل عليها وينتسب اليها ٠ واذا هو يختلف مع غلامه الأسود الى دروس الأزهر مصبحا والى دروس الجامعة ممسيا ٠ واذا هو يجد للحياة طعما جديدا ، واذا هو يتصل ببيئة جديدة وبأساتذة لا سبيل الى الموازنة بينهم وبين أساتذته فى الأزهر » (١٢) ٠ وكيف يمكنه الموازنة بين قديم الأزهر فى ذلك الحى العتيق ، وما يحيط به من أوساخ وبؤس وفقر ، وبين جديد الجامعة فى ذلك الحى الأنيق من شارع قصر العينى ، وما يحيط به من أناقة ونظافة وجمال ! لقد كان الفرق بينهما شاسعا ! ٠

٣ - فى الجامعة :

التحق بالجامعة أثر تلك الأزمة التى قطعت الصلة الروحية بينه وبين الأزهر بعدما كرهه وعلمه ، فكان التحاقه بالجامعة انتقالا من عالم الى عالم آخر : « واستمع الفتى لأول درس من دروس الجامعة فى الحضارة الاسلامية ٠ فراعه أول ماراعه شىء لم يكن له بمثله عهد فى الأزهر ، فهذا أحمد زكى بك يبدأ الدرس بهذه الكلمات التى لم يسمعها الفنى من قبل : « أيها السادة : أحييكم بتحية الاسلام ، فأقول السلام عليكم

(٩) د٠ شرف (عبد العزيز) ٠ طه حسين وزوال المجتمع التقليدى ، ص ٩٠-٩١ ٠

(١٠) بوحسن (احمد) : الخطاب النقدى عند طه حسين ، ص ٢٧-٣١ ٠

(١١) طه حسين : الأيام ج ٢ ص ١٣٧ ٠

(١٢) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٧٨١ ٠

ورحمة الله » وانما كان الفتى يسمع فى الأزهر كلاما آخـر يتجه به الشيوخ الى الطلاب وانما يتجهون به الى الله عز وجل فيحمدونه ويثنون عليه ، ولا يحى فيه الشيوخ طلابهم ، وانما يصلون فيه على النبى وعلى آله وأصحابه أجمعين ! . ثم راع الفتى بعد ذلك أن الأستاذ لم يقل فى أول درسه : « قال المؤلف رحمه الله » وانما استأنف الدرس يتكلم من عنده نفسه ولا يقرأ فى كتاب .. وكان كلامه واضحا لا يحتاج الى تفسير ، وكان سويا مستقيما لا قنقلة فيه ولا اعتراض عليه » (١٣) .

لقد انتقل من نظام تعليمى غيبى ـ فالأستاذ فيه مجرد راوية ، والخطاب موجه الى الله عز وجل أو الى الرسول (عليه الصلاة والسلام) ، والمعنى غير واضح لا يفهم الا بالشرح والتأويل ـ الى نظام تعليمى جديد ، مباشر وملموس ، يوجه فيه الخطاب الى الطلاب ويصدر الأساتذة فيه عن أنفسهم بلغة مفهومة .

كانت نتيجة هذا الانتقال العقلى ، أن استمع الى الدرس نفسه ثانية مع الصف الثانى وقضى ليلته تلك يستمتع بحلاوة العلم الجديد ، حتى اذا سمع المؤذن يدعو الى صلاة الفجر تثاقل وتثاقل ، ولم ينهض يومه ذاك الى الصلاة (١٤) .

تغيرت حياة طه حسين لاتصاله بالجامعة التى فتحت عقله على ميادين علمية لم يكن يتصورها ، فاسترجع الأمل فى الحياة ، وصار يراها عيدا متواصلا : « ويمضى العام الأول من الحياة الجامعيـة عيدا كله ، لا يحس الفتى سأما أو ضيقا به (...) فقد أقبل أساتذة جدد ملكوا عليه أمره واستأثروا بهواه ، فهذا الأسـتاذ كارلو نالينو المستشرق الايطالى يدرس باللغة العربيـة تاريخ الأدب والشعر الأموى . وهذا الأستاذ سنتلانا يدرس بالعربية أيضا ، وفى لهجة تونسـية عذبة ، تاريخ الفلسفة الاسلامية وتاريخ الترجمـة خاصة . وهذا الأسـتاذ ميلونى يدرس باللغة العربية كذلك تاريخ الشرق القديم . ويتحدث الى الطلاب عن أشياء لم يتحدث عنها أستاذ قبله فى مصر . (...) وهذا أستاذ ألمانى ، هو الأستاذ ليتمان ، قد أقبـل يتحدث الى الطلاب عن اللغات السامية والمقارنة بينها وبين اللغة العربية ، ثم يأخذ فى تعليمهم بعض هذه اللغات . واذا الفتى يخرج من حياته الأولى خروجا يوشك أن يكون تاما لولا أنه يعيش بين زملائه من الأزهريين والدارعميين وطلاب مدرسة القضاء وجه النهار وشطرا من الليل (١٥) .

---

(١٣) طه حسين . الايام ج ٣ . ط ٦ ، ص ٦ ـ ٧ .

(١٤) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٧ .

(١٥) طه حسين . المرجع السابق ، ص ٣٤ .

اتسع مفهوم « العلم » فى عقله متجاوزا اللغة والشريعة الى مجالات عديدة كاللغات السامية والتاريخ والأدب والجغرافيا ، والفلسفة ، انطلاقا من منظور جامعى أكاديمى أحضره المستشرقون الذين ذكرهم ، أو الذين لم يذكرهم ، من جامعاتهم الأوروبية التى عرفت تطورا كبيرا من حيث المناهج التعليمية أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين٠

كاد اعجابه بأساتذته المستشرقين وبعلومهم الحديثة أن يحوله تحويلا خطيرا يفنيه فى العلم الأوروبى افناء (٦) ، ولم ينجا من هذا الافناء الا طائفة من الأساتذة المصريين الذين : « أتاحوا له أن يأوى الى ركن شديد من الثقافة الشرقية الخالصة ، وأتاحوا لمزاجه أن يأتلف ائتلافا معتدلا من علم الشرق والغرب جميعا ٠ وكان الأساتذة المصريون يختلفون فيما بينهم اختلافا شديدا ، كان منهم المطربشون والمعممون والذين سبقت العمامة الى رؤوسهم ثم انحسرات عنها وجاء مكانها الطربوش » (١٧) ٠

نرى من هذا الوصف للهيئة التعليمية التى ساهمت فى تعليمه بالجامعة أن الأغلبية من أساتذته كانوا ينحون نحو ذلك النمط التعليمى الجديد الذى يهدف الى تزويد الطالب بمعلومات ومعارف منسقة ، ومرتبة ترتيبا منطقيا يسهل على الطالب استيعابها ٠ ثم تزويده بأسس علمية وعقلية تساعده على البحث والدرس ، وتقصى الحقيقة العلمية التى قد تخالف معتقداتنا ٠

أدرك أن هذه العلوم التى بهرته لم تتطور وتصل الى ما وصلت اليه ، الا بعدما التزم الأساتذة الأوروبيون - فى دراسة ظواهرها - بقواعد وأسس هى المنهج العلمى ، واقتنع بضرورة الأخذ بالمنهج العلمى فى الدراسة والبحث اقتداء بأساتذته المستشرقين ، وبالمنهج التاريخى بالذات ، فهو يصرح فى صدر رسالته عن أبى العلاء ، سنة ١٩١٤ م ، بأن مصادر بحثه العربية مثل تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ، وتاريخ آداب اللغة العربية فى العصر العباسى للأستاذ أحمد عمر الاسكندرى ، تمتاز : « بشىء من الميل الى المنهج التاريخى الحديث فى تحقيق ما نعرض له من شأن أبى العلاء ٠ ولكن هذا الميل - على نقصه فى هذه المصادر جميعا ، وبعده عن نصابه المعقول - يتفاوت فيها قلة وكثرة ، كما يتفاوت صحة وفسادا » (١٨) ٠

---

(١٦) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٣٧ ٠

(١٧) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٣٧ ٠

(١٨) طه حسين : تجديد ذكرى أبى العلاء (سلسلة ٠ من تاريخ الأدب العربى) ٠ المجلد الثالث ٠ دار العلم للملايين ٠ ط ١ - بيروت ١٩٧٤ ، ص ٣٨٤ ٠

على الرغم من أنه يحدد النصاب المعقول للمنهج التاريخى وقتذاك ، فان رحلته مع المنهج بصفة عامة ، ومع المنهج التاريخى بصفة خاصة ، بدأت أيام كان طالبا فى الجامعة الأهلية يستمع للمستشرق كارلو نالينو C. Nallino (١٨٧٢ ـ ١٩٣٨) وهو يمحص كلمة « أدب » متتبعا تطورها ، ومستعرضا لمراحل الشعر العربى حتى عصر بنى أمية ، ويستمع الى سانتلانا يدرس الفلسفة الاسلامية متتبعا تطورها ، ومنقبا عن روافدها ، ثم يستمع الى ليتمان Euno Littman (١٨٧٥ ـ ١٩٥٨) وهو يتتبع تطور اللغات السامية مقارنا بعضها ببعض وكانت الرؤية التاريخية أساس التعليم الجامعى آنذاك ، وبدأت أصداؤها تظهر فى أول بحث لطه حسين سنة ١٩١٤ م ، كما سبق القول ٠

٤ ـ فى السوربون :

فتحت الجامعة أمام « طه حسين » آفاقا واسعة ٠ فبعدما كانت هدفا يصبو اليه ذلك الأزهرى الكفيف ، صارت وسيلة لتحقيق آمال ما كانت تخطر له ببال ، حيث دفعته الى تعلم اللغة الفرنسية (١٩) ، ثم الى التفكير فى السفر الى فرنسا لدراسة العلم من مصادره ٠ وبعد مغامرات وأحداث (٢٠) ، أحرز على منحة سنة ١٩١٤ م الى فرنسا ـ مدينة مونبولى ـ للتخصص فى التاريخ ، بعدما أنهى الدراسة الجامعة سنة ١٩١٢ م ، وقدم أول رسالة لنيل درجة الدكتوراه من الجامعة الأهلية سنة ١٩١٤ م ببحثه « ذكرى أبى العلاء » ٠ ولم تزد اقامته فى « مونبولى » عن سنة واحدة ، درس فيها اللغة الفرنسية وشيئا من اللاتينية زيادة عن الأدب والتاريخ ، وتعرف خلالها على المرأة التى سيبصر الدنيا بعينيها (٢١) ، على حد تعبيره ، والتى ستصبح زوجته وأهم دعامة فى حياته ٠

فى السنة الموالية ، وبعدما حلت أزمة البعثة الناجمة عن ظروف الحرب العالمية الأولى ، رجع الى فرنسا ، والى السوربون بالذات ، حيث تعمق فى اللغة الفرنسية ، مع مواصلة دراسة اللاتينية ٠ ونظرا للثغرات العلمية العديدة فى تحصيله بمصر ، لم يستطع متابعة دروس الجامعة واستيعابها بيسر ، فاضطر الى دراسة أجزاء من مقرر المرحلة الثانوية حتى يتسنى له فهم محاضرات الأدب والتاريخ ، فصار : « تلميذا ثانويا اذا آوى الى بيته وطالبا جامعيا اذا اختلف الى دروس السوربون » (٢٢)

---

(١٩) طه حسين : **الأيام** ، ج ٣ ، ص ٤٤ ـ ٤٧ ٠
(٢٠) طه حسين : المرجع السابق : ص ٤٧ ـ ٧٨ ٠
(٢١) طه حسين : المرجع السابق ، ص ١١٣ ٠
(٢٢) طه حسين : المرجع السابق ، ص ١٠٦ ٠

وهكذا راح يعد لنيل درجة الليسانس فى التاريخ مثل أى طالب فرنسى ، الى جانب اعـداد بحث فى علم الاجتمـاع حـول : فلسـفة ابن خلدون » باشراف المستشرق « كازانوفا » (٢٣) والعلامة « اميل دوركايم » لنيل دكتوراه الجامعة (٢٤) ٠

خلال دراسته لنيل درجة الليسانس فى التاريخ تتلمذ على أساتذة كبار (٢٥) فى التاريخ أمثال جوستاف بلوك (٢٦) ، أسـتاذ التاريخ الرومانى ٠

وجوستاف جلوتز (٢٧) أستاذ التاريخ اليونانى، وشارلى ديهل(٢٨) أستاذ تاريخ القرون الوسطى ، وشارل سينيوبوس (٢٩) أستاذ التاريخ

---

(٢٣) كازانوفا P. Casanova مسـتشرق فرنسى درس ودرس فى الكوليـج دو فرانس اللغـة العربية وآدابها ٠ انتدبته الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥م لتـدريس فقه اللغـة ٠ توفى فى مصر سنة ١٩٢٦ ٠ له دراسات متعددة فى المجـالات المتخصصة حول مختلف أوجه الحضارة العربية (العقيقى) نجيب : المستشرق ج ١ ، دار المعارف بمصر ، ط ٤ ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠) ٠

(٢٤) طه حسين . المرجع السابق ، ص ١٢١ ٠

(٢٥) طه حسين المرجع السابق ، ص ١٢١ ـ ١٣٠ ، على أحمد طه حسين ٠ دار الآداب ، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٣ ٠

(٢٦) جوستاف بلوك « Gustave Bloch » (١٤٨٤ ـ ١٩٢٢) بحاثة فرنسى ، درس فى ليون وباريس التاريخ الرومانى الذى ألف فيه عدة مؤلفـات أشهرها « أصول مجلس الشيوخ الرومانى (١٨٨٣) ٠
Grand Larousse Encyclopedique . T2. Paris — 1973. (1883).

(٢٧) جوستاف جلوتز : Gustave Glotz (١٨٦٢ـ١٩٣٥) مؤرخ فرنسى ٠ خريج المدرسة العليا للأساتذة ٠ أستاذ التاريخ اليونانى بالسوربون منذ ١٨٩٧ ٠

له مؤلفات كثيرة منها : « التعذيب فى بلاد اليونان البدائية وتضامن الأسرة فى القانون الجنائى باليونان » (١٩٠٤) ، و « العمل عند اليونان قديما » ٠ واتسمت أعماله بالطابع النقدى والدقة العلمية ٠
(Grand larousse encyclopedique , T5. Paris, 1973).

(٢٨) شارلى ديل C. Diehl (١٨٥٩ ـ ١٩٤٤) بحاثة فرنسى ٠ خريج المدرسة العليا للاساتذة ، متخصص فى التاريخ البيزنطى ٠ له مؤلفات كثيرة منها : « افريقيا البيزنطية » (١٨٩٦) و « وجوه بيزنطية » و « تاريخ الامبراطورية البيزنطية »
Grand larousse Encyclopedique T 4. Padis, 1973).

(٢٩) شارل سينيوبوس (C. Seignobos) ١٨٥٤ ـ ١٩٤٢م ٠ مؤرخ فرنسى ٠ تأثر كثيرا بالمدرسة التاريخية الالمانية ، له عدة مؤلفات أشهرها . « تاريخ الحضارة » (١٨٨٤ ـ ١٨٨٦) و « مدخل الى الدراسات التاريخية » بالاشتراك مع « لانجلوا » (١٨٩٧) و « التـاريخ السياسى لأوروبا الحديثة » (١٨٩٧) كانت طريقته النقدية الموسومة بالوضعية تعنى أساسا بالحدث التاريخى المادى ٠
(Grand larousse encyclopedique, T 0. Paris 1973).

الحديث ، وألفونس أولار (٣٠) أستاذ تاريخ الثورة الفرنسية · كما تتلمذ على جوستاف لانسون (٣١) في دراسة الأدب الفرنسي ·

أما في مرحلة البحث ، فلقد نوه بأساتذته أجمعين ، خاصا بالذكر ألفريد كروازى (٣٢) أستاذ الأدب اليوناني القديم ومؤرخه ، والسيد « كازانوفا » أستاذ اللغة والآداب العربية (٣٣) ، اللذين أرشداه علميا ، وساعداه ماديا على انجاز رسالته للدكتوراه حول « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » ·

اعتمد في اعداد هذه الرسالة على جملة من المراجع الأجنبية حول ابن خلدون وعلم الاجتماع ، ومرجعين حول المنهج التاريخي هما :

١ ـ المدخل للدراسات التاريخية لمؤلفيه الانجلوا وسينيوبوس (٣٤) ·

٢ ـ المنهج التاريخي المطبق في العلوم الاجتماعية لشارل سينيوبوس ·

ندرك من هذا الاستعراض لأساتذته في السوربون أنه تتلمذ على كوكبة من كبار الأساتذة الذين كانوا العصب العلمي لفرنسا خلال الربع الأول من القرن العشرين ، فهم الذين بلوروا المنهج التاريخي وطوروه ليطبع في مختلف المجالات العلمية · لقد استفاد من أساتذة التاريخ السالفي الذكر في مرحلة الليسانس ، ثم في مرحلة الدبلوم في التاريخ ، كما استفاد بعد ذلك ، خلال اعداد رسالته ، من كتاب « لانجلوا وسينيوبوس » الذى عده « لانسون » خير كتاب حول المنهج التاريخي الصرف ، ناصحا أى طالب آداب باطالة التفكير فيه (٣٥) فكان طه حسين من العاملين بهذه النصيحة ، جعل هذا الكتاب مرجعه النظرى في اعداد الرسالة · واستفاد كذلك من ارشادات ألفريد كروازى الذى

---

(٣٠) ألفونس اولار : A. Aulard ١٨٤٩ ـ ١٩٢٨ ، مؤرخ فرنسي · اهم اثاره كتابة « التاريخ السياسي للثورة الفرنسية » مؤسس مجلة « الثورة الفرنسية » · (*Grand larousse encyclopedique*. T. 11, Paris 1973).

(٣١) جوستاف لانسون · يراجع الفصل الأول من الباب الأول لهذا البحث ·

(٣٢) ألفريد كروازى A. Croiset (١٨٥٤ ـ ١٩٢٣) هيليني فرنسي حقق وألف العديد من المؤلفات · اشهرها كتابه المشترك مع أخيه « تاريخ الأدب اليوناني » ·
Grand larousse encyclopedique 3. Parir, 1083.

(٣٣) طه حسين : **فلسفة ابن خلدون الاجتماعية** (ترجمة عبد الله عنان) سلسلة الأعمال الكاملة ، مجلد ٨ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ١١ ·

(٣٤) ترجم الدكتور عبد الرحمن بدوى هذا الكتاب سنة ١٩٦٢ ، ونشره ضمن كتاب « **النقد التاريخي** » ، وكالة المطبوعات الكويت ·

(٣٥) لانسون : **منهج البحث** ، ص ٢٩٧ ·

كان طه حسين قد أعجب به وبأخيه موريس فى دراساتهما للآداب اليونانية القديمة (٣٦) • لقد استقى من تلك الدراسات ، التى كانت نموذجا منهجيا للانسون فى دراسة الآداب دراسة تاريخية (٣٧) الأسس النظرية والخطوات العملية للمنهج التاريخي ـ كما وضحها لانجلوا وسنيوبوس ـ مطبقة فى التأريخ لأحد الآداب القديمة والعريقة ، وكذلك من المنهج كما رآه مطبقا فى كتابات أستاذه لانسون فى تأريخه للأدب الفرنسى قديمه وحديثه من خلال كتابه الشهير : « تاريخ الأدب الفرنسى » الذى كان مرجع الطلاب فى هذه المادة ، ثم من كتبه الأخرى حول العديد من أدباء فرنسا ومفكريها (٣٨) •

تشبع طه حسين بالروح التاريخية وبالمنهج التاريخى فى دراسة الأدب ، من دراسته التاريخ ومنهجيته عند أكبر أساتذة التاريخ الفرنسيين فى مطلع القرن العشرين ، ومن دراسته الأدب عند الأخوين كروارى ، ثم تتلمذه على «لانسون» ، فعرف المنهج التاريخى نظرية وتطبيقا من مختلف مصادره ، وعاصر ازدهار اللانسونية وذيوعها ، وكان ، تاريخيا • أحد تلاميذها الأوائل من العرب • وبديهى أن يتعلم منها الشك المنهجى وحرية الرأى والمجاهرة بأكثر الآراء جرأة وتقديس العقل ، ونبذ القديم اذا لم تكن له مزية سوى القدم ، وحب الجديد ، ولو عارض الكثير من العقول المتجمدة وكان سببا فى الكثير من المتاعب •

لقد وجد طه حسين ـ الشاب الطموح ، والثائر العنيد ـ فى السوربون مناخا فكريا ملائما لميوله النفسية والعقلية الثائرة ، فراح يتشبع بالأسس التى يقوم عليها التفكير العلمى المنطقى ، وبالفلسفة الموضوعية لأوجست كونت (٣٩) وتجلياتها المنهجية فى التاريخ ثم فى التأليخ للآداب ، وبذلك رجع ، سنة ١٩١٩ م ، الى مصر بعقل وذوق يختلفان كثيرا عما ألف المجتمع المصرى •

٥ ـ وظائفه وآثاره :

عين أثر عودته من باريس سنة ١٩١٩ م فى الجامعة أستاذا للتاريخ بحكم تخصصه : « وكان تاريخ اليونان هو الموضوع الذى اختاره

---

(٣٦) طه حسين : رسالة الى مفتاح طاهر ، ضمن كتابه
Meftah Tahar : Taha Hussyan sa critique et ses sources Françaises, p. 151.

(٣٧) لانسون : منهج البحث ، ص ٣٩٥ •

(٣٨) الفصل الأول من الباب الأول من هذا البحث •

(٣٩) طه حسين : الأيام ج ٣ ، ص ١١٩ •

صاحبنا لدروسه في هذا العام » (٤٠) · فالفت اليه الأنظار بدروســه تلك ! · ألفت الأنظار اليه بدروسه حول التاريخ اليوناني : أولا لاختياره تاريخ اليونان بالذات ، اذ كان يرى اليونان من أعظم الأمم حضــارة وثقافة ــ ان لم تكن أعظمها ــ ودراسة تاريخهم ضرورة علمية لأي طالب حتى يدرك أصول الحضارة الأوروبية الحديثــة التي يعدها طه حسين النموذج الذى ينبغي الاقتداء به في مختلف مظــاهره (٤١) · اذا كان تاريخ اليونان يعد الآن من الموضوعات الدراسية العــادية في مختلف المقررات التعليمية ، وفي العديد من البلدان العربية ، فان الأمر كان خلاف ذلك أول عهد طه حسين بالتدريس الجامعي ، حيث كان المشايخ والعديد من المثقفين يعتقدون أن دراسة تاريخ الحضارة العربية الاسلامية أنفع من دراسة تاريخ أمم كافرة · وثانيا للطريقة العلمية التي قدم بها درسه الأول ثم دروسه الأخرى معتمدا عند الضرورة على الوصف الجغرافي لبلاد اليونان (٤٢) ، رابطا الأحداث بأماكنها ، ثم محللا ومعللا وممحصا ومنتقدا لهــا على ضــوء « الشك المنهجي » والتحليل المنطقي في سردها ودراستها ، خلال ما كان معمولا به في تدريس التاريخ بالجامعة ، حيث كانت دروس التاريخ لاتزيد عن عملية نقل من كتب القدماء في غير نقد ولا تعمق ، وفي أيسر ما كان يمكن من فقه التاريخ (٤٣) ·

وشغل كرسي التاريخ اليوناني والروماني ما يقارب الست سنوات دأب خلالها على تقديم التاريخ اليوناني والروماني : « وأخذ يقرر في جرأة أن مصر اذا شاءت أن تكتسب احترام النفس وأن تمضي قدما في طريق الحياة الحديثة ، فلابد لها من أن تعود الى تثقيف نفسها وتبدأ من جديد بدراسة الأصول·وأخذ يؤكد المرة تلو الأخرى،وفي سلسلة من الأعمال التي خاطب بها الجمهور (٤٤) ، مبلغ الحاجة الى الدراسات القــديمة من حيث هي أساس لكل ثقافة حية » (٤٥) ، وترجم جملة من النصوص الشعرية اليونانية لاسخيلوس وسوفوكليس ، تدعيما للأفكار الجريئة التي كان يقدمها في دروسه وضمنها كتابه « صــحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان (١٩٢٠) ، على اعتبار أنها النموذج المسرحي الذى انطلق

---

(٤٠) طه حسين : المرجع السابق ، ص ١٥٠ ·

(٤١) علي (احمد) : طه حسين ، ص ٤٢٧ ــ ٥١٣ ·

(٤٢) طه حسين : الايام ، ج ٣ ، ص ١٥٠ ·

(٤٣) طه حسين : الايام ، ج ٣ ، ص ٤٠ ·

(٤٤) مثل كتابيه : نظام الاثينيين لارسطاليس وقادة الفكر ·

(٤٥) جب (هاملتون) : دراسات في حضارة الاسلام (ترجمة د· إحسان عباس واخرون ، دار العلم للملايين ، ط ٣ ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٣٦٠ ·

منه الأوروبيون بصفة عامة والفرنسيون بصفة خاصة في بناء المسرح الحديث · وترجم كتاب « نظـام الأثينيين » (١٩٢١ م) لأرسطاليس ليكون نموذجا للفكر السياسى ، وكتب جملة من الدراسـات عن بعض مفكرى اليونان والرومان جمعها فى كتـابه « قادة الفكر » ١٩٢٥ م ، أبرز فيهـا عبقرية أولئك القـادة ، وضرورة اقتـداء الشباب بهم ، وهكذا راح يدعو الطلاب والمثقفين الى الاقتداء بالفرنسيين فى الرجوع الى الفكر الكلاسيكى اليونانى والرومانى ، والأخذ بالمنهج العلمى الحديث ·

ورغم العنت الذى جـوبه به فى تلك المرحـلة ، الا أنه لم يضعف ولم يتراجع عن منهجه ، بل راح يشدد الخناق على المحافظين ويغالى فى الدعوة الى الاقتداء بالأوروبيين ، حتى جـذب اليه جمهورا واسـعا من الطلبة ، وأصبح رأس التيار المجدد فى الجامعة المصرية (٤٦) · لم يكن طه حسين مؤرخا ، وانما حتمت عليه ظروف المنحة دراسة التاريخ ثم تدريسه بعد ذلك · أما ميوله الفطرية فكانت تشده دوما الى الأدب منذ دراسته فى الأزهر على الشيخ المرصفى ثم فى الجامعة الأهلية ، وكان تدريس الأدب رغبة تلح عليه ، فراح يعد العدة لتحقيقها بترجمة نصوص أدبية أجنبيـة ، وكتابة العديد من المقـالات الأدبية بعنوان : « حـديث الأربعاء » منذ ١٩٢٢ م أثار فيها قضـايا أدبية مثيرة مثل : « القـدماء والمحدثون » ، و «الغزل والغزلون» ، و «ساعة مع شاعر جاهلى» ، أثارت اعجاب القراء ، وأبرزت قدراته الأدبية لـدى الطلبـة والمسؤولين عن الجامعة · كما ساقته كتاباته الصحافية الى ولوج الساحة السياسية ، فغرق فى الصراعات الحزبية حول السلطة والدستور حتى أذنيه (٤٧) ·

جعلته كل هذه الأمور يتبوأ كرسى الأدب العربى سنة ١٩٢٥ م بدلا من الدكتور أحمد ضيف الذى كان أخفت صوتا ، أدبا وسياسة ، وذلك اثر تحول الجامعة من أهلية الى حكومية (٤٨) · كان هجوم طه حسين ،

---

(٤٦) طه حسين : مستقبل الثقافة (المجموعة الكاملة) المجلد التاسع · دار الكتاب اللبنانى بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٣ ، ص ٥٤ ـ ٦٠ ·

(٤٧) طه حسين : الأيام ج ٣ ، ص ١٦٣ ·

(٤٨) ينفى الدكتور طه حسين أى دخل له فى خروج الدكتور أحمد ضيف من الجامعة ، على اعتبار أنه هو الذى غضب من ترقية طه حسين سنة ١٩٢٥ الى رتبة أستاذ ، دون ترقيته هو الاقدم شهادة وعملا بالجامعة · ولكن حملة طه حسـين على احمد ضيف التى ذكر فيها انه مكث بباريس اكثر من عشرة اعوام ، كتبت له فى نهايتها رسالته تجعلنا نتساءل لماذا يتحامل عليه خاصة وأن تواريخ البعثة والمناقشة ثابتة وتدحض زعم طه حسين · ثم لماذا رقى طه حسين سنة ١٩٢٥م الى درجة أستاذ أى مع دخول الجامعة تحت اشراف الدولة دون ترقية احمد ضيف الذى لم تكن له اية صلة بالاحزاب والسلطة ؟ (يراجع رأى طه حسين فى هذه القضية فى كتاب :

د· محمد الدسوقى : طه حسين يتحدث عن اعلام عصره · الدار العربية للكتـاب · ليبيا ـ تونس ط ٢ · ١٩٨٢ ، ص ٥٠ ـ ٥٩) ·

من كرسى الأدب العربى ، على العقلية المحافظة أشد وأعنف ، حيث انتقل من الدعوة الى الاقتداء بنماذج فكرية أوروبية قديمة وحديثة من خلال دروس التاريخ ومترجماته ، الى مهاجمة العديد من المسلمات والمعتقدات من خلال التشكيك فى صحة الشعر الجاهلى ، فكانت الطامة الكبرى حيث قوبل كتابه « فى الشعر الجاهلى » — الذى تضمن محاضرات ١٩٢٥ — بهجومات عنيفة أوصلته الى المحكمة ومجلس النواب ، حتى سحب الكتاب من الأسواق ، وأعيدت طباعته سنة ١٩٢٧ تحت عنوان « فى الأدب الجاهلى » مع ادخال تغييرات طفيفة عليه ·

ومن هنا ، راح طه حسين يتدرج فى الوظائف من أستاذ ، الى عميد لكلية الآداب (١٩٢٨ م) الى موظف بوزارة المعارف (١٩٣٢) ، وعين مرة أخرى عميدا (١٩٣٦) ثم مستشارا لوزير المعارف فرئيسا لجامعة الاسكندرية (١٩٤٢) فوزيرا للمعارف (١٩٥٠ م) · كان طوال هذه المدة يدرس ويشرف على الرسائل الجامعية ، ويساهم فى أعمال اللجان العلمية والتربوية · وبعد خروجه من الوزارة ، تفرغ للنشاطات العلمية والثقافية ، فكان عضوا نشطا بالمجمع اللغوى ، ثم رئيسا له بعد وفاة أحمد لطفى السيد سنة ١٩٦٣ م ، وعضوا فى المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ومقرر لجنة الترجمة بالمجلس منذ انشائه ، واستمر فى نشاطاته هذه الى أن وافته المنية يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣ م (٤٩) ·

كانت وظائفه كثيرة ومتنوعة تنوع آماله وطموحاته ، وكان نتاجه العلمى غزيرا جدا (٥٠) ، فمن الترجمة الى التاريخ ، ومن الدرس الأدبى ونقده الى الابداع الأدبى ، ومن السياسة الى التربية وعلم الاجتماع · لقد كان متعدد الميول والمواهب موسوعى النشاط ورغم ذلك فان المحور الأساسى لكل أعماله كان الاعجاب بالحضارة الأوروبية عموما ، والفرنسية خصوصا ، ودعوة المصريين والعرب الى الأخذ بأسباب تلك الحضارة — قديمة وحديثة — كى يلحقوا بها ·

واذا كان لكل مجال من مجالات نتاجه العلمى والثقافى فى الحضارة الفرنسية نموذج يدعو الى الاقتداء به أو الأخذ بأسبابه ، فان ما يهمنا هو الدرس الأدبى لديه ·

ان دراسات طه حسين الأدبية كثيرة جدا ، منها ما كتب بحثا مثل « ذكر أبى العلاء ١٩١٥ » ومنها ما قدم دروسا جامعية للطلبة مثل

---

(٤٩) د· السكوت (حمدى) ود· مارسدن (جونز) : طه حسين ، ص ١٥ — ١٦ ·
(٥٠) تراجع ببليوغرافيا أعماله فى المرجع السباق ، ص ٦٧ — ٢١٢ ·

« في الشعر الجاهلي » ١٩٢٦ ، أو « في الأدب الجاهلي » ١٩٢٧ . ومنها ماكتب مقالات نشرت في الصحف والمجلات مثل « حديث الأربعاء » ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ ، ١٩٤٥ ، و « من حديث لشعر والنثر » ١٩٣٦ ، و « فصول في الأدب والنقد » ١٩٤٥ ، و « خصام ونقد » ١٩٥٥ و و « نقد واصلاح » ١٩٦٥ ، و «من أدبنا المعاصر» ١٩٥٨ . ومنها مشاركته في تحقيق نصوص تراثية أو الاشراف على تحقيقها مثل : « نقد النثر لقدامة ابن جعفر » (١٩٣٣) ، و « شروح سقط الزند » (١٩٤٥ ـ ١٩٤٨) ، و « تجريد الأغاني » (١٩٥٥ ـ ١٩٦٣) لابن واصل الحموي (٥١) . رأينا كيف كان طه حسين معجبا بأساتذته المؤرخين عامة وبالأخوين كروازي وسنيوبوس ولانسون خاصة ، وبالتالي فان اعجابه بالنهج التاريخي أمر بديهي ، فكيف دعا الى تطبيقه في الدرس الأدبي ! وكيف يتجلى في دراساته الأدبية ؟ ذلك ما سيتضح لنا في الفصلين لتاليين .

---

(٥١) تراجع تفاصيل ذلك في المرجع السابق ، ص ٦٧ ـ ٢١٢ .

الفصل الثانى

طه حسين

ودعوته للمنهج التاريخى

لا ترجع ثورة طه حسين على المنهج التقليدى – منهج الأزهريين – الى زمن دراسته بفرنسا . فقد رأينا سابقا كيف مج عقله ، وهو طالب بالأزهر ، قول شيخه بثبوت « الطلاق » لمجرد تلفظ الرجل بكلمة مشابهة لكلمة الطلاق ترنحا بما قال مؤلف الكتاب ، دون تحليل أو تعليل لذلك الرأى (١) . ثار على ذلك المنهج لأن عقله – حبيس البصر – كان يدفعه الى معرفة دقائق الأمور ، فكان يرفض النتائج المبهمة ، الا أنه لم يكن يعرف طريقة تجنب ذلك الابهام .

واذا كانت ثورته لا ترجع كما ذكرت الى زمن دراسته بفرنسا ، فان دعوته الى الأخذ بالمنهج العلمى الحديث ، لا ترجع هى الأخرى الى ذلك الزمن ، وانما ترجع الى فترة دراسته بالجامعة الأهلية التى بهرته بعلمها ، وبمنهجية التعليم والتفكير فيها منذ سماعه أول درس بها لأحمد زكى بك ١٨٦٦ – ١٩٣٤) . ثم راح ذلك الاعجاب ينمو ويتبلور بفضل أساتذته المصريين والمستشرقين ، وبصفة خاصة الأستاذ « كارلو نلينو » الذى يعده طه حسين مؤسس الرؤية العلمية الحديثة فى دراسة الأدب العربى ، فبفضله درس طه حسين ورفاقه لأول مرة الأدب العربى القديم دراسة منظمة ، وعرفوا أن الشعر العربى لا يختلف باختلاف أغراضه فحسب ، وانما يختلف باختلاف موضوعاته التى قيل فيها الظروف التى أحاطت به والمؤثرات التى أثرت فى قائليه وفى سامعيه أيضا . وعرفوا لأول مرة بفضله أيضا دور السياسة فى نشأة فنون مختلفة من الشعر العربى فى العصر الاسلامى . وعرفوا أيضا امكانية

---

(١) انظر الفصل الأول من الباب الثالث من هذا البحث ، ص ١٨٠ – ١٨٧ .

دراسة الأدب العربى على أساس من الموازنة بينه وبين الآداب القديمة الكبرى · كما عرفوا أن الأدب مرآة لحياة العصر الذى ينتج فيه ، فهو صدى لها أو دافع من دوافعها (٢) ·

لقد سمع من أساتذته عموما ، وأستاذه كارلو نالينو بصفة خاصة ، أن البحث العلمى الرصين يتطلب الأخذ بالمنهج العلمى الحديث ، كما سمع أن هذا المنهج هو جملة من الأسس والعمليات والعلوم على الباحث أن يأخذ بها ، فجمع شتات كل ما سمعه محاولا تطبيقه فى أول بحث قدمه سنة ١٩١٤ م الى الجامعة لنيل درجة الدكتوراه ·

١ ـ دعوته الى المنهج التاريخى

من خلال كتاب « تجديد ذكرى أبى العلاء » :

فى تمهيده لهذا البحث بطرح جملة من الأفكار والآراء المتعلقة بموضوع البحث ومنهجيته ، موضحا أنه سيدرس « أبا العلاء » وفلسفته من خلال أشعاره · وكان باستطاعته أن يرجع الى كتب الأقدمين ، فيسرد طائفة من الأخبار الخاصة بأبى العلاء ، مع جملة من النصوص الشعرية ، قائلا بأنه أعد بحثا ، الا أنه خالف المنهج المعهود ، فهو يقول فى أول فقرة : « ليس الغرض فى هذا الكتاب أن نصف حياة أبى العلاء وحده ، وانما نريد أن ندرس حياة النفس الاسلامية ، فى عصره ، فلم يكن لحكيم المعرة أن ينفرد باظهار آثاره المادية والمعنوية · وانما الرجل وماله من آثار وأطوار نتيجة لازمة ، وثمرة ناضجة ، لطائفة من العلل اشتركت فى تأليف مزاجه ، وتصوير نفسه ، من غير أن يكون له عليها سيطرة أو سلطان » (٣) انه سيدرس « أبا العلاء وفلسفته » ، الا أن دراسته هذه ستؤدى به الى دراسة النفس الاسلامية ، فالمعرى ثمرة ونتيجة لازمة لطائفة من العلل والعوامل الاجتماعية اشتركت فى تأليف مزاجه ، وبكلمة أخرى ، فقد أدرك طه حسين أن الأديب أو المبدع ليس طفرة منفردة منعزلة ، وانما ثمرة من ثمرات المجتمع تأثر به ، ليؤثر فيه بدوره : « والخطأ كل الخطأ أن ننظر الى الانسان نظرنا الى الشىء المستقل عما قبله وما بعده : ذلك الذى لا يتصل بشىء مما حوله ، ولا يتأثر بشىء مما سبقه أو أحاط به : ذلك خطأ ، لأن الكائن المستقل هذا الاستقلال لا عهد له بهذا العالم ·

---

(٢) طه حسين . مقدمة لكتاب كرلونالينو . **تاريخ الآداب العربية** ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، ص ٩ ـ ١٠ ·

(٣) طه حسين . **تجديد ذكرى أبى العلاء** (ضمن تاريخ الأدب العربى ، المجلد الثالث) دار العلم للملايين ، بيروت ط ١ ، ١٩٧٤ ، ص ٢٧٥ ·

انما يأتلف هذا العالم من أشياء يتصل بعضها ببعض ، ويؤثر بعضها فى بعض · ومن هنا لم يكن بين أحكام العقل أصدق من القضية القائلة : بأن المصادفة محال ، وأن ليس فى هذا العالم شىء الا وهو نتيجة من جهة ، وعلة من جهة أخرى » (٤) ·

درس النفس الاسلامية من هذا المنطلق العلمى ، لأنها علة تكوين المعرى ، الذى سيتحول بدوره الى علة بعـــدما اشتهر وذاع صيته ، وصار يؤثر فى الغير وكان المنطلق المنهجى واضحا وكان يلتقى ، بغض النظر عن مصدره ، مع المنهج التاريخى فى قضيتين تتمثل الأولى فى كون الأديب ثمرة من ثمرات المجتمع ، والثانية فى أنه كما تأثر بتراثه ، فانه سيتحول هو الآخر الى تراث مؤثر فى لاحقيه · وعليه سيكون عمل الباحث تأريخا للعلل والأسباب كما حدثت ، وليس له أدنى دخل فيها ، فعلى المؤرخ تطبيق المنهج الحديث للكشف عن العلل والأسباب : « فالمؤرخ الذى لايؤمن بالمذاهب الحديثة ، ولا يصطنع فى البحث طرائقه الطريفه ، ولا يرضى أن يعترف بما بين أجزاء العالم من الاتصال المحتوم ، ولا أن يسلم بأن الشىء الواحد على صغره وضآلته ، انما هو الصورة لما أوجده من العلل ، ولايطمئن الى أن الحركة التاريخية جبرية ليس للاختيـار فيها مكان · المؤرخ القديم الذى يرفض هذا كله ، ولا يميل اليه ، ملزم مع ذلك أن يبحث عن حياة الأمة الاسلامية ، اذا بحث عن حياة أبى العلاء ، فانه ان لم يفعل ذلك ، استحال عليه أن يفهم الرجل ، أو يهتدى من أمره الى شىء » (٥) ·

رفض طه حسين طريقة القـــدماء فى التأريخ ، لأنه آمن بالمذاهب الحديثة فى البحث ، واقتنع بطرائقها الطريفة ، فرفض بالتالى الكثير من الروايات التى أحصاها المؤرخون فى كتبهم من غير تثبت ولا تحقيق ، لقلة نصيبهم من النقد ، لعدم ثبوتها أمام البحث والتحليل كما رفض مدح الأشخاص أو ذمهم ، بنـــاء على حسن ما ينسب اليهم من الآثـار أو قبحه ، لأن ذلك ليس من عمل المؤرخ أولا ، وثانيـــا لأن الأشـــخاص لا ينفردون بالأعمال ، فهم نتيجة من جهة وعلة من جهة أخرى ، ومن ثم لا يحق لنا أن نحملهم مسؤولية أعمالهم وحدهم · ورفض احتكار العلم والغلو فى الثقة بالنفس ، باهمال ذكر المصـــادر أو تجاهلها لأن مفهوم العـلم قد تطور : « لقـــد كان يمتـــاز الرجل فى العصر القـــديم ، بكثرة ما أحصى من العلم ، وما وعى من الأخبار ، فكان من المعقول أن يضن على الناس بمصادر علمه حتى لا يشارك فيه · أما الآن ، فقد أصبح

---

(٤) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦ ·

(٥) طه حسين · المرجع السابق ، ص ٣٧٧ ·

الرجل يمتاز بحسن البحث والتحليل ، واتقان التتبع والاستقراء ، واجادة النظر والاستنباط . ومن الواضح ان اظهار مصادره للناس ، يعينه على اظهار حظه من ذلك ، واعلان قسطه من التفوق والنبوغ » (٦) .

لقد تغير مفهوم العلم من التحصيل والحفظ الى البحث والتحليل ، واتقان التتبع والاستقراء ، ومن ثم لابد أن يتحول المنهج من سرد للأحبار وابهار السامعين بكثرتها وجدتها وطرافتها ، الى بحث وتحليل تلك الأخبار للكشف عن عللها من جهة ونتائجها من جهة أخرى . انها رؤية جديدة للتاريخ ، اقتنع بها طه حسين وأعلن اعتمادها أسلوبه فى البحث : « واذ قد بينا أن الرجل خاضع فى أدبه وعلمه ، لزمانه ومكانه ، فليس لنا بد من أن نقدم بين يدى الكتاب ، فصلا فى عصر أبى العلاء ، وآخر ، فى بلده . ولما كانت الأسرة أشد ما يحيط بالرجل أثرا فيه ، خصصنا فصلا آخر لأسرة أبى العلاء . فاذا فرغنا من هذا كله عمدنا الى الحياة التاريخية للرجل ، ففصلناها تفصيلا ، ثم انتقلنا منها الى منزلته الأدبية فبينا قسمته من الشعر والنثر ، وخصائصه فيهما ، ثم الى منزلته العلمية فشرحناها شرحا مستوفى . ومن بعد هذا كله ، تناولنا فلسفته فاجتهدنا فى أن نكشف عنها ونجليها ، ونبين تأثرها بما قبلها ، وتأثيرها فيهما بعدها » (٧) .

حدد المبادىء والأسس العلمية التى ينبغى الأخذ بها ، وبين مقابل ذلك ما ينبغى التخلى عنه فى البحث ، ثم أبرز الخطوات العملية التى بنى عليها بحثه عن « أبى العلاء » شأنه فى ذلك شأن أساتذته المصريين المتفتحين على الثقافة الأوروبية الذين وجد فى مصادرهم الحديثة حول « أبى العلاء » شيئا : « من الميل الى المنهج التاريخى الحديث » (٨) . ثم أساتذته المستشرقين الذين وجد فى مصادرهم حول أبى العلاء المنهج التاريخى الحق : « لأن لها من التاريخ كل خصائصه ، وكل مناهج البحث عنه » (٩) . ذلك المنهج التاريخى الذى سمع به فى دروس أستاذه « كارلو نالينو » حول الأدب العربى من الجاهلية الى عهد بنى أمية سنة ١٩١٠ م ، حيث حدثهم كثيرا عن تاريخ الأدب والتأريخ له وكيفية ذلك (١٠) ، ثم أخبرهم بأنه سيطبق فى دروسه تلك المنهج المطبق

---

(٦) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٣٨٠ ــ ٣٨١ .

(٧) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٣٨١ .

(٤٨) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٣٨٤ .

(٩) طه حسين : المرجع السابق . ص ٣٨٦ .

(١٠) كارلو نالينو . **تاريخ آداب اللغة العربية** ، دار المعارف ، مصر ، ط ٢ ، ص ٤٥ــ٥٧ .

فى التـــاريخ للآداب الأوروبية : « ان المطلوب منى ليس الا أن أطبق على الآداب العربية أساليب البحث التـــاريخى التى عادت على تاريخ آدابنـــا الأفرنجية بطائل عظيم » (١١) ٠

منهجه اذن ، هو المنهج التاريخى الحديث ، الذى يختلف بالضرورة عن المنهج التاريخى القديم ٠ فالمنهج القديم يقوم على تجميع الأخبـــار والمعلومات والروايات ، ونسبتها الى أصحابها ، ثم سردها ، دون تحليل أو تعليل من منطلق احترام الماضى وتقديسه أحيانا ٠ أما المنهج التاريخى الحديث ، فلا يكتفى بجمع الأخبار والروايات ونسبتها ، وانما يتعدى ذلك الى البحث والتحليل والتعليل والاستقصـــاء لتلك الروايات بغيـــة الكشف عن أسبابها ونتائجها ، وبذلك تصبح مسألة نسبية ، ويصبح الماضى يعامل معاملة الحاضر ، أى يدرس دراسة موضوعية ٠

كانت دعوة « طه حسين » ، سنة ١٩١٤م ، الى المنهج التاليخى الحديث صريحة ، فقد وجد ضالته فى هذا المنهج الحديث لاعمال فكره فى دراسة الأدب العربى بعيدا عن أى قيد أو تقديس ، فدعا الباحثين الى العمل به كما فعل هو ٠

٢ ـ دعوته الى المنهج التاريخى فى كتاب « فى الشعر الجاهلى » :

علم طه حسين بالمنهج التاريخى ابان دراسته فى الجامعة الأهلية ، أى قبل دراسته بباريس التى درس فيهـــا المنهج التاريخى البحث على سينيوبوس وغيره من المؤرخين الفرنسيين المحدثين ، ثم عرفه مطبقا فى دراسة الأدب والتأريخ له عند الأحوين كروازى ولانســـون الذى قعد للمنهج التاريخى فى دراسة الأدب ٠

وبعد عودته من فرنسا ، وتعيينه أســـتاذا للتاريخين اليونانى والرومانى بالجامعة ، كتب جملة من المقالات الأدبية ، نشرها فى مجلتى « السياسة » و « الجهاد » شارك بها فى تلك المعارك الأدبية الشهيرة حول موضوع : « القدماء والمحدثون » ، ثم واصل الكتابة حول مواضيع كثيرة ، ليجمعها بعد ذلك فى كتابه الشهير « حديث الأربعاء » بأجزائه الثلاثة ٠ وبرغم قيمـــة هـــذا الأثر الأدبية والتاريخية ، فاننـــا لا نعـــده عمل بحث علمى ، فهو جملة : « فصول كانت تنشر فى صحيفة سيارة ليقرأها الناس جميعا فينتفع بقراءتها من ينتفع ويتفكه بقراءتهـــا من

(١١) كارلو نالينو : المرجع السابق ، ص ٥٧ ٠

يتفكه ، ولم يكن بد لكتابتها من أن يتجنب التعمق فى البحث والالحاح فى التحقيق العلمى ، اذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا »(١٢)٠

لقد تجنب عن قصـــــد ووعى « التعمق » والالحاح فى التحقيق العلمى ، فى هذا الأثر لعدة أسباب : منها أن الصحف السيارة لاتستطيع مسايرة شروط البحث من حيث فنيات النشر والوقت ، ومنها أن هذه الكتابات موجهة للعامة والخاصة على حد سواء ، ومن ثم لابد من مراعاة مستوى عامة القراء ، ومنها أن الباحث لا يستطيع تطبيق أسس البحث العلمى حول موضوعات متعددة ، وفى وقت وجيز لا يتعدى الأســـبوع لكل مقـــال ٠

جعلت هذه العوامل طه حسين يتجنب تطبيق المنهج العلمى الدقيق فى مقالاته هذه رغم ادراكه ووعيه بضرورة تطبيقه ، لأن من يتجنب شيئا لأسباب معلومة ، يكون مدركا بالضرورة لعـــدم التجنب حالة تبـــدل الظروف ، الأمر الذى نجده فى كتابه : « فى الشعر الجاهلى » ٠

تضمن هذا الكتاب مجمل الدروس والمحاضرات التى ألقاها ســـنة ١٩٢٥ م على طلبة الجامعة ، ضمن مقرر « الأدب العربى » حيث اقتصر على موضوع « الشعر الجاهلى » وحده ، ليكون له متسع من الوقت فى البحث والتمحيص والاستقصاء ٠

درس الشعر الجاهلى ، مطبقا المنهج العلمى الحديث ، فكان درسه جديدا من حيث المنطلقات ، ثم النتائج ، وكان مدركا لذلك الادراك كله : « هذا نحو من البحث عن تاريخ الشعر العربى جديد ، لم يألفه الناس عندنا من قبل ٠ وأكاد أثق بأن فريقا منهم سيلقونه ســـاخطين عليه ، وبأن فريقا آخر سيزورون عنه ازورارا ٠ ولكنى على ســـخط أولئك وازورار هؤلاء أريد أن أذيع هذا البحث ، أو بعبـــارة أصـــح أريد أن أقيده ، فقـــد أذعتـــه قبل اليـــوم حين تحدثت به الى طـــلابى فى الجامعة » (١٣) ٠

كان مدركا لنتائج عمله هذا ، العلمية وغير العلمية ، فكان مقتنعا بذلك الاقتناع كله ، بل كان مصرا على اقتناعه هذا ، غير عابىء بسخط الساخطين ، لأن ما يهمه هو رضى تلك : « الطائفة القليلة من المستنيرين

---

(١٢) طه حسين : حديث الاربعاء ، ج ١ ، دار المعـــارف بمصر ، ط ١١ ، ص ٥ ٠

(١٣) طه حسين : فى الشعر الجاهلى ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ط ١ ، القاهرة ١٩٢٦ ، ص ١ ٠

الذين هم فى حقيقة الأمر عدة المستقبل وقوام النهضة الحديثة وذخر الأدب الجديد » (١٤) ٠

انه لا يتوجه بهذا العمل الى عامة الناس ، ولا الى تلك الفئة من الشيوخ والمعممين الذين قنعوا بما عندهم من كلام الأقدمين ، وانما يتوجه الى تلك الفئة القليلة التى استنارت بعلم الأوروبيين ، واقتنعت بأن التقدم والتطور لا يتأتيان الا بالأخذ بأسباب التقدم الأوروبى فأخذت تعد العدة لتغيير المجتمع المصرى باقامة المؤسسات الاجتماعية مثل الدستور وغيره ، والمناداة بالديمقراطية (١٥) ٠ فكان طه حسين يجسد هذه الرؤية ، ويعمل على توضيحها فى مجال الدرس الأدبى بدراسته « الشعر الجاهلى » دراسة تاريخية منهجية ٠

انطلق فى دروسه هذه من قضية شغلت الساحة الأدبية بمصر كثيرا وقتذاك ، وهى قضية القديم والجديد فى الأدب وأيهما الأفضل ، فنبه الى وجه آخر من وجوه القضية ، هو جانب البحث بين القديم والحديث ، حيث لاحظ أن البحث فى الأدب ، يخضع هو الآخر الى رؤيتين متناقضتين : رؤية ترى فى أقوال القدماء حقائق علمية تاريخية مسلم بها ، ورؤية تضع علم المتقدمين كله موضع البحث ، وهذا من منطلق الشك المنهجى ، وأعلن بأنه من أنصار الرأى الثانى لأنه يريد : « ألا نقبل شيئا مما قال القدماء فى الأدب وتاريخه الا بعد بحث ، وتثبت ان لم ينتهيا الى اليقين فقد ينتهيان الى الرجحان » (١٦) ٠

انه لايقبل آراء القدماء ، الا بعد البحث والتثبت ، اللذين قد يوصلان الباحث الى الحقيقة ، فان لم يصل اليها فسيقترب منها ما أمكن ، على حد تعبير « لانسون » (١٧) قبله ٠

ان فى وسعه بعبارة أخرى دراسة « الشعر الجاهلى » على الطريقة التقليدية فيكرر فيها الآراء المألوفة ، ويقول أصاب فلان وأخطأ فلان ، وبذلك تبقى الأمور على حالها ٠ ولكنه أراد التغيير ، وخلخلة الواقع الثقافى ، فاختار لذلك طريقة المجددين الذين لاينطلقون من رأى مسلم به ، ولا يثقون فى اجماع القدماء ، وبالتالى فهم سيتساءلون « أهناك شعر جاهلى ، فان كان هناك شعر جاهلى فما السبيل الى معرفته ، وما هو ؟

---

(١٥) د٠ شرف (عبد العزيز) : طه حسين وزوال المجتمع التقليدى ٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ١٤٦ ــ ١٤٩ ٠

(١٦) طه حسين : فى الشعر الجاهلى ٠ ص ٢ ٠

Lanson (G.) : *Essais de methode, de critique et d'histoire ...littéraire* Hachette, Paris 1965, p. 45.

(١٤) طه حسين : المرجع السابق ، ص ١ ٠

وما مقداره ؟ وبم يمتاز من غيره ؟ ويمضون فى طائفة من الأسئلة يحتاج حلها الى روية وأناة والى جهود الجماعات العلمية لا الى جهود الأفراد » (١٨)٠ انها جملة من التساؤلات ترجع الى الخطوات العمليـــة الأولى التى أوصى « لانســون » باتباعها فى دراســة الأثر الأدبى ٠ وهى جهــود كبـيرة قد لا يستطيع فرد واحد القيام بها ، ولكن تظافر الجهود فى عمل جماعى كفيل بالتغلب عليها ، حسب طه حسين ، وحسب أســـتاذه لانســون قبله (١٩) ٠

تساءل هذه التساؤلات وغيرها ، فاستنتج : « أن الكثرة المطلقــة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية فى شىء ، وانما هى منتحلة مختلفة بعد ظهور الاسلام ، فهى اسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين » (٢٠) ، وبحث عن الحيـــاة الجاهلية فلم يجد لها أثرا واضحا اللهم الا فى : القرآن من ناحيـــة ، والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى » (٢١) ٠

وكان مصدر هذه التساؤلات منطلقا منهجيا واضـــحا اقتنـــع به وبجدواه ، اقتداء بالأوروبيين الذين طبقوه منذ زمن فى العديد من العلوم والفنون : « أريد أن أصطنع فى الأدب هذا المنهج الفلسفى الذى استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء فى أول هذا العصر الحديث ٠ والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هى أن يتجرد الباحث من كل شىء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضـــوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلوا تاما » (٢٢) وراح يدعو الى الأخذ بهذا المنهج فى دراسة الأدب العربى القديم والتأريخ له ، وذلك بضرورة نسيان الباحث قوميته وكل مشخصاتها ، ودينه وكل ما يتصل به ، وأن لا يتقيد بشىء ، ولا يذعن لشىء الا المنهج العلمى الصحيح ، تلافيـــا للمحـــاباة ، وارضـــاء للعواطف (٢٣) ٠

كان منهجه ، اذن ، هو منهج الشك الديكارتى ، الذى يعتبر موقفا فلسفيا من الحياة كلها وأسلوبا فى التعامل معها ، والذى كان المنطلق الفكرى للمنهج التاريخى الصرف الذى استحدثه « سنيوبوس » (٢٤)

(١٨) طه حسين · فى الشعر الجاهلى ، ص ٥ ٠

(١٩) Lanson (G.) : Op. cit., p.p. 51-52.

(٢٠) طه حسين · فى الشعر الجاهلى ، ص ٧ ٠

(٢١) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٨ ٠

(٢٢) طه حسين : المرجع السابق ، ص ١١ ٠

(٢٣) طه حسين : المرجع السابق ، ص ١٢ ٠

(٢٤) طه حسين : المرجع السابق ، ص ١٣ ٠

ـ أستاذ طه حسين ـ.فى التـــاريخ ثم طبقه لانسون فى دراســة الأدب والتأريخ له : ومن ثم ، يدعو طه حسين فى كتابه هذا الى المنهج التاريخى. فالتساؤلات التى انطلق منها فى دراسته للشعر الجاهلى أولا ، والبحث عن أصول هذا الشعر وتصويره للحياة الجاهلية ثانيا ، دراسته فنيـــا ولغويا من منطلق الكشف عن الحس الجمالى الجاهلى ، والمستوى الدلالى الجاهلى لتلك الأشعار ثالثا ، والالتزام بالموضــــوعية والحيـــــاد والشك رابعا ، كل ذلك يكون مجمل أسس المنهج التاريخى وخطواته كما حددها لانسون ومن ثم يمكننا القول ان طه حسين دعا فى كتابه هذا الى تطبيق المنهج التاريخى · والتساؤل الذى يطرح نفسه هنا ، هو : لماذا لم يشر تحت اسم « منهج الشك الديكارتى » الذى يعتبر قاعدة وأصلا من أصول المنهج التاريخى · والتساؤل الذى يطرح نفسه هنا هو : لماذا لم يشر صراحة الى المنهج التاريخى فى دراسة الأدب ؟ هل كان تصريحه بالتزام منهج الشك الديكارتى يهدف الى ايهام القارىء بأنه ـ أى طه حسين ـ اهتدى الى تطبيق الشك الديكارتى فى دراسة الأدب ، أسوة بالفلاســفة والمؤرخين والفنانين ؟ أم أنه فعل ذلك ، لأنه أراد أن يحث الطلبة والقراء على الأخــذ بهذا المنهج فى مختلف النشاطات الفكرية ، وأن يظهــر لهم بالتالى أن احالتهم عليه أنفع من احالتهم على مجال تطبيقى واحد ؟ أم أنه لم يشر الى « المنهج التاريخى فى دراسة الأدب » لتشبعه بالمنهج التاريخى العام واعتباره الاهتمام بالفرع ثانوية بالنسبة الى الأصل ؟

خلاصـــــة القول ان طه حســين دعــا الى تطبيق المنهج التاريخى فى دراسة الأدب العربى ضمن كتابه « فى الشعر الجاهلى » وحاول تطبيقه ، فكيف كان ذلك ؟ وما هى نتائج تطبيقه هذا المنهج ؟

٣ ـ المنهج التاريخى فى كتاب « فى الأدب الجاهلى »

اضطر طه حسين ، أثر الضجة التى أثارها كتاب « فى الشــعر الجاهلى » ، ونزولا عند قرار المحكمة ونصائح البعض من زملائه (٢٥) ، الى ادخال تغييرات طفيفة على كتابه·، فأضاف فصلا عن « النثر » وتمهيدا مفصلا عن تدريس الأدب العربى ودراسته ، وأصدره ســـــنة ١٩٢٧ م بعنوان « فى الأدب الجاهلى » ·

استعرض فى التمهيد واقع تدريس الأدب العربى بمصر الذى كان آنذاك موزعا بين مذهب الأزهريين التقليدى ، ومذهب المستشرقين العلمى الذى استحدثته الجامعة المصرية ، ومذهب ثالث مشــوه ردىء لا يأخذ بحظ من أســلوب القــدماء فى النقد ، ولا من أســلوب المستشرقين فى

(٢٥) سامح كريم : ماذا يبقى من طه حسين ، ٦٧ ـ ٧١ ·

البحث ، كان قائما فى مدرسة القضاء ودار العلوم والمدارس الثانوية المصرية (٢٦) • ثم جاءت الحرب العالمية الأولى ، فأصاب الجامعة عسر مالى ، اضطرها الى الاستغناء عن المستشرقين ، وبذلك عادت الى تدريس الأدب العربى على مذهب مدرسة القضاء ودار العلوم ، أى على ذلك المذهب المشوه العقيم (٢٧) •

تلك هى حال تدريس الأدب العربى بمصر آنئذ كما رآها طه حسين ، الذى كان قد عقد العزم على اصلاحها ، مقترحا ادخال تغيير جذرى فى طريقة اعداد معلمى اللغة العربية وآدابها بدراستهم الأدب العربى دراسة علمية حديثة تمكنهم فيما بعد من دفع الطلاب الى قراءة النصوص العربية وفهمها وتذوقها ، ولن يتأتى لهم ذلك ، الا اذا كانوا على مستوى جيد من الدراسة العلمية للأدب العربى مستعينين فى ذلك بعلوم مساعدة ولغات أجنبية قديمة وحديثة تعرفهم على روائع الآداب العالمية حتى يضعوا الأدب العربى موضعه الخليق به ، ويستطيعون تدريسه لطلابهم • وبديهى أن هذه الدعوة ، جزء من ذلك الصراع الثقافى والعلمى الذى كان قائما بين الجامعة من جهة ، وبين الأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء من جهة أخرى ، لتباين منطلقات الجهتين فكريا واجتماعيا ، كما سلف القول • ثم استعرض مقاييس أو مذاهب التأريخ للأدب ، مبتدئا بالمقياس السياسى الذى يتمثل فى تقسيم الأدب الى عصور مرتبطة بالعصور السياسية التى مر بها العرب • وبرغم اعترافه بأهمية السياسة والأحداث السياسية فى تطور الأدب ونموه ، الا أنه بين الخطأ الفادح فى ربط العصور الأدبية بالعصور السياسية ، مستدلا بذلك على ضيق أفق الآخذين بهذا المقياس ، ومبينا الأخطاء العلمية التى لحقت الأدب العربى من جراء انبهار الكثرة من الدارسين والطلبة به على عقمه (٢٨) وكان مصيبا فى حملته على هذا المذهب وأصحابه ، اذ من الواضح أن العصور السياسية ترجع الى أحداث تاريخية معلومة أو الى تواريخ معينة ، كانت هى البداية أو النهاية لعصر من العصور التاريخية• ولكن تلك الأحداث أو التواريخ لا يمكن لها أن تكون الحد الفاصل بين ذوق أدبى وذوق آخر ، أو بين جنس أدبى وجنس آخر ، لأن الظاهرة الأدبية بطيئة التحول من جهة ، متنوعة الأسباب من جهة أخرى •

---

(٢٦) طه حسين : **فى الأدب الجاهلى** (سلسلة من تاريخ الأدب العربى) المجلد الأول دار العلم للملايين بيروت ط ١ ، ١٩٧٠ ، ص ١١•

(٢٧) طه حسين : المرجع السابق ، ص ١٣ ـ ١٦ •

(٢٨) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٣٧ ـ ٤٢ •

وكان ثمة ، في مقابل هذا المقياس ، الذى يدعي الحداثة والعلمية ، مقياس علمي ، اشتط أصحابه في الدعوة الى « علمنة » الدرس الأدبي ، أسوة ببقية العلوم التى اقتبسوا منها مناهجها لدراسة الأدب والتأريخ له. أولهم « سانت بوف » الذى أراد أن يصل من دراسته لشخصيات الكتاب والشعراء دراسة نفسية وترتيبها الى استنباط فصائل لهذه العبقريات ، شأنه في ذلك شأن علماء النبات (٢٩) ، وثانيهم « تين » الذى مضى الى أبعد مما مضى اليه سانت بوف ،حيث رأى أن الفرد عبارة عن نتاج لعوامل ثابتة هي :

الجنس والمكان والزمان . وبدراسة هذه العوامل دراسة علمية دقيقة نستطيع فهم عبقرية الأديب (٣٠) ، وثالثهم « برونتيير » الذى مضى في طريق « علمنة » الأدب الى أبعد من صاحبيه ، عندما رأى أن الأدب ظاهرة انسانية تخضع لما يخضع اليه الانسان ونظرا الى أن الانسان مر بمراحل نشوء وارتقاء ، كما بين ذلك داروين ، فان الأدب وفنونه ، قد مر هو الآخر بمراحل نشوء وارتقاء (٣١) .

وبعد أن استعرض أعلام التيار العلمي في دراسة الأدب والتأريخ له ، وبين وجهات نظرهم ، ومنطلقاتهم ، والنتائج المستهدفة ، رفض طريقتهم رفضا باتا ، حيث اتضح له أن هذه النزعة العلمية تملكت الأوروبيين خلال القرن التاسع عشر ، عندما رأوا نتائج التطور العلمي تغير حياتهم تغييرا جذريا ، فانصرفوا بذلك عن كل مالا تظهر عليه صبغة علمية ما : « ولم يكن بد للفلسفة والآداب والتاريخ من أن تحيا ، ولم يكن بد لها من أن تلائم بين حياتها وبين بيئتها الجديدة التى تحيا فيها ، فلتأخذ هي أيضا صبغة علمية ما . فأما الفلسفة ، فقد أسرع بها أوجست كونت الى هذه الصبغة العلمية الوضعية المعروفة وأما التاريخ فقد أسرع أصحابه (...) وأما الأدب فقد أسرع به هؤلاء الثلاثة الذين قدمنا الاشارة اليهم الى هذه الصبغة العلمية التى حاولوا أن يصبغوه بها ولكن أوفقوا فيما حاولوا ؟ كلا ! لم يوفقوا ولا يمكن أن يوفقوا ، لا لشيء الا لما قدمناه من أن تاريخ الأدب لا يستطيع بوجه من الوجوه أن يكون « موضوعيا » صرفا ، وانما هو متأثر أشد التأثر وأقواه بالذوق ، وبالذوق الشخصي قبل الذوق العام » (٣٢) .

---

(٢٩) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(٣٠) طه حسين . المرجع السابق ، ص ٤٣ ـ ٤٤ .

(٣١) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٣٢) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٥٤ـ٦٤ .

رفض طه حسين التيار العلمي في دراسة الأدب ، كما ظهر عند سانت بوف وتين وبرونتبير ، منطلقا من أن الأدب ابداع ، ومن الصعب جدا اخضاع الابداع لقوانين علمية ثابتة مستقاة من هذا العلم أو ذاك ، وبالتالى ، فان دراسة الأدب تعتمد أولا على الذوق والتذوق ، لتستعين بعد ذلك بعلوم ومعارف في دراسة جوانب من الأدب دراسة موضوعية ويتضح من رفض طه حسين للمنهج العلمى ، والحجج التى اســتند اليها في رفضه ، أنه اعتمد على رؤية أستاذه « لانسون في رفضه هو الآخر للنزعة العلمية عند هؤلاء ، فلقد أرجع كل منهما ظهور هذا التيار الى انبهـــار الأوروبيين بالتطور العلمى فى القرن التاســـع عشر · ورفض كلاهما قوانين « تين » انطلاقا من أنها لا تنبت زرعا متشابها · كمـــا رفضـــا « علمنة » الأدب اقتـــداء بالعـــلوم التجريبية ، لأن التذوق هو أســاس الدراسة الأدبية ، ولن يعرف الانسان ذوق وطعم أى شيء الا بالتذوق · أما التحاليل والمعادلات ، فهى تكشف عن بعض المكونات ولا تكشف مطلقا عن ذوق أى شيء ، ومن ثم فان دراسة الأدب تبدأ بتذوقه (٣٣) · اننـــا لنجد أسباب رفض طه حسين للمقياس العلمى جميعها فى مقالة لانسون حـــول المنهج التـــاريخى ولولا اختـــلاف أسلوب الرجلين ، لقلت ان تلك الحجج والأسباب منقولة عن لانسون نقلا ·

وبعد أن رفض المقياس الســــياسى ، رفض كذلك المقياس العلمى الذى رفضه لانسون قبله ، واقترح مقياسا ثالثا اقتنع به ، ورأى أنه المنهج الأمثل لدراسة الأدب : « وما أظن الا أنك قد أحسست هذا المذهب الثالث الذى نختـــاره ونقف عنده ونتخذه ســبيلا الى البحث عن أدب اللغة العربية وتاريخه ، أحسست هذا المذهب ولمحته فى كل ما قدمناه من الفصول · فنحن لانطمئن الى أن يكون تاريخ الآداب علما كله ، لأن ذلك يبرئه من شخصية المؤلف ويحرمه الذوق ويضطره الى أن يكون جافا عقيما ، ونحن أشد الناس حرصا على أن يكون تاريـــخ الآداب من اللين والخفة والخصب بحيث يحبب الأدب الى الناس من جهة ، ويستطيع تفسير الظواهر الأدبية واستكشاف الصلة بينها من جهة أخرى · ونحن لانطمئن الى أن يكون هذا التاريخ فنا كله (···) فتاريخ الآداب اذن يجب أن يتجنب الاغراق فى العلم ، كما يجب أن يتجنب الاغراق فى الفن » (٣٤)·

يتمثل هذا المقياس أو المنهج الأدبى الذى نادى به طـه حســـين لتطبيقه فى دراسة الادب العربى والتأريخ له فى الجمع بين العلم من جهة ، والفن من جهة أخرى ، شأنه في ذلك شأن لانسون : « ومرجع الكل هو

Lanson (G.) : Opcit., p.p. 40-43.

(٣٤) د· طه حسين : المرجع السابق ، ص ٤٧ ــ ٤٨ ·

عدم الخلط بين المعـــرفة والإحساس ، واصطناع الحذر حتى يصبح الاحساس وسيلة مشروعة للمعرفة » (٣٥) . فاعتمد كل منهما العلم أو المعرفة والفن أو الاحساس قاعدة للمنهج ، واذا كنا قد رأينا كيف فصل لانســـون بين عنصرى المنهج وربط بينهما ، فكيف كانت رؤية طه حسين لأسس منهجه الأدبى وخطواته ؟

شرح أسس وخطوات منهجه فى جملة من العناصر ، على مؤرخ الأدب أن يلتزم بها ويطبقها حتى يكون بحثه عملا علميا ، وتتلخص فى :

١ ـ الاستعانة بطائفة من العـلوم الصرفة مثل فقه اللغـة والنحو والصرف والبيان والتاريخ ، تساعده فى الكشف عن كثير من خبايا النص الأدبى (٣٦) .

٢ ـ العمل العلمى وهو جملة من المهارات والفتيـات يقوم بهـا الباحث عند دراسته لأى موضـــوع أدبى : « أريد أن أدرس شـــعر أبى نواس ، فأنا مضطر أول الأمر الى أن أبحث عن هذا الشعر . ولهذا البحث المنظم قواعده وأصوله فاذا وجدت هذا الشعر فأنا مضطر الى أن أقرأه وأحقق نصوصه وأقارن مقارنة علمية دقيقة بين النسخ التى تشتمل عليه . فاذا استخلصت من هذه النسخ المختلفة والنصوص المتباينة نصا انتهى اليه بحثى واختيـــارى ، فأنا مضطر الى أن أقرأ هذا النص قراءة الباحث المنقب الذى يريد أن يفهم ويفسر ويحلل ويستخلص ما فى هذا الشعر من خصائص لغوية أو نحوية أو بيانية . فاذا أنا فرغت من هذا كله فاستكشفت النص وحققته وفسرته واستخلصت خصائصه ومميزاته، مستعينا فى هذا كله بهذه العلوم المختلفـــة التى يجمعهـا لفظ أجنبى لا أعرف كيف أترجمه الى العربية « L'érudition » فقد انتهى القسم العلمى الخالص من عملى مؤرخا للآداب » (٣٧) .

٣ ـ العمل الفنى ، وهو تذوق النص الأدبى ، قصد ابراز مواضع الجمال فيه ، مع اجتهـــاد الباحث ـ ما أمكن ـ فى أن يخفف من تأثير شخصيته فى ذلك التذوق ، ومن ثم ، لا يستطيع أن يزعم بأن ذوقه هو الأصح أو الأسلم ، فلكل انسان ذوقه الخاص (٣٨) .

---

(٣٥) لانسون : منهج البحث فى تاريخ الادب ، ص ٤٠٤ .
Lanson (G.) : Op. cit., p. 39.

(٣٦) طه حسين : فى الأدب الجاهلى ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .

(٣٧) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٣٨) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٤٩ .

٤ ـ قد يوهم تقسيم المنهج الى قسمين : علمي وفني ، بتمايزهما في التأليف وانفصالهما عن بعضهما البعض ، فاستدرك طه حسين لذلك انهما مرتبطان ومتداخلان ، فلا وجود في أي كتاب من كتب تاريخ الأدب لقسم فني وآخر علمي ومن ثم ينجز الباحث البحث بمختلف أقسامه العلمية والفنية · أما اذا كان الموضوع كبيرا ، متسع الأطراف ، فان تضافر جهود العديد من الباحثين أمر لا مفر منه ، فيحقق بعضهم النصوص ويقتلونها بحثا وتدقيقا ، ويدرس غيرهم تلك النصوص دراسة لغوية صرفة · ويتفرغ البعض الآخر للبحث عن شخصية كاتب أو شاعر في آثاره وفي آثار معاصريه ، ثم تأثيره في اللاحقين ، ثم يجتهد في تحقيق الصلة بينه وبين عصره وبيئته (٣٩) ، وبذلك يستفيد مؤرخ الأدب من جهود هؤلاء الباحثين في دراساتهم الجزئية للموضوعات الكبيرة ، ليصنع تاريخ أدبه القومي ، أو تاريخ جنس أدبي أو أديب ·· ولن يتأتى ذلك الا بتقسيم العمل حسب رأى طه حسين ورأى لانسون قبله (٤٠) ·

٥ ـ التاريخ للأدب العربي ليس بالأمر الهين ، اذ على المؤرخ ، في رأى طه حسين ، أن يتسلح بعلوم عديدة ، وأن يستعين بجهود غيره من الباحثين ، ثم عليه بعد ذلك أن يتعامل مع مادة عمله ، ولا يكتفي بما قال غيره ، أي عليه بدراسة الآثار الأدبية التي يؤرخ لها ، فيقرأها وينقدها ويحللها حتى يصفها لغيره وصفا علميا صادقا (٤١) ·

٦ ـ الخطوات المنهجية السالفة الذكر هي العناصر الأساسية لمنهج البحث الأدبي ، الذي اختاره طه حسين بديلا للمنهج العلمي والمنهج السياسي التقليدي · ولكن تطبيق منهجه المقترح بحاجة الى مبدأ أساسي ، لا وجود لأي بحث علمي بمعزل عنه وهو حرية الفكر التي تضمن لأي باحث النزاهة والموضوعية والصدق في البحث أولا ، والجهر بالنتائج مهما كانت طبيعتها ثانيا · ولولا حرية الفكر لما عرفت العلوم منذ النهضة الأوروبية ذلك التطور السريع ، ولما عرفت الفنون والآداب هي الأخرى ما عرفت من التطور والازدهار · والأدب العربي بحاجة ماسة الى التحرر من القيود الدينية والأخلاقية : « لن توجد العلوم اللغوية والأدبية ولن تستقيم فنون الأدب الا يوم تتحلل اللغة والأدب من التقديس ويباح لنا أن نخضعهما للبحث كما تخضع المادة لتجارب العلماء · ولكن هذه الحرية التي نطلبها للأدب لن تنال لأننا نتمناها ، فنحن نستطيع أن نتمنى ، وما كان الأمل وحده منتجا ، وما كان يكفي أن تتمنى لتحقق

---

(٣٩) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٤٩ ـ ٥٠ ·

(٤٠) لانسون · منهج البحث في تاريخ الأدب ، ص ٤٢٠ ٤٢١ ·

(٤١) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٥٢ ـ ٥٣ ·

أمانيك . انما ننال هذه الحرية يوم نأخذها بأنفسنا لاننتظر أن تمنحنا اياها سلطة ما ، فقد أراد الله أن تكون هذه الحرية حقا للعلم ، وقد أراد الله أن تكون مصر بلدا متحضرا يتمتع بالحرية فى ظل الدستور والقانون . فلتكن قاعدتنا اذن أن الأدب ليس علما من علوم الوسائل يدرس لفهم القرآن والحديث فقط ، وانما هو علم يدرس لنفسه ويقصد به قبل كل شىء الى تذوق الجمال الفنى فيما يؤثر من الكلام » (٤٢) .

ان تطور الدرس الأدبى عند العرب رهين دراسة الأدب فى ذاته ولذاته ، وفى جو فكرى أساسه الحرية فى التفكير وفى التعبير حتى يكون الباحث صادقا مع نفسه ومع مادة دراسته حينذاك تصبح الحقيقة العلمية مطلب الجميع ، ومن ثم يمكن لمؤرخ الأدب العربى أن يؤرخ له من منطلق علمى صرف ، بعيدا عن القيود المختلفة .

من التمعن فى منهج البحث الأدبى الذى اقترحه طه حسين ، من حيث أسسه وخطواته العملية والفنية ، ندرك أنه يقترح المنهج التاريخى كما حدده لانسون .

فيشترط من حيث الأسس والمبادىء ، حرية الفكر لقيام أى بحث أدبى جاد ، والاعتماد على المعرفة من جهة ، والذوق من جهة أخرى ، فى التعامل مع النصوص الأدبية ، بنفسه ، دون الاعتماد على آراء السابقين ، والاستعانة فى بحثه بعلوم مساعدة تعينه على كشف خبايا النصوص ، والسعى الى الحد ، ما أمكن ، من الذوق الشخصى للباحث خلال تعامله مع النصوص ، والبعد عن التزمت العلمى بمحاولة تطبيق مناهج العلوم التجريبية على الأدب . انها جملة من الأسس والمبادىء سبق أن أكد عليها لانسون (٤٣) . لقد أورد طه حسين ، من حيث الخطوات العملية والعلمية ، كل الخطوات التى ذكرها لانسون ، الا أنه أوردها مبعثرة ، فهو يجمع خطوات لانسون الست الأولى فيما أسماه بالعمل العلمى ، وأفرد خطوة لانسون السابعة بالعمل الفنى حيث قال : « بدأ القسم الفنى الذى أجتهد ما استطعت فى أن أخفف تأثير شخصيتى فيه ، ولكننى أعتمد فيه ، سواء أردت أو لم أرد ، على الذوق » (٤٤) . أما لانسون ، فيقول فى هذه الخطوة : « وبعد ذلك نقيم المعنى الأدبى للنص (...) وفى هذا بنوع خاص يجب أن نستخدم الاحساس والذوق الشخصيين ولكن

---

(٤٢) طه حسين : فى الأدب الجاهلى ، ص ٥٦-٥٧ .

(٤٣) انظر الفصل الثانى من الباب الأول من هذا البحث .

(٤٤) طه حسين : فى الأدب الجاهلى ، ص ٤٩ .

في هذا أيضا يجب أن نحذرهما ونراجعهما » (٤٥) . وبديهي أن مضمون كلام الرجلين واحد .

أما الخطوتان الثامنة والتاسعة ، فقد أشار اليهما ضمن حديثه عن تقسيم العمل ، حيث نلمس الخطوة الثامنة ضمن حديثه عن تفرغ بعض الباحثين لدراسة نص من النصوص : « من حيث هو متصل بالعصر اللغوى الذى أنشىء فيه أو غير متصل ، ومن حيث مقدار هذا الاتصال ، ومن حيث ما للمؤلف من حظ فى العلم بلغته واتقانه ، ومن حيث ما كان يمكن للغات الأجنبية من تأثير فى لغة المؤلف ، وغير ذلك مما يتصل بهذا النحو من البحث » (٤٦) .

والبحث عن صلة النص بالعصر اللغوى الذى أنشىء فيه ، وحظ المؤلف من العلم بلغته القومية أو بلغات أجنبية ، لا يختلف فى شىء عن مصادر النص والملابسات التى استجاب لها ، على حد تعبير لانسون فى خطوته الثامنة (٤٧) .

وتبقى الخطوة التاسعة ـ النجاح والتأثير (٤٨) ـ التى نجدها عند طه حسين ضمن قوله « وربما يفرغ رجل للبحث عن شخصية كاتب أو شاعر أو عالم ، فيسلك الى ذلك سبلا مختلفة ، يلتمس شاعره أو كاتبه أو عالمه فيما ترك من الآثار ، ويلتمسه فى آثار غيره من المعاصرين له ، يلتمسه فى آثار غيره من الذين جاءوا بعده » (٤٩) . ولا أعتقد بوجود أى فرق جوهرى بين النجاح والتأثير من جهة ، والتماس شخصية أديب فى آثار معاصريه والذين جاءوا من بعده من جهة أخرى ، اذ كيف تلتمس شخصية أديب فى آثار معاصريه اذا لم يكن له نجاح فى زمانه ؟ وفى الذين جاءوا بعده اذا لم يكن له تأثير فى اللاحقين ؟! .

مما سبق ذكره ، يمكننا القول أن منهج البحث الأدبى عند طه حسين لا يختلف فى شىء عن منهج البحث التاريخى كما حدده لانسون ، اللهم الا من حيث الترتيب فى الأسس والمبادىء والخطوات ، حيث قدم وأخر عن قصد أو عن غير قصد ، الا أن المنهج يبقى واحدا ، ومن ثم ، فالمنهج

---

(٤٥) لانسون منهج البحث فى تاريخ الأدب ، ص ٤١٠ ـ ٤١١ .

(٤٦) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٤٧) لانسون : منهج البحث ، ص ٤١١ .

(٤٨) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٤٩) Meftah Tahar : Taha Hussayn : *sa critique littéraire et ses sources françaises* ; p.p. 113-128.

المقترح فى كتاب « فى الأدب الجاهلى » هو المنهج التاريخى اللانسونى تأثرا بلانسون نفسه ، أو تأثرا بأعمال وأبحاث « شارل سينلوبوس » فى المنهج التاريخى الصرف ، وأعمال الأخوين كروازى ذات المنهج التاريخى فى دراسة الأدب (٥٠) .

(٥٠) Meftah Tahar : Taha Hussayn : *sa critique littéraire et ses sources françaises*, p.p. 113-128.

الفصل الثالث

طه حسين

وتطبيق المنهج التاريخى

١ ـ نتائج تطبيق المنهج التاريخى فى كتاب « تجـــديد ذكرى أبى العـــلاء » :

سبق القول ان طه حسين ذم فى تمهيده لهذا البحث منهج القدماء ، مفضلا عليه منهج البحث التاريخى الحديث · وبينا أن هذا المنهج الحديث يتلخص فى مفهوم جديد للتاريخ ، وفى طريقة جديدة للتعامل معه · ومن هذا المنطلق ، حدد خطوات بحثه حول « المعرى » وتتمثل فى دراسة عصره من مختلف الجوانب ، ثم بلده الذى ولد وتربى وعاش فيـــه ، فأسرته ، ليخلص من ذلك الى حياته الشخصية ، فتتبعها مرحلة اثر مرحلة · ثم ينتقل من دراسة العوامل المؤثرة فى تكوين « المعرى » الى دراسة نتاجه ، فدرس أدبه شعرا ونثرا ، ثم بقية نشاطاته العلمية الأخرى ، لينتهى عند فلسفته· درس كل جوانب نشاط المعرى الأدبى والعلمى والفلسفى مبرزا تأثره بسابقيه من العرب وغير العرب ، ثم تأثيره فى لاحقيه ، منطلقا فى ذلك من الموقف العلمى الذى يرى بأن الظواهر التاريخية ليست منعزلة ، بل هى ثمرة لجهود الأسبقين ، وغذاء للاحقين من الأجيال ·

تتبع طه حسين هذه العنـــاصر فى خمس مقالات ، مخصصـــا لكل موضوع المقالة· فدرس فى الأولى « زمان أبى العلاء ومكانه » (١) أو ما يعرف فى الدراسات التاريخية بالعصر ، فتحدث عن الشعب العربى ، وموضع تلك الفترة من العصور العباسية المختلفة، والحياة السياسية، والاقتصادية والدينية ، والاجتماعية ، والخلقية ، والعقلية ، بما فيها من علوم فلسفية وتاريخ ، وجغرافيا ، وهيئة ، وآداب ، وشعر ، وخطابة ، وكتابة ، العلوم

(١) طه حسين : تجديد ذكرى أبى العلاء ، ص ٣٨٩ـ٤٥٧ ·

الأدبية من لغة ، ورواية ، ونحو ، وصرف ، وعروض ، وقافية ، وخط ، لينتهي بالحديث عن معرة النعمان بلدة المعرى من حيث موقعها الجغرافى ثم وصفها ، معتمدا فى ذلك على المراجع المذكورة فى تمهيده للبحث قديمه وحديثه · تحدث فى هذا الموضوع مثيرا اشكالية تاريخية عن كل عنصر من العناصر السالفة الذكر ، مستعرضا الرأى المتعارف عليه حوله ، ثم مبرزا وجه الصواب فيه من جهة ووجه الخطأ من جهة أخرى بالاعتماد على التحليل المنطقى ، ليغلف بذلك رأيا جديدا متعارفا عليه فى الدراسات الحديثة ، وكأنه نتيجة منطقية جديدة، استخلصها من تحليله ذاك · فعندما درس العصر العباسى مثلا ومراحله المختلفة ، انطلق فى ذلك من قضية ربط العصور الأدبية بالعصور السياسية وخطل هذه الرؤية ، على اعتبار أن الأدب ظاهرة متعددة الجوانب تتأثر بالسياسة من جانب وتؤثر فيها من جانب آخر · كما أن العصور السياسية تنطلق من حوادث ظاهرة معلومة فى الزمان والمكان · أما العصور الأدبية ، فتنطلق من عوامل متعددة فى الزمان والمكان يصعب تحديدها زمانيا ، رغم العلم بها · فالعصر العباسى الأدبى لا يبتدىء سنة اثنتين وثلاثين ومائة للهجرة بالتحديد ، وانما ترجع بدايته الى القرن الثانى للهجرة كله ، حيث بدأ الاتصال المادى للعرب بالعجم ، زمن بنى أمية ، يؤتى ثماره من تعارف وتزاوج ونقل للعلوم والفنون ، واقتداء بأنماط حضارية لا عهد للعرب بها · ومن ثم ، قسم العصر العباسى الى مراحل أو عصور أدبية حسب السمة الغالبة على كل عصر أو مرحلة ، افكانت المرحلة الأولى مرحلة النقل وتمتد طيلة القرن الثانى والنصف الأول من القرن الثالث للهجرة · وكانت الثانية تمتد من منتصف القرن الثالث الى منتصف القرن الخامس وكانت سمتها البارزة نضج العقل الاسلامى بعدما هضم كل ما نقل اليه من ثقافات الأمم الأجنبية · أما المرحلة الثالثة فتبدأ من منتصف القرن الخامس حيث طرأت عوامل أضعفت الآداب العربية ، فبدأ بذلك عصر الانحطاط (٢) ·

انه لتقسيم منطقى ، يكاد ينسحب على كل ظواهر الحياة ، اذ تبدأ عادة بالأخذ عن الغير أولا ، ليكتمل نموها بعد الهضم ثانيا ، ثم تضعف بعد ذلك تاركة المجال لغيرها ثالثا · ولكننا نتساءل : أين الدليل التاريخى على ذلك ؟ انه لم يعزز هذا الرأى بالمراجع المذكورة فى التمهيد ، ولم يورد أدلة تاريخية من التراث العربى فى عهد بنى العباس توضح ذلك ، واكتفى باستنباط نتائج منطقية ··

وفى المقالة الثانية ، درس حياة أبى العلاء ، متتبعا أطوارها طورا طورا ، انطلاقا مما كتب القدماء والمحدثون عنه ، مناقشا كل قضية

---

(٢) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٣٩٨ـ٤٠١ ·

مناقشة عقلية تفتقر عادة الى الدليل التاريخي . فعندما تحدث عن شبابه ، وما عرف عنه بأن تلك المرحلة قال : « وقد اتفق أكثر المؤرخين الذين كتبوا عن أبي العلاء ، على أنه كان في أثناء شبيبته في المعرة يجالس الظرفاء ، ويتصرف في فنون الهزل والجد ، ويلعب النرد والشطرنج (...) فأما مجالسته للظرفاء وتصرفه في الهزل والجد ، فأمر ليس فيه نكير عليه ، بعد أن عرفنا ذكاء الشاعر وفطنته ونبوغه في فن الشعر ، وأما لعبه النرد والشطرنج ، فيحتاج الى شيء من التدقيق . وما نشك في احدى اثنتين : اما أن تكون الرواية مكذوبة ، مصدرها المبالغة والاغراق فيما شاع من ذكاء الرجل وقوة حسه ، وصدق فطنته ، واما أن يكون لعبه للشطرنج قد كان بأحجار معلمة تميزها الأيدي ، وذلك شيء لم نصل الى معرفته الآن » (٣) .

فهل طه حسين الرأي القائل بمجالسة المعرى الظرفاء وتصرفه في فنون الهزل والجد في مرحلة شبابه اعتمادا على ؟ ذكاء الشاعر وفطنته ونبوغه في فن الشعر » وكأن ذلك دليل تاريخي ثابت على أن الذكاء والفطنة والنبوغ في فن الشعر أمور تؤدي بالضرورة الى مجالسة الظرفاء وممارسة فنون الهزل والجد معا ، علما بأن تلك العوامل قد تؤدي الى مجالسة الظرفاء ، وقد تبعد صاحبها عن ذلك وربما تدفعه الى مجالسة الظرفاء وغيرهم، كل حسب ميوله النفسية وظروفه الاجتماعية ، ولا يثبت ذلك الا الدليل التاريخي ، مثل شهادة المرء على نفسه ، أو روايات تاريخية موثقة ، الأمر الذي لا نجده عند طه حسين ، ناهيك عن غموض الحكم الذي انطلق منه في دراسة هذه المسألة فهو يؤكد « اجماع أكثر المؤرخين الذين كتبوا عن أبي العلاء ... ولكنه لا يحدد نوعيتهم : أهم من العرب القدامى والمحدثين أو فئة واحدة منهم فقط ، أو كل الذين أرخوا للمعرى من عرب وأجانب ، أو الذين قرأ لهم طه حسين لاعداد بحثه هذا ؟ انها جملة من التساؤلات تبين أن منطلقه التاريخي يحتاج الى التدقيق من جهة والى الدليل التاريخي من جهة أخرى حتى تكون أحكامه المنطقية صحيحة أو أقرب ما تكون من الصواب .

وفي المقالة الثالثة ، درس « أدب أبي العلاء » شعراء ونثرا ، فقسم شعره حسب أطوار حياته أولا ، ثم حسب الأغراض ثانيا ، متبعاً الأسلوب المنطقي في وصف وتحليل مراحل أو أغراض « المعرى » الشعرية . وحتى عندما اعتمد على مرجعين في اثبات تميز شعر « أبي العلاء » الفلسفي عن بقية الشعر الفلسفي العربي ، نجده يذكر المرجعين المعتمد عليهما دون أي تحديد : « مرجليوث اجتهد في أن يقارب بين أبي العلاء وأبي العتاهية

---

(٣) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٤٨١ ـ ٤٨٢ .

فى هذا الشعر الفلسفى ، فزعم أن بين الرجلين تشابها ، وتابعه « سلمون » ولقد كنا نحب أن نجتهد في بيان هذا الوهم الذى وقع فيه هذان العالمان ، لولا أن دائرة المعارف الاسلامية التى يكتبها المستشرقون سبقت الى هذا ، فجعلت قياس أبى العلاء الى أبى العتاهية ظلما وحيفا ٠ اذا كان أبو العتاهية يستقي من الدين ويتقيد به ، وكان أبو العلاء يستقى من الفلسفة ولا يتقيد بالدين وهذا الفرق ظاهر الأثر فى شعر الرجلين » (٤) ٠

عندما أراد طه حسين أن يثبت أن شعر أبى العلاء الفلسفى يختلف عن بقية الشعر الفلسفى العربى ، على اعتبار أن المعرى يصدر فى ذلك عن معلومات فلسفية متعددة المصادر من يونانية الى هندية ، ومن اسلامية الى مسيحية فيهودية ، بينما يصدر غيره من الشعراء العرب من مواقف دينية اسلامية مثل أبى العتاهية ، أو حكمة تجريبية مثل المتنبى أو رؤية دينية مسيحية مثل عدى بن زيد ، قال ان مرجليوث زعم ، وان دائرة المعارف الاسلامية قد كشفت ذلك الوهم ! وهنا نتساءل : فى أى مرجع « زعم » مرجليوث هذا الزعم ؟ ولماذا عده طه حسين « وهما » ؟ ومن كشف من المستشرقين هذا الوهم فى دائرة المعارف الاسلامية ؟ وضمن أى موضوع ؟ وهل سبق تاريخيا رأى دائرة المعارف الاسلامية رأى مرجليوث أو العكس ؟ انها جملة من التساؤلات المنهجية الأساسية فى المنهج التاريخى ، لا نجد لها صدى عند طه حسين فى دراسته لهذه المسألة ، رغم أهميتها فى الكشف عن الحقيقة التاريخية ٠ فلو بين بالدليل التاريخى أسبقية رأى مرجليوث لرأى دائرة المعارف لوافقناه فى حكمه ٠ أما اذا كان رأى دائرة المعارف سابقا لرأى مرجليوث ، فمن الممكن أن نعد رأيه جديدا ، قد نوافقه عليه اذا كان معززا بأدلة جديدة أولا نوافقه اذا كان يفتقر الى الأدلة الجديدة : وبغض النظر عن أى الرأيين أسبق ، وعمن كشف « وهم » الثانى ، فان ما يهمنا هو الطريقة العقلية التى اتبعها طه حسين فى اثبات آرائه ، دون الاعتماد على الدليل التاريخى ٠ واتبع الطريقة نفسها فى مقالته الخامسة حول فلسفة المعرى وأصولها : « نريد بهذه الأصول القاعدة التى اتخذها أبو العلاء طريقا الى بحثه عن الأشياء لا يتجاوزها ولا يتعداها ٠ ونحن نعلم أن اليونانيين والمسلمين من بعدهم، يختلفون أشد الاختلاف فى أصول العلم ٠ فأما اليونانيون ، فمنهم من يرى أن العقل هو المقياس للعلم ، فما رآه حقا فهو حق ٠ وما رآه باطلا فهو باطل (٠٠٠) وهناك طائفة أفلاطونية (٠٠٠) ترى أن العقل يستمد علمه بالأشياء ، من مصدر آخر غير الحس : هو الاشراق الذى شرحناه عند الكلام على التصوف ٠ فأما السوفسطائية ، فقد أنكروا الحقائق حين لم يستطيعوا أن يجزموا بصحة ما ينتهى اليه العقل من نتائج البحث (٠٠)

---

(٤) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٥٦١

أما عامة الفلاسفة والمتكلمين من المسلمين فيثبتون الحقائق، ولكن المتكلمين يضيفون الى المصادر التى يستقى العقل منها علمه مصدرا آخر هو الشرع الذى يأتى به النبى المرسل من عند الله » (٥) ·

وبعد استعراض موقع المعرى من هذه الأصول الفلسفية ، وأوجه الاتفاق معها وأوجه الاختلاف ، استنتج أنه يونانى النزعة فى فلسفته الطبيعية والرياضية (٦)، اسلامى أحيانا ويونانى أحيانا أخرى فى فلسفته الالهية (٧) · متعدد الأصول فى فلسفته العملية من هندية الى يونانية الى اسلامية وغيرها · وعلة هذا التعدد فى فلسفته ، تلك الحالة الفكرية التى كانت تسم عصره من جهة ، وحالته وظروفه الشخصية من جهة أخرى ، ولذلك استنتج طه حسين أن : « المسلمين لم يعهدوا بينهم فى قديمهم وحديثهم فيلسوفا مثله ، قد جمع بين الفلسفة العلمية والعملية ، ثم بينهما وبين العلم واللغة » (٨) ·

نقب طه حسين فى بحثه عن أصول كل ما يتعلق بالمعرى ، وأثر ذلك فى نتاجه ثم مكانته بين معاصريه ، انطلاقا من أن الظاهرة التاريخية نتيجة لعوامل ، ثم سبب أو عوامل لنتائج أخرى بعد ذلك · لم يسلم فى بحثه هذا بروايات القدماء أو المحدثين حول ما عرض له من معلومات وآراء ، بل بحث وحلل وناقش كل خبر أو رأى مناقشة عقلية منطقية مستخلصا النتائج المنطقية ليعدها بعد ذلك حقائق تاريخية ، الأمر الذى قد يجانب الحقيقة التاريخية أحيانا · والأرجح أن ذلك يعود : الى أنه لم يكن يحسن آنذاك استغلال المراجع ، على اعتبار أن نظام العمل البيليوجرافى ، والتهميش لم يكن أمرا مألوفا ماديا وعمليا فى الجامعة عموما لبداءة وسائل البحث البيليوجرافى وفقر المكتبة · أو الى أنه كان يحسن ذلك نظريا ، الا أن ظروفه الخاصة لم تكن تمكنه من تطبيق ذلك، فقد كان يعتمد فى التحصيل على السماع ، بينما يحتاج العمل البيليوجرافى الى البصر ، الأمر الذى كان يصعب عليه · وقد يكون السببان مجتمعين معا · ومع ذلك ، فقد حاول تطبيق المنهج التاريخى الحديث حسب فهمه آنذاك ، وحسب قدراته العقلية والمادية ، فاستنتج أن المعرى ظاهرة تاريخية ساهمت ظروفه الخاصة والحياة الثقافية فى عصره وما قبل ذلك فى نشأته الأدبية والفلسفية ، فجاء شعره متميزا عن شعر معاصريه لتنوع مصادره ، كما جاءت فلسفته متعددة الرؤى لتعدد أصولها وبذلك

---

(٥) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٥٨٥ ــ ٥٨٦ ·

(٦) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٦٠٠ ·

(٧) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٢٦٦ ·

(٨) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٦٢٣ ·

عده النموذج على تفاعل الثقافات العربية الاسلامية مع اليونانية والهندية والمسيحية واليهودية · ولولا انطلاق طه حسين من مبدأ اجتماعية الأدب ، واعتماده على علوم ساعدته فى كشف مختلف جوانب عقلية المعرى وابداعه بالرجوع الى مصادر ومراجع ومناقشة آرائها وأخبارها مناقشة منطقية ، لما فهم الكثير من جوانب ابداع المعرى الشعرى وفكره الفلسفى ، رغم ما فى أحكامه ونتائجه من افتقار الى الدليل التاريخى الثابت أحيانا ، لأسباب سبق تبيانها · وعموما يمكننا القول ان هذا البحث الذى كتبه سنة ١٩١٤ م ، كان المحاولة الأولى فى تكسير تقاليد البحث والتأليف المتعارف عليها ، ومن ثم كان له الفضل الأول فى ريادة تطبيق المنهج التاريخى بغض النظر عن النتائج المتوصل اليها ورأينا الحالى فيها ·

٢ ـ تطبيق المنهج التاريخى فى كتاب « فى الشعر الجاهلى » :

درس طه حسين الشعر الجاهلى دراسة تاريخية ، فرفض آراء القدماء القائلة بوجود شعر جاهلى بلغنا بوساطة الرواية والرواة ، وتساءل : أثمة فعلا شعر جاهلى ؟ وما السبيل الى معرفته ؟ وما مقداره ؟ وبم يمتاز عن غيره ؟ وأسئلة أخرى من هذا القبيل ·

لم يدون الجاهليون أشعارهم ، لأن حياتهم بدوية أساسها الحل والترحال ، فلا مجال للثبات ولا لوجود أى تراكم حضارى · ولا وجود كذلك لتواريخ قديمة ثابتة تحدثنا عن أشعارهم وثقافتهم ، شأن تواريخ اليونان والرومان فى هذا المضمار · ولا وجود لشعرائهم فى تواريخ الأمم والامارات المتاخمة والمعاصرة لهم · ومن ثم ، لا وجود لأى دليل مادى يثبت جاهلية ما سمى شعرا جاهليا ، فكبر بالتالى شك طه حسين فى الشعر الجاهلى وما كان لهذا الشك أن يزول الا بالدراسة الموضوعية لهذا الشعر ، بغض النظر عن نتائجها · يرى المنهج التاريخى أن الأدب تعبير عن المجتمع ، فثلاثة أرباع الأثر الأدبى ، موروث اجتماعى ، والربع الأخير ابداع شخصى · وضمن الموروث الاجتماعى يظهر المجتمع بماضيه وحاضره ، بابداعه وثقافته ، فأين يظهر ذلك فى الشعر الجاهلى ؟ لقد بحث طه حسين فى الشعر الجاهلى عن مظاهر الحياة الجاهلية ، فلم يجد شيئا ذا بال عن الأوثان وبقية المظاهر الدينية للحياة العربية الجاهلية ، ولا عن العبيد ومظاهر العبودية التى كانت من الأسس الهامة فى المجتمع الجاهلى ، ولا عن صلة العرب بجيرانهم من فرس وروم وأحباش ، ولا عن وأد البنات وما تبع ذلك من صراعات نفسية بين العادات والتقاليد الاجتماعية والاحساسات الأبوية نحو هذا الفعل ، ولا عن الغارات التى كان يشنها بعضهم على بعض · بحث عن كل هذا فى الشعر الجاهلى ، فوجده خلوا ، فارغا من أى تصوير للحياة الجاهلية عكس القرآن الكريم الذى صور

صور تصويرا دقيقا مختلف مظاهر الحياة الجاهلية فأنكر على العرب عبادتهم الأوثان وجادلهم في ذلك مبينا سخف عبادتهم تلك ، وتحدث كثيرا عن العبيد والرق حاثا المسلمين على عتق الرقاب ، وتحدث عن الفرس والروم وصراعهما وعن الأحباش وعن وأد البنات والاعارة على بعضهم البعض · كما تحدث عن تجارتهم والرحلة شتاء وصيفا ، الى غير ذلك من مظاهر الحياة العربية الجاهلية التى تحدث عنها القرآن الكريم : فاستنتج من ذلك أن الشعر الجاهلى ليس من الجاهلية فى شىء ، فلا دليل تاريخى يدل على وجوده ، ولا دليل أدبى يستخلص منه لتبيان أصله الجاهلى ، وأن القرآن الكريم أصدق تعبيرا عن الحياة الجاهلية من الشعر الجاهلى (٩) · انه لاستنتاج منطقى ، لأن الشعر الجاهلى خلو من الحياة الدينية والعقلية والاجتماعية للعرب فى جاهليتهم · ولكن لا ينبغى للباحث المدقق التسليم بالنتائج الأولية على أنها الحقيقة الكاملة ، وهذا ما جعل طه حسين يبحث فى لغة ذلك « الشعر الجاهلى » ، علّه يجد ذلك التنوع اللغوى الذى عرفه العرب بين قحطانية عاربة تنزل اليمن وتتكلم الحميرية ، وعدنانية مستعربة تنزل الحجاز وتتكلم لغة عربية غير الحميرية ، أضف الى ذلك تلك اللهجات العديدة تعدد القبائل شمالا وجنوبا ، الا أنه لم يجد شيئا من ذلك التنوع اللغوى فى الشعر الجاهلى ، وانما وجد شعرا موحد اللغة هى لغة قريش التى نزل بها القرآن الكريم ، فعمت العرب جميعا (١٠) · لا أثر لأى دليل مادى على وجود الشعر الجاهلى ، ولا وجود لمظاهر المجتمع الجاهلى فى هذا الشعر ، كما أن بناءه اللغوى لا يظهر أى جانب من جوانب تلك الحياة اللغوية المتعددة التى عرفها العرب قبل أن يوحد القرآن ألسنتهم ، ومن ثم تحول شك طه حسين فى وجود الشعر الجاهلى الى يقين ، يتمثل فى : « أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية فى شىء ، وانما هى منتحلة مختلقة بعد ظهور الاسلام ، فهى اسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين · (·····) وأنا أزعم مع هذا كله أن العصر الجاهلى القريب من الاسلام لم يضع ، وأنا نستطيع أن نتصوره واضحا قويا صحيحا · ولكن بشرط ألا نعتمد على الشعر ، بل القرآن من ناحية ، والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى » (١١) · وهكذا راح يبحث وينقب عن أسباب انتحال المسلمين للشعر الجاهلى من صراع قبلى أساسه البحث عن المجد والعراقة ، الى صراع دينى بين اليهودية والمسيحية والاسلام ، الى نزعة شعوبية عندما عير الأعاجم العرب بماضيهم البدوى الجلف ، الى صراعات

---

(٩) طه حسين : فى الشعر الجاهلى ، ص ١٥ ــ ٢٣ ·

(١٠) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٢٤ ــ ٤١ ·

(١١) طه حسين : المرجع السابق : ص ٦ ــ ٧ ·

سياسية بدءا بالصراع بين المسلمين والمشركين، فالصراع بين مكة والمدينة، الى الصراع السياسى العام حول السلطة منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام • وكانت أسباب انتحال العرب للشعر الجاهلى وجيهة ومنطقية تؤيد شكه ، وتثبته منطقيا (١٢) • ولا عجب فى ذلك ، فلقد عرفت أمم كثيرة الظـاهرة نفسها فى آدابها القديمة عندما تحضرت ، وانتقلت من بداوتها •

أوصلت المنطلقات المنهجية التـاريخية طه حسين الى اسـتنتاج أن ما يسمى شعرا جاهليا ليس من الجاهلية فى شىء ، وأن الحياة الجاهلية تظهر فى القرآن والتـاريخ والأسـاطير • انها نتيجة منهجية ومنطقية ، الا أنها ليست جديدة ، فقد شك قبله الدكتور أحمد ضيف (١٣) فى صحة الشعر الجاهلى ، اعتمادا على آراء المستشرقين الألمان ، والمستشرق الفرنسى « رينيه باسى » بصفة خاصة (١٤) ، وكان قد شك قبلهم جميعا ابن سلام الجمحى : « فلما راجعت العرب الشعر ، وذكر أيامها مآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وماذهب من ذكر وقائعهم • وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسنة شعرائهم • ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا فى الاشعار التى قيلت » (١٥) • ومع ذلك ، فان الزوبعة التى أثارتها نتائج بحثه لم يعرف لها مثيل فى الأبحاث الأدبية عند العرب ، فالى ماذا يعزى ذلك ؟

أثار كتاب « فى الشعر الجاهلى » ضجة كبيرة ، قد يتصور البعض أن تطبيق المنهج التاريخى كان سببا فى ذلك ، حيث أوصل الباحث الى ما وصل اليه من نتائج ، ولكن المنهج برىء من كل ذلك ، لأن تحليـلا موجزا لتلك الضجة وأسبابها يوضح ماذهبنا اليه •

لقد أثار هذا الكتاب فئـات معينة من المثقفين المصريين أولها فئة « المشايخ » الأزهريين والقضاة ورجال الدين ، الذين وجدوا فى الكتاب آراء وجملا كثيرة توحى بمواقف خطيرة على الاسلام مثل قوله « للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل • وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخى ، فضلا عن اثبـات هذه القصة التى تحدثنـا بهجرة اسماعيل

---

(١٢) طه حسين ، السابق ، ص ٤٢ ــ ١٢٤ •

(١٣) د• ضيف (احمد) : مقدمة لدراسة بلاغة العرب •

(١٤) Basset (R.) : *La poésie arabe Ante-islamique*. Erre t leroux editeur Paris. 1880, p.p. 53-68.

(١٥) الجمحى (ابن سلام) : طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، السفر الاول ، مطبعة المدنى ، القاهرة ، د•ت• ص ٤٦ •

ابن ابراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها · ونحن مضطرون الى أن نرى فى هذه القصة نوعاً من الحيلة فى اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة،وبين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى » (١٦) ·

لقد وضع القرآن والتوراة فى منزلة واحدة من حيث الصدق التاريخى، انطلاقا من موقف منهجى واضح يتمثل فى أن ورود الاسمين فى الكتابين المقدسين ليس دليلا تاريخيا على وجودهما وجودا تاريخيا بالصورة التى يتصوران بها ، اذ قد يكونان مجرد رمزين ، أو مجرد مثال لتقريب فكرة معينة · وهذا الشك لا ينفى وجودهما تاريخيا ، ولكنه يشكك فى اثبات ذلك الوجود التاريخى ، انطلاقا من هذا الموقف وحده ·

ان المنطلق المنهجى سليم ، ولكن طه حسين لم يوضح ذلك، بل صاغ فكرته بأسلوب يوحى بتشابه الكتابين المقدسين فى صحة ما ورد فيهما من أخبار تاريخية · ونظرا لما عرف عن اليهود من تغيير وتحريف فى التوراة ، فان وضع القرآن موضع التوراة يعنى بالضرورة تماثلهما فى التحريف ، وهذا سبب من أسباب الثورة على طه حسين وكتابه ·

ومن الآراء التى أثارت حفيظة رجال الدين أيضا قوله : « وشاعت فى العرب أثناء ظهور الاسلام وبعده فكرة أن الاسلام يجدد دين ابراهيم · ومن هنا ، أخذوا يعتقدون أن دين ابراهيم هذا قد كان دين العرب فى عصر من العصور ثم أعرضت عنه لما أضلها به المضلون وانصرفت الى عبادة الأوثان (···) وتفسير هذا من الوجهة العلمية يسير أيضا ، فأحاديث هؤلاء الناس قد وضعت لهم وحملت عليهم حملا بعد الاسلام ، لا لشىء الا ليثبت أن للاسلام فى بلاد العرب قدمة وسابقة » (١٧) ·

لقد شك فى هذه المسألة ، لأنها صعبة التقبل منطقيا ، ولا يوجد أى دليل مادى أو تاريخى يثبتها ، ومن ثم يخلص الى أن أصل الاسلام لا يبحث عنه فى دين ابراهيم الذى لا يوجد له أى أثر وانما يبحث فى اليهودية والنصرانية ، الديانتين السابقتين للاسلام ، والمتضمنتين الكثير مما ورد فى القرآن ، فيثير بذلك « المشايخ » لأنه يكتب عن هذه الديانات الثلاث بأسلوب يوحى تشابهها وتماثلها ، دون أن يفصح بأنه يقصد اشتراكها فى المصدر أو المضمون العام ، الأمر الذى لن يخالفه فيه أحد ·

أثار رجال الدين لأن أسلوبه يوحى بتكذيبه القرآن فى أخباره عن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، ولانكار أن تكون القراءات السبع منزلة من الله تعالى ، وطعنه فى نسب الرسول صلى الله عليه وسلم ،

---

(١٦) طه حسين : فى الشعر الجاهلى ، ص ٢٦ ·
(١٧) طه حسين : المرجع السابق ، ص ٨١ ·

وانكاره أولية الاسلام فى بلاد العرب ، وانه كان دين ابراهيم عليه السلام (١٨) ثار جدل رجال الدين بسبب اشاراته الدينية أو التى لها علاقة بالدين ، ولا نكاد نجد لهم احتفاء بالنتائج الأدبية الصرفة ٠

كما أثار فئة معلمى الأدب بمدارس الحكومة مثل مدرسة دار العلوم، ومدرسة المعلمين ، الذين رأى فى دروسهم تكرارا لآراء القدماء شأنهم فى ذلك شأن الفقهاء : « هم لم يغيروا فى الأدب شيئا ٠ وما كان لهم أن يغيروا فيه شيئا وقد أخذوا أنفسهم ٠ بالاطمئنان الى ما قال القدماء وأغلقوا على أنفسهم فى الأدب باب الاجتهاد كما أغلقه الفقهاء فى الفقه والمتكلمون فى الكلام » (١٩) ٠

ولا يرجع رأى معلمى الأدب فى طه حسين وكتابه الى نتائجه الأدبية بالدرجة الأولى وانما مرده اعتقادهم أن تهجمه عليهم يعود الى ذلك الصراع القائم بين الجامعة رمز التجديد والدعوة الى الفكر الليبرالى البرجوازى ، وبين المؤسسات العريقة مثل الأزهر ودار العلوم ، ولذلك : « أراد أن يحط ما استطاع من قدر الفئة التى يناصبها العداوة ليخيل الى الناس أن الناس لا يفقدون شيئا بالغاء تلك المعاهد التى يطالب بالغائها ويربحون كثيرا باحلال الآداب فى الجامعة الحديثة محلها ٠ » (٢٠) ٠ انه لصراع واضح بين مؤسسات تعليمية وثقافية تمثل طبقات مختلفة ، أى صراع طبقى ، كان طه حسين أداة نشطة فيه ، خاصة وأنه كان يعرف خبايا كل طبقة وأسرارها ، ومر عليها ، ومن ثم فان هجوماته كانت هجومات العارف بخبايا الأمور ، المدرك لمواطن الضعف عند كل طبقة ٠ كما أثار فئات سياسية ، أوصلت المعركة الى البرلمان والمحكمة ، مستغلة فى ذلك ثورة باقى الفئات الثقافية ، لأجل كسر شوكته ، وبالتالى كسر شوكة حزب الدستوريين الأحرار (٢١) ، الذى جعل منه وسيلة لنشر أفكاره وآرائه الوطنية والليبرالية ، اقتداء بالأمم التى تعرف حياة دستورية حقيقية ٠

وهكذا نلاحظ أن الضجة التى أثارها كتاب « فى الشعر الجاهلى » ترجع الى أسباب متعددة ومتنوعة ، أولها وأهمها أسباب غير أدبية وغير

---

(١٨) سامح كريم : **ماذا يبقى من طه حسين** ، دار القلم ، بيروت ، ب ٠ ت ص ٦٧ ٠

(١٩) طه حسين **فى الشعر الجاهلى** ، ص ٤ ــ ٥ ٠

(٢٠) الغمراوى (محمد أحمد) : النقد التحليلى لكتاب « **فى الأدب الجاهلى** » دار الحكمة ١٩٧٠ ، ص ٢٠ ــ ٢١ ٠

(٢١) سامح كريم : **ماذا يبقى من طه حسين** ، ص ٦٧ ، ٦٨ ٠

منهجية ، وانما هى أسباب دينية وسياسية ونفعية اشترك فيها طرفا الخصام بحظ متماثل من المسؤولية ٠

كانت ثورة مختلف الفئات على الكتاب وصاحبه ترجع فى جملتها الى الصراع الثقافى الذى عرفته مصر فى العقدين الثانى والثالث من هذا القرن بين الطبقة الحاكمة ، التى كانت تسعى الى اضفاء الصبغة الدينية على النظام، من منطلق شرعية نظام الخلافة ، وبين الطبقة البرجوازية ، التى كانت تهدف الى تغيير نظام الحكم الى نظام مدنى ليبرالى متحرر اقتصاديا وفكريا، اقتداء بالأنظمة الأوروبية الحديثة ، وبين طبقة عامة الشعب التى كانت تحاول الافلات من القيود الاقتصادية والسياسية والفكرية التى كانت تكبلها ٠

وتكمن مسؤولية طه حسين فى اثارته الفئات المختلفة ، فى أسلوبه الايحائى الذى لم يعتمد الدقة الدلالية فى الأفكار والمعانى ٠ اذ نراه من حيث الأفكار يورد أفكارا مثل قصة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، تطرح قضايا منهجية ، الا أنه لا يوضح منطلقه المنهجى فى ايراده تلك الأفكار ، الأمر الذى يجعل القارىء يستنتج معانى قد تكون مناقضة للحقيقة ٠

وبديهى أنه كان مدركا الادراك كله لطريقته هذه ، ولنتائج عمله هذا ، فقد صرح بذلك فى مقدمة البحث ٠ لقد كان يهدف الى اثارة القراء ، وخلخلة الواقع الثقافى الراكد ، والفات الأنظار اليه ٠ واستطاع أن يحقق تلك الأهداف : « لقد أراده مجالا لتفجير آراء تبلغه هذه الشهرة المدوية ، ولم يكن يعنيه كثيرا صواب تلك الآراء بذواتها ، بقدر ما كان يعنيه هز المشاعر والعقول هزا عنيفا ، واثارة الجدل والنقاش حول الكتاب وما فيه وتحريك الركود الذى كان غالبا على الحياة العقلية فى تناولها أدبنا القديم » (٢٢) ٠

لقد حقق بكتابه هذا الأهداف المتوخاة منه ، فأثار زوبعة نقدية أتاحت له شهرة واسعة ، رغم أنه لم يلتزم فيه كثيرا بأسس المنهج التاريخى ودقته العلمية (٢٣) ٠ ذلك المنهج أو القياس « الأدبى » الذى فضله على بقية المناهج ودعا الطلاب والباحثين الى تطبيقه فى دراستهم للأدب العربى القديم ، الا أنه لم يلتزم بتطبيقه الالتزام التام للأسباب السابقة الذكر ، وربما لأسباب شخصية ، حيث نراه لا يراعى كثيرا الدقة

---

(٢٢) د٠ الأسد (ناصر الدين) : ذكرى طه حسين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ ٠

(٢٣) د٠ فيصل (شكرى) : ذكرى طه حسين ، ص ٣٣٧ ـ ٣٤٠ ٠

العلمية في ذكر آراء وأفكار غيره من الباحثين العرب والمستشرقين ·
فلا يذكر الصفحة التي اقتبس منها الفكرة ولا الكتاب ، مكتفيا باسم « المؤلف » ، وربما لا يذكر حتى اسم المؤلف مكتفيا بمثل قوله : « أجمع القدماء » ! أو « يرى المستشرقون » ! تاركا القارىء في حيرة من أمره فهو لا يعرف من ينضوى تحت « القدماء » وهل تقصى طه حسين آراء كل القدماء ؟ أو أنه يقصد القدماء الذين اطلع على آرائهم الى غير ذلك من التساؤلات التي سيطرحها على نفسه من جراء مثل هذه الأحكام التي تحتاج الى دقة منهجية · تلك الدقة المنهجية التي درسها عند « سينيوبوس » في التاريخ و « كروازى » و « لانسون » في دراسة الأدب · وتفسير ذلك أن ظروفه الشخصية لم تكن تساعده على استعمال بطاقات وترتيبها واستغلالها خلال عملية التحرير ، فكان يتحتم عليه الاعتماد على ذاكرته دون الاستعانة بالبصر ، فيخزن المعلومات ، حتى اذا اكتملت في ذهنه الفكرة أو القضية راح يملي أجزاءها ناسيا عناصرها الأساسية الى أصحابها، ذاكرا أسماءهم أو الفئة التي ينتمون اليها ، دون تدقيق في المصادر والمراجع لأن ذلك عمل شاق على كفيف من جهة ولأن ظروف البحث المادية في تلك المرحلة الزمانية كانت لا تزال في مراحلها الأولى ، فالمكتبات قليلة، والكثير من كتب التراث الأدبي العربي كان غير محقق وغير منشور· ومن ثم كان من الصعب على الباحث العربي وقتذاك أن يطبق عمليا المنهج التاريخي تطبيقا دقيقا ، فكانت الدعوة الى المنهج خطوة كبيرة وتطبيق بعض أسسه النظرية شيئا جديدا قد يثير زوابع كما حدث مع طه حسين وكتابه في الشعر الجاهلي الذى نستطيع عده ثورة منهجية في ساحة الدرس الأدبي الحديث عند العرب ، بطريقته في الطرح ، وليس بما أورد من معلومات منهجية ·

٣ ـ تطبيق المنهج التاريخي في كتاب « في الأدب الجاهلي » :

رأينا في الصفحات السابقة أن منهج البحث الأدبي الجديد الذى اقتنع به « طه حسين » وحث طلابه وقراءه على تطبيقه في دراسة الأدب العربي هو المنهج التاريخي اللانسوني ، كما رأينا أنه لم يلتزم التزاما دقيقا بهذا المنهج في كتابه « في الشعر الجاهلي » لأسباب عديدة ، أهمها أنه لم يكن يسعى الى تأليف كتاب علمي دقيق ، بقدر ما كان يسعى الى اثارة القراء والمثقفين وهز الأوضاع الأدبية · واننا لنراه في الطبعة الثانية للكتاب تحت عنوان « في الأدب الجاهلي » يوضح منهجه أكثر نظريا ، فيشرح كل أسسه وخطواته العملية ليبرز في صورة مشابهة ، لحد المطابقة أحيانا ، مع المنهج التاريخي اللانسوني · ويلح على ضرورة تطبيقه في دراسة الأدب العربي وتدريسه ، الا أنه لا يبدأ بتقديم نموذج تطبيقي

لهذا المنهج المقترح في تاريخه للأدب الجاهلي تطبيق أستاذه « لانسون » لهذا المنهج فى تاريخه للأدب الفرنسى (٢٤) ٠

والسؤال الذى يطرح نفسه بالحاح : لماذا لم يطبق المنهج التاريخى الذى اقتنع به ودعا له ، فى الطبعة الثانية للكتاب ، بعدها حقق الشهرة ، ولفت كل الأنظار اليه ، وشغل كرسى الأدب العربى ؟ ولماذا لانراه يحرص على تطبيقه فى مؤلفاته الأدبية اللاحقة ؟ يبدو أنه اقتنع بالمنهج التاريخى عندما رأى النتائج العلمية التى وصل اليها بفضله البحث الأدبى الفرنسى ، فأحب أن يقتدى العرب بالفرنسيين فى دراسة أدبهم ٠ ومن ثم ، دعا الى تطبيق المنهج التاريخى ، ولم يطبقه فى أبحاثه ، رغم اقتناعه به ، لأسباب ذكر بعضها ، ولم يذكر بعضها الآخر ٠

أما الأسباب التى ذكرها ، فتتلخص فى أن أوان التاريخ للأدب العربى تاريخا علميا دقيقا لم يحن بعد : « من هنا نستطيع أن نقول ان الوقت لم يأن بعد لوضع تاريخ أدبى صحيح يتناول آدابنا العربية بالبحث العلمى والفنى ، ذلك لأن هذه الجهود المتفرقة لم تبذل بعد ، ولأن هذه العلوم المختلفة لم تعرف وجهها العلمى الصحيح عندنا بعد ٠ وكيف تريد أن تضع تاريخ الأدب العربى وأنت لم تستكشف ولم تحقق ولم تفسر كثرة النصوص العربية القديمة فى الجاهلية والاسلام ! وكيف تريد أن تضع تاريخ الأدب العربى ولم يدون للغة فقهها على نحو ما دون فقه اللغات الحديثة والقديمة نحوها وصرفها ٠ ولم يعن الباحثون بوضع المعاجم التاريخية التى تبين لك ــ معتمدة على النصوص الصحيحة ــ تطور الكلمات فى دلالتها على المعانى المختلفة : فتمكنك بذلك من أن تفهم النصوص الأدبية على وجهها وكما أراد أصحابها » (٢٥) ٠

انه لسبب منطقى فبدون الوسائل والعلوم السالفة الذكر يصعب على الباحث فهم النصوص الأدبية فهما صحيحا ، ووضعها الخليق بها ضمن عصرها أولا ، وضمن جنسها ثانيا ، وضمن حركة التطور الأدبى وعصوره ثالثا ، خاصة وأن التراث العربى كان وقتذاك فى المراحل الأولى من تحقيقه ونشره ٠ كما أن علوم اللغة العربية والتاريخ كانت ــ آنذاك ــ لا تزال هى الأخرى فى مرحلة الاقتباس والتأثر ٠ ومن ثم ، لم يكن من السهل على الباحث فى ذلك الزمن أن يطبق المنهج التاريخى فى دراسته للأدب تطبيقا منهجيا دقيقا ٠

---

(٢٤) ينظر فى ذلك كتاب « لانسون » : **تاريخ الأدب الفرنسى** بالفرنسية أو مترجما الى العربية ، حيث ترجمه فى جزأين سنة ١٩٦٢م الدكتور محمود قاسم وراجعته الدكتورة سهير القلماوى ونشرته المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر بالقاهرة ٠

(٢٥) طه حسين **فى الأدب الجاهلى** ، ص ١٥ ــ ٢٥ ٠

أما الأسباب التي لم يذكرها ، فتتلخص في ظروفه العامة والخاصة. كان من حيث ظروفه العامة ، كان أديب التيار الليبرالي المتحرر ، وكان هم هذا التيار الأول والأساسي التخلص من جمود التقليديين بالتشكيك في المسلمات التي تحد المجتمع وفكره من الانطلاق . وهذا ما عمله في دراسته للشعر أو الأدب الجاهلي ، اذ لم يكن هدفه الأساسي تطبيق المنهج ، بقدر ما كان الدعوة اليه والاقناع به ، وحث الناس على العمل به ، ليضمن بذلك تخلص فئة من المثقفين من عقلية التسليم بالمتعارف عليه . وهذا هو الأهم عنده ، وعند التيار الفكري الذي كان ينتمي اليه .

أما ظروفه الخاصة ، فتتمثل في شخصيته الأدبية المتعددة الجوانب ، فهو لم يكن عالما أو بحاثة مدققا شأن أساتذته كروازي ولانسون ، وانما كان باحثا وشاعرا وقصاصا ومترجما ومؤرخا وسياسيا ، أي كان من تلك الفئة من الأعلام الموسوعيين الذين يصعب على الواحد منهم التقيد بقيود شخصية معينة لتعدد اهتماماته .

وتتمثل ظروفه الشخصية كذلك في وضعه الصحي ، فقد كان كفيفا لا يستطيع الاعتماد على بصره بينما تحتاج خطوات المنهج العملية الى البصر والتدقيق البصري ، ومن الصعب استبدال البصر بالسمع في معاينة ورق مخطوط مثلا ، أو خطه ، أو حالة نسخه المختلفة ، ولذلك أشرف على تحقيق الكثير من النصوص التراثية لعمله بفنيات التحقيق ، ولكنه لم يحقق بمفرده أي أثر وهذا نظرا لظروفه الصحية من دون شك .

خلاصة القول ان طه حسين عرف المنهج التاريخي نظرية وتطبيقا من أصوله الأساسية ، فأعجب به وبنتائجه العلمية في الآداب الأوروبية ، فدعا الى تطبيقه في دراسة الأدب العربي والتأريخ له تحت اسم « المنهج الأدبي » في مقدمة كتابه في « الأدب الجاهلي » . وطبقه الى حد ما في كتابه « في الشعر الجاهلي » عندما بنى كتابه كله على فكرة « صدور الأدب عن المجتمع ، ثم تصويره له » فبحث في الشعر الجاهلي عن مظاهر المجتمع الجاهلي من لغة ودين وعادات وتقاليد ، فلم يجد لذلك أثرا فاستنتج أن الشعر الجاهلي لا يصدر الحياة الجاهلية ، ومن ثم لم يصدر عنها ، لأنه موضوع ، بعد فترة من تغير الحياة الجاهلية . وبحث في أسباب الوضع أو انتحال الشعر الجاهلي بحثا تاريخيا أساسه التفكير المنطقي ، وليس الأدلة التاريخية المادية الثابتة لأنها غير موجودة أصلا ومن المنطلق نفسه بحث عن مظاهر الحياة العربية الجاهلية ووجدها في القرآن الكريم والحديث وكتب التاريخ والأساطير ، فاستنتج أن القرآن الكريم أكثر تصويرا للحياة الجاهلية من الشعر الجاهلي ، الأمر الذي جعل الكثير من القراء والمثقفين يفهمون كلامه من حيث ايحاءاته الدينية مهملين الايحاءات

الأدبية ومنطلقاتها المنهجية · فكانت تلك الزوبعة الأدبية التى حركت الحياة النقدية العربية وبوأت طه حسين مكانة مرموقة فى الساحة الأدبية·

وعموما ، نستطيع القول ان طه حسين استوعب جيدا المنهج التاريخى وعرضه على طلابه بوضوح تام ، الا أنه لم يطبقه فى دراساته تطبيقا دقيقا، لعدة أسباب منها الموضوعية ومنها الذاتية · ورغم ذلك يبقى من أكبر دعاة اللانسونية فى دراسة الأدب العربى ·

الباب الرابع

محمد مندور واللانسونية

الفصل الأول

محمد مندور

وصلته باللانسونية

١ ـ حيـــاته :

ولد محمد مندور فى الخامس من يوليو سنة ١٩٠٧ م فى كفر مندور بالقرب من منيا القمح بالشرقية فى أسرة كبيرة تتكون من تسـعة أعمـــام ووالده وعمـــة واحدة ، تقاسـموا تركة جـده المتمثلة فى اربعمائة وخمسين فدانا مؤسسـين بذلك كفر مندور (١) ، كان والده على شىء من التعلم ، فقد كان يقرأ بسـهولة ، ولكنـه كان لا يستطيع الكتابة · وكان شـديد التدين ينتمى لمذهب « النقشبندية » الصـوفى ، فكان يخلو بنفسه من حين لآخر فى حجـرة صغيرة أقامهـا فى حقله للذكر · وكانت تصرفات والده مثار اعجابه ، حيث كان رجلا متسامحا يبغض العنف والشر على خـلاف ما اشتهرت به أسرة مندور كلها من ضراوة وعنف وقوة شكيمة ·

(١) اعتمدت فى الترجمة لمندور على حديثـه مع فؤاد دوارة الذى نشر فى مجـلة « **المجلة** » المصرية ، عدد ديسمبر ١٩٦٤ وفبراير ١٩٦٥ م بعنوان « **شيخ النقاد يتحدث** » ، ثم نشرة ثانية ضمن كتابه « **عشرة ادباء يتحدثون** » ، كتاب الهلال ، رقم ١٧٢ ، القاهرة ١٩٦٥ ·

ـ رياض (هنرى) : **محمد مندور رائد الأدب الاشتراكى** ، دار الثقافة ، بيروت · مكتبة النهضة السودانية ، ١٩٦٥ ·

ـ د· برادة (محمد) : **محمد مندور وتنظير النقد العربى** ، دار الآداب ، بيروت ١٩٧٩ ·

ـ د· شكرى (غالى) : **محمد مندور : الناقد والمنهج** ، دار الطليعة ، ط ١ ، بيروت ١٩٨١ ·

أرسله والده فى حوالى الخامسة من العمر الى كتاب « الشيخ عطوة » المتكون من حجرة واحدة بنتها أسرة مندور فى أرض الوقف ، فتعلم على يديه القراءة والكتابة والحساب وجزء عم وجزء تبارك بالطريقة التقليدية ٠

التحق بعد الكتاب بمدرسة الألفى الابتدائية بمنيا القمح ، وكانت تبعد عن الكفر بحوالى ستة كيلومترات ، عرف فيها مضايقات الطريق وقسوة المدير فكبت الخوف ملكاته ولم يلمع ــ على حد قوله ــ خلال هذه المرحلة أبدا ٠ وهكذا نجح سنة ١٩٢١ م فى امتحان الشهادة الابتدائية نجاحا عاديا ، والتحق بالقسم الداخلى لمدرسة طنطا الثانوية لعدم وجود مدرسة ثانوية بالزقازيق عاصمة المديرية ٠

عرف فى المدرسة الثانوية الأمن والنظام ونظافة الحياة ، فبدأت مواهبه تتفتح حتى صار الأول على قسمه ، ثم على السنة كلها لينجح فى البكالوريا آداب سنة ١٩٢٥ م بترتيب الثانى عشر على القطر كله ، وكان لهذه النتائج أثر كبير حيث اعتقد أهله أنه موهوب وأن المجد ينتظره ، فصدق ذلك ، وامتلأت نفسه ثقة فبذل الكثير من الجهد للتفوق وتحقيق الحلم ٠ كما لفتت اليه هذه النتائج الجيدة أنظار بعض خيار المدرسين فى مدرسة طنطا الثانوية مثل الأستاذين السباعى بيومى ، وأحمد هاشم عطية ، اللذين كانا يدرسان له اللغة العربية وآدابها ــ وصارا فيما بعد أستاذين بكلية دار العلوم ــ فتبرعا له ولأحد زملائه المتفوقين بدروس خصوصية فى الأدب العربى ، خصصت لقراءة صفحات من أمهات الأدب العربى القديم ، مثل « الكامل » للمبرد و « الأغانى » للأصـــفهانى ، و « الأمالى » لأبى على القالى ، و « العقد الفريد » لابن عبد ربه ٠ فأحب الأدب منذ ذلك الحين ، وراح يقتنى أمهات كتب الادب العربى غائصا فى عوالمها ، ومن ثم تشبعت روحه بحب اللغة العربية وأدبهـــا ، وصارت القراءة متعته الأساسية ٠ كان من البديهى أن ينجح مندور فى امتحان البكالوريا لما اتسم به من جد واجتهاد طيلة دراسته الثانوية وصادف نجاحه فى البكالوريا سنة ١٩٢٥م تحول الجامعة الأهلية الى جامعة حكومية رسمية معترف بشهاداتها اداريا ، فالتحق بها مندور عازما على تسجيل نفسه فى كلية الحقوق بعد اجتياز السنة الأولى المشتركة بين الحقوق والآداب ٠ كان يريد الالتحاق بكلية الحقوق ليصبح وكيل نيابة مثـــل أولئك الذين كانوا يحضرون الى الكفر من حين لآخر فتهتز القرية كلها لمقدمهم ، ولكن الدكتور « طه حسين » دخل يوما على طلبة السنة الأولى ، وألقى عليهم محاضرة حول « الشعوبية وانتحال الشعر » ثم طلب منهم تلخيصها فى خمس دقائق ٠ فأعجب « طه حسين » بملخص منــــدور ، فاستدعاه لمقابلته ، واستفسره عن الكلية التى ينوى التسجيل فيها ٠ ولما علم بنية الطـالب ، حاول اقناعه بالعـدول عن الحقوق الى الآداب ٠

وأغراه بامكانية توظيفه في الجامعة ، وربما ارساله في بعثة دراسية الى فرنسا ، ولكنه لم يفلح في مسعاه لأن مندور كان يبحث عن الجاه والسلطة والمكانة الاجتماعية ، فاتفق معه أستاذه على دراسة الآداب الى جانب الحقوق ، خاصة وأن دروس الآداب صباحيـــة ، بينما الحقوق مسائية ، وتعهد بأعفائه من مصاريف كلية الآداب : كان طه حسـين معجبا بمقدرة مندور الأدبية ، فاستعمل مختلف الوسـائل والاغراءات لاجتذابه الى قسم اللغة العربية .

كمـا أعجب بالطـالب أستاذ مادة « علم الاجتماع » « فوستليه » الذى راح هو الآخر يحاول اقناعه بأفضلية علم الاجتماع ، وحداثتـه كعلم ، فتابع دروس هذا القسم أيضا جامعـــا بذلك بين التخصصات الثلاثة . وهكذا راح يتابع دروس كلية الآداب صباحا ، والحقوق مساء ، وكان ترتيبه الأول على دفعته فى اللغة العربية طيلة الدراسة ، وضمن الخمسة الأوائل فى الحقوق وعلم الاجتماع حسب تصريحه .

تجلى حب مندور للغة العربية وآدابها ــ حب اكتسبه ابان الدراسة الثانوية ــ من محافظته على الرتبة الأولى على الدفعة طيلة سنوات الدراسة الأربع ، اذ من الصعب على أى طالب المحافظة على هذه الرتبة طيلة هذه المدة اذا لم يكن شغوفا بالتخصص وعلى قدر كبير من الذكاء ، وله استعداد كبير لبـــذل الجهـد الكثير . ولولا ذكاؤه الوقاد ، وقدرته العقليـــة ، لما أستطاع الجمع بين تخصصات ثلاثة والاستفادة منها ! .

تعلم فى قسم « علم الاجتماع » معـرفة المجتمع ومشاكله وعلاقاته المختلفة . وتعلم من قسم الحقوق دقة النظر والتمحيص فى اصـــدار الأحكام والآراء ، واعطاء الكلمة معنـــاها الحقيقى والدقيق ، لأن مصير الانسان قد يتوقف على معنى غير دقيق يلحق به أشنع التهم .

أما فى قسم اللغة العربية ، فقد ازداد حبـه للغة العربية وآدابها ناظرا اليها بعقل جديد ، دقيق دقة القاضى ، وموضوعى موضوعية عالم الاجتماع . وتتلمذ فى هذا القسم على الدكتور « طه حسين » فأحب عن ايقاعه اليونان وثقافتهم الكلاسيكية . ثم الثقافة الفرنسية فى مختلف مظاهرها (٢) ، وسمع منه سنة ١٩٢٥ م محاضراته حول الشعر الجاهلى ، فتعلم منها ضرورة التعامل الموضوعى مع الظاهرة الأدبيـة ، وعدم الاخذ بآراء القـدامى الا بعـد بحثها وتمحيصها ، واعتماد الشك المنهجى فى

---

(٢) د. عوض (لويس) : الثورة والأدب الكتاب الذهبى ، منشورات روز اليوسف القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٢ .

التعامل مع الأدب القديم ، ورأى النتائج العلمية التى استنتجها أستاذه من دراسته للشعر الجاهلى دراسة منهجية حديثة (٣) ! ٠

ولا شك أن مندور ، الذى كان طالبا فى السنة الأولى ، قد تتبع الضجة التى أثارها كتاب أستاذه ؛ وقرأ مختلف الردود عليه ، حيث كان الكتاب جملة المحاضرات التى ألقيت عليه وعلى زملائه ، ثم قرأ الكتاب فى طبعته الثانية بعنوان « فى الأدب الجاهلى » سنة ١٩٢٧ م ، فعرف منه المناهج النقدية التى استعرضها طه حسين فى التمهيد ، ودرس بتمعين منهج أستاذه الذى أسماه « المقياس الأدبى » ، والذى رأينا أنه لا يعدو أن يكون شيئا سوى المنهج التاريخى كما درسه عند أساتذته : سينيوبوس وكروازى ولانسون (٤) ٠

كان مندور يتمتع بقدرات عقلية كبيرة ، اكتشفها طه حسين منذ أول لقاء ، فراح يرعى صاحبها ويتتبع خطواته العلمية ، لأنه كان يريد استقطاب العناصر الذكية الجريئة فى تقبل الأفكار الجديدة ، قصد تكوين صفوة فكرية تكون طليعة المجتمع المصرى ، لذلك وقع الاختيار على مندور للسفر الى باريس — بعد تخرجه وبناء على رتبته الأولى طيلة الدراسة — لمواصلة الدراسة بالسوربون سنة ١٩٢٩ م ، ولكنه لم يسافر فى السنة المذكورة لأن الكلية قررت استبقاء أعضاء البعثة بمصر سنة كاملة لدراسة اللغة الفرنسية قبل السفر ، فاستغل مندور الفرصة لانهاء دراسة الحقوق التى كانت تدوم آنذاك خمس سنوات الى جانب دراسته اللغة الفرنسية مع أعضاء البعثة ٠

وكادت المنحة تضيع منه بسبب ضعف بصره ، ولكن « أستاذه » خف لمساعدته ، اقتناعا منه بمقدرة تلميذه الأدبية وبتفاهة العذر الطبى ، خاصة وأنه كان خير دليل على ذلك ! فتدخل لدى وزير المعارف ، وأقنعه بأن الجامعة ستفقد عنصرا حيا لمجرد ضعف بصره ، وكأنها بحاجة الى حارس مبصر وليس لأستاذ مفكر ! فاقتنع الوزير بهذه الحجة المنطقية على ما يبدو ، وبذلك أعفى مندور من الشرط الصحى ، ولم تضع منه المنحة التى ستعرفه على كل ما سمعه من أستاذه ، وسافر الى باريس سنة ١٩٣٠ م : « للحصول على ليسانس من السوربون فى الآداب واللغات اليونانية القديمة واللاتينية والفرنسية وفقهها المقارن مع حضور محاضرات المستشرقين وتحضير دكتوراه فى الأدب العربى مع أحدهم » (٥) ٠

---

(٣) انظر الفصل الفصل الثالث من الباب الثالث ، ص ٢٢٥ — ٢٣٣ ٠

(٤) انظر الفصل الثالث من الباب الثالث ، ص ٢٣٤ — ٢٣٧ ٠

(٥) دوارة (فؤاد) · **شيخ النقاد يتحدث** ، مجلة « **المجلة** » ديسمبر ١٩٦٤ ، ص ٤٧ ٠

كانت الجامعة المصرية ترســـل طلبتها الى السوربون للتعمق فى ميدان من الميادين العلمية بمتابعتهم دروس الليسانس مــع الطلبـــة الفرنسيين ، فيكون نجاحهم فى هذه الشهادة دليلا قاطعا على اجادتهـــم اللغة الفرنسية ، واحــرازهم على مستوى جامعى حقيقى ، بالاضــــافة الى ذلك تطلب منهم اعداد دكتوراه الجامعة ـ التى تتطلب شروطا علمية ـ مع أحــد المستشرقين حتى تضمن عــودتهم بشهادة عليــا ، وبذلك تتوفر عندهم الدرجة العليا والمتانة العلمية بغية تكوين هيئــة تعليمية كفأة . ولتحقيق هذا البرنامج قضى مندور بفرنسا تسع سنوات ، كان لهـــا بالغ الأثر فى حياته : « ان هذه السنوات هى التى كونتنى عقليا وعاطفيا وانسانيا .. وباريس مدينة بالغة الخطورة ، فيهـــا الجد والصرامة ، وفيها المغريات المهلكة ، وقد أخذت من الاثنين بطرف » (٦) .

دخل مندور باريس دخول الجائع مأدبة ملوك ، فراح يعد للحصول على الليسانس ، ويحضر محاضرات المستشرقين . والتحق بمعهد الصوتيات فدرس عروض الشعر العربى دراسة صوتية تجريبية نال عليها شهادة من المعهد المذكور ، كما درس الاقتصاد والتشريع المالى بالسوربون أيضا ونال شهادة على ذلك (٧) . والى جانب دراساته المختلفة ، ولج مختلف البيئات الثقافية ، فعرف الملاهى والمسارح ، وتتبع الآثار والفنون المعمارية ، وحضر العروض الموسيقية وقرأ الكثير من الآثار الأدبية قديمة وحديثة . وعلى الرغم من كون هذه الفترة هى التى كونته عقليـــا وعاطفيا وانسانيـــا ، على حد قوله ، فانه لم يحرز خلالها ســـوى الليسانس الكلاســيكى : « وهو يتكون من أربع شهادات عليا كل منها منفصلة عن الأخرى تمام الانفصال . وذلك أن تبدأ بالتقدم لأيها شئت وفى أى ســـنة تريد بعد تمضيتك للسنة الأولى بالجامعة . وهذه الشهادات هى : شـــهادة اللغة اليونانية القــديمة وآدابها ، وشـــهادة اللغة اللاتينية وآدابها وشـــهادة اللغة الفرنسية وآدابها ، وأخيرا شهادة فقه هذه اللغات النحوى » (٨) .

خلال دراسته هذه ، تعمق فى اللغة الفرنسية حتى صـــار يفكر بها ، وأدرك أن الدراسة بالسوربون تأصيلية ، فثلاثة أرباعهـــا بحث وتمحيص فى أصول ومنابع الأدب الفرنسى بالرجوع الى الأدبين اليونانى واللاتينى من جهة ، والرجوع الى أصول اللغة الفرنسية من جهة أخرى . وكل دراسة تأصيلية هى تاريخية حتما ، لأن : « مناهج الدراسة فى كافة

(٦) دوارة (فؤاد) : المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٧) د. عوض (لويس) : الثورة والأدب ، ص ١٤ ـ ١٦ .

(٨) د. مندور (محمد) : كتابات لم تنشر ، كتاب الهلال ، عدد ١٧٥ ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٩٥ .

الجامعات اليوم قد أصبحت المناهج التاريخية ، ومن واجبنا أن نسلك مسلكهم فنوفر على أنفسنا قرونا من الزمان » (٩) ·

تتلمذ فى السوربون الكثير من الأساتذة الكبار أمثال « دانييل مورني » خليفة « لانسون » فى كرسى الأدب الفرنسى ، وتلميذه الوفي ، والمتعصب لمنهجه (١٠) ، وكانت دروسه المنهجية والدقيقة مثار اعجاب مندور ، الا أن أكبر مؤثر فيه يبقى أستاذه لانسون : « وان تأثرى الأكبر فى الحقيقة هو بأساتذة السوربون · وبالنقاد الغربيين ، وبخاصة الفرنسيون منهم ، وكذلك بعلماء الجمال والنفس الفرنسيين من أمثال ألبير باييه ، وبلوك وشارل لالو ، ثم كبير أساتذة الأدب فى فرنسا جوستاف لانسون ، الذى وان لم أتتلمذ عليه وهو حى ، الا أنى تتلمذت وتأثرت بمؤلفاته ، وبخاصة كتابه الدسم العميق عن تاريخ الآداب الفرنسية ، ومقاله عن منهج البحث فى الأدب » (١١) ·

لقد كان مقال لانسون عن منهج البحث فى الأدب نصا يكاد يكون مقدسا عند « مورنى » فكانت أبحاثه وكتاباته العديدة حول الادب الفرنسى تعتمد عليه أعتمادا كبيرا ، وكان حديثه عن أستاذه دوما حديث تعظيم واكبار (١٢) · فكان يحث تلاميذه على الرجوع الى مؤلفات لانسون وتطبيق منهجه فى أبحاثهم · وفى الوقت نفسه كان كتاب لانسون عن تاريخ الأدب الفرنسى عمدة طلبة الأدب الفرنسى ، وبخاصة الأجانب منهم لشموليته وبساطة لغته ودقة معلوماته وبنائه المنهجى ، وبذلك تشبع مندور باللانسونية مع « دانييل مورنى » أحد غلاتها أولا ، ثم بدراسته لأشهر مؤلفات لانسون نفسه ثانيا · أعجب باللانسونية منهجا للدراسة الأدبية ، لأنها كانت تمثل آنذاك روح السوربون : « التى كانت تعكس فى تلك الفترة القيم الكلاسيكية أو الكلاسيكية الجديدة باعتبارها قيما ثقافية تضمن استمرارية تطورية بدون هزات » (١٣) · ورسخت السوربون فى نفسه تلك القيم والأفكار الديمقراطية التى غذته بها الجامعة المصرية على يدى أستاذه طه حسين بصفة خاصة ، فاصبح ديمقراطيا اشتراكيا متحمسا لبرودون P. J. Proudfort (١٨٠٩ - ١٨٦٥) المفكر الفرنسى الذى ثار على الديمقراطية الليبرالية المحضة كما تتجلى عند مفكرى

---

(٩) د· مندور (محمد) . المرجع السابق ، ص ٩٩ ·

(١٠) الفصل الاول من الباب الاول من هذا البحث ، ص ٥٩ ·

(١١) دوارة (فؤاد) : شيخ النقاد يتحدث مجلة « المجلة » فبراير ١٩٦٥ ، ص ٠٦٦

(١٢) Compagnon (A.) : *La 3ème Republique des lettres*. p. 160.

(١٣) برادة (محمد) : محمد مندور وتنظير النقد العربى ، ص ٢٤ ·

البرجوازية ، والذى زاوج بين الديمقراطية ممثلة فى رأس المال وضرورة توظيفه ثم الاشتراكية ممثلة فى العمل وضرورة تنظيمه فى مؤسسات تضمن حق العامل وجهده ازاء رأس المال • تمثل مندور الفكر الديمقراطى الاشتراكى ، فراح يدعو الى حرية الفكر ، وفصل الدين عن الدولة ، وواجب الدولة نحو المواطن فى حقوق على الدولة رعايتها وتوفيرها للمواطن حفظا لكرامته وانسانيته (١٤) •

كانت اقامته الطويلة بفرنسا فترة تكوينه العقلى والعاطفى والانسانى تعلم فيها شتى العلوم والفنون ، درس خلالها « اللانسونية » من مصادرها المباشرة ، فأعجب بها ، واقتنع بنجاعتها فى دراسة الأدب العربى ، فهى ذلك المنهج الأدبى الوسطى الذى وقف موقفا وسطا بين تزمت وتعصب أنصار الانجاه العلمى فى دراسة الأدب أمثال « تين » و « برونتيير » من جهة ، وأنصار الاتجاه الذوقى أو التأثرى أمثال « جول لومتر » ، من جهة أخرى • كما توسطت عقليا بين تلك الفورات التجديدية فى الابداع الأدبى ودراسته مثل أشعار مالارمى Mallarmé (١٨٤٢ ـ ١٨٩٨) وايلوارد Eluard (١٨٩٥ ـ ١٩٥٢) وفاليرى Valéry ١٨٧١ ـ ١٩٤٥ ودراسات شارل بيفى من جهة ، والدراسات المدرسية العتيقة التى لا تدرس الأثر الأدبى لذاته بحثا عن الحقيقة ، وانما تدرسه وسيلة لغاية لغوية أو بلاغية أو دينية اعتمادا على نصوص بالية عادة ما تكون خالية من أى رونق أدبى من جهة أخرى •

وجد مندور الطالب الشرقى المعجب بتراثه الأدبى العربى ـ ضالته فى اللانسونية • فهى المنهج الأدبى الذى يمكنه من دراسة أدبه دراسة علمية دقيقة تتماشى وعقله القانونى الدقيق ، ثم دراسة ذوقية تتماشى وميوله الأدبية التى غذاها أساتذته بدءا بالأستاذين السباعى بيومى وأحمد هاشم عطية فى المرحلة الثانوية ، ومرورا بأستاذه طه حسين الذى علمه « المقياس الأدبى » ودراسة الأدب دراسة موضوعية فى الجامعة المصرية ، وانتهاء بأستاذه « دانييل مورنى » أستاذ الادب الفرنسى بالسوربون وخليفة لانسون وتلميذه الوفى ، فتعلم منهما المنهج وأصوله وتطبيقاته •

عاد الى مصر سنة ١٩٣٩ م يحمل فى جيبه شهادة الليسانس فى الأدب الكلاسيكى ، وفى ذهنه معارف شتى ، ومشاريع كثيرة • وكان يعتقد أن الجامعة سترحب به ، اعترافا منها بما حصل من معارف ، ولكن أستاذه طه حسين الذى أرسله ليرجع دكتورا ، رفض تعيينه فى قسم اللغة العربية لخلو يده من الشهادة المذكورة ، ثم رفضت بقية أقسام

---

(١٤) د• عوض (لويس) : الثورة والأدب ، ص ٢ ـ ٥٣ •

اللغات توظيفه ، ولم يجد عميد كلية الآداب آنذاك ـ أحمد أمين ـ حلا للوضع سوى ساعات فى الترجمة من الانجليزية الى العربية • وفى السنة التالية ، افتتحت كلية الآداب المعهد العالى للصحافة ، فأسندت لمندور دروس الترجمة من الفرنسية وآدابها الى العربية ، فأحس بشىء من المتعة والنجاعة فى العمل رغم بقاء وضعه الادارى والمالى متدهورا لبقاء علاقته الوظيفية بالجامعة مجرد ساعات يقوم بتغطيتها • وكان الحل الجذرى لمشكلته يكمن فى الاحراز على الدكتوراه التى راح أحمد أمين يحثه على انجازها مقترحا عليه موضوع « تيارات النقد العربى فى القرن الرابع الهجرى » وباشرافه ، فأكب على انجاز الرسالة فى أقصر مدة ، معتقدا أنه على وشك التخلص من جميع مشاكله الادارية والمالية ، خاصة بعد تأسيس جامعة الاسكندرية (١٩٤٢) ، وقبول رئيسها الدكتور طه حسين تعيين مندور وزملائه العائدين من فرنسا دون دكتوراه مدرسين بهـا ، اعتقد مندور أن متاعبه ستنتهى بعد احرازه على الدكتوراه وترسيمه بالجامعة ، ليتفرغ لتحقيق مشاريعه وآماله العلمية التى لم يستطع تحقيقها فى جامعة القاهرة ، ولكنه اصطدم مرة أخرى بأستاذه طه حسين ورئيس الجامعة آنذاك ، الذى رفض المشـاركة فى مناقشـة مندور لنيل درجة الدكتوراه أولا ، ثم رفض ترقيته الى رتبة مدرس بعد احرازه على تلك الدرجة العلمية بتفوق ثانيا • ويعتقد مندور أن حنق أستاذه عليه يرجع الى اسـتعانته بأحمد أمين فى انجاز الرسالة ، بعدما أفسح له مجال الكتابة الصحافية والترجمة لمساعدته ماديا بعـد رجوعه من فرنسا خـالى الوفاض من الشهادة •

ومن الممكن أن تكون مثل هذه الأحاسيس التى أشار اليها مندور سببا فى حنق أستاذه عليه ، ولكن الأرجح أنهـا لم تكن الوحيـدة أو المباشرة • لقد غضب عليه أستاذه لأنه خيب أمله ، بدءا ببقائه مدة طويلة فى فرنسا وعودته خالى الوفاض ، ثم لقبوله اعداد الدكتوراة مع أحمد أمين الذى لم يكن مفكرا ليبراليـا متحـررا ، ثم لتشتيت قدراته وطاقاته العلمية فى كتابة مقالات صحافية متنوعة ، فاقتنع أسـتاذه بضياع أمله وجهوده فى تكوين أستاذ جامعى يواصل رؤيتـه ومسيرته أو يساعده ويؤازره فى مهاجمة الانغلاق والجمود ، كمـا اقتنـع بان تلميذه هذا قد غرق فى السعى وراء المادة بشتى الطرق ، وبسبب كل ذلك أعلن عليه الحرب (١٥) ، فكان السبب فى خروج مندور من كليـة الآداب بجامعة الاسكندرية سنة ١٩٤٤ م بعدما كان السبب فى دخوله

---

(١٥) د• الدسوقى (محمد) : طه حسين يتحدث عن أعلام عصره ، ص ٨٣ـ٨٤ •

كلية آداب القاهرة سنة ١٩٢٦ م (١٦) · خرج من الجامعة سنة ١٩٤٤ م احتجاجا على تعسف أستاذه الذى رفض ترقيته تعسفا على حد قوله ، وخرج منها ، على حد قول أستاذه ، لأن صاحب صحيفة « المصرى » عرض عليه ضعف راتبه مقابل توظيفه فى الصحيفة الأمر الذى أغراه بالاستقالة والتخلى عن مهنته التعليمية الأكاديمية مقابل مبلغ مالى زائد عن راتبه الجامعى (١٧) · وبديهى أن مندور لم يستقل لمجرد الاحتجاج على تعسف أستاذه لو لم تكن اغراءات الصحافة تجذبه ، كما انه ما كان ليستقيل لو كان يتمتع بوضعية ادارية مستقرة تضمن له عيشا كريما ·

خرج من الجامعة بعد احرازه على الدكتوراه ، ليدخل الحياة من بابها الواسع ، وراح يتنقل بين الصحف والجهات التى تنتمى اليها ، كاتبا مقالات فى مختلف الميادين ، فمن السياسة الى المجتمع ، ومن التربية الى الفكر والأدب ، وبذلك دخل دوامة الصراعات السياسية التى كانت تدور بين الأحزاب من جهة ، والسراى من جهة ثانية ، والانكليز من جهة ثالثة ، مناديا بالديمقراطية الاشتراكية وحق الشعب فى التعلم ، وحرية الفكر ، الى غير ذلك من المبادىء الليبرالية التى زودته بها ثقافته الفرنسية ، فكانت مبادئه تلك كثيرا ما تثير عليه أرباب الصحف الذين كانوا يجدون أنفسهم من حين لآخر فى مواقف حرجة مع السراى أو الانكليز أو الأحزاب التى يعبرون عنها بسبب مقالاته المدافعة : « عن الثقافة الانسانية المتمثلة فى الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ليس فى حقيقته الا من ترسبات الديمقراطية الليبرالية التى نشأ مندور فى كنفها أيام دراسته فى الجامعة المصرية وفى السوربون · وهو وان كان قد ثار على المبدأين الأساسيين فى الديمقراطية الليبرالية ، مبدأ « دعه يعمل » و « دعه يمر » وأوصى بتدخل الدولة فى عمليات الانتاج والتوزيع (···) فهو قد استمسك بذلك المبدأ الثالث من مبادىء الديمقراطية الليبرالية الذى لم يرد فى كتب الاقتصاد وانما ورد فى آثار الفلاسفة الليبراليين ، ألا وهو مبدأ « دعه يفكر » (١٨) ·

عاش مندور فترة قلقة منذ استقالته من الجامعة حتى أواخر الأربعينيات صارع فيها بقلمه قوى التخلف والجمود والاستغلال ، وكانت نتيجتها الشهرة الاعلامية والحاجة المادية ، ولذلك فكر سنة ١٩٤٨ م فى استغلال دراسته القانونية ، فافتتح مكتبا للمحاماة وأقبل عليه

---

(١٦) دوارة (فؤاد) ، **شيخ النقاد يتحدث** ، مجلة « **المجلة** » ديسمبر ١٩٦٤ ، ص ١٥ـ٢٥ ·

(١٧) د· الدسوقى (محمد) : المرجع السابق ، ص ٨٤ ·

(١٨) د· عوض (لويس) : **الثورة والأدب** ، ص ٣٥ ·

الموكلون من كل حدب وصوب لذيوع اسمه فى الصحف والمجلات مقرونا بالدفاع عن مبادىء الحرية والعدالة والمساواة والديمقراطية والاشتراكية ، فعرف رخاء ماديا كبيرا ٠

لم يقنع بالشهرة الاعلامية والرخاء المادى ، وراح يسعى الى تبوأ مكان فى الحيـــاة السياسية قد يمكنه من تحقيق بعض آماله الفكرية ، فشارك سنة ١٩٥٠ م فى الانتخابات النيابية وفاز فيهـــا فوزا كبيرا ، وأسندت له رئاسة لجنة التعليم (١٩) ، فجمع بذلك النجاح من جميـع أطرافه : الرخاء المادى من مكتب المحاماة ، والشهرة الاعلامية من كتاباته الصحافية ، والحصانة البرلمانية ومتعة التدريس من دروســـه بالمعهـد العالى للصحافة ، ومعهـد التمثيل ، ثم معهـد البحوث والدراســات العربيـــة (٢٠) ٠

كان نشـــاطه غزيرا ومتنوعا ، الأمر الذى بدد قواه ، وأعاقه عن انجاز دراسات أكاديميـــة عميقة ، رغم وفرة نتاجه الموزع بين مختلف المعاهد والصحف ٠ وحتى ذلك النتاج الموزع ، والنشـــاط المتنوع ، لم يستطع مواصلتهما بسبب مرض عضـــال اضطره الى اجراء عملية جراحية فى المخ ، واستئصال جزء من الغدة النخامية ، فاضطر الى غلق مكتب المحاماة سنة ١٩٥٤ م ، والاكتفاء بالنشاطات الصحافية والتدريس في المعـاهد السالفة الذكر ، بعـد انتهاء فترته النيـابية ، وبقى يكتب ويدرس الى أن وافته المنيـة يوم ١٩ مايو ١٩٦٥ (٢١) ٠ عاش حيـــاة صاخبة ، عرف فيها المجد والشهرة والرخاء الى جانب الفشل والشقاء ٠ أراد أن يصبح وكيل نيابة فأعد العدة لذلك ودرس الحقوق الا أن حلم طفولته لم يتحقق ٠ وأعجب به أستاذه « طه حسين » وبمقدرته الأدبية ، فدفعه الى دراسة اللغـة العربية وآدابها ليصبح أستاذا جامعيـا واسع الأفق ، متحرر الذهن مثل الأساتذة الفرنسيين الذين سيتتلمذ عليهم ، ولكنه ـ أى طه حسين ـ صار أكبر عائق أمام تحقيق هذا الأمل ، لأنه أحس بميل مندور عن المسار المسطر له ، ولم ينتبه الى أن قدراته العقلية والأدبية ستدفعه لا محالة الى شق طريق خاص به ٠ لم يقـدم مندور فى حياته الصاخبة كل ما كان متوقعا منه ، ولكن خصوصيته تكمن فى ذلك ، حيث قدم ما لم يكن متوقعا منه ٠ فلم يكن أستاذا جامعيا محترفا ، متقوقعا فى نظرياته أو مناهج نقدية يراها البداية والنهاية ، كما لم يكن أديبا مبدعا لا يستطيع ضبط انفعالاته خلال تعامله مع النصوص الأدبية ، وانما كان

---

(١٩) دوارة (فؤاد) : **شيخ النقاد يتحدث** ، مجلة « **المجلة** » ، فبراير ١٩٦٥ ، ص ٢٦ ٠
(٢٠) دوارة (فؤاد) : المرجع السابق ، ص ٣٦ ٠
(٢١) د٠ عوض (لويس) : **الثورة والأدب** ، ص ١٠ ٠

وسطيا فى مختلف كتاباته التى كانت فى الأصل محاضرات على طلبة المعاهد التى كان يدرس بها ، أو مقالات صحافية موجهة لعامة القراء ٠

خلف قائمة طويلة من المؤلفات والمترجمات ، نستطيع تقسيمها بعد التمعن فيها الى : مؤلفات أساسها مقالات صحافية كتبت لعامة القراء ونشرت فى مختلف الصحف ، ثم جمعت فى كتب ٠ مؤلفات آكاديمية كانت فى الأصل بحثا لنيل درجة من الدرجات ، ثم نشرت فى كتب على أصلها الأول أو مع اضافة مقالات اليها ٠ مؤلفات ترجمت الى العربية من الفرنسية ، ومؤلفات أساسها دروسه لطلبة المعاهد المختلفة ٠ كما خلف عددا كبيرا جدا من المقالات المنشورة فى الصحف ، جمع البعض منها فى كتب ولازال الكثير منها ينتظر ٠ توضح دراسة هذه المؤلفات والآثار صعوبة ترتيبها ترتيبا تاريخيا دقيقا ، فالكثير منها خال من تاريخ التأليف أو الطبع أو النشر ٠ أما التى نجد فيها تاريخا من هذه التواريخ ، فهو تاريخ نشر الكتاب مجملا ، بينما ترجع موضوعاته المختلفة الى تواريخ عديدة ومتباعدة أحيانا ، اذ نشر البعض منها فى الصحف ، وقدم البعض الآخر دروسا لطلبة معهد من المعاهد ، وربما كتب البعض الآخر لتكملة الكتاب ٠ وعلى هذا الأساس يصعب ترتيب مؤلفات « مندور » ترتيبا تاريخيا يبين بدقة تطور رؤيته النقدية أو المنهجية ٠ ومن ثم ، سنعمد فى تتبع رؤيته المنهجية الى الاعتماد على أشهر كتبه التى تعتبر معالم تاريخية معروفة فى تطوره حسب الترتيب التالى :

١ ــ فى الميزان الجديد (١٩٤٤) ٠

٢ ــ النقد المنهجى عند العرب (١٩٤٤) ٠

٣ ــ منهج البحث فى تاريخ الآداب (مترجم عن لانسون) ١٩٤٦ ٠

٤ ــ فى الأدب والنقد (١٩٤٩) ٠

٥ ــ الأدب ومذاهبه (١٩٥٧) ٠

٦ ــ الأدب وفنونه (١٩٦٣) ٠

٧ ــ النقد والنقاد المعاصرون ب ٠ ت

٨ ــ كتابات لم تنشر (١٩٦٥) ٠

ليست هذه العناوين جملة نتاج مندور ، فله كتب وكتيبات عديدة فى الدراسة الأدبية مثل « مسرح توفيق الحكيم » و « المسرح النثرى » و « الشعر المصرى بعد شوقى » ونماذج بشرية و « فى المسرح المصرى المعاصر » و « خليل مطران » وغير ذلك من العناوين ، لاتتضمن أفكارا

نقدية مختلفة عما ورد فى كتبه الأساسية · وله كتب ثقافية عامة ضمنها آراءه وأفكاره السياسية والاجتماعية مثـــل : الديمقراطية السياسية ، الثقافة وأجهزتها ، الموقف الدولى ، صلتها بموضـــوع البحث ضعيفة فلم نحفل بها · وله أيضا مجموعة من الكتب ترجمها عن الفرنسية منها : « دفاع عن الأدب » لجورج ديهاميل G. Duhamel « من الحكيم القديم الى المواطن الحديث » لبوجليـــه وآخرين ، « نزوات ماريان » لألفريد دى موسيه ، De Musset (١٨١٠ ــ ١٨٥٧) « مدام بوفارى » لجوستاف فلوبير Flaubert (١٨٢١ ــ ١٨٨٠) · وواضح أن هذه المترجمات ذات الأهمية البالغة بالنسبة للقارىء العربى قبل الخمسينيات من هذا القرن ، لا تتصل بموضـــوع البحث ، فلم غفل بها ، رغم أنها تبين بوضـــوح ذوق منـــدور واعجـــابه بالثقافة الفرنســـية شـــعرا ونثرا وفكرا سياسيا ؟

نرى من تتبع حيـــاة مندور الدراسية والعلمية والمهنيـــة أنه تتلمذ على طه حسين ، فأعجب الطالب بالأستاذ وبثقافته الفرنسية ذات الأصول اليونانية اللاتينية كما أعجب الأستاذ بالتلميذ وقدراته العقلية ، فحاول اعداده ليكون سندا له فى ارساء دعائم تعليم جامعى أكاديمى متفتح ، فساعده ــ من أجل ذلك ــ على السفر الى فرنسا ، وهنـــاك تتلمذ على أساتذة الأدب الحقيقيين وتشبع بالثقافة الأوروبية · ففى باريس تتلمذ على جملة من أساتذة السوربون منهم دانييل مورنى تلميذ لانسون الوفى ، خليفته وظيفيا فى كرسى الأدب الفرنسى بالسوربون ، وعلميا فى تطبيق المنهج التاريخى والدعوة له فى الدروس بالجامعـــة ، وفى توجيه مجـــلة التاريخ الأدبى لفرنسا · أعجب مندور بأساتذة السوربون جميعا ــ على حد قوله ــ وبصفة خاصة كبير أساتذة الأدب فى فرنسا «جوستاف لانسون» الذى وان لم يتتلمذ عليه وهو حى ، الا أنه تتلمذ عليه من خلال كتابه عن تاريخ الأدب الفرنسى ، ومقـــاله عن منهج البحث فى الأدب (٢٢) وبذلك يكون قد تتلمذ عليه من حيث المنهج التاريخى نظرية وتطبيقا · وبذلك تكون صلة مندور باللانسونية ثابتة تاريخا · باعترافه أولا ، ومن روافد متعددة ثانيـــا ، فقد تتلمذ على طه حســـين تلميذ لانسون والأخـــوين كروازى وسينيوبوس ، ثم تتلمذ على دانييل مورنى تلميذ لانسون وخليفته · وفى الختـــام ، يعترف بأنه تأثر بلانســـون من خـــلال كتاباته ، واعتبره كبير أساتذة الأدب الفرنسيين ومن ثم فالصلة ثابتة ، ومعترف بها · ولكن السؤال الذى يطرح نفسه هو : هل كان للانسونية أثر فى كتابات مندور ؟ وكيف يتجلى ذلك ؟ ذلك ما سنحاول الاجابة عنه فى الفصلين اللاحقين ·

---

(٢٢) دوارة (فؤاد) : شيخ النقاد يتحدث ، مجلة « المجلة » عدد فبراير ١٩٦٥ ، ص ٦٦ ·

الفصل الثانى

محمد مندور

وعودته للمنهج التاريخى

عاد مندور بعد تسع سنوات من الدراسة والتحصيل فى جامعة السوربون على يدى تلاميذ لانسون الى مصر للتدريس فى الجامعة ، منبهرا بمستوى وطريقة تعليم اللغة الفرنسية وأدبها فاصطدم بادىء الأمر بأستاذه طه حسين لأسباب سبق ذكرها . كما اصطدم بمجمل أساتذة قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة ، وساءت علاقته بالكثير منهم : « لأن العلاقة بينى وبين أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها كانت قد ساءت بسبب تقرير كتبته عن منهج دراسة اللغة والأدب فى جامعتنا ، وانتقدت فيه الأساليب البالية التى كانت مستخدمة عندئذ ، وقدمت نسخة من التقرير الى مدير الجامعة ، وأخرى الى عميد كلية الآداب ، وطالبت فى هذا التقرير بانشاء معمل للأصوات وقلب مناهج التدريس رأسا على عقب ، وأحال العميد تقريرى الى رئيس قسم اللغة العربية وكان وقتها المرحوم عبد الوهاب عزام . وذات يوم التقيت به فى الممر المؤدى للقسم ، وتجرأت وسألته عن رأيه فى التقرير فأجاب قائلا : تقرير ايه يا عم ، أنت جاى تعلمنا ازاى ندرس أمال احنا هنا بنعمل ايه ؟

وكان هذا كل ما عرفته عن ذلك التقرير ومصيره » (١) .

ساءت علاقة مندور بأساتذة قسم اللغة العربية لأنه انتقد أساليبهم فى التدريس ، كما انتقد المقرر الدراسى ، مقترحا أساليب ومقررات جديدة لم يحدد نوعيتها ، الا أن اشارته الى معمل الأصوات توضح أنه كان يقتدى فى اقتراحاته تلك بأساليب ومقررات السوربون .

(١) دوارة (فؤاد) : شيخ النقاد يتحدث ، ديسمبر ١٩٦٤ ، ص ٥١ .

ويعود مرة أخرى الى قضية تدريس اللغة العربية وآدابها ضمن مقال نشره سنة ١٩٥٤ م منتقدا واقع اللغة العربية وآدابها في الجامعة المصرية مبينا تفاهة المقررات وسخفها وعقم أساليب التدريس الأمر الذى ينعكس سلبا على تطور اللغة العربية وآدابها ، وللخروج من ذلك الوضع التعليمى ، اقترح الاقتداء بالغربيين : « ولكننا اذا أردنا أن نفهم الأدب بهذا المعنى الواسع ، واذا أردنا أن ندخل فيه أدبنا المعاصر الذى نأخذ ألوانه عن الآداب العربية ، تبين عندئذ صدق ما قلناه من قبل من أنه لن يستطيع عندئذ الاستقلال بتدريسه الا من ثقف ثقافة غربية وتشبع بمناهج الغرب على نحو واسع متين ·

والعيب الثانى قائم فى منهج الدراسة فهو لايزال التقريرى كما عرفته القرون الوسطى مع أن مناهج الدراسة فى كافة الجامعات اليوم قد أصبحت المناهج التاريخية ومن واجبنا أن نسلك مسلكهم فنوفر على أنفسنا قرونا من الزمان » (٢) ·

وتقوم مقترحات مندور لتطوير مناهج دراسة اللغة العربية وأساليبها في مجملها على نقطتين أساسيتين : الأول اخراج مقرر اللغة العربية وآدابها من مضمونه الضيق الذى لا يتعدى الاهتمام بالشعر والنثر ، الى مجال أوسع يتضمن كل الكتابات الجميلة ، والعلوم المساعدة لدراستها ، والمناهج الفكرية واللغات الأجنبية · أما النقطة الثانية فتتمثل فى التخلى عن المنهج التقريرى الذى ينطلق من مسلمات وآراء مسبقة وأحكام جاهزة تعوق الذهن عن الانطلاق ، والاستعاضة عنه بالمناهج التاريخية اقتداء بالغربيين الذين تقدموا عنا قرونا ، لاعتمادهم على المنهج التاريخى فى دراسة لغاتهم وآدابهم ، على حد قول مندور ، وقبله أستاذه طه حسين ، وقبله أستاذه المستشرق الايطالى كارلو نالينو ·

ان تطوير دراسة اللغة العربيه وآدابها يكمن عند مندور فى تبنى المنهج التاريخى الذى أعجب به ، من خلال اعجابه بكتابات لانسون · وبديهى أن تثير دعوته هذه سخط قسم اللغة العربية ، لسببين حسب ظنى : الأول هو أن المرحوم عبد الوهاب عزام (١٨٩٤ ـ ١٩٥٩) ـ رئيس القسم آنذاك ـ لم يكن من المنبهرين بالثقافة الفرنسية أو المعجبين بها ، فقد كان شرقيا قلبا وقالبا (٣) ، ومن ثم فان موقفه من دعوة « مندور » الى الأخذ بالمنهج التاريخى ، كما رآه مطبقا فى السوربون ، لايعقل أن يكون الا الرفض · أما الثانى ، فهو أن طه حسين المدافع عن الثقافة

---

(٢) مندور (محمد) : كتابات لم تنشر ، ص ٩٩ ·

(٣) د· نعمات أحمد فؤاد : قمم أدبية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٣٥ ـ ٢٤٥ ·

الفرنسية بحماس وحامى مندور ، قد تخلى عنه لأسباب سبقت الاشارة اليها ، فساعد بذلك التخلى على كبح دعوة منـــدور للاعتمـاد على المنهج التاريخى فى دراسة وتدريس اللغة العربية وآدابها ، رغم أن دعوة مندور لاتختلف فى جوهرها عن دعوة أســتاذه فى تمهيده لكتاب فى الأدب الجاهلى ! • كان اعجاب مندور بالمنهج التاريخى كبيرا ، ولذلك لم يثنه موقف أستاذه ولا موقف قسم اللغة العربية عن الدعوة له • فراح يكتب المقالات الصحافية داعيا فيها الى الاقتداء بفرنســا فى تدريس اللغـة والأدب ودراستهما • ففى مقدمة كتابه « فى الميزان الجديد » الذى تضمن مقالاته المكتوبة بين سنة (١٩٣٩) و (١٩٤٤) ، دعا صراحة الى الاقتداء بالفرنسيين : « منذ عودتى من أوروبا أخذت أفكر فى الطريقـة التى نستطيع بها أن ندخل الأدب العربى المعاصر فى تيار الآداب العالمية ، وذلك من حيث موضوعاته ووسائله ومناهج دراسته على السواء • ولقد كنت أومن بأن المنهج الفرنسى فى معالجـة الأدب هو أدق المناهج وأفعلها فى النفس ، وأساس ذلك المنهج هو ما يســمونه « تفسـير النصوص » ، فالتعليم فى فرنســا يقوم فى جميع درجــاته على قراءة النصوص المختارة من كبار الكتاب وتفسيرها والتعليق عليها ، وفى أثناء ذلك يتناول الأساتذة النظريات العامة والمبادىء الأدبية واللغوية بالعرض عرضا تطبيقيا تؤيده النصوص التى يشرحونها » (٤) •

وعلى هذا ، فان أدق المناهج الأدبية وأفعلها فى النفس يتمثل عند مندور فى المنهج الفرنسى المعروف « بتفسير النصوص » فاذا ما تذكرنا أن تفسير النصوص هو جوهر المنهج التاريخى وأساسه عند لانســون وأتباعه كما هو مبين سابقا ، ندرك أن دعــوة مندور فى جوهرها دعـوة الى المنهج التاريخى اللانسونى ، الذى يدرس النصوص الأدبية ويفسرها ويعلق عليها بغية الحكم عليها ووضعها موضعها من ابداع مؤلفها أولا ، ثم موضعها من الأدب القومى ثانيا • ويصرح بأن رأيه اســتقر على هذا المنهج التطبيقى لدراســة الأدب العربى (٥) • رغم الصعاب التى قد تواجهه من جراء الظروف الخاصة بالأدب العربى ، مثل فقر المكتبات ، وقلة الدراسات الببليوغرافية ، وفقدان الكثير من النصوص الأدبية وغير ذلك من الصعاب ، ولذلك نراه يوهم القارىء بأنه كون لنفسه منهجا عاما للنقد خلال دراسته وتدريسه لنصوص الأدب العربى فى الجامعة سماه « المنهج الذوقى التأثرى » • وبغض النظر عن أصول المنهج الذوقى التأثرى ، فان منـدور لا يعنى بمنهجه الذوقى هذا النزوات التحكمية ،

---

(٤) د• مندور (محمد) . **فى الميزان الجديد** ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، د•ت ، ص ٤ •

(٥) د• مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٤ •

وانما يعنى تلك الرواسب العقلية والشعورية (٦) التى يستطيع الدارس ابرازها وتعليلها : « وبذلك يصبح الذوق وسيلة مشروعة من وسائل المعرفة التى تصح لدى الغير » (٧) • فالذوق عنده ليس غاية ، وانما وسيلة من وسائل المعرفة ، اذ : « ليست هناك معرفة تغنى عن الذوق التأثرى الا أننى مع ذلك أحرص على أن يكون الذوق مستنيرا وفى هذا المجال ـ مجال الاستنارة ـ أميز بين نوعين من المعرفة • فهناك المعرفة الأدبية اللغوية وهذه هى الأساس (•••) وأما دون ذلك من أنواع المعرفة كالدراسات النفسية والاجتماعية والأخلاقية والتاريخية وما اليها فهى وان كانت عظيمة الفائدة فى تثقيف الأديب ثقافة عامة وتوسيع آفاقه ، الا أننى لا أريد أن تطغى على دراستنا للأدب كفن لغوى ، وأنا مؤمن بأنه من الواجب أن يستقل الأدب بمنهجه عن غيره من العلوم » (٨) •

تبنى مندور فى بداية نشاطه العلمى المنهج الذوقى التأثرى حسب مفهوم المنهج التاريخى للتأثر والذوق ، اذ نراه يحدد مفهوم الذوق او التأثر بأنه رواسب عقلية وشعورية يبرزها الدارس ويعللها ، وبذلك يطرح الالهام الذوقى أو العبقرية على حد تعبير لانسون ، ثم يحدد وظيفة الذوق على اعتبار أنه وسيلة من وسائل المعرفة متبعا فى ذلك أستاذه لانسون عندما اعترف للنقد التأثرى بقيمته النقدية شريطة بقائه مجرد وثيقة أدبية يعتمدها مؤرخ الأدب مع بقية الوثائق فى الوصول الى الحقيقة أو الاقتراب منها ما أمكن •

جعل مندور الذوق وسيلة من وسائل المعرفة الأدبية ، لايمانه بأن المعرفة الأدبية لاتغنى عن الذوق ، ولاتمكن دارس الأدب من استكناه لب النص الأدبى ، وهذا ما أوضحه لانسون عندما وضح أن التحاليل الكيميائية لا تبين طعم الشراب مهما كانت صحتها ، وأن الذوق أساس كل دراسة أدبية ، شريطة أن يقوم بعملية التذوق من يمتلكون ذوقا رفيعا مدربا ، وأن يتذوقوا حسب أسس وقواعد معينة •

يقوم المنهج التأثرى عند مندور على المزج بين الذوق والمعرفة عندما جعل التذوق وسيلة من وسائل المعرفة ، ثم عندما جعل المعرفة لا تغنى عن الذوق ، فجعلهما مرتبطين من جهة ، ومتممين لبعضهما البعض من جهة أخرى ، وأخيرا لشرحه مفهوم مصطلح « المعرفة » الذى حدده بالمعرفة الأدبية واللغوية التى تنجم عن قراءة مؤلفات الشعراء والكتاب قراءة فهم ودرس وتذوق بغية الوصول بالأدب الى منهج خاص به مستقل عن بقية

---

(٦) د• مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٥ ـ ٦ •
(٧) د• مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٦ •
(٨) د• مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٦ •

العلوم المساعدة التى يحبذ أن يوسع بها الدارس آفاقه دون أن تطغى على تفكيره ٠

لقد جمع بين الذوق والمعرفة ، وجعل الذوق يقوم على أسس معينة لبلوغ وظيفة واضحة ، ثم حدد مفهوم المعرفة فى مجـــال الدرس الأدبى داعيا الى الاستعانة بالعلوم المساعدة وعدم تطبيق مناهج العلوم الأخرى فى الدراسة الأدبية ، شأنه فى ذلك شأن لانسون الذى جعـــل الأفكار السالفـــة الذكر من أسس المنهج التاريخى ٠ فكأن المنهج التأثرى الذى دعا اليه مندور فى مستهل حياته العلمية لايختلف عن اللانسونيـــة فى شيء ، وبذلك بدأ حياته العلمية بالدعوة الى المنهج التاريخى تحت مصطلح « المنهج التأثرى » ٠ فعندما زعم أنه اعتمد المنهج التأثرى فى « تفسير النصوص » رأينا انه لم يخرج قيد أنملة عن المنهج التاريخى لأنه تبنى رأى لانسون فى النقد التأثرى من حيث طبيعته ووظيفته ٠ أما النقـد التـأثرى ، كمـا هو معروف عند التـأثريين ، فلا يقبل له البتة أن يكون وسيلة ، بل هو غاية فى حد ذاته ٠ وعلى هذا الأساس كان تذوق مندور لانسونيا بحتا ٠ فعندما يدرس قضية الحكم النقدى عنـد أى ناقد ، يخلص الى أن الأحكام النقدية اما « ذاتية » تدور حول الجودة والرداءة فى سلم للقيم يضعه كل ناقد لنفسه ، واما « موضوعية » مستمدة من حقيقة المادة المنقودة ومردودة الى ملابساتها ٠ ثم سرعان ما ينتبه الى عدم وجود أى حكم ذاتى قيمى مطلق : « وذلك لأن كل حكم قيمى لابد راجع الى حكم واقعى ، فالناقد الذى يحتمى وراء ما يسميه ذوقه الخاص انما يحيلك فى حقيقة الأمر على مجموعة من الآراء السابقة المقررة التى تبلورت فى نفسه بوعى منه أو على غير وعى ، بحيث نستطيع أن نقول : ان الذوق ما هو الا راسب من رواسب العقل الخفية » (٩) ٠

حقا ، ان الذوق راسب من رواسب العقل الخفية ، فذوق كل شخص نتاج لعدة عوامل من وراثة ونشأة وتربية وبيئة وزمان ، وهذا ما عناه لانسون عندما قال : « ان ما نسميه ذوقا ليس الا مزيجا من المشـــاعر والعادات والأهواء » (١٠) وهكذا يرجع مندور الى نقطة البداية ، بعدما نفى الحكم الذوقى الخالص ٠ أى رجع الى المفهـوم اللانسونى للذوق ٠ ويعيد شرح رأيه فى ضرورة تنحية العلم عن الأدب ونقده فى مقالة أخرى لاقتناعه بأن العلم الصرف شيء ودراسة الأدب ونقده شيء آخر ٠ فالنقد عنده ليس علما صحيحا أو تجريبيا وانما ، « هو فن دراسة النصوص وتمييز الأساليب ، وهذا الفن يستعين بضروب من المعارف » (١١) ٠

---

(٩) د٠ مندور (محمد) ٠ المرجع السابق ، ص ١٢٢ ٠
(١٠) لانسون : منهج البحث فى تاريخ الأدب ، (ترجمة مندور) ، ص ٤٠٥ ٠
(١١) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ١٧٢ ٠

وبديهي أن هذا المفهوم لا يختلف في شيء عن مفهوم لانسون ؛ فالنقد هو دراسة النصوص بغية « تمييز الأساليب » مع الاســتعانة « بعلوم ومعارف » مساعدة · انها المصطلحات والمفاهيم نفسها التى تكون المنهج التاريخي ، نراها تتردد عند مندور ، ونراه يؤكد كذلك على عدم الاخذ بالقوانين العلمية المطبقة فى العلوم الأخرى مثل علم النفس أو الاجتماع لدراسة الظاهرة الأدبية ، مدللا على ذلك بنقده تجربة الفرنسيين فى هذا المجال فى القرن التاسع عشر أمثال « تين » الذى حاول تفسـير الظاهرة الابداعية بعوامل العرق والزمان والمكان مستخلصا بطلان هذا الرأى من عـدم انسحاب هذه النظرية على كل من وجـد من عـرق واحد فى زمان ومكان واحد ، لاختلاف الاستعدادات والقدرات بين الناس ·

لايختلف رأى منـــدور الرافض لعلمنـة الأدب فى شيء عن رأى لانسون ، فهو يتبنى فكرة انطلاق هذا التيــار من مسلمات علميـة ، لا تختلف فى شيء عن المسلمات المذهبية أو العقـائدية بينما تحتم علينـا الروح العلمية عدم الانطلاق من مسلمات · وكما تبنى آراء لانسون فى رفض « علمنة الأدب » ، تبنى أيضا مفهومه لتاريخ الأدب عنـدما استنتج أن التـــأريخ للأدب عبـــارة عـن : « ١ ـ تأريـــخ لفنـــون الأدب Gerres Litteraires (···) ٢ ـ تأريخ للتيـــارات العقليـة والأخـلاقية Lls courants كدراستنا لتيار شـعر اللذة الحسية عند أناكريون ورونســـار ومن نحـــا نحـــوهما (···) ٣ ـ تأريخ لعصـــور الذوق » (١٢) ·

هذه الأنواع الثلاثة التي قدمها مندور طرقا لتأريخ الآداب المختلفه ، هى نفسها الطرق التى حددها لانســـون بعد شرحـه لخطوات منهجه العملية : « هذه هى العمليات الأساسية التى تؤدى بنا الى المعرفة الدقيقة الكاملة بالكتاب ، وان كانت تلك المعرفة فى الواقع لايمكن أن تبلغ درجة الكمال (···) ثم نطبق تلك العمليات على الكتب الأخرى للمؤلف وعلى كتب المؤلفين الآخرين ونجمع الكتب تبعا لما بينها من وشائج فى الموضوع والصياغة وبفضل تسلسل الصياغات نضع تاريخ الفنـون الأدبيـــة ، وبتسلسل الأفكار والاحساسات نضع تاريخ التيارات العقلية والأخلاقية · وبالمشاركة فى بعض الألوان وبعض المناحى الفنية المشتركة بين الكتب التى من نوع أدبى واحد ومن نفوس مختلفـــة نضع تاريخ عصـــور الذوق » (١٣) ·

---

(١٢) د· مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ١٧٤ ·

(١٣) لانسون : المرجع السابق ، ص ٤١٢ ·

ندرك مما سبق ذكره دعوة مندور الى الأخذ بالمنهج التاريخي ضمنها كتابه الأول « فى الميزان الجديد » ، ولكن دعوته هذه لم تكن صريحة واضحة · فهو يستعرض المناهج النقدية التى شاعت خلال القرن التاسع عشر بفرنسا موضحا مساوئها وهناتها ، معتمدا فى ذلك على آراء لانسون دون تصريح بها ، ثم يقترح « منهجا جديدا » للنقد أساسه دراسة النصوص الأدبية دراسة ذوقية ، اتضح أنها الرؤية اللانسونية للتذوق ، بغية « تمييز الأساليب » وتصنيف الآثار المدروسة أثر ذلك والتأريخ لها ضمن فنون أدبية أو تيارات عقلية وأخلاقية أو عصور للذوق · ويقترح على الدارس للقيام بكل ذلك الاستعانة بمعارف وعلوم مساعدة ـ دون اقحام مناهجها فى الدراسة الأدبية ـ فى فهم الأثر الأدبى ، واستخلاص المنهج المناسب لدراسة الأدب من الأدب نفسه ·

ان هذا المنهج المقترح لا يختلف فى شىء عن المنهج التاريخى ، الا أنه لم يرد متكاملا فى مقال واحد ، وانما نجده موزعا بين عدة مقالات ، وحين نجمع أجزاءه الموزعة يتكامل أمامنا المنهج التاريخى بعناصره الأساسية ، وبذلك يمكننا القول انه دعا الى العمل بالمنهج التاريخى عملا جزئيا · فلماذا لجأ الى هذه الطريقة فى تقديم منهجه المفضل ؟ هناك احتمالات كثيرة قد تكون جوابا على هذا التساؤل ، الا أن أقربها الى المنطق يكمن فى طبيعة الكتابة الصحافية التى تجبر الكاتب على تجزئة أفكاره ـ لأسباب فنية ـ عندما يكون موضوع البحث واسعا ، ثم فى محاولته الربط بين تحصيله النقدى والمنهجى الذى عاد به من فرنسا وبين التراث النقدى العربى بغية التأصيل لتلك الآراء والأسس النقدية التى أعجب بها ، فيمكنه بذلك أن يزعم أنه يقترح رؤية نقدية لها مكانها البارز فى النقد العالمى ، ولها أيضا أصولها فى التراث العربى ، وبالتالى فهى ليست استيراد لأفكار نقدية غريبة عن الأدب العربى ، وليست تكرارا لأفكار نقدية ميتة تجاوزها الزمن ·

لقد حدد النقد المنهجى فى كتاب ؟ النقد المنهجى عند العرب » ، الذى أحرز به درجة الدكتوراه سنة ١٩٤٣ م ، بأنه : « ذلك النقد الذى يقوم على منهج تدعمه أسس نظرية أو تطبيقية عامة ويتناول بالدرس مدارس أدبية أو شعراء أو خصومات يفصل القول فيها ويبسط عناصرها ويبصر بموانع الجمال والقبح فيها » (١٤) ·

فالأساس الذى بنى عليه موضوعه هو دراسة النقد العربى القائم على أسس نظرية أو تطبيقية أى القائم على منهج ، فالنقد الذى لايقوم على

---

(١٤) د· مندور (محمد) النقد المنهجى عند العرب ، دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة ، د·ت· ، ص ٥ ·

منهج ليس فى نظره نقدا ولذلك يلزم نفسه بمنهج ، حتى تكون دراسته نقدا منهجيا ، ويدعو غيره للعمـــل به : « ومعنى هذا هو أننـــا نفضل الأخذ بالمنهج التاريخي حتى عندما نحاول أن نضع للنقد حده ، وهذا هو المنهج الذى استقر الباحثون على جدواه منذ أوائل القرن التاسع عشر الى اليوم ، وبفضله جددت الانسانية من معرفتها بتراثنـــا الروحي وزادته خصـــبا » (١٥) ٠

وهكذا فضل المنهج التاريخي على بقية المناهج لاجماع الباحثين على جدواه في دراسة التراث الأدبي الأوروبي ، فبفضله عرف الأدب الفرنسي تاريخا دقيقا ، مفصلا ، من مختلف جوانبه ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، فتآليف الأخوين كروازى فى التاريخ للأدب اليوناني وتآليف جاسطون بارى فى التاريخ لآداب القرون الوسطى ، وجوستاف لانسون فى تاريخه للأدب الفرنسي وأعلامه ، خير مثال على ذلك ٠

لقد تمثلت رغبة مندور الملحة ، منذ عودته من فرنسا ، فى بعث النشاط والحيوية فى الأدب العربى ابداعا ودرسا ، فكان يرى بالتالى أن الأخذ بالمنهج وتفصيله أمـــر حتمى على كل من درس آنـــذاك فى السوربون ، ورآه مطبقـا فى جل الرسـائل الجامعيـــة ، وأساس أشهر التآليف الأكاديمية ٠

دعا مندور الى اتبـــاع المنهج التاريخي فى دراســة الأدب العربى والتأريخ له ، فحدد انطلاقا من ذلك منطلقات بحثه « النقد المنهجى عند العرب » معتمدا على آراء لانسون فى كل من « التاريخ الأدبى » والنقد الأدبى » ٠ فالنقد الأدبى هو دراســـة للنص الأدبى وتحليله وابـراز خصائصه الاسلوبية بالكشف عن خصائص صياغته المثيرة للصور الخيالية والانفعالات الشعورية والاحساسات الفنية ، فهو : « فن دراسة النصوص والتمييز بين الأساليب المختلفة » (١٦) ٠

أما التأريخ الأدبى ، فهو المرحلة التالية للنقد فيرى رأى لانسون فى هذا الموضوع ، مقتبسا حرفيا مفهومه للتاريخ الأدبى ، الذى يأتى بعد النقد الأدبى : « فيجمع تلك المؤلفات تبعا لما بينها من وشائج فى الموضوع والصياغة وبفضل تسلسل تلك الصياغات يضع تاريخ الفنون الأدبية ، وبتسلسل الأفكار والاحساسات يضع تاريخ التيارات العقلية والأخلاقية ، وبالمشاركة فى بعض الألوان وبعض المناحى الفنية المتشابهة فى الكتب

---

(١٥) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ١١
(١٦) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ١٤ ٠

التى من نوع أدبى واحـــد ومن تاليف نفوس مختلفة يضع تاريخ عصور النوق » (١٧) ٠

يتمثل المنهج التاريخى الذى يحث منـــدور الدارســين العرب على اتباعه فى المنهج التاريخى اللانسونى الذى اعتمده فى بحثه هذا ، فدرس نصوصا نقدية عربية قديمة ، قصد التمييز بين أساليبها وابراز خصائصها المنهجية ، وتسلسل أفكارها ، وبذلك حدد التيارات النقدية التى عرفها النقد العربى القديم ، أى النقد المنهجى عند العرب ٠ وهكذا نرى أنه دعا من خلال كتابه « النقد المنهجى عند العرب » الى اتباع المنهج التاريخى اللانسونى فى دراسة الأدب العربى والتأريخ له ٠ وقد جعله اعجـــابه بهذا المنهج وبصاحبه ٠ لا يكتفى بالدعوة اليه فى مقالاته ومؤلفـــاته ، وانما حمله على أن يترجـــم فوق ذلك مقـــالة لانســـون الشهيرة حول « منهج البحث فى تاريخ الآداب » ليضع أمام الدارس والباحث العربى « المنهج الصحيح » كمـــا حـــدده زعيمه : « أما لانسون ، فأستاذ للأدب الفرنسى ، تخرجت على يديه أجيـــال من الأدباء والباحثين الذين يكونون اليوم فى فرنسا مدرسة عظيمة الخطر لأنها تجمع بين الاتجـــاه الفلسفى فى النقد والدقة العلمية فى البحث ، حتى ليتأتى ما يكتبه أفراد هذه المدرسة مزيجا قويا من التفكير والمعرفة الصحيحة » (١٨) ٠

ترجم هذه المقالة لأنها « منهج » مدرسة عظيمة الخطر فى فرنسا ، داعيا الدارسين والباحثين العرب الى اتباعها فى دراسة الأدب العـــربى بغية الوصول الى معرفة هذا الأدب معرفة صحيحة ٠

ونلاحظ من مقارنة ترجمة مندور للمقالة بالنسخة الأصلية أنه بذل جهدا كبيرا فى الترجمة ، فجاءت جملة فى معظمها ناقلة للمعنى الأصلى بدقة ووضوح ، الأمر الذى يبين استيعابه التام لمضمون المقالة ، واقتناعه بما جاء فيها من أسس نظرية للمنهج وخطوات عمليـــة ، ترددت مرارا فيما بعد ذلك فى مقالاته ودروسه التى كان يلقيها هنا وهناك ٠

ورغم تشتت جهود منـــدور المهنيـــة بين الصـــحافة والتدريس والمحاماة ، والتمثيل النيابى ، وهو ما جعله لاينجز أبحاثا أكاديمية منهجية بعد رسالته للدكتوراه حول النقد المنهجى عند العـــرب ، فان دعوته للمنهج التاريخى اللانسونى لم تضعف ٠ فقد واصل دعوته تلك ضمن دروسه لطلبة المعاهد ومقالاته الصحافية ، كلمـــا تعرض للنقد الادبى أو التاريخ الأدبى ٠ ففى كتابه « فى الأدب والنقد » يعرف طلابه بأن :

---

(١٧) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ١٤ ٠

(١٨) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٣٩١ ٠

« النقد الأدبى فى أدق معانيه هو : فن دراسة الأساليب وتمييزها » (١٩)٠ وواضح أنه يكرر مفهوم لانسون للنقد الذى ردده فى الكثير من المواضع ٠ ثم يستعرض أنواع النقد الأدبى ، فيتحدث عن النقد « الذاتى أو التأثرى» ثم النقد « الشيئى أو الموضوعى » فالنقد « الاعتقادى » والنقد العلمى والنقد التاريخى ، ويشرح هذه المذاهب النقدية شرحا لا يختلف فى أساسه عن شرح لانسون لها ورأيه فيها ، بل يورد أحيانا جملا مقتبسة حولها من مقالة لانسون (٢٠) ٠ ثم يخصص جزءا من الكتاب لتتبع تاريخ النقد الأدبى منذ اليونان حتى العصر الحاضر ، مستعرضا أشهر النظريات النقدية ومعرفا بكبار النقاد الأوروبيين ، مستخلصا أن النقد الأدبى المعاصر ينقسم الى ثلاثة أنواع :

١ ــ النقد الصحافى ٠

٢ ــ النقد الجامعى كنقد « لانسون » و « بيديى » و « هازار » و « ستروسكى » و « مورنيه » من أساتذة الجامعة ٠

٣ ــ نقد رجال الأدب مثل أناطول فرانس ، وأندرى جيد ٠

ومن استعراضه للنقد الجامعى وأعلامه ، يستخلص أن أعلامه السالفى الذكر : « يمتازون بالتحقيق التاريخى ودقة المنهج والروح العلمية » (٢١) ٠ وهل هناك نقد أفضل من النقد الذى يمتاز بالتحقيق التاريخى ودقة المنهج والروح العلمية ؟! ٠

عرف مندور طلابه بالمنهج التاريخى وأقطابه ، مضفيا عليه صفات يتمنى كل باحث أن يتصف بها ، وبذلك يكون قد دفعهم الى اتباعه دفعا غير مباشر ٠ أما فى كتابه « النقد والنقاد المعاصرون » ، فاستعرض أشهر النقاد العرب المحدثين بدءا بالشيخ (حسين المرصفى ١٨٨٩) ، ف(ميخائيل نعيمة ١٨٨٩ ــ ١٩٨٨) و (عبد الرحمن شكرى ١٨٨٦ ــ ١٩٥٨) و (عباس محمود العقاد ، ١٨٨٩ ــ ١٩٦٤) و (ابراهيم عبد القادر المازنى ١٨٩٠ ــ ١٩٤٩) و (لويس عوض ١٩٩٠) ، لينتهى بيحيى حقى ١٩٠٥ ؟ مستعرضا أهم مؤلفاتهم وما ورد فيها من قضايا نقدية ، ليستخلص أثر ذلك أن النقد العربى الحديث لا يخرج عن ثلاث مدارس نقدية :

---

(١٩) د٠ مندور (محمد) فى الأدب والنقد ، دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ١٠ ٠

(٢٠) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ١٠ ــ ٢١ ٠

(٢١) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ١١٥ ٠

١ ـ مدرسة النقد التوجيهي ، وتضم أولئك النقاد الذين ركزوا اهتمامهم على توجيه الأدب والفن الى الحياة والمجتمع منادين بفكرة الأدب الهادف ، القائد للحياة على أساس التفكير الاشتراكي ، فطالبوا الأديب أو الفنان بتحمل المسؤولية والالتزام بقضايا شعبه ومجتمعه (٢٢) .

٢ ـ مدرسة النقد التفسير ى ، وتضم في مجملها أساتذة الأدب الذين : « يغلب على عملهم دراسة المؤلفات الأدبية التي غربلها الزمن ، فاحتفظ بالجيد منها وطوى الرديء ، بحيث لم يعد في دراستها مجال واسع لتقييمها على أساس من الجودة أو الرداءة ، كما أنه لم يعد هناك بالبداهة مجال للنقد التوجيهي فيها ، وانما يعيد أساتذة الأدب تناولها بالدراسة لاعادة فهمها وتفسيرها وتوليد الجديد منها في ضوء ثقافتهم الواسعة وخبراتهم الدائمة التجدد » (٢٣) .

٣ ـ مدرسة النقد التقييمي ، وتتضمن تلك الأعمال التي تقوم العمل الأدبي تقويما : « قد يكون تأثريا جماليا خالصا كما قد يكون موضوعيا علميا أو شبه علمي ، فقد كانت لنا فيه مشاركة » (٢٤) .

وواضح أن النقد التقييمي لا يستغنى عن التفسير ، كما أن النقد التوجيهي يستعين بالتفسير والتقييم ، قبل أن يصل الى التوجيه ، الا أن السمة الغالبة على أى اتجاه هي التي تكسبه صفة التفسير أو التقييم أو التوجيه (٢٥) .

ان التفكير في هذه المدارس النقدية التي سادت النقد العربي الحديث حسب رأى مندور ، يبين لنا أنه لم يخرج عن المفاهيم التاريخية اللانسونية في نقد الأدب . فالنقد التفسيرى لايختلف في شيء عن دراسة النصوص وشرحها ، والنقد التقييمي مرحلة من مراحل دراسة النصوص، اذ قبل تقييم أثر من الآثار لابد من دراسته ، أى تفسيره ، كما أن النقد التوجيهي لا يستطيع الاستغناء عن التفسير والتقييم . فقبل وصول الناقد الى توجيه مجتمعه أو شعبه من خلال التنويه أو التنديد بآثار أدبية معينة ، عليه بتفسيرها ، وتقييمها تقييما تأثريا أو موضوعيان ، وتبيان مواطن الجمال والقبح فيها ، ومدى صلتها بالمجتمع والحياة والتزام مؤلفها بقضايا مجتمعه وعصره ، وبعده عن الانطواء .

---

(٢٢) د. مندور (محمد) : **النقد والنقاد المعاصرون** ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة د.ت ، ص ١٩٨ ـ ١٩٩ .

(٢٣) د. مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

(٢٤) د. مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

(٢٥) د. مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ١٩٩ .

ونظرا لتكامل هذه المدارس النقدية وتداخلها ، حسب رأى مندور ، ثم اعترافه بمساهمته فى النقد التقييمى ، فانه يكون بذلك قد ساهم حتما فى النقد التفسيرى أيضا . فالناقد لا يقيم أثرا الا بعد تفسيره وشرحه وتحليله ، وتبيان مواطن القبح والجمال فيه .

ويختم كتابه « النقد والنقاد المعاصرون » بمقال يدعو فيه الى منهج نقدى جديد سماه ؟ المنهج الأيديولوجى فى النقد » ، استهله بتعريف النقد ، مقررا مرة أخرى بأن : « هناك شبه اتفاق على أن النقد هو فن تمييز الأساليب » (٢٦) . ومن المعلوم أن هذا التعريف للنقد لانسونى ، ردده مندور فى مقالاته ومؤلفاته منذ عودته من فرنسا ، كما هو مبين سابقا ثم استعرض تطور « النقد الأدبى » منذ عهد اليونان حتى العصر الحاضر ، حيث ظهرت فلسفات أعطت للأدب وظائف وأهدافا فى الحياة زيادة عن وظيفته الجمالية : « كان المنهج التأثرى والمنهج الموضوعى هما اللذان يتصارعان فى النقد فى أواخر القرن الماضى وأوائل الحاضر قبل أن تظهر وتسيطر فلسفات جديدة على وظائف الأدب والفن وأهدافهما فى الحياة ، وهى فلسفات لم تعد تسلم للآداب والفنون بأنهما نشاط جمالى فحسب . وأهم هذه الفلسفات : الفلسفة الاشتراكية والفلسفة الوجودية اللتان نتج عنهما منهج نقدى جديد نستطيع أن نسميه بالمنهج الأيديولوجى » (٢٧) .

يتمثل المنهج الأيديولوجى اذن فى تطبيق الفلسفة الاشتراكية فى دراسة الأدب ، وهو بعبارة أخرى النقد التوجيهى ، كما سماه مندور سابقا ، وبذلك لم يعد لفكرة الفن مكان ، فالأدب والفن أصبحا فى خدمة الحياة وتطويرها نحو الأفضل ، ولم يعد من الممكن أن يظل الأدب مجرد صدى للحياة ، بل أصبح عليه أن يكون قائدا لها ، فقد آن الآوان لكى يلتزم الأديب بمعارك شعبه وقضايا عصره الانسانية (٢٨) . وعلى أساس هذه المنطلقات التى التزم النقد الأيديولوجى بعدة قضايا أدبية كبيرة مثل : « قضية الفن للحياة وقضية الالتزام فى الأدب والفن ، وقضية الأدب والفن الهادفين ، وقضية الواقعية فى الأدب والفن ، وتفضيل الأدب أو الفن القائد على الأدب أو الفن الصدى » (٢٩) . وتتلخص خطوات « المنهج الأيديولوجى » النقدية العملية فى رأى مندور فى : التفسير

---

(٢٦) د. مندور (محمد) ، المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

(٢٧) د. مندور (محمد) ، المرجع السابق ، ص ٢٣٣ .

(٢٨) د. مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

(٢٩) د. مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٢٣٦ .

والتقييم والتوجيه (٣٠) • ومن الواضح أن خطوات هذا المنهج لا تختلف في شيء البتة عن المدارس التي سادت النقد العربي الحديث واستعرضها « مندور » في كتـــابه هذا ، وبذلك تكون دعوته الى « النقد التوجيهي » أو « النقد الايديولوجي » والتزامه به ، مساهمة منه في المدارس النقدية التي عرفها النقد العربي الحديث ، لأنها تتماشى وتطوره العقلي والفلسفي والسياسي •

مارس النقد التفسيري ــ شرح النصوص ــ وأعجب به ، لما أعجب بالنقد التقييمي ومارســه لاقتناعه بالفكر الديمقراطي الاشــتراكي الذي كان قد تجلى نقديا في اللانسونية ، فتشبع به في السوربون • لقد اقتنع بالفكر الديمقراطي الاشتراكي منهجا فكريا ، كما اقتنع باللانسونية منهجا في دراسة الأدب يتماشى ورؤيته الديمقراطية الاشتراكية للحياة (٣١) فدعا طلابه وقراءه منذ بداية نشاطه النقدي الى اعتماد المنهج التاريخي ــ اللانسونية ــ كلية أو جزئيا في دراساتهم •

وعندما تغير نظام الحكم بمصر سنة ١٩٥٢ م ، وظهـــر التوجـه الاشتراكي في أجهزة الدولة وتولى مجمـــوعة من المثقفين الاشتراكيين الاشراف على المؤسسات الثقافية ، اقتنع مندور بالفلسفة الاشتراكيـــة منهجا في الحياة السياسية والاجتماعية ، وبالنقد الأيديولوجي منهجا في دراسة الأدب ونقده متماشيا مع فلسفته الجديدة (٣٢) ! فدعا الطلبـة والقراء الى المنهج الأيديولوجي » الذي لا يختلف في حقيقته عن المنهج التاريخي ــ كما يستشف من شرح مندرو له الا في وظيفة التوجيه ، توجيه الأدب والأديب الى الالتزام بقضايا الشعب والعصر •

لقد تشبع مندور بالمنهج التاريخي ، فدعا الى اتباعه جزئيا أو كليا لأنه المنهج الذي يتماشى ورؤيته الفكرية والسياسية للحياة ، فلما غير منهجه السياسي ، لم يغير منهجه النقدي ، وانما أضاف اليه وظيفة نقدية جديدة تتطلبهـــا الرؤية الجديدة للمجتمع والعلاقات المنظمة للمجتمع بالسلطة هي وظيفة « التوجيه » للقارىء في فهم النص الأدبي ، وتوجيه المبدع نحو قضايا وموضوعات ابداعية ان طرقها بأساليب معينة ساهم في بنـــاء مجتمع اشتراكي مبني على أسس وعلاقات تختلف عن أسس المجتمعات التقليدية البالية وعلاقاتها • وبذلك ، نستطيع القول انه لم يغير

---

(٣٠) د• مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٢٣٦ ــ ٢٣٨ •

(٣١) انظر الفصل الأول من الباب الرابع ، ص ٢٥٠ •

(٣٢) دوارة (فؤاد) : شيخ النقـاد يتحـدث ، مجلة « المجلة » ، فبراير ١٩٦٤ ، ص ٦٥ •

منهجه النقدى فى كتابه « النقد والنقاد المعاصرون » رغم دعوته الى « المنهج الايديولوجى » ذلك انه احتفظ بالمنهج التاريخى تحت تسميات مختلفة . ومن ثم ، فان المنهج الايديولوجى هو المنهج التاريخى مع اضافة وظيفة نقدية جديدة عليه هى التوجيه تماشيا مع التوجه الاشتراكى للدولة ومؤسساتها الثقافية آنذاك .

تحدث مندور فى كتاب « الأدب وفنونه » عن « فن النقد » ضمن سلسلة محاضرات ألقاها على طلبته سنة ١٩٩٢ م فأعاد الحديث عن نشأة « النقد التأثرى » وملازمة تطوره لتطور الفنون الأدبية الأخرى أولا ، ثم لتطور المذاهب الفلسفية ثانيا لأنها الاطار العقلى الذى ينطلق منه الناقد ، عادة ، فى تعامله مع الظاهرة الأدبية واستخلاص قوانينها لتصبح قواعد منبعة ، حتى يتغير المجتمع بفعل فلسفة جديدة ، أو تأتى فلسفة جديدة لتفسيرها . فينطلق منها الناقد مرة أخرى فى دراسة الظاهرة الأدبية ، فيتطور النقد بتطور الأدب من جهة ، والفلسفة من جهة أخرى .

لقد تتبع تطور فن النقد الأدبى منذ عهد اليونان حتى القرن التاسع عشر ، مفيضا فى الحديث عن كل من هيبوليت تين ونظريته الشهيرة ، ثم برونتيير ومحاولته تطبيق نظرية دارون التطورية فى دراسة الأدب ، وأخيرا « سانت بوف » الذى يعده أكبر نقاد فرنسا ، بل ربما يكون أكبر نقاد العالم بطريقته فى رسم لوحات نقدية للأدباء . ثم يشير الى أن القرن التاسع عشر عرف نقادا لا يقلون أهمية عن نقاد فرنسا مثل الناقد الألمانى « لسنج Lessing ١٧٢٩ - ١٧٨١ » صاحب كتاب « لا كون » (٣٣) .

لقد عرف النقد ازدهارا كبيرا فى القرن التاسع عشر ، لازدهار الفنون الأدبية وتنوعها ، وظهور فنون جديدة كالرواية مثلا ، وتعدد الأغراض المسرحية ، ثم تعدد الفلسفات وتطور وسائل الاتصال الثقافى بصفة عامة ، والأدبى بصفة خاصة ، وانتقال مجال القراءة الأدبية والنقدية من طبقة محدودة ، هى طبقة الكهان والنبلاء فى العصور الوسطى ، الى طبقات عديدة تضم البرجوازية وفئات أخرى من الشعب ، وانتشار المؤسسات التعليمية وتطورها ، فأدى كل ذلك الى ظهور مناهج نقدية جديدة ، أهمها حسب مندور : « المنهج العلمى الجامعى الاكاديمى الذى يوازن بين كافة المناهج ويأخذ من كل ما يلائمه بعد تسديده والتخلص من أخطاره . ولعلنا نجد خير توضيح لهذا المنهج الخاص بدراسة الأدب والتفريخ له فى المقال الجامع المانع الذى كتبه أستاذ

---

(٣٣) د. مندور (محمد) : **الأدب وفنونه** ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة . د. ت ص ١٣٩-١٤٦ .

الأدب الفرنسى الأكبر « جوستاف لانسون » ضمن سلسلة « مناهج البحث فى العلوم » وقد ترجمناه الى العربية » (٣٤) ٠

وعلى هذا فان أهم المناهج النقدية يتمثل فى المنهج العلمى الجامعى الأكاديمى كما حدده لانسون الأستاذ الأكبر ، على حـــد تعبير منـــدور ســنة ١٩٩٣ م ، ويبين لنـــا مدى لانسونية منـــدور حتى بعـــد المرحلة الأيديولوجية التى نادى فيها بالأدب الهادف والالتزام والواقعية ، وهى مرحلة كانت فى اعتقادى استجابة لموجة فكرية وسياسية عمت البلاد فترة من الزمن ٠

وعندما انتقل الى شرح وظائف النقد الأدبى وتعريفه ، أو رد تعريف لانسون للنقد والمتمثل فى أنه : « فن تمييز الأساليب » (٣٥) أما فيما يتعلق بوظائف النقد فانه يكرر الوظائف التى ذكرها فى كتاب « النقد والنقاد المعاصرون » ، أى الوظائف الثلاث التى عدها مدارس نقدية سادت النقد الغربى الحديث ، وهى : التفسير والتقييم والتوجيه (٣٦) ، وهى وظائف متداخلة ، لا تخرج عن المنهج التاريخى ، الا فى وظيفة الوجيه التى حملتها الفلسفة الاشتراكية مسؤولية أكثر مما حملتها الديمقراطية الاشتراكية ، تلك الفلسفة التى غذت فكر مندور فى السوربون ، وجعلته يتبنى المنهج التاريخى الأكاديمى فى دراسة الأدب ويدعو للعمل به منذ عودته سنة ١٩٣٩ م من فرنسا حتى وفاته ، والدليل على ذلك أنه لخص قبل وفاته بثلاثة أشهر نظريته القديمة كالتالى : « النقد الأدبى هو فن تمييز الأساليب على أن نأخـــذ لفظ الأسلوب بمفهومه الأوروبى الواسع عندما نقول ان الاسلوب هو الرجل نفسه ، ووظائف النقد هى التفسير والتقييم والتوجيه » (٣٧) ٠

لقد ختم مندور نشاطه النقدى . الذى استغرق خمسا وعشرين سنة ومر بمراحل خلع عليهـــا تســـميات مختلفـــة ، بقوله بأن النقد هو « فن تمييز الأساليب » على حد تعبير لانسون الذى كان يعنى بذلك الذوق التاريخى فى دراســة الأدب : « يجب أن يكون لنا فى الأدب وفى الفن ذوقان : ذوق شخصى يتخير المتع والكتب واللوحات التى نحيط بهـــا أنفسنا ، وذوق تاريخى نستخدمه فى دراسته ، وهو ما يمكن أن نعرفه

---

(٣٤) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ١٤٦ ٠

(٣٥) د٠ مندور (محمد) ٠ المرجع السابق ، ص ١٤٧ ٠

(٣٦) د٠ مندور (محمد) . المرجع السابق ، ص ١٤٧ ٠

(٣٧) دوارة (فؤاد) : **شيخ النقاد يتحدث** مجلة « **المجلة** » فبراير ١٩٦٥ ص ٧٩ ٠

بأنه (فن تمييز الأساليب) (٣٨) • ومعنى ذلك أن منـدور بدأ نشاطه النقدى لانسونيا وانتهى لانسونيا ، رغم التسميات التى كان يطلقها من حين لآخر ، اما تمويهـا لايهام القـارىء بأنه ابتكر منهجا جـديدا ، واما تماشيا مع تيار جديد فرض وجوده فى ميدان النقد • ولم يتخلص خلال كل ذلك من أسر اللانسونية ـ وهذا من حيث الدعوة اليها ـ التى كانت تتلاءم وميوله الأدبية من جهة ، وعقليته القانونية من جهة أخرى • كما كانت تتلاءم وفلسفة الديمقراطية الاشتراكية التى اعتنقها أثنـاء دراسته بالسوربون (٣٩). •

لقد اقتنع مندور باللانسونية ، فدعا طيلة حياته النقدية للاخذ بها فى دراسة الأدب العربى تلميحا أحيانا وتصريحا أحيانا أخرى ، وكان متمثلا ومستوعبا لها الاستيعاب التام ، الأمر الذى دفعه الى ترجمة مقالة لانسون حول منهج البحث فى الآداب التى تعد دستور اللانسونية وذلك حتى يضع أمام القارىء والباحث العـربى المنهج المفضل لديه فى أكمل صورة ، فهل طبقها فى دراساته التطبيقية على الأدب العربى أو لم يطبقها ؟ ذلك ما سيتضح فى الفصل التالى •

(٣٨) لانسون : منهج البحث فى تاريخ الادب ، (ترجمة د• مندور) ، ص ٤٠٥ •

(٣٩) مندور (محمد) : مذهبى فى النقد ، مجلة « المجلة » ، عدد ١٠٣ ، القاهرة يوليو ١٩١٥ ، ص ٥٨ـ٦٠ •

الفصل الخامس

محمد مندور

وتطبيقه للمنهج التاريخي

نشر مندور الكثير من الكتب ، حوت مقالاته المنشورة فى الصحف والمجلات ، ثم محاضراته التى كان يلقيها على طلبة المعاهد المختلفة • وحين نستعرض كتبه ، يتضح لنا أنها لم تؤلف تأليفا منهجيا أكاديميا ، فهى مزيج من المقالات الموجهة لعامة القراء ، كتبت على عجل لمسايرة سرعة صدور الصحف والمجلات ، ثم مواعيد الدروس التى كان يلقيها على طلبة المعاهد المختلفة ، مثل معهد البحوث والدراسات العربية ، ومعهد الفنون المسرحية ومعهد الصحافة ، وكانت كلها دروسا تهدف الى تعريف الطلبة بأجناس أو مذاهب أو تيارات أو شخصيات أدبية تعريفا عاما • فكان يقدم فيها معلومات أدبية مدرسية ليست وليدة البحث والتنقيب الأكاديميين ، وانما هى معلومات مستقاة من الكتب المدرسية ، ولذلك جاءت مؤلفاته خلوا من التطبيق المنهجى الصارم للمنهج التاريخى الذى دعا الى اتباعه طيلة حياته النقدية كما سبق القول : فطبيعة المنهج التاريخى المدققة الصارمة المبنية على التروى والتأنى لا تتماشى والنقد الصحافى السريع الذى لا يهدف الى استكناه الحقيقة بقدر ما يهدف الى تعريف عامة القراء بمعلومات عامة أو اطلاعهم على وجهة نظر خاصة ، ولا تتماشى أيضا والدروس العادية الموجهة الى طلبة المعاهد قصد تعريفهم بمعلومات أدبية عامة • لذلك يلتزم فيها مندور بتطبيق المنهج التاريخى تطبيقا دقيقا ، مكتفيا فى جل كتاباته بالنقد التأثرى حسب المفهوم اللانسونى ، ولا نستثنى من كتبه سوى بحثه الأكاديمى • « النقد المنهجى عند العرب » الذى أعده النيل درجة الدكتوراه ، ودعا فى مقدمته الى العمل بالمنهج التاريخى ، مصرحا بأنه سيطبقه فى بحثه هذا (١) : « ومعنى هذا هو أننا

(١) د• مندور (محمد) : النقد المنهجى عند العرب ، ص ١١ •

نفضل الأخذ بالمنهج التاريخى حتى عندما نحاول أن نضع للنقد حده ، وهذا هو المنهج الذى استقر الباحثون على جدواه منذ أوائل القرن التاسع عشر الى اليوم ، وبفضله جددت الانسانية من معرفتها بتراثنا الروى وزادته خصبا » • انه ليصرح بعزمه على تطبيق المنهج التاريخى لأنه ــ حسب رأيه ــ المنهج الذى أجمع الباحثون على جدواه من جهة وجددت الانسانية بفضله معرفتها بتراثها من جهة أخرى ، ولذلك عزم على تطبيقه فى بحثه هذا حتى فى محاولته وضع حد للنقد عند العرب أى انه كان يريد أن يطبق مبادىء المنهج التاريخى وأسسه وخطواته عند بحثه عن مفهوم « النقد » فى النقد العربى القديم • فكيف كانت نتائج هذا التطبيق •

لقد قصد بعنوان « النقد المنهجى » : « ذلك النقد الذى يقوم على منهج تدعمه أسس نظرية أو تطبيقية عامة ويتناول بالدرس مدارس أدبية أو شعرية أو خصومات يفصل القول فيها ويبسط عناصرها ويبصر بمواضع الجمال فيها » (٢) • وعلى هذا الأساس دار البحث حول النقد العربى القديم القائم على أسس نظرية وخطوات عملية أو على واحدة منها على الأقل ، دون الاهتمام بتلك الأحكام والآراء النقدية التى كانت تصدر عن الشعراء أو حكام الأسواق لافتقادها الى الأسس النظرية ، وعدم اتباعها خطوات عملية •

استعرض مندور مؤلفات النقد العربى القديم : « منذ أول كتاب وصل الينا فى النقد وتاريخ الأدب وهو كتاب « طبقات الشعراء » الذى كتبه ابن سلام الجمحى فى القرن الثالث الهجرى ، كما تتبعناه الى أن تحول النقد الى بلاغة على أيدى أبى هلال العسكرى » (٣) • وبحث فيها عن الأسس النظرية أو الخطوات العملية التى تضفى على الأثر النقدى صفة المنهجية ، وتساعد الناقد على تمييز الأساليب المختلفة (٤) ، باظهاره خصائص الصياغة وتحليلها ، ليأتى مؤرخ الأدب ، بعد ذلك ، فيكمل العمل اعتمادا على النتائج النقدية المتوصل اليها ، فيجمع المؤلفات تبعا لما بينها من وشائج فى الموضوع والصياغة واضعا تاريخ الفنون الأدبية أو تاريخ التيارات العقلية الأخلاقية ، أو تاريخ عصور الذوق (٥) ، حسب نوع الوشائج القائمة بين الآثار المختلفة • لقد بحث مندور عن كل ذلك فى آثار النقد العربى القديم ، على أساس هذه المنطلقات المنهجة التاريخية اللانسونية ، بدءا بأول أثر نقدى عرفته العرب وانتهاء بمؤلفات القرن

---

(٢) د• مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٥ ••

(٣) د• مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٥ ــ ٦ •

(٤) د• مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ١٤ •

(٥) د• مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ١٤ •

الخامس الهجرى التى اعتبرها نقطة تحول النقد العربى القديم الى بلاغة ، فجاء بحثه فى قسمين أساسيين ، أولهما تاريخ النقد من ابن سلام الى ابن الأثير ، وثانيهما موضوعات النقد ومقاييسه ٠

اولا : تاريخ النقد من ابن سلام الى ابن الأثير :

استهل مندور تاريخه للنقد العربى بدراسة كتاب «طبقات الشعراء» لابن سلام الجمحى فاستعرض الكتاب وطريقة تاليفه على ضوء المنطلقات المنهجية التى حددها لنفسه ، فبحث عن منهج الكتاب المتمثل فى تقسيم ابن سلام للشعراء حسب مقياس زمانى الى جاهليين واسلاميين ، ثم حسب مقياس مكانى بمدى انتشارهم فى الحواضر مثل مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين ، الا أن هذين « الفصلين لم يكونا عنده الا اطارين كبيرين أدخل فيهما تقسيمه للشعراء على أساس من النقد الأدبى » (٦) ٠ وهذا أمر طبيعى ، فالنقد مرحلة أولى فى الدرس الأدبى منهجيا ٠ فهل كان نقد ابن سلام منهجيا أو كان امتدادا للنقد العربى فى الجاهلية وعهد بنى أمية ؟ ذلك النقد الذوقى الذى كان يفتقر الى شروط الذوق من دربة ومعرفة ومراجعة وتعليل ، أى أنه لم يكن متقيدا بالروح العلمية والمنهجية، مكتفيا بالاحساس الفنى (٧) ٠ أسئلة لن يجيب عنها سوى البحث التاريخى المنهجى ٠ بحث فى كتاب ابن سلام عن الأسس المنهجية ، فلم يجد منها الا «الدربة والممارسة» (٨) التى يشترطها ابن سلام فى الناقد . حيث يقول : « وقال قائل لخلف : اذا سمعت أنا بالشعر أستحسنه فما أبالى ما قلت أنت فيه وأصحابك٠ قال : اذا أخذت درهما فاستحسنته، فقال الصراف : انه ردىء ! فهل ينفعك استحسانك اياه » (٩) ٠

فهذا دليل على كون الدربة والممارسة أساسا نقديا عند ابن سلام ٠ ثم بحث عن الخطوات العملية التى يوجبها المنهج التاريخى ، فلم يجد منها الا انتباه ابن سلام الى « تحقق النصوص وصحة نسبتها » (١٠) ، تفاديا لتلك الأشعار التى وضعتها القبائل عندما استقلت شعرها ، أو وضعها الرواة ٠ فالروح القبلية كانت سببا فى افساد نسبة الشعر والشعراء على هذا النحو ٠

---

(٦) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ١٣ ٠

(٧) د٠ مندور (محمد) المرجع السابق ، ص ١٦ ــ ١٧ ٠

(٨) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ١٨ ٠

(٩) الجمحى (ابن سلام) : **طبقات فحول الشعراء** ، (تحقيق محمود شاكر) السفر الاول ، مطبعة المونى ، القاهرة ، د٠ت٠ ، ص ٧ ٠

(١٠) د٠ مندور (محمد) : **النقد المنهجى عند العرب** ، ص ١٩ ٠

ولتحقيق النصوص ونسبتها الى أصحابها ، انتبه ابن سلام فى رأى مندور الى ضرورة تحلى الناقد بالروح العلمية فى التحليل والتعليل (١١)٠

وما عدا هذه الملامح المنهجية القليلة التى استخلصها من كتاب ابن سلام ، فانه لم يعثر على أسس نظرية أو خطوات عملية تضع نقد ابن سلام ضمن النقد المنهجى فهو : « لم يشّبب أحكامه بتحليل لنص أو ذكر مصفات مميزة ٠ وان أورد خصائص جاءت عامة غامضة غير دقيقة لقوله عن أبى ذؤيب الهذلى « انه شاعر فحل لا غميزة فيه ولا وهن » (٠٠٠) واذن ، فابن سلام لم يتقدم بالنقد الفنى الى الأمام شيئا كبيرا وان كان قد صدر فى تحقيقه للنصوص عن مذهب صحيح ، وحاول أن يدخل فى تاريخ الأدب العربى اتجاها نحو التفسير ومحاولة للتبويب تقوم على أحكام فنية ، ولهذا نستطيع أن نظل عند ملاحظتينا السابقتين من عدم صدور النقد ـ كفن لدراسة النصوص وتمييز الأساليب ـ عن منهج مستقيم وروح علمية فى تعليل الأحكام » (١٢) أقر مندور بريادة ابن سلام للنقد العربى واستعداداته المنهجية ـ كما تتجلى فى كتابه ـ الا أن عدم اعتماده على النصوص الشعرية أولا ، وانسياقه وراء النقد الذوقى الخالى من الشروط المنهجية ثانيا ، جعل مندور يخرجه من زمرة النقاد المنهجيين ، لخلو عمله من أسس المنهج التاريخى أو خطواته كما فهمه مندور وكما جعله منطلقه فى الدراسة والتحليل ٠ وهى نتيجة منطقية اذا نحن أخذناها بمقياس المنطلقات ، الا أن مندور غالى كثيرا فى تشدده مع ابن سلام الذى كان يتعامل مع مادة شعرية لما تثبت بعد ، فى عهد كان الاهتمام فيه منصبا على مجالات أخرى من الدرس ، ومن ثم فان مجرد اهتمام ابن سلام بدراسة الشعر والشعراء فى تلك الفترة بالذات دليل قوى على تمتعه بعقلية نقدية ذواقة تنحو منحى علميا حسب ظروف عصره ٠ ثم واصل تاريخه للنقد العربى بدراسته كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ، فبحث فيه عن الأسس النظرية والخطوات العملية للمنهج المتبع ، فلاحظ أن المؤلف لم يأخذ ، أسوة بابن سلام ، بفكرة الطبقات وانما اعتمد على التفكير المنطقى المجرد فى معالجة القضايا النقدية ، وبخاصة قضية القديم والجديد فى الشعر حيث كان موقفه ثورة نقدية : « صادرة عن نظر فلسفى أكثر من صدورها عن حكم استقراه من طبيعة الشعر القديم والحديث ونسبة الجودة فى كل منهما ، أو قربهما من مثل أعلى فى الشعر » (١٣) ٠ وذلك من خلال قوله : « ولم أسلك ، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له ، سبيل من قلد ، أو استحسن باستحسان

---

(١١) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٢٠ ٠

(١٢) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٢٢ ٠

(١٣) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٢٣ ٠

غيره • ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر (منهم) بعين الاحتقار لتأخره • بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حظه ، ووفرت عليه حقه فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده الا أنه قيل في زمانه ، أو أنه رأى قائله » (١٤) •

لم يتعامل ابن قتيبة مع النصوص الشعرية نقدا أو تحليلا ، وانما راح يفكر تفكيرا فلسفيا مجردا في قضية الشعر انطلاقا من قضية نقدية شغلت النقد العربي آنذاك هي قضية « اللفظ والمعنى » ، فقسم الشعر الى (١٥) :

١ ـ شعر حسن لفظه وجاد معناه •

٢ ـ شعر حسن لفظه وحلا فاذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى •

٣ ـ شعر جاد معناه وقصر ألفاظه •

٤ ـ شعر تأخر لفظه وتأخر معناه •

وبديهي أن هذا التقسيم منطقي يتماشى والتفكير الفلسفي المنطقي ، ولكن التراث الشعري العربي لم يصدر عن هذا التقسيم ، ولم يتقيد به • فالشعر قد لا يكون حسن اللفظ ولا جيد المعنى وليس بالضرورة سيئهما • كما أن القصيدة قد تكون جيدة اللفظ في مواضع حسنته في مواضع أخرى ، والأمر نفسه ينسحب على المعنى • ومن هنا ، استنتج مندور أن ابن قتيبة لم يصدر عن منهج نقدي في نقده للشعر والشعراء ، رغم تمتعه بروح علمية تتجلى في بعده عن التعصب للقديم أو عليه ، وضرورة أعمال الفكر والذوق الشخصي ، فهو : « لم ينقد النص نقدا تحليليا (•••) وانما أورد في كتابه « الشعر والشعراء » أخبارا وقصصا عن الشعراء المختلفين ثم بعضا من أشعارهم دون مناقشة ولا حكم الا أن يكون حكما تقليديا يرويه عن الغير ولا فضل له فيه (••) والعيب الواضح في نظرات ابن قتيبة يرجع الى منهجه العقلي ، فهو تقريري النزعة في كل شيء ، وهو أحد تفكيرا منه احساسا أدبيا • وهو لا ينظر الى الظواهر نظرة تاريخية ، بل نظرة منطقية تتناول الأشياء كما تعرض في آخر مراحلها » (١٦) •

---

(١٤) ابن قتيبة · **الشعر والشعراء** ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ١٠ •

(١٥) ابن قتيبة · المرجع السابق ، ص ١٢ ـ ١٥ •

(١٦) د• مندور (محمد) : **النقد المنهجي عند العرب**، ص ٣١ •

ان ابن قتيبة لم يكن ناقدا في رأي مندور، لأنه لم يكن يتمتع بذوق أدبي يمكنه من دراسة النصوص الشعرية ، وانما كان صاحب تفكير فلسفي منطقي ، فكان يتعامل مع القضايا الأدبية تعاملا فكريا مجردا ، فجاءت آراؤه النقدية أحكاما تقريرية أملاها التفكير المنطقي تفتقر الى التطبيق النقدي ، ومن ثم انعدمت عنه الأسس المنهجية أو الخطوات العملية النقدية التي تماشي ومفهوم النقد عند مندور ، ولذلك أخرج ابن قتيبة من تيار النقد المنهجي • واذا سلمنا مع مندور بأن ابن قتيبة لم يطبق مقاييسه الشعرية على الشعراء الذين أوردهم في كتابه ، فان الاهتداء الى تلك المقاييس المنطقية حول قضية « اللفظ والمعنى » وموقفه من القديم و الجديد » اضافة الى بقية القضايا النقدية التي ضمنها مقدمته للكتاب أمر يستحق التنويه • فالتفكير الفلسفي قاعدة يقوم عليها كل منهج نقدي حديث ، ولا وجود لمنهج نقدي لا يستند على فلسفة معينة ، وأكبر مثل على ذلك المنهج التاريخي سليل الفلسفة الوضعية •

كانت أفكار ابن قتيبة وآراؤه النقدية ، وهي سليلة التفكير المنطقي ، خطوة في طريق بناء منهج نقدي يساير الرؤية الفلسفية الناشئة وقتذاك • فلما خبا التفكير الفلسفي الطليق عند العرب ، لم تتبع خطوات ابن قتيبة خطوات أخرى، فبقي جهده خارجا عن النقد المنهجي ابن الفلسفة الوضعية •

ودرس مندور بعد ابن قتيبة منهج أصحاب « البديع » من خلال كتاب البديع لعبد الله بن المعتز (٢٤٧ هـ - ٢٩٦ هـ) وكتاب « نقد الشعر » لقدامة ابن جعفر • فرأى أن كتاب « البديع » ما هو الا تنظير لجملة من طرق الآداء في الشعر سماها المحدثون « البديع » ونظر لها ابن المعتز ، فقسمها الى خمسة أقسام : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامي (١٧) • وأراد بتأليفه هذا الكتاب أن يثبت : «أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين الى شيء من أبواب البديع»(١٨) • فالظاهرة موجودة بوجود الشعر ، وانما يرجع الفضل الى المحدثين في الانتباه لوجودها ، كما يرجع فضل الريادة في التأليف في هذا الفن اليه : « ولعل بعض من قصر عن السبق الى تأليف هذا الكتاب ستحدثه نفسه وتمنيه مشاركتنا في فضيلته فيسمي فنا من فنون البديع بغير ما سميناه • » (١٩) • ولكن دراسة مندور التاريخية لهذا الكتاب جعلته يتساءل : ألم يكن لكتاب أرسطو « الخطابة » وفن الشعر دور في تأليف

---

(١٧) ابن المعتز (عبد الله) : **كتاب البديع** ، (تحقيق كراتشكوفسكي) ، دار المسيرة ، ط ٣ ، بيروت ١٩٨٢ •

(١٨) ابن المعتز (عبد الله) : المرجع السابق ، ص ٣ •

(١٩) ابن المعتز (عبد الله) : المرجع السابق ، ص ٢ ـ ٣ •

ابن المعتز لهذا الكتاب ؟ الواقع أن كتاب « الخطابة » : « يتحدث عن « العبارة » ويذكر الاستعارة والطباق والجناس ورد الأعجاز على ما تقدمها، وهذه أربعة من الخمسة التي ميز بها ابن المعتز مذهب المحدثين ، الخامس وهو المذهب الكلامي ، فذكر ابن المعتز نفسه أنه قد أخذه عن الجاحظ وهو في الواقع ليس من خصائص الصياغة الجديدة بل هو منهج عقلي » (٢٠) ٠

لا يستبعد اذن أن يكون ابن المعتز قد استفاد من مصطلحات أرسطو للبديع وتقسيماته كما عرفتها الحياة الفكرية العربية وقتذاك بدلالات ومفاهيم مضطربة ، ثم أخذ عنه التوجه العام وطريقة تحليل هذه الظواهر مطبقة على اللغة العربية ، فحق له أن يزعم بذلك ريادة هذا الفن عند العرب ٠ ولكن عمله هذا لم يتعد التفكير في تقسيمات ومقاييس بلاغية - بتأثير أو بغير تأثير من أرسطو - بحث عنها بما لها من فروع مستحسنة أو مستقبحة في القرآن والحديث والشعر قديمه وحديثه ، دون أن يجعلها مقاييس نقدية ينطلق منها أو يطبقها في دراسة نصوص شعرية ونقدها وتحليلها بصورة ملائمة ٠

ثم درس كتاب « نقد الشعر » لقدامة بن جعفر انطلاقا من أسس وخطوات المنهج التاريخي ، فوجد الكتاب مجرد : « بناء هيكلي منطقي تصوره قدامة بعقله المجرد » (٢١) وهذا انطلاقا من تعريفه الشعر :« انه قول موزون مقفى يدل على معنى » (٢٢) ، ثم أقام نظريته النقدية على ائتلاف عناصر تعريفه ، أي ائتلاف كل من : اللفظ والمعنى والوزن والقافية مع بعضها البعض في بناء هيكلي يقبله العقل ، ولكنه لا ينطلق من الشعر البتة ، على غرار ما فعله ابن المعتز قبله ، ويقرر بناءه بعيدا عن الواقع الشعري ٠

تساءل مندور بعد النتيجتين المنهجيتين المستخلصتين من دراسة الكتابين السالفي الذكر عما اذا كان كل من ابن المعتز وقدامة بن جعفر قد خطوا بالنقد العربي خطوة منهجية الى الأمام ؟ ولكن منطلقه المنهجي جعله يجيب : « ذلك ما لا يمكن القول به ، فالنقد كما عرفنا هو « فن دراسة الأساليب » ومن الواضح أن هذين الكتابين لا يتناولان نقد الشعر نقدا موضعيا ، وانما هما كتابان علميان قصدا الى ايضاح مبادىء ووضع

---

(٢٠) د٠ مندور (محمد) : النقد المنهجي عند العرب ، ص ٢٦ ٠

(٢١) د٠ مندور (محمد) . المرجع السابق ، ص ٦٨ ٠

(٢٢) قدامة بن جعفر : نقد الشعر (تحقيق مصطفى) ، مكتبة الخانجي ، ط ٣ ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ١٧ ٠

تقسيمات ، فهما خلو من النقد الذى يتناول الأبيات ذاتها ، فينظر فيها من جميع جوانبها » (٢٣) ٠

أخرج مندور ابن المعتز وقدامة بن جعفر من أعلام النقد المنهجى لأنهما لم يصدرا فى عمليهما عن أسس منهجية ، ولم يلتزما بخطوات عملية فى دراسة الشعر ، بل لم يدرساه على الاطلاق ، وانما وضعا أسسا بلاغية نقدية مجردة ، فجاء نقدهما شيئا من التنظير النقدى كان من الممكن أن يتطور الى مناهج نقدية تطبيقية لو بادر صاحباه بالتطبيق ، فلما اكتفيا بالتنظير لم يجد اللاحقون نماذج تطبيقية ، فبقيت تلك الجهود مجرد محاولات تنظيرية لا تؤهل أصحابها للانضواء تحت لواء « النقد المنهجى » ٠

وبديهى أن منطلقات « مندور » المنهجية فى بحثه هذا تؤدى الى استنتاج مثل هذه النتائج بالنظر الى الواقع النقدى السائد آنذاك ٠ ومع ذلك يبقى السؤال المطروح بالحاح هل يصح منهجيا دراسة أفكار وآراء نقدية وتحليلها بناء على أسس منهجية ظهرت متأخرة بقرون عن تلك الأفكار والآراء النقدية ، ثم الحكم بعدم منهجيتها لأنها لا تتماشى وتلك الأسس المنهجية التى لم تكن قد ظهرت بعد ؟! ٠ عندما انتهى من دراسة قضية « القدماء والمحدثين » فى الشعر العربى (٢٤) والخصومات النقدية التى أثارتها بين المتعصبين للقدماء والمتعصبين للمحدثين ، أخرج الصنفين من دائرة « النقد المنهجى » لتعصبهما وصدورهما عن أسس عاطفية أو ذوقية غير علمية مثل « الصولى » زعيم المتعصبين للحديث ، واستنتج أن كل الجهود النقدية السابقة : « كانت سببا فى تأليف الآمدى كتابه الفريد فى النقد العربى « الموازنة بين الطائيين » ففيه نجد خلاصة كل ما ألف فى النقد قبل الآمدى كما نجد منهجا للنقد ومقدرة عليه ، واستقصاء للأحكام ، وتقيدا بالموضوع ، وقصدا فى التعميمات ، وبعد عن التعصب » (٢٥) ٠ فالكتاب منهجى ، لصدوره عن أسس منهجية وخطوات عملية كان المؤلف قد صرح بها ، ثم طبقها عمليا فى كتابه ، فيحدد منهجه فى الصفحات الأولى : « وأن أبتدىء بذكر مساوىء هذين الشاعرين لأختم (بذكر) محاسنهما ٠ وأذكر طرفا من سرقات أبى تمام ، واحالاته ، وغلطه ، وساقط شعره ، ومساوىء البحترى فى أخذه من معانى أبى تمام ، وغير ذلك من غلطه فى بعض معانيه ، ثم أوازن من شعريهما بين قصيدة وقصيدة اذا اتفقتا فى الوزن والقافية واعراب القافية ، ثم بين معنى

---

(٢٣) د٠ مندور (محمد) ٠ المرجع السابق ، ص ٧٣ ــ ٧٤ ٠

(٢٤) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٧٥ ــ ٩٨ ٠

(٢٥) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٩٨ ٠

ومعنى ، فان محاسنهما تظهر فى تضاعيف ذلك (وتنكشف) ثم أذكر ما انفرد به كل واحد منهما فجوده من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه وأفرد بابا لما وقع فى شعريهما من التشبيه وبابا للأمثال ، أختم بهما الرسالة ، ثم أتبع ذلك بالاختيار المجرد من شعريهما وأجعله مؤلفا على حروف المعجم ، ليقرب تناوله ، ويسهل حفظه ، وتقع الاحاطة به ، ان شاء الله تعالى » (٢٦) .

لقد حدد الآمدى منهجه فى دراسة شعر أبى تمام والبحترى تحديدا دقيقا ، يتمثل فى دراسة مساوىء الشاعرين ثم محاسنهم من خلال تتبعه للمعانى والأوزان والقافية والأخطاء والاحالات والتشبيه والأمثال وغير ذلك من الموضوعات والقضايا المشتركة بينهما ، دون تدخل منه لتفضيل هذا على ذاك ، أو حث للقارىء على التحزب لهذا ضد الآخر ، وانما يكشف المحاسن والمساوىء عند كليهما بموضوعية ونزاهة وحياد تاركا الحكم للقارىء : « وأنا أذكر باذن الله فى هذا الجزء (أنواع) المعانى التى يتفق فيها الطائيان ، وأوازن بين معنى ومعنى ، وأقول : أيهما أشعر فى ذلك المعنى بعينه . فلا تطالبنى أن أتعدى هذا الى أن أفصح لك بأيهما أشعر عندى على الاطلاق ، فانى غير فاعل ذلك ، لأنك ان قلدتنى لم تحصل لك الفائدة بالتقليد . وان طالبت بالعلل والأسباب التى أوجبت التفصيل ، فقد أخبرتك فيما تقدم بما أحاط به علمى من نعت مذهبيهما وذكر مساويهما فى سرقة المعانى من الناس (وانتحالها) ، وغلطهما فى المعانى والألفاظ » (٢٧) اتبع الآمدى فى دراسته للطائيين منهجا نقديا متكاملا ، فكان محايدا وموضوعيا فى تعامله مع مادة البحث ، وكانت أسسه النظرية واضحة ، وخطواته العملية محددة ومنظمة ، فدرس المحاسن والمساوىء عند الشاعرين معتمدا فى ذلك على علل وأسباب ليوضح الخبايا والزوايا ، تاركا الحكم النهائى للقارىء : « ونحن وان كنا نحتفظ بالنظر فى تنفيذ الآمدى لهذا المنهج أو عدم تنفيذه كاملا ، الا أننا نستخلص من أقواله هذه روحه فى الدرس ، فهى روح ناضجة ، روح منهجية حذرة يقظة » (٢٨) .

تتجلى روح الآمدى العلمية فى أسس منهجية نادى بها مثل : الموضوعية والحياد والتذوق المبنى على المعرفة والدربة فى دراسة الشعر ، والتخصص العلمى ، والممارسة (٢٩) . وذلك ما مكن مندور من تتبع

---

(٢٦) الآمدى (أبو القاسم الحسن بن بشر) : **المقارنة بين شعر ابى تمام والبحترى** تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ، ج ١ ، ط ٢ ، ١٩٧٢ ، ص ٥٧ .

(٢٧) الآمدى : المرجع السابق ، ص ٤١٠ .

(٢٨) د. مندور (محمد) : **النقد المنهجى عند العرب** ، ص ١٠٠ .

(٢٩) الآمدى : المرجع السابق ، ص ٤١٠ ـ ٤١٩ .

أسس المنهج التاريخي وخطواته عند الآمدى ، فوجده يدقق فى تحقيق النصوص ويمحصها ، قبل أن يصدر رأيه على العكس من سابقيه أمثال « الصولى » ثم يناقش السابقين فى أحكامهم مناقشة علمية دقيقة ، دون اعتبارها حقائق علمية مسلم بها (٣٠) ، مع ذكره للآراء المتناقضة ومناقشتها تفصيلية · كما لاحظ أن الآمدى : « لم يكن يجهل شيئا لا من علوم اللغة العربية وآدابها التقليدية فحسب ، بل ولا من العلوم الفلسفية المستحدثة ، وان تكن العلوم لم تبهره ولا ضللت أحكامه عن الأدب والشعر » (٣١) · ولذلك درس الشاعرين دراسة لغوية وبلاغية لابراز المعانى المختلفة عندهما على ضوء ثقافة العصر ·

استخلص مندور من الأسس المنهجية المبثوثة فى حنايا الكتاب ، والخطوات العملية المتبعة فى دراسة شعر الشاعرين ، وامكانية تطبيق كل ذلك فى دراسات أخرى على شعراء آخرين أن النقد العربى أصبح منهجيا : « هذا هو الآمدى الناقد، بحثنا فى منهجه وروحه وثقافته وعلاقته بالنقاد السابقين له · وحددنا أهميته من الناحية التاريخية (···) وقد أصبح النقد منهجيا كما رأينا عند الآمدى وكما سنرى عند عبد العزيز الجرجانى » (٣٢) ·

أصبح النقد العربى فى رأى مندور منهجيا مع الآمدى لأنه اتبع أسسا منهجية ، وخطوات عملية ، مطبقا كل ذلك على النصوص الشعرية للشاعرين مع الاستعانة من أجل ذلك بالعلم والثقافة والذوق بموضوعية ونزاهة وحياد ، تاركا حرية الحكم النهائى للقارىء · ان هذه الأسس والخطوات لتعتبر عناصر أساسية فى المنهج التاريخى الذى يعده مندور النقد المنهجى ، ولذلك عد نقد الآمدى منهجيا بالمعنى العلمى لكلمة منهج ·

درس مندور الحركة النقدية التى عرفها النقد العربى القديم بالصراع بين أنصار القديم وأنصار الجديد فى الشعر ، وبين أن الفريقين لا يمتون الى النقد المنهجى فى شىء ، لصدورهما فى الآراء والأحكام النقدية عن : أحكام قيمية ، ومواقف مسبقة وأهواء، مستثنيا من تلك الحركة « الآمدى » الذى عده أول ناقد منهجى عرفه النقد العربى القديم ، لدراسته شعر البحترى وأبى تمام فى كتابه « الموازنة » دراسة منهجية ، لها أسسها وخطواتها ، والتزامه بالروح العلمية ،واعتماده على الذوق والدربة فى معالجة شعر الشاعرين ، والجمع بين الذوق والمعرفة دون أن يحرص على اصدار حكمه النهائى ، ثم لصلاحية تطبيق منهجه على شعراء آخرين ،

---

(٣٠) د· مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ١٠٤ـ١٠٦ ·
(٣١) د· مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ١١٩ ·
(٣٢) د· مندور : (محمد) : المرجع السابق ، ص ١٦٢ ·

وبذلك فهو نقد منهجي حقيقي عملي ، طبقه صاحبه ومن الممكن أن يطبقه غيره ٠

بعد أن عرض مندور المعركة النقدية حول القديم والجديد ، وتعصب طرفي المعركة وصدورهما عن أهواء ومواقف مسبقة ، مما جعله يخرج الفريقين من دائرة النقد المنهجي ، وصل الى النتيجة نفسها حين تعرض للمتعصبين للمتنبي والمتعصبين عليه ضمن تلك المعركة النقدية التي عرفها النقد العربي القديم ، وكان المتنبي موضوعها (٣٣) ٠ فتعصب له فريق ، وتعصب عليه فريق ثان من منطلق عاطفي انفعالي ، وليس عن مقاييس نقدية ثابتة ، أو خطوات عملية : « هذا ملخص للخصومة التي أثارها المتنبي حيثما سار ، ولما حركت تلك الخصومة من نقد رأينا أن الأهواء قد لعبت فيها دورا كبيرا سواء في حلب أو في بغداد » (٣٤) ٠ وما دامت الأهواء هي المحرك لهذه الخصومة ، فان ما صدر عنها من أحكام نقدية لا يعد نقدا منهجيا ، اللهم الا ما صدر عن الجرجاني صاحب « الوساطة » ثم الثعالبي صاحب « اليتيمة » (٣٥) ٠

قدم مندور نبذة موجزة عن حياة القاضي الجرجاني ومؤلفاته المفقودة والموجودة مستخلصا منها أن روح القضاء والفقه والتاريخ هي السمة العقلية التي اتسم بها كتاب « الوساطة » (٣٦) للجرجاني : « فهذا كما ترى رجل يقدس العلم ، ويرى فيه نبل الانسان ، ويدعو الى البعد به عن الهوى والتعصب ، وهو يقول بالمحاجة النزيهة التي تذعن للحجة تقيمها » (٣٧) ٠

استنتج هذه النتيجة من مؤلفات الجرجاني ، ومن كتابه « الوساطة » بصفة خاصة ، حيث أوضح أن العلم يتنافى والتعصب أيا كان نوعه ومصدره ، ومن ثم ، قرر أن جل الدراسات التي قا متمحول المتنبي قبله لم تصدر عن روح علمية نزيهة : « وما زلت أرى أهل الأدب – منذ ألحقتني الرغبة بجملتهم ، ووصلت العناية بيني وبينهم – في أبي الطيب أحمد ابن الحسين المتنبي فئتين : من مطنب في تقريظه ، منقطع اليه بجملته ، منحط في هواه بلسانه وقلبه ، يلتقي مناقبه اذا ذكرت بالتعظيم ، ويشيع محاسنه اذا حكيت بالتفخيم ، ويعجب ويعيد ويكرر ، ويميل على من عابه

---

(٣٣) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ١٦٣–٢٤٨ ٠

(٣٤) د٠ مندور (محمد) ٠ المرجع السابق ، ص ٢٤٨ ٠

(٣٥) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٢٤٨ ٠

(٣٦) الجرجاني (القاضي) : **الوساطة بين المتنبي وخصومه** ، (تحقيق محمد أبو الفضل وعلى محمد البجاوي) دار العلم ، بيروت ، د٠ت ، ص ٤٩ – ٥٤ ٠

(٣٧) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٢٥١ ٠

بالزراية والتقصير (۰۰۰) وعائب يروم ازالته عن رتبته فلم يسلم له فضله ، ويحاول حطه عن منزلة بوأه اياها أدبه (۰۰۰) وكلا الفريقين اما ظالم له أو للأدب فيه » (٣٨) ؛ هذه الموضوعية فى البحث ، جعلها الجرجانى ديدنه فى دراسة « المتنبى » ، فلا هو معه ولا هو ضده ، وانما درس ما عيب عليه باحثا عن ذلك العيب عند القدماء ثم المعاصرين مستنتجا أنه أخطأ فى معنى أو بيت مثلما أخطأ غيره ، فلا ضير من ذلك على جودة القصيدة التى ورد بها العيب ، اذ لا يجوز لناقد أن يحكم حكما كليا من جزئية ۰ كما درس ما استحسن عنده باحثا عن أشباه ذلك عند غيره من المتقدمين والمتأخرين مستنتجا أنه لم يكن الوحيد فى الاجادة ، وبالتالى لا لزوم للغلو فى التقريظ والتنويه والاستحسان ، فان وجد ذلك ، فالمتنبى شاعر عظيم ۰

لخص مندور منهج الجرجانى فى قياس الأشباه والنظائر ، مقيما على أساس ذلك وساطته بين المتنبى وخصومه (٣٩) ، دارسا كل القضايا النقدية التى أثارتها الخصومة، قضية قضية ، باحثا عن أشباهها ونظائرها عند الشعراء العرب منذ الجاهلية حتى زمن المتنبى ۰ ان ابراز أشباه ما عيب على المتنبى ونظائرها ، وما استحسن عنده ، يوضح لنا وجوه التحامل عليه أو المغالاة فى استحسان أشعاره : « ورأيت السلامة فى أن أقتصر من هذه (الوساطة) على حسن التبليغ وحسن التأدية ، وتقريب العبارة ، وجمع المتفرق ، ثم أقف منكما حجزة وأخرج عنكما صفرا ، قد أديت عن كل فريق ما تحملته ، وسلمت من الميل فيما تكلفته ۰

وكما لا أحكم على خصمك بالخطأ فى كل ما يذكره ، فكذلك لا أبعدك من الصواب فى أكثر ما تصفه ۰» (٤٠) ۰

ان منطلق الجرجانى فى وساطته علمى واضح ، يتمثل فى النزاعة والحياد ودراسة القضية النقدية فى شعر الشاعر ومقارنتها بأشباهها ونظائرها فى شعر شعراء آخرين ، تاركا الحكم النهائى لمن يرغب فيه فوضع بذلك منهجا تطبيقيا طبقه فى دراسته للمتنبى ، ويمكن تطبيقه فى دراسة شعراء آخرين ، الأمر الذى جعل مندور يستنتج أن الجرجانى : « قد أخذ بمنهج قضائى فى معظم كتابه ، وأن القسم الذى يحتوى على نقد حقيقى أى موضوعى هو الجزء الأخير ۰ وناقدنا رغم ذلك قد أورد فى الجزئين من كتابه الكثير من الحقائق الهامة عن الأدب العربى ، كما كتب

---

(٣٨) الجرجانى (القاضى) : المرجع السابق ، ص ٣ ۰

(٣٩) د۰ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٢٥٦ ۰

(٤٠) الجرجانى (القاضى) : المرجع السابق ، ص ٤١٥ ۰

عدة صفحات يجدر بنا أن نتدبرها ونحن نضعه فى المرتبة الثانية بعد الآمدى • (••) وأما الصفات التى نكبرها فى الجرجانى ، فهى صفات العلماء التى تتميز بالتواضع والحذر والنزاهة وعدم التحيز والعدل ، وتلك صفات تعظم بها قيمة كل نقد صحيح » (٤١) •

لقد رسم الجرجانى بغض النظر عن تحيزه للمتنبى أو عدم تحيزه له ، وعن مدى التزامه بمعاييره الفنية ، طريقة منهجية واضحة ودقيقة قابلة للتطبيق على شعراء آخرين ، تتمثل فى الحياد والنزاهة والدربة والصدق والذوق ، وفى خطوات عملية تقوم على دراسة القضية النقدية فى شعر الشاعر أولا ، ثم البحث عن أشباهها ونظائرها عند غيره باتباع تسلسل تاريخى فى دراسة الشعراء ، والانتقال من البيت الى القصيدة فالغرض ، وبذلك جمع بين التسلسل التاريخى فى تتبع الظاهرة الأدبية أو النقدية من جهة ، والانتقال من الجزء الى الكل من جهة أخرى واضعا بذلك أسسا منهجية واضحة ودقيقة لمنهجه المتبع فى وساطته •

وهكذا حق لمندور أن يدخل الجرجانى ضمن أعلام النقد المنهجى عند العرب ، فقد كان منهجيا فى نقده نظرية وتطبيقا ، بغض النظر عن رأينا الآن فى نقده ذلك ، أثار بكتاب « الوساطة » أذهان العلماء منذ القديم ، ولذلك قال فيه الثعالبى : « ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة فى اظهار مساوىء المتنبى ، عمل القاضى أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه فى شعره ، فأحسن وأبدع وأطال وأطاب وأصاب شاكلة الصواب ، واستولى على الآمدى فى فصل الخطاب ، وأعرب عن تبحره فى الأدب وعلم العرب وتمكنه من جودة الحفظ وقوة النقد فسار الكتاب مسير الرياح • وطار فى البلاد بغير جناح » (٤٢) • وهذا الاعجاب به هو الذى جعل الثعالبى يخصص فى « اليتيمة » فصلا للمتنبى ، درس فيه أخباره وما عيب عليه فى شعره ، وما استحسن فيه • اقتصرت دراسة مندور ليتيمة الثعالبى على الباب الخامس من الجزء الأول المخصص للمتنبى ضمن النقد التى كان هذا الشاعر محورها • درس الثعالبى المتنبى انطلاقا من واقع الخصومة بين المتعصبين له أو المتعصبين عليه ، محددا منهجه بدقة ووضوح منذ بداية الباب قائلا : « وأنا مورد فى هذا الباب ذكر محاسنه ومقابحه ، وما يرتضى وما يستهجن من مذاهبه فى الشعر وطرائقه • وتفصيل الكلام فى نقد شعره ، والتنبيه على عيوبه وعيوبه ، والاشارة الى غرره وعرره ، وترجيب المختار من قلائده وبدائعه ، وبعد الأخذ بطرف

---

(٤١) د• مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٣٠٧ •

(٤٢) الثعالبى : **يتيمة الدهر** ، (تحقيق محمّد محى الدين عبد الحميد) ، مجلد ٢ ، دار الفكر بيروت • د• ت•ص ٤ •

من طرق أخباره ومتصرفات أحواله ، وما تكثر ذوائده وتحلو ثمرته ، ويتميز هذا الباب عن سائر أبواب الكتاب كتميزه عن أصحابها بعلو الشأن في شعر الزمان ، والقبول التام عند أكثر الخاص والعام » (٤٣) ٠

لقد درس المتنبى حسب مخطط دقيق واضح ، فأورد نبذة عن حياته وأخباره منذ طفولته حتى وفاته ، وما تبع ذلك من تحزب له أو عليه ، واعتمد في الوصول الى ذلك على الروايات ، ثم تحدث عن المعانى التى أخذها الكتاب والشعراء عن المتنبى ، ثم سرقاته عن غيره ، ثم المتكرر فى شعره ، من المعانى : « وهذا باب لم نجد له مثيلا عند النقاد ٠ وهو عظيم الأهمية لأن تكرار الشاعر لبعض المعانى قد يدل على امتلائه وانشغاله بأمرها حتى لنستطيع أن نرى فيها أفكاره الأساسية » (٤٤) ٠ كما تحدث عن معايب شعر المتنبى ومقابحه ومحاسنه وروائعه وبدائعه ، للانتهاء بالحديث عن آخر شعر ووفاته ٠

أدرك مندور من دراسة الثعالبى للمتنبى أنه : « «فراء» يخيط آراء غيره بعضها الى بعض ، فهو جامع أكثر منه ناقدا أو مؤلفا (٠٠٠) والثعالبى رجل ضعيف الشخصية حتى لنكاد نجزم بأنه لا رأى له في شيء ، وانما هي انتقادات الصاحب والحاتمى وآراء عبد العزيز الجرجانى وغيرهم تخير من بينها ونظمها » (٤٥) ٠

عاب مندور على الثعالبى اعتماده في نقد المتنبى وتبيان محاسنه ومساوئه على آراء وأحكام أعلام عصره كالصاحب (٩٣٨ م ـ ٩٩٥م) وعبد العزيز الجرجانى ، وحق له ذلك٠ فالثعالبى يورد الرأى النقدى والأبيات الشعرية الدالة عليه ، دون مناقشة للرأى أو الأبيات ، فلا يزيد شيئا عن الجمع والتنظيم والترتيب ، ومع ذلك فقد اتسم عمله بتنظيم منهجى ، حيث قسم «أهل العصر» من شعراء وكتاب وأعلام تقسيما جغرافيا حسب أشهر الأقاليم ، ثم درس أعلام كل اقليم مبتدئا بنبذة عن حياة العلم وأخباره ، مستعرضا شعره أو نتاجه ، مبينا ما أخذه عن غيره ، وما أخذه الغير عنه ، ثم ما يعاب عليه وما يستحسن عنده ، مستشهدا على كل ذلك بآراء كبار النقاد من ابن سلام الجمحى حتى عصره ، وبذلك جاء كتاب « اليتيمة » نموذجا فى النقد العربى القديم للجمع والتنظيم والترتيب ، وهى بعض أسس النقد المنهجى ، ولعل هذا ما جعل مندور يستدرك رأيه فى الثعالبى: « وبانتهائنا من الحديث عن «اليتيمة» ننتهى من الحديث عن النقد المنهجى،

---

(٤٣) الثعالبى · **اليتيمة** ، مجلد ١ ، ج ١ ، ص ١١١ ٠

(٤٤) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٤١٠ ٠

(٤٥) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٣٠٨ ٠

الذى قدم لنا الثعالبى فى فصله هذا عن المتنبى نموذجا له ، عندما يختصر ويجمع ويبوب فى نقط موجزة واشارات عابرة » (٤٦) ٠

عد مندور الثعالبى آخر حلقة فى سلسلة التأريخ للنقد المنهجى عند العرب قديما ، بعدما أخرج نقد الطبقات والنقد القيمى فلسفيا كان أو بديعيا لعدم انطلاق هـذه الأصناف النقدية من دراسـة موضعية للشعر واكتفائها بالتنظير مع استشهاد البعض منها ــ كالنقد البديعى ــ بنماذج من الشعر العربى ، وعدم استشهاد البعض الآخر كالنقد القيمى ذى الأسس الفلسفية عند ابن قتيبة وقدامة بن جعفر ٠

يتجلى النقد المنهجى عند العرب قديما عند مندور فى أرقى درجاته عند الآمدى فى الموازنة ، ثم الجرجانى ، فى الوساطة ، وذلك لصدورهما عن منهج دقيق ذى أسس وخطوات عملية ، وواضح يتميز بالروح العلمية أولا والذوق الأدبى المدرب ثانيا ، ثم دراستهما شعر الشاعر دراسة تحليلية تطبيقيـة على أسس منهجية وخطوات عمليـة ، مع التحقيـق والتدقيـق للنصوص ، ومراجعة آراء السابقين ٠ وترك الحكم النهائى للقارىء ، فقدما بذلك دراستين نقديتين تطبيقيتين قابلتين للتطبيق على شعراء آخرين ٠ ولذلك اعتبر مندور النـاقدين قمة النقد المنهجى ، لأن الكثير من أسس المنهج التاريخى وخطواته العملية تضمنها الكتابان صراحة أو تضمينا ٠ ثم ألحق بالناقدين المنهجيين الثعالبى ، لاتباعه هو الآخر فى دراسته للمتنبى خطة دقيقة وواضـحة ، وبنائه كتاب « اليتيمة » بنـاء منهجيا حتى فى التلخيص والجمع والتنظيم والترتيب ٠ وأكاد أجزم أن اعجاب الثالعبى بالآمدى والجرجانى واعتماده عليهما فى دراسته للمتنبى من الأسباب التى جعلت مندور يلحقه بأعلام النقد المنهجى لاعجابه بالرجلين ٠ وعموما، فان تتبع مندور لحركة النقد العربى القديم ، انطلاقا من المفاهيم والخطوات المنهجية للمنهج التـاريخى ، مكنته من استخلاص مراحل النقد العربى القديم المتمثلة فى :

١ ــ مرحلة التقعيد والتنظير دون الاعتماد على التطبيق ٠ (النقد القيمى النظرى) ٠

٢ ــ مرحلة النقد التطبيقى : (النقد المنهجى) ٠

٣ ــ مرحلة الجمع والتبويب والترتيب : (النقد المنهجى مع بداية ضعفه) ٠

٤ ــ مرحلة الجمود البلاغى : (النقد البلاغى) ٠

(٤٦) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٢١٩ ٠

ثانيا : موضوعات النقد ومقاييسه :

بعد أن أرخ مندور للنقد المنهجي عند العرب قديما من خلال أعلامه ، انتقل الى دراسة موضوعات ومقاييس ذلك النقد في القسم الثاني من كتابه « النقد المنهجي عند العرب » متبعا المنهج التاريخي، منهجه المفضل : « والذي نحرص على ايضاحه هو أننا عندما نحاول أن ندرس النقد العربي دراسة تقريرية لن نخرج لذلك عن المجال التاريخي ، بل سنظل مقيدين بآراء النقاد الذين عرضنا لهم فيما سبق ، نبسطها ونناقشها · واذن فلن نغير في هذا الجزء شيئا من منهجها وانما نحاول هنا أن نستعرض تاريخ مسائل النقد ، بعد أن استعرضنا في الجزء السابق تاريخ النقاد ومناهجهم » (٤٧) · ومن استعراضه لمسائل النقد العربي توصل الى أن أهم الموضوعات النقدية التي شغلت السامع أو القارئ أو الناقد منذ الجاهلية تتمثل في الموازنة والسرقات ·

١ ــ الموازنة : لاحظ مندور ظهور الموازنة عند العرب منذ الجاهلية، وكانت في مراحلها الأولى أحكاما جزئية خالية من التعليل : « ظهرت الموازنة اذن كمفاضلة ، ثم طبقات تقوم على مقاييس فنية ، أو وفقا للأهواء وعصبيات العشائر ، وهذا النوع من النقد لا طائل تحته ، لأن الأحكام فيه مقتضبة غير مفصلة ولا صادرة عن مناهج مستقيمة ، وهو يدل على روح بدائية ساذجة هي روح البداوة ، البعيدة طبعا عن الروح العلمية كل البعد · وأما الموازنة التي نريد أن ندرسها هنا في الموازنة المنهجية ، وتلك لا نجدها الا عند الآمدي الذي كتب فيها كتابا نعتبره كما قلنا من أهم ما خلف العرب من تراث » (٤٨) ·

اكتملت الموازنة موضوعا نقديا في كتاب « الموازنة » عندما أصبحت قائمة على أسس منهجية حددها الآمدي ، وخطوات عملية اتبعها في موازنته وفي استطاعة غيره اتباعها في الموازنة بين شعراء آخرين : وتقوم الموازنة عموما على المحاجة التي يجمع فيها الدارس حجج أنصار كل شاعر وآرائهم ، ومناظرتها بحجج الخصوم وآرائهم ، على أن تكون هذه المحاجة في القضايا العامة ، لينتقل بعد ذلك الى الموازنة التفصيلية مستعرضا فيها كل الجوانب الشعرية التي تجمع الشاعرين ــ موضوع الموازنة ــ أو تفرقهما ، مثل الوزن والقافية والمطلع واللغة والمعاني والسرقات والسبق الى معان وغير ذلك من الجوانب ، معتمدا على دربته ، وذوقه الأدبي وعمله ، مع الالتزام بالأسس المنهجية التي حددها لنفسه : صارت

---

(٤٧) د· مندور (محمد) ، المرجع السابق ، ص ٣٤٠ ·

(٤٨) د· مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٣٤٣ ·

الموازنة عند الآمدى موضوعا نقديا منهجيا لأنها تطورت من مجرد مفاضلة ذوقية أساسها الأهواء والعصبية ، الى مفاضلة منهجية أساسها النهج المنهجية ، مع استنباط الخصائص والمميزات من المادة الأدبية المنقودة نفسها • أى صار الناقد يصدر فى موازنته من دراسته وتحليله للنص الشعرى (٤٩) • الأمر الذى جعل الموازنة قابلة للتكرار والتطبيق على العديد من الشعراء والكتاب ، وبذلك صارت تيارا نقديا ، حسب الرؤية التاريخية للدرس الأدبى •

٢ ـ السرقات : وتعد من أهم القضايا النقدية ، فهى الأساس فى تحديد أصالة الشاعر أو الكاتب • ولقد أثار هذا الموضوع اهتمام النقاد العرب قديما ، وبصفة خاصة منذ ظهور الشاعر أبى تمام وانقسام النقاد الى أنصار للقديم باحثين فى شعره عن سرقاته ، وأنصار للجديد • فلما ظهر « المتنبى » قامت حوله خصومة جديدة ، حاول فيها أعداؤه تجريحه باظهار سرقاته •

أدرك مندور من خلال تتبعه لكتب « السرقات » أن ما كتب قديما حول هذا الموضوع يقوم على أساس التجريح ، مع تفاوت فى درجته : « ولقد كان لنشأه تلك الدراسات وسط الخصومات أثر سئ فى توجيهها، فرأيناها تسعى قبل كل شىء الى تجريح الشعراء ، ولهذا لم تستقم المبادىء التى اتخذت فيها فيصلا ، كما أنهم لم يفرقوا بين السرقة وغيرها » (٥٠) :

فلم يفرق العرب بين : الاستيحاء ، واستعادة الهياكل . والتأثر ، والسرقة بمعنى أخذ جمل أو أفكار أصيلة وانتحالها دون الاشارة الى مصدرها •

وبرغم أهمية موضوع السرقات فى النقد عموما ، فان نشأتها العربية بطابع تجريحى لم يمكنها من التطور منهجيا ، والدليل على ذلك أن الكثير مما كتب فى هذا الموضوع قد طواه النسيان ، اللهم الا مؤلفات قليلة ابتعدت عن الطابع التجريحى ، والتزمت بشىء من الروح

---

(٤٩) د• مندور (محمد) المرجع السابق ، ص ٣٥٦ •
(٥٠) د• مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٣٥٩ •

العلمية مثل نظرية الآمدى فى السرقات التى أقامها على أن : « السرق لا يكون الا فى « البديع المخترع الذى يختص به الشاعر » وأنه لا سرقة : ١ ـ فى العام المشترك من المعانى، ٢ ـ الألفاظ المباحة الشائعة » (٥١)٠ ثم آراء عبد العزيز الجرجانى ، لاتباعه فيها نظرية الآمدى مع تفصيله لمعنى « المعنى العام » الذى أضاف اليه « المعنى الخاص الذى أصبح كالعام المشترك » لكثرة شيوعه (٥٢) ٠ وتكتمل نظرية « السرقات » عند عبد القاهر الجرجانى ، بتفسيره « العام المشترك » و « الخاص » تفسيرا فلسفيا ، فهو : « يسمى النوع الأول (عقليا) والثانى (تخييليا) . فالعقلى هو ما كان وليد التجارب اليومية ، وهو ما يمكن أن نسميه بالحكمة العملية (٠٠٠) والثانى تلك المعانى التى يولدها الشعراء دون أن تلاقى حقيقة أو تصور واقعا » (٥٣) ٠ وهكذا تكتمل نظرية « السرقات » فى النقد العربى القديم ، بتحديد ما يعد سرقة عندما يكون الأخذ فى التخييلى أو الابداعى ، وما لا يعد سرقة وهو الأخذ فى العقلى أو العملى ٠ وعلى الرغم من أن النقاد العرب قسموا السرقة الى أنواع : السرق ، الغصب ، الاغارة ، الاختلاس ، الى غير ذلك من أنواع السرقة ، فان مندور لايرى : « أية فائده فى التمهل عندها ، لأنها لم تبصر بجديد ، وانما هى تقسيمات تتحمل المبادىء التى سبق أن أوضحناها ، وهى أشبه ما تكون بأوجه البديع الخمسة والثلاثين التى أوردها العسكرى كما أنها صادرة عن الروح نفسها » (٥٤) ٠

فلا فائدة من تقسيمات السرقات الأدبية ، لأنها عقلية ، افتراضية ، لم تستنبط من الشعر العربى ، ولا تفيد فى تحليل الشعر ، ولم يطبقها أحد تطبيقا كاملا فى دراسة نص من النصوص ٠

كان موضوع « السرقات » من أهم موضوعات النقد العربى ، ولكن طابعه التجريحى حاد به عن الروح العلمية ، فلم يتطور منهجيا ، وتحول فى تقسيمات شكلية لا يستفاد منها شىء ، ولم يتحول الى نقد تطبيقى موضعى يستمد أسسه من طبيعة النصوص الأدبية وبذلك لم تتطور السرقات الأدبية الى نقد منهجى تطبيقى ٠٠

---

(٥١) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ص ٣٦٦ ٠

(٥٢) د٠ مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٣٦٧ ٠

(٥٣) د٠ مندور (محمد) . النقد المنهجى عند العرب ، ص ٣٦٨ ٠

(٥٤) د٠ مندور (محمد) · المرجع السابق ، ص ٣٦٩ ٠

استعرض بعد الموضوعات مقاييس النقد العربي القديم ، منطلقاً من تصنيفه النقد العربي الى نقد قيمي ، ونقد وصفي ، يختلفان من حيث طبيعتهما وأهدافهما . فالأول يقوم على تقويم قصيدة بالجودة أو الرداءة بناء على مقاييس عادة ما تكون ذوقية صرفة . أما الثاني فيقوم على مناهج أساسها المقارنة والموازنة والمفاضلة ، ولكن الفصل بينهما نادر ، لتلازمهما وحاجة الناقد المنهجي اليهما معا .

ومثلما ميز بين النقد القيمي والمنهجي (٥٥) ، ميز كذلك بين النقد النظري والموضعي ، مخرجاً من دائرة اهتمامه كتابات ابن سلام وابن قتيبة وقدامة بن جعفر وابن المعتز لطابعها التنظيري وخلوها من النقد الموضعي . كما أخرج من دائرة اهتمامه الكتابات النقدية التي جعلت من نقد الشعر همها للاستدلال على اعجاز القرآن بطريقة الاستدلال العكسي مثل كتاب « اعجاز القرآن » لأبي الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) (٥٦) .

تقودنا هذه التقسيمات الى ملاحظة عناية مندور بالنقد الموضعي : « ما كتب في نقد الشعر لذاته وما كتبه نقاد مختصون ، ألفوا كتبهم لهذه الغاية » (٥٧) . فالنقد الموضعي هو ذلك النقد الذي كتب في نقد النص الأدبي في ذاته ولذاته . وبمعنى آخر ، هو النقد الذي ينطلق من النص لشرحه وتحليله والحكم عليه ، اعتمادا على الذوق أولا والمعرفة ثانيا ، بناء على استعانة الناقد بالنقد القيمي ، أو الذوق ، والنقد الوصفي ، أو المعرفة . يبين هذا التحليل لمقاييس النقد العربي التزام مندور برؤية المنهج التاريخي للنقد حتى في بحثه عن مقاييس النقد العربي القديم .

تطورت مقاييس النقد العربي من قيمية الى منهجية ومن نظرية الى موضعية لتبلغ قمة تطورها والمتمثل في المنهجية والموضعية عند كل من الآمدي وعبد العزيز الجرجاني . فهما اللذان درسا الشعر لذاته دراسة موضعية بتطبيقهما النقد القيمي والوصفي ضمن أسس منهجية وخطوات عملية ، واتفاقهما في الكثير من المقاييس والخطوات العملية (٥٨) ، كما سبق تبيان ذلك في الصفحات السابقة .

تتبع مندور مقاييس النقد العربي القديم فوجدها تتجلى في عز نضجها المنهجي عند الناقدين الآمدي والجرجاني لجمعهما بين الذوق الأدبي والمعرفة الأدبية ، فكانا بذلك أقرب النقاد العرب القدامى الى مفهوم

---

(٥٥) د. مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦ .

(٥٦) د. مندور (محمد) . المرجع السابق ، ص ٣٧٧ ـ ٣٨١ .

(٥٧) د. مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٣٨٠ .

(٥٨) د. مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٨ .

« منيير » للنقد باعتباره « فن تمييز الأساليب » · ذلك المفهوم الذى حفظه عن أستاذة المنهجي لانسون وبقى يدعو له طيلة حياته ·

لقد طبق مندور المنهج التاريخي فى كتابه « النقد المنهجي عند العرب » تطبيقا بلغ فيه حد التعسف أحيانا · فمن حيث الأسس المنهجية العامة لم ينطلق من مسلمات أو آراء مسبقة ، وانما عمد الى تحليل موضوعه ، متتبعا مختلف عناصر الموضوع ودراستها فى مضامينها ، فرجع من أجل ذلك الى المصادر الأصلية مطبوعة ومخطوطة ، ودرس الناقد من خلال كتابه أو كتبه ليصنفه مع أمثاله الذين يشترك معهم في الخصائص النقدية ، ثم يحكم على المجموعة انطلاقا من مفهومه للنقد المنهجي النابع من رؤية تاريخية ، وذلك قاده الى رفض كل الكتابات النقدية العربية التى لم تحفل بالنقد الموضعى (التطبيقى) للنص الأدبى فأخرج بذلك من دائرة النقد المنهجي كل الكتابات النقدية النظرية بمختلف أنواعها (فلسفية ، بلاغية ، أخلاقية) وكل الكتابات النقدية التى كان همها الاستدلال على اعجاز القرآن أو الحديث ·

لا يسع المتتبع لمندور فى منطلقاته النقدية ، وتحليلاته لكتب النقد العربي وتصنيفه لها ، الا الاقتناع بالنتائج المتوصل اليها · ولكن شيئا من التفكير فى تطبيقه للمنهج التاريخي اللانسونى على النقد العربي القديم والنتائج الناجمة عن ذلك ، يجعلنا نحس بغلوه ومغالاته فى اخضاعه ظواهر النقد العربى القديم لمفاهيم نقدية منهجية لم تظهر الا حديثا · ومع ذلك فان تطبيقاته الصارمة والدقيقة ، والنتائج المنطقية المحصل عليها تجعلنا نعجب بعمله رغم الاحساس بالغلو الذى دفعه الى اخراج كل المؤلفات النقدية العربية القديمة التى لم تلتزم بمفهومه للنقد — فن تمييز الأساليب — من دائرة النقد المنهجي ، ناسيا أن هذا المفهوم لم يظهر الا بعد قرون وقرون من التطور النقدى ، وأن السابق لا يتبع اللاحق فى الأحكام والقوانين ·

اعتبر الآمدى والجرجانى الناقدين المنهجيين الحقيقيين ، لاتباعهما فى كتابيهما « النقد الموضعى » ، أى النقد التطبيقى ، ومن ثم كان من الأسلم أن يحدد موضوعه كالتالى : « النقد المنهجي التطبيقى عند العرب » حتى تكون نتائجه أقل تعسفا فالمنهج قد يكون تطبيقيا ، وقد يكون نظريا عقليا صرفا ، ومن ثم فان الربط بين المنهجية والتطبيقية أمر يحتاج الى اعادة نظر ! · يمكننا القول عموما أن مندور طبق المنهج التاريخى اللانسونى تطبيقا صارما ، بعدما دعا له دعوة واضحة صريحة ، فى كتابه « النقد المنهجي عند العرب » الذى كان بداية التطبيق الدقيق للمنهج التاريخى ، بعد فترة من الدعوة له ، بدأت كما رأينا سابقا ، بعودة كل من الدكتورين أحمد ضيف وطه حسين من فرنسا ·

خاتمـــة

تطورت العلاقات العربية / الفرنسية بتطور الأمتين عبر الزمن · من صراع دينى مسلح بين الايمان والكفر فى الفتوحات الاسلامية لجنوب فرنسا ، وفى الحروب الصليبية ، الى صراع حضارى ذى أوجه متعددة : دينى مع الارساليـات المسيحية التبشيريـة ومدارسها التعليميـة التى إنتشرت فى مختلف الأقطـار العربية تعـلم العلوم الحديثة واللغـات الأوروبية ، والفكر الأوروبى الحديث ، وكان لفرنسا فيها نصيب وافر · وجه سياسي عسكرى اقتصادى مع حملة نابليون على مصر وما نتج عنها من اعجاب المصريين واقتدائهم بفرنسا فى تنظيم الدولة وتأسيس مؤسسات تعليمية مدنية : وتحديث ثقافى مع البعثات الدراسية التى أوفدها محمد على باشا لفرنسا من أجـل اعداد اطارات يبنى بها دولته العصرية اقتداء بفرنسا · وكان رفاعة رفعت الطهطاوى خير مثال على أثر البعثات الدراسية فى تمتين العلاقات الثقافية العربية والفرنسية : فرغم سفره مع البعثة الى باريس اماما وواعظا لها، فانه رجع منها شعلة من العلوم والمعرفة، عمل أكثر من ثلث قرن على تطوير التعليم المدنى والصحافة العربية والترجمة والأدب، مقتديا فى ذلك بما شاهد فى فرنسا التى كانت نموذجه الفكرى الأعلى ، وبذلك كان أول وسيط بين الثقافتين العربية والفرنسية · كانت نتيجة العوامل السالفة لذكر أن تطورت الصحافة العربية وازدهرت ، وظهرت مؤسسات تعليمية مدنية عليا كالجامعة الأهليـة بمصر · كانت الصحافة تترجم من اللغات الأوروبية بصفة عامة والفرنسية بصفة خاصة الأفكار الأدبية والنقدية وغيرها لتغذية صفحاتها الكثيرة ورغبة قرائها · وكتب فيها نقاد هواة أفكارا نقدية مستوحاة من النقد الفرنسى مثل الشيخ نجيب الحداد ومحمد روحى الخالدى وقسـطاكى الحمصى الذين تتـلمذوا فى مدارس الارساليات التبشيرية، ثم كتبوا عن الأدب الفرنسى ونقده وأعلامه، فقدموا للقارىء العربى مصطلحات وأفكارا نقدية لاعهد له بها مثل قضية

احتفاء الشعر العربى بالمحسوسات واكتفائه بوصف الأشياء وصفا ماديا يفعل ببيئتــه الصحراوية الجرداء التى حــددت خياله ، ولذلك لم يستطع الشاعر العربى الابداع فى المحتوى أو المضمون ، وراح ينمق فى الشكل محتفيا باللفظ ، مقيدا نفسه بأوزان محدودة ثابتة ، وقواف محدودة ، وذلك ما لم يسمح له بالانطلاق فى عوالم الخيال والابداع · كما تحدثوا عن علاقة الأدب بالمجتمع وارتباطهما ، والصدق فى الابداع الأدبى ، ووحدة الموضوع ، الى غير ذلك من القضايا النقدية المستوحاة من آداب أخــرى ، نقلها أولئك النقاد الرواد الى القارئ العربى فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، وبذلك كان للصحافة دور أساسى فى التوسط بين النقد العربى والنقد الفرنسى فى مطلع القرن العشرين · أما الجامعة ، فقد اقتبست النموذج التعليمى الفرنسى ، فاستقدمت المستشرقين الذين نقلوا النموذج التعليمى والمنهجى الأوروبى بصفة عامة والفرنسى بصفة خاصــة والمتمثل فى دراسة الأدب دراسة تاريخية · فلما أرادت الجامعة الاستعاضة عن أولئك المستشرقين ــ لأسباب متعددة ــ بمصريين ، أرسلتهم الى فرنسا لمواصلة دراساتهم العليا ، واكتساب المعارف والمناهج ، فاتصل أولئك الطلبة بالجامعة الفرنسية فوجدوا المنهج التاريخى اللاونسونى المنهج المتبع فى دراسة الأدب والتــأريخ له · لم تظهــر اللانســونية فجأة ولا حالة منفردة ، وانما جاءت نتيجة لمراحل من التطور الفكرى العلمى بلغ أوجه مع بداية القرن التاسع عشر فى أوروبا عندما تطورت العلوم ، وصار المنهج التاريخى أساس التطور السريع لعلم اللغة والتاريخ وغيرهما من العلوم بفضل الفلسفة الوضعية التى زودته بالروح العلمية ومكنته من التلاؤم مع كل علم على حدة · ومع تطور وازدهار علم التــاريخ فى ألمانيا أولا وفرنسا ثانيا ، أنتبه بعض أساتذة الأدب الى صلاحية تطبيق فنيات وأسس الدرس التاريخى الصرف فى دراسة الأدب القديم والتاريخ له اعتمادا على الوثائق والعلوم المساعدة والالتزام بالموضوعية والحياد والنزاهة ، وبذلك صارت فنيات المنهج التاريخى الصرف طريقة متبعة فى التاريخ للآداب القديمة والوسطى · وهنا ظهر لانسون ــ فى نهاية القرن التاسع عشر ــ ولاحظ انقسام النقد الأدبى بين طرفين متزمتين أحدهما علمى يحــاول اخضــاع الدرس الأدبى الى القوانــين العلميــة الصرفــة ولو تعسفا ، والآخر تأثرى ذوقى يحاول التحــلل من أى قيد معرفى فى تذوقه للنص الأدبى ، كما لاحظ تلك التجارب المنهجية التى قام بها بعض سابقيه ومعــاصريه فى دراستهم الآداب القــديمة دراسة تاريخية اقتداء بعلماء التاريخ ، فدرس ذلك الوضع النقدى والعلمى ، واستخلص منه المنهج التاريخى المطبق فى الدرس الأدبى ، الذى سمى باللانســونية · وتتمثل اللانسونية فى الجمع بين المعرفة الأدبية الكامنة فى عمليات يقوم بها الباحث قصد كشف الحقيقة ما أمكن من جهة والذوق الأدبى المدرب

القائم على أسس من جهة أخرى ، والالتزام بالحياد والموضوعية والنزاهة فى التعامل مع الظاهرة الأدبية ، والاستعانة بعلوم مساعدة مثل التحقيق والتاريخ والفلسفة وعلم اللغة والتاريخ والدين وغير ذلك فى فهم النص الأدبى فهما صحيحا بالنسبة لعصره ، ثم بالنسبة الينا ، ودراسة النص الأدبى ذاته دون الاكتفاء بما قيل فيه أو عنه بغض النظر عن مصدر ذلك القول ، ثم اخضاع النص المدروس الى خطوات عملية يقوم بها الباحث تتلخص فى تحقيق النص أولا ، ثم شرحه ثانيا ، ثم البحث عن أصوله ومصادره ثالثا ، وتبيان تأثيراته المختلفة رابعا ، والحكم عليه حكما موضوعيا بناء على كل ما سبق ذكره خامسا ، وبذلك سيستطيع الباحث أن يصل الى الحقيقة الأدبية أو يقترب منها ما أمكن فيخدم أدبه القومى أولا ، ويخدم العلم البشرى ثانيا ، فتتحقق بذلك غاية اللانسونية ·

قامت اللانسونية على أساس الفلسفة الوضعية ، ثم نطعمت بأفكار الاشتراكية الديمقراطية مع توسطها بين التزمت العلمى والتطرف الذوقى ، فكانت منهجا وسيطا فى أسسه الفلسفية ومضمونه المنهجى ، الأمر الذى جعل الكثير من الدارسين يقبل عليها ويتبناها · فكثر بذلك أتباع لانسون ، وحملوا معهم اللانسونية الى مختلف أنحاء العالم ، ومنهم أولئك الطلبة العرب الذين أرسلتهم الجامعة الأهلية (المصرية) لتستخلف بهم المستشرقين ·

كان أحمد ضيف أول عربى تتلمذ حسب علمى على لانسون وزملائه وتلاميذه ، فأعجب باللانسونية فى حدود قدراته العقلية وتكوينه المعرفى والعلمى الذى اكتسبه من دراسته الأزهرية والدرعمية ، ولما رجع الى مصر دعا طلابه الى اتباع الغربيين فى مناهج البحث ، وبين لهم أن المنهج التاريخى هو أساس التطور الذى بلغته الآداب الغربية ، ومن ثم فان الاقتداء بالغربيين فى تطبيق المنهج التاريخى أمر ضرورى ، رغم ادراكه أن الوضع العلمى العربى لم يكن يسمح آنذاك بالتطبيق الدقيق لهذا المنهج · وحاول تطبيق المنهج فى دراسته للغنائية فى الشعر العربى ، والنقد الأدبى عند العرب ، والأدب الأندلسى ، اعتمادا على أن الأدب ظاهرة اجتماعية يصدر عن المجتمع ويصوره فيما يخص دراسته للنصوص الابداعية ، ثم اقتناعا بأن النقد الأدبى الحق هو ذلك النقد الذى يتبع أسسا وخطوات فى دراسة الأثر الأدبى بمعنى أن النقد الأدبى لا ينبع الا من النصوص الأدبية · وكانت نتائج منطلقاته التاريخية هذه ، واعتماده على بعض خطوات المنهج التاريخى تتمثل فى أن الشعر العربى غنائى منذ نشأته الأولى ، حيث دفعت البيئة الصحراوية العربية الشاعر العربى ذا العرق السامى الى وصف ما يرى فى تلك البيئة الجرداء ، فجاء شعره ماديا حسيا ، ضعيف المضمون · حمل الشاعر على الاعتناء باللفظ والشكل·

ولما جاء الاسلام ، انبهر العرب بالنص القرآني واعجازه ، فاكتسب اللفظ العربي بذلك قداسة ، وزاد المضمون الشعرى هزالا ، بينما ازدادت العناية باللفظ على حساب المعنى ، فانغلق الشاعر العربى فى دائرة اللفظ والشكل ، وانعكس ذلك أيضا على النقد العربى •

كانت نشأته ذوقية محضة تتلاءم وطبيعة الشعر العربى ، الا أن الاسلام زاده تقيدا عندما صارت اللغة مقدسة ، ففقد النقد العربى مجال المضمون بحكم البيئة وطبيعة الشعر العربى ، ، كما فقد مجال الشكل واللفظ للقداسة المكتسبة ، ومن ثم لم يحفل النقد العربى بدراسة النصوص الأدبية دراسة تطبيقية ، وانما راح يقلد النحو فى وضع قواعد وقوانين نظرية مستمدة من التفكير الفلسفى والمنطقى ، ولكنها لم تطبق على النصوص الأدبية ولم تكن قابلة للتطبيق لأنها لم تستنبط من الأدب نفسه ومن هنا لم يعرف العرب نقدا أدبيا منهجيا تطبيقيا ، وانما عرفوا نقادا كبارا لم يكن لمناهجهم وآرائهم النقدية أي أثر فى تطوير الأدب العربى •

وتلا أحمد ضيف ، فى دراسة اللانسونية ، ونقلها الى العرب طه حسين الذى درس المنهج التاريخى فى الجامعة الأهلية ضمن دروس المستشرق كارلو نالينو ، ثم تعمق فيه عندما درس فى السوربون علم التاريخ على أساطين المنهج التاريخى الصرف ودرس اللانسونية على لانسون وزملائه وتلاميذه مطبقة على الآداب الأوروبية القديمة والأدب الفرنسى ، فوجد فيها بغيته والوسيلة التى تمكنه من الخروج من عقلية الجمود فى التعامل مع الأدب ، ولذلك أعجب بها كثيرا ، فتبنى كل مفاهيمها وآرائها ازاء النقد العلمى والتأثرى ، ودعا طلابه لاتباعها فى مقدمته لكتاب « فى الأدب الجاهلى » ضمن منهجه المفضل المقياس الأدبى » ، ثم طبقها فى دراسته الشهيرة للشعر الجاهلى ، عندما تبنى فكرة صدور الأدب عن المجتمع وتصويره له، فبحث فى الشعر الجاهلى عن ملامح المجتمع الجاهلى، كما تصورها كتب التاريخ والسير ، فلم يجدها أثرا ، فاستخلص أن ما يسمى شعرا جاهليا لا يمت الى الجاهلية فى شىء وبالتالى فهو موضوع لأسباب عديدة بحث عنها ضمن ذلك التغير الجذرى الذى عرفه المجتمع العربى مع مجىء الاسلام وانتشاره وما نتج عن ذلك من آثار وتغيرات اجتماعية ، وبالمقابل بحث عن مظاهر الحياة الجاهلية ، فوجدها ، واضحة المعالم فى القرآن الكريم والحديث النبوى ، فاستنتج أن القرآن والحديث أقرب الى الحياة الجاهلية مما يسمى شعرا جاهليا ، منطلقا فى كل ذلك من مقولة أن أى نص من النصوص عبارة عن تراكم ثقافى نابع من مجتمعه وبالتالى فهو يصدر عنه ويصوره • ولكن أسلوب طه الايحائى ، وأهدافه الفكرية المتمثلة فى مهاجمة واثارة التزمت والجمود استجابة لأفكار وآراء

وتصورات الطبقة البرجوازية الليبرالية التي انتمى اليها وصار مفكرها الأدبي ، جعلت العديد من المثقفين والقراء من رجـال الدين والتعـليم ، لا يرون في دراسته للشعر الجاهلي ونتائجه المنهجية الا الايحاءات الدينية الصرفة بعيدا عن أية خلفية منهجية ، ولذلك رأوا في دراسته ونتائجه ما لا يعد أمرا جوهريا بالنسبة للدرس الأدبي ، وكانت تلك الزوبعة التي أثارها طه حسين تكمن في رأينا في تطبيقه للمنهج التاريخي تطبيقا قاده الى نتائج منطقية صاغها بأسلوب ايحائي متعدد المعاني ، ومع ذلك فان هذا المنهج التاريخي نفسه كان سببا في شهرته الواسعة ، كما كان سببا في زعزعة الواقع النقدي العربي ، الأمر الذي جعل الكثير من الطلبة العرب يعجبون بطه حسين ، ويحاولون الاقتداء به ، وهم لا يدرون أنهم يقتدون باللانسونية ٠

ومن طلبة طه حسين في هذا المجال محمد مندور ، الذي درس الأدب العربي بايعاز من أستاذه، فتتلمذ عليه ، ودرس كتابه « في الأدب الجاهلي » فعرف « المقياس الأدبي » الذي حوى أسس اللانسونية وخطواتها ٠ ثم ساعده أستاذه على السـفر الى باريس ، حيث تتلمذ على تلميذ لانسون الوفي « دانييل مورني » وأعجب به ، كما أعجب كثيرا بلانسون نفسه من خلال كتاباته ، وخاصة مقالته حول المنهج ، وكتابه عن تاريخ الأدب الفرنسي ، فتتلمذ بذلك على أعلام اللانسونية من عرب وفرنسيين ، وكان اعجابه بها شديدا ، فدعا هو الآخر الى اتباعها في دراسة الأدب العربي والتاريخ له منذ عودته من فرنسا حتى وفاته ، ودعا لها تحت أسماء كثيرة، فمن شرح للنصوص ، الى النقد التأثري الى النقد الأيديولوجي الى المنهج التاريخي ٠

وأوضحت دراسة هذه المصطلحات أن مندور لم يخرج طيلة حياته النقدية عن المفاهيم اللانسونية رغم تغير الأسماء ، فعرض اللانسونية على القارىء العربي عرضا دقيقا وواضحا لدرجة أنه ترجم مقالة لانسون منذ سنواته المهنية الأولى حتى تكون منطلقا للباحثين العرب في دراساتهم ٠

وطبق اللانسونية كذلك في كتابه « النقد المنهجي عند العرب » ، فانطلق هو الآخر شأنه في ذلك شأن أحمد ضيف ، من أن النقد الأدبي الحق هو « فن تمييز الأساليب » الذي لا ينبع الا من دراسة النصوص الأدبية دراسة تطبيقية ٠ وعلى هذا الأساس التاريخي ، تتبع أعلام النقد العربي تتبعا تاريخيا دارسا آثارهم النقدية نفسها ، فاستخلص أن أعمال كل من ابن سلام وابن قتيبـة وقدامة وابن المعتز لا تنبـع من دراسـة النصوص الأدبية ، وانما هي قواعد وقوانين عقلية فلسفية منطقية أو بلاغية بديعية ، وضعها أصحابها اعتمادا على تفكير نظري مجرد ، لم يسمح لهم

بتطبيقها على النصوص الأدبية ، ولم يسمح لغيرهم أيضا فبقيت مجرد نقد نظرى لاعلاقة له بالأدب ، ومن ثم لا يعد هؤلاء النقاد منهجيين ·

وخلال تتبعه التاريخي للنقد العربي ، وجد أن الآمدى وعبد العزيز الجرجانى ، لا ينطلقـــان فى دراستيهما من تعصـــب لشـاعر أو عليه ، ولا يحاولان وضع قواعد نظرية ، وانما حددا لنفسيهما أسسا نقدية عامة تتسم بالروح العلمية من موضوعية ونزاهة ، وغير ذلك ، وطبقا خطوات عملية في دراستيهما النقديتين ، تاركين الحكم النهائي للقارىء ، فكانا يمثلان بحق النقد التطبيقي النابع من الآثار الأدبية نفسها والقائم على قواعد نظرية عامة ضمن خطوات عملية واضحة ودقيقة قابلة للتطبيق على شعراء آخرين، فاعتبرهما قمة النقد المنهجي عند العرب بمفهومه التاريخي· ودرس موضوعات النقد العربى ومقاييسه من المنطلق المنهجي نفسه،فلاحظ أن النقد العربى عرف موضوعين كبيرين هما « السرقات » و « الموازنات » ، ومن تتبعه التاريخي لهما توصل الى أن نشأة « السرقات » التجريحية أدخلتها ضمن النقد القيمى النظرى فكانت مساهمة هذا الموضوع النقدى الهام فى تطور النقد العربى محدودة·أما الموازنات ، فقد تطورت من نقد نظرى الى نقـد منهجي مع الآمدى والجرجانى ، فتلاءم النقـــد القيمى مع السرقات سلبا ، وتلاءم النقد المنهجي مع الموازنات ايجابا · وهذا ما جعل من الموازنات الموضوع النقدى المنهجي عند العرب ·

ان هذه النتائج لترينا أن مندور قد طبق اللانسونية تطبيقا دقيقا صارما لحد الغلو أحيانا ، فتوصل الى نتائج نقدية منطقية تحتمها منطلقاته المنهجية ، ومن ثم فاننا نســتطيع أن نعتبره مثالا يدل على مدى نضـــج اللانسونية فى النقد العربى الحديث نظرية وتطبيقا ، فقد كانت له القدرة على الجمع بين الدعوة والتطـــبيق ، بغض النظر عن موقفنـــا من نتائـــج تطبيقاته ورأينا فيها ·

بعد أن مضى هذا الجيـــل من أعلام النقـــد العربى ، الذين تـــأثروا باللانسونية ، ودعوا لاتباعها ، دعوة صريحة أو غير صريحة ، جاءت أجيال أخرى من أعلام النقد العربى الحديث ، تتلمذوا على أولئك الأعلام الرواد من العرب ، أو تتلمذوا على أتباع لانسون فى فرنسا ، أو تتلمذوا على الفريقين معا ، وكتبوا دراسات أدبية أكاديمية ، كشفت الكثير من حقائق الأدب العربى لاتباعها المنهج اللانسونى عن دراية وربما عن غير دراية فى بعض الأحيان فظهرت دراسات أكاديمية جادة مثل دراسات شوقى ضيف عن الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، والفن ومذاهبه فى النثر العربى ، وعن شوقى شاعر العصر الحديث ، والأدب العربى المعـــاصر فى مصر ، وسلسلة تاريخ الأدب العربى بأجزائها المختلفة ، ودراسة محمد غنيمى

هلال عن الأدب المقارن ، والحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ، الرومانتيكية ٠

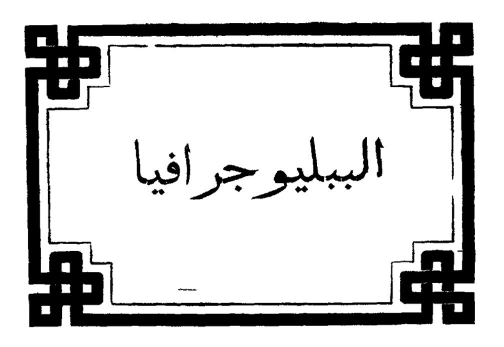
ودراسة عبد المحسن طه بدر عن تطور فن الرواية العربية ، وعن الأديب والمجتمع ، ودراسات سامي الدهان ، وتحقيقاته الديوان أبي فراس الحمداني ، وديوان أبي الوليد صريع الغواني ، والأمير شكيب أرسلان : حياته وآثاره ، ودراسة جودت الركابي عن الشعر في عهد الأيوبيين (بالفرنسية) ، وعن الأدب الأندلسي ، والأدب العربي من الانحدار الى الازدهار ، وتحقيق دار الطراز لابن سناء الملك ، ودراسة شكري فيصل عن المجتمعات الاسلامية ، وتطور الغزل من الجاهلية الى الاسلام ٠ ودراسات علي جواد الطاهر وتحقيقاته في العراق عن منهج البحث الأدبي، والشعر السلجوقي ، وعن الطغرائي : حياته وآثاره ، ولامية العجم ٠ ودراسة ناصر الدين الأسد في الأردن عن مصادر الشعر الجاهلي والقيان والغناء في الجاهلية ، وعن محمد روحي الخالدي رائد المنهج التاريخي ، وخليل بيدس رائد القصة الفلسطينية ٠ ودراسة الشاذلي بويحي في تونس عن الحياة الأدبية في أفريقيا (بالفرنسية) ، وتحقيق : قراضة الذهب لابن رشيق ٠

أما في الجزائر ، فكانت دروس أبو العيد دودو وكتاباته في الأدب المقارن والآداب الأجنبية ، وبعض مؤلفات عبد الله الركيبي مثل القصة القصيرة في الجزائر ، والشعر الديني في الجزائر ، ومبارك جلواح ، وبعض مؤلفات عبد المالك مرتاض أيضاً مثل : في فن المقامات في الأدب العربي ، وفنون النثر الأدبي في الجزائر ، ومؤلفات المشارقة الذين درسوا في مختلف الجامعات الجزائرية الطريق التي نفذ منها المنهج التاريخي الى الدرس الأدبي في الجزائر ٠ ذكر هؤلاء الأعلام على سبيل المثال ، وهناك أسماء كثيرة لها دراسات أكاديمية جادة في دراسة الأدب العربي من منطلق تاريخي ، أساسه الرؤية اللانسونسة الوسطية التي تتلاءم والكثير من الأوساط العربية المثقفة ٠ ولاشك أن أبحاثا ودراسات حول هؤلاء الأعلام الذين ذكروا أو الذين لم يذكروا ستبين دور المنهج التاريخي عموما واللانسونية بوجه خاص في دراسة العقل العربي من خلال دراسته للأدب العربي وقضاياه من منطلقات تاريخية لانسونية ، فتشرح وتوضح سر بعض الأحكام والنتائج الغامضة أو المرفوضة أو المحبذة ٠ فبمعرفتنا لأسباب أحكامنا وآرائنا نعرف أنفسنا أكثر ، ولا أفضل للانسان من أن يعرف نفسه حق معرفتها ، وهذا ما سعت هذه الرسالة الى المساهمة فيه ٠ والأمل معقود على دراسات أخرى لباحثين آخرين في مواصلة هذا الجهد الكبير الذي لا يستطيع فرد واحد القيام به، على رأى لانسون وأتباعه

من الفرنسيين والعرب وبذلك تنمو معرفتنا الأدبية وتتطور ، فنتطور معها ، وتلك هي سنة الحياة ٠

لقد أفادت اللانسونية الأدب العربي كثيرا ، اذ بفضلها كشف الكثير من الباحثين العرب والمستشرقين عن الكثير من نصوص الأدب العربي ، فحققوها وشرحوها ودرسوها وانجزت بفضلها أيضا دراسات أدبية أكاديمية قيمة صححت الكثير من المفاهيم والأخطاء ، فاستفاد الدرس الأدبي العربي بذلك أيما فائدة ٠ ولكن دراسة الأدب عرفت تطورا منهجيا سريعا في العديد من البلاد الأوروبية والأمريكية ، حيث ظهرت مناهج عديدة أثرت الدرس الأدبي عند تلك الأمم ، خلاف الدرس الأدبي عند العرب الذي لم يتمكن بعد من التحرر كلية من أسر الرؤية التاريخية التي أفادته كثيرا في النصف الأول من القرن العشرين ٠

وعلى هذا الأساس أستطيع القول ان اللانسونية قدمت للأدب العربي خدمات جليلة ، ولكن الوقت حان لتجاوزها بالبحث والتفكير في الأسس والمقومات المنهجية للأدب العربي قديمه وحديثه ، ثم باستخدام ما جد من مناهج البحث الأدبي ، حتى لا تصبح عائقا لتطور الدرس الأدبي العربي ٠



الببليوجرافيا

ببليوجرافيا

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

قائمة مراجع البحث

١ ـ المراجع العربية :

د. الأسد (ناصر الدين) :

١ ـ محمد روحى الخالدى رائد البحث التاريخى الحديث فى فلسطين ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

٢ ـ ذكرى طه حسين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

الآمدى (أبو القاسم الحسن بن بشر) :

٣ ـ الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى (تحقيق السيد أحمد صقر) ، دار المعارف ج ١ ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

د. الأمين (عز الدين) :

٤ ـ نشاط النقد الأدبى الحديث فى مصر ، دار المعارف ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

د. برادة (محمد) :

٥ ـ محمد مندور وتنظير النقد العربى ، دار الآداب ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٧٩ .

بو حسن (أحمد) :

٦ ـ الخطاب النقدى عند طه حسين ، دار التنوير للطباعة والنشر ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٨٥ .

الثعـــالبى (ابو منصور) :

٧ ــ يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد) مجلد ١ ، ٢ ، الأجـزاء ١ / ٤ ، دار الفكر ، بيروت ، د٠ت ٠

الجبـــرتى (عبد الرحمن) :

٨ ــ عجـائب الآثار فى التراجم والأخبـار (تحقيق حسن محمـد جوهر وعمـر الدسوقى) ، لجنة البيان العربى ، الجـــزء الرابع ، القـاهرة ، ١٩٥٦ ٠

٩ ــ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (تحقيق حسن محمـد جوهر وعمر الدســوقى) ، لجنة البيان العربى ، الجـــزء الســادس ، القـاهرة ، ١٩٦٦ ٠

الجـرجانى (القاضى عبد العـزيز) :

١٠ ــ الوساطة بين المتنبى وخصومه (تحقيق محمد أبو الفضـل ومحمد البجـاوى) ، دار القـلم ، بيروت ، د : ت ٠

الجمحى (ابن سلام) :

١١ ــ طبقات فحول الشـعراء (تحقيق محمد محمود شاكر) السفر الأول ، مطبعة المدنى ، القاهرة ، د٠ت٠

د٠ حجـازى (محمـود فهمى) :

١٢ ــ أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى ، الهيئة المصرية العـامة للكتـاب، القـاهرة ، ١٩٧٤ ٠

الحـــداد (نجيب) :

١٣ ــ مقـابلة بين الشعر العربى والشعر الافرنجى (منشـــورة ضمن كتاب المنفلوطى مختـــارات المنفلوطى) ، المكتبـــة التجارية الكبرى ، مصر ، د٠ت ٠

١٤ ــ مسرحيات نجيب الحداد (اختيار وتقديم د٠ محمد يوســف نجم) ، دار الثقافة ، بيروت ٠

د· الحسينى (اسحق موسى) :

١٥ ــ النقد الأدبى المعاصر فى الربع الأول من القرن العشرين ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧ ·

الحمصى (قسطاكى) :

١٦ ــ منهل الوراد فى علم الانتقاد ، الجزء الأول والثانى ، مطبعة الأخبار ، القاهرة ، د·ت ·

الخالدى (محمد روحى) :

١٧ ــ تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب وفيكتور هوكو ، مطبعة الهلال ، ط ٢ ، مصر ، ١٩١٢ ·

١٨ ــ تاريخ علم الأدب عند الافرنج والعرب وفيكتور هوكو ، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، ط ٤ ، دمشق ، ١٩٨٥ ·

د· الخطيب (حسام) :

١٩ ــ الأدب العربى المقارن : البدايات والتطورات الأولى ، بحث ضمن أعمال الملتقى الدولى حول الأدب المقارن عند العرب ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٨٥ ·

د· الدسوقى (محمد) :

٢٠ ــ طه حسين يتحدث عن أعلام عصره ، الدار العربية للكتاب ، ط ٣ ، ليبيا ــ تونس ، ١٩٨٢ ·

دوارة (فؤاد) :

٢١ ــ شيخ النقاد يتحدث ، مجلة « المجلة » ، عدد ديسمبر ، القاهرة ، ١٩٦٤ ·

٢٢ ــ شيخ النقاد يتحدث ، مجلة « المجلة » ، عدد ديسمبر ، القاهرة ، ١٩٦٥ ·

دياب (عبد الحى) :

٢٣ ــ التراث النقدى قبل مدرسة الجيل الجديد ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ ·

رياض (هنـــرى) :

٢٤ ـ محمد مندور رائد الأدب الاشتراكى ، دار الثقافة ، بيروت ، مكتبة النهضة السودانية ، الخـرطوم ، ١٩٦٥ ٠

الزركلى (خير الدين) :

٢٥ ـ الأعـــلام ، ج ١ ، ٢ ، ٥ ، دار العـلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٠ ٠

ســـامح (كـــريم) :

٢٦ ـ ماذا يبقى من طـه حســـين ؟ دار القـــلم ، ط ٢ ، بيروت ١٩٧٧ ٠

د٠ السكوت (حمدى) و د٠ مارسدن (جـونز) :

٢٧ ـ طه حسين ، منشورات الجامعة الأمريكية ، القاهرة، ١٩٧٥

د٠ الســـوافيرى (كامل) :

٢٨ ـ الأدب العـــربى المعـــاصر فى فلســطين ، دار المعـارف ، مصر ، ١٩٧٩ ٠

د٠ شرف (عبــد العـــزيز) :

٢٩ ـ طه حسين وزوال المجتمع التقليدى ، الهيئة المصرية العـامة للكتـــاب ، القـاهرة ، ١٩٧٧ ٠

د٠ شكرى (محمد فؤاد وآخـرون) :

٣٠ ـ بناء دولة مصر محمد على ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٤٨ ٠

د٠ شــكرى (غـــالى) :

٣١ ـ محمد مندور : الناقد والمنهج ، دار الطليعة ، ط ١ ، بيروت، ١٩٨١ ٠

د. الشـــيال (جمــال الدين) :

٣٢ ــ تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

٣٣ ــ تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، دار الفكر العربى ، القــاهرة ، ١٩٥١ .

الصـــاوى (محمد أحمد) :

٣٤ ــ باريس ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٣ .

د. ضيف (أحمـــد) :

٣٥ ــ مقدمة لدراسة بلاغة العــرب ، ط ١ ، مطبعة الســـفور ، القــاهرة ، ١٩٢١ .

٣٦ ــ بلاغة العرب فى الأندلس ، ط ١ ، مطبعة مصر ، القــاهرة ، ١٩٢٤ .

٣٧ ــ أنا الغريق ، مجلة « الثقافة » الأعداد ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٨، لجنة الثقافة والترجمة والنشر ، القــاهرة ، ١٩٣٩ .

د. طــه حســـين :

٣٨ ــ تجديد ذكرى أبى العلاء ، ضـــمن سلسلة من تاريخ الأدب العربى لطه حسين ، المجلد الثالث ، دار العلم للملايين ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٧٤ .

٣٩ ــ فلسفة ابن خلدون الاجتمـــاعية ، (ترجمه من الفـــرنسية عبد الله عنــان) سلسلة الأعمال الكاملة ، المجلد الثامن ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٧٥ .

٤٠ ــ حديث الأربعاء ، ج ١ ، دار المعــارف ، ط ١١ ، القاهرة ، د.ت .

٤١ ــ حديث الأربعاء ، ج ٣ ، دار المعــارف ، ط ١٠ ، القاهرة ، د.ت .

٤٢ ــ فى الشعر الجاهلى ، ط ١ ، مطبعـــة دار الكتب المصرية ، القــاهرة ، ١٩٢٦ .

٤٣ ــ فى الأدب الجــاهلى (ضمن سلسلة من تاريخ الأدب العربى)، المجلد الأول ، دار العــلم للملايين ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٧٠.

٤٤ ـ المجمل فى تاريخ الأدب العربى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٢٩ ٠

٤٥ ـ المفصل فى تاريخ الأدب العربى ، ج ١ ، مكتبة الآداب ومطبعتها ، القاهرة ٠ د٠ ت٠

٤٦ ـ الأيام ، ج ١ ، ط ٥٩ ، دار المعارف ، القاهرة ، د٠ت ٠

٤٧ ـ الأيام ، ج ٢ ، ط ٢٩ ، دار المعارف ، القاهرة ، د٠ت ٠

٤٨ ـ الأيام ، ج ٣ ، ط ٦ ، دار المعارف ، القاهرة ، د٠ت ٠

٤٩ ـ مستقبل الثقافة فى مصر ، (سلسلة الأعمال الكاملة) ، المجلد التاسع ، دار الكتاب اللبنانى ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٧٣ ٠

الطهطاوى (رفاعة رافع) :

٥٠ ـ تخليص الابريز فى تلخيص باريز (تحقيق ونشر د٠ محمود فهمى حجازى) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٧٤ ٠

د٠ عامر (عطية) :

٥١ ـ تاريخ الأدب المقارن فى مصر ، بحث ضمن أعمال الملتقى الدولى حول الأدب المقارن عند العرب ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٨٥ ٠

عبد الجواد (محمد) :

٥٢ ـ تقويم دار العلوم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٢ ٠

عبود (مارون) :

٥٣ ـ رواد النهضة الحديثة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٦ ٠

العقيقى (نجيب) :

٥٤ ـ من الأدب المقارن ، ج ٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٣، القاهرة ، ١٩٧٦ ٠

على (أحمد) :

٥٥ ـ طه حسين : رجل فكر وعصر ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨٥٠

د. عـوض (لويس) :

٥٦ ــ الثورة والأدب ، الكتاب الذهبى ، المنشورات روز اليوسف، القــاهرة ، ١٩٧١ .

٥٧ ــ المؤثرات الأجنبية فى الأدب العــربى الحديث ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القــاهرة ، ١٩٦٣ .

الغمــــراوى (محمد أحمــد) :

٥٨ ــ النقد التحليلى لكتاب « فى الأدب الجــاهلى » ، منشورات دار الحكمة ، ١٩٧٠ .

د. فيصــــل (شــــكرى) :

٥٩ ــ ذكرى طه حسين ، الهيئة المصرية العــامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٧٧ .

ابن قتيبـــة :

٦٠ ــ الشـــعر والشـــعراء ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٤ .

قدامة بن جعفـــر :

٦١ ــ نقـــد الشـعر (تحقيق كمال مصطفى) ، مكتبة الخانجى ، ط ٣ ، القــاهرة ١٩٧٨ .

د. القط (عبـــد القــادر) :

٦٢ ــ الاتجاه الوجدانى فى الشــعر العربى المعاصر ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٨ .

الكيـــالى (ســـامى) :

٦٣ ــ الأدب العربى المعــاصر فى سورية ، دار المعارف ، ط ٢ ، القـــاهرة ، ١٩٦٨ .

د. الكيـــلانى (ابراهيم) :

٦٤ ــ مقدمته لترجمة كتاب ريجيس بلاشير : تاريخ الأدب العربى، الجزء الأول ، الدار التونسية والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجـــزائر ، ١٩٨٦ .

د· مرزوق (حلمى) :

٦٥ ـ تطور النقد والتفكير الأدبى الحديث فى الربع الأول من القرن العشرين ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٣ ·

ابن المعتـز (عبد الله) :

٦٦ ـ كتاب البديع (تحقيق كراتشكوفسكى) ، دار المسـيرة ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٨٢ ·

د· منـــدور (محمـــد) :

٦٧ ـ فى الميزان الجديد ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة. د·ت ·

٦٨ ـ النقد المنهجى عند العرب ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القـاهرة ، د·ت ·

٦٩ ـ فى الأدب والنقد ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة. ١٩٤٩ ·

٧٠ ـ الأدب وفنونه ، دار نهضـــة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، د·ت ·

٧١ ـ النقد والنقاد المعاصرون ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، د·ت ·

٧٢ ـ كتابات لم تنشر ، كتـــاب الهلال ، عدد ١٧٥ ، القاهرة ، ١٩٦٥ ·

٧٣ ـ مذهبى فى النقد ، مجلة « المجلة » ، القاهرة ، عدد ١٠٣ يوليـو ١٩٦٥ ·

نالينـو (كارلو) :

٧٤ ـ تاريخ الآداب العـربية ، دار المعارف ، ط ٢ ، القاهرة ، د·ت ·

د· نجم (محمـــد يوسف) :

٧٥ ـ المسرحية فى الأدب العربى الحديث ، دار الثقافة ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٨٠ ·

د٠ نعمـــات أحمـد فؤاد :

٧٦ ــ قمم أدبية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٦ ٠

اليـــافى (ادوار سامى سبانخ) :

٧٧ ــ نجيب الحـداد المترجم المسرحى ، معهد البحوث والدراسات العـــربية ، القـــاهرة ، ١٩٧٦ ٠

٢ ــ المراجـــع المترجمـــة :

تيجـــم (فان) :

٧٨ ــ الأدب المقـــارن (مجهول المترجم) ، دار الفكر العـــربى ، د٠ت ٠

جب (هاملتـــون) :

٧٩ ــ دراسات فى حضارة الاسلام (ترجمة : د٠ احسان عبــاس وآخرون) ، دار العلم للملايين ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٧٩ ٠

حـوارنى (ألبرت) :

٨٠ ــ الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨ / ١٩٣٩ (ترجمـــة : كريم عزقـــول) ، دار النهار للنشر ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٧٧٠

رينـــو (جـــوزيف) :

٨١ ــ الفتوحات الاسلامية فى فرنسا وايطاليا وسويسرا (ترجمة د٠ اسماعيل العربى) ، ديوان المطبـوعات الجـــامعية ، الجـــزائر ، دار الحداثة ، لبنان ، ١٩٨٤ ٠

كارى (جان مارى) :

٨٢ ــ مقـــدمته لكتاب ماريوس فرانسوا جويار : الأدب المقـــارن (ترجمة محمد غـــلاب) لجنة البيان العربى ، القـــاهرة ، ١٩٥٦ ٠

لانســـون (جوســـتاف) :

٨٣ ـ منهج البحث فى تاريخ الأدب (ترجمة د. محمد مندور) ، منشور ضمن كتاب مندور : النقد المنهجى عند العرب ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القـاهرة ، د.ت .

وارين (أوستن) وويليك (رينيــه) :

٨٤ ـ نظرية الأدب (ترجمة محيى الدين صبحى) ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، دمشق ، ١٩٧٢

المراجـــع الفرنسية :

— **Baldersperger (Fernand) :**

85. Litterature Comparée : le mot et la chose, Revue de litterature comperée, No 01, Paris, 1821.

— **Basset (René) :**

86. La poésie arabe auté-islamique Ernest Leriux editeurs Paris, 1880.

— **Beuve (sainte) :**

87. Oeuvres, T 1. Bibliothèque de la pléade. Gallimard, Paris. 1956.

— Bonjean E. J. et Dief (Ahmed) :

88. Histoire d'un enfant du pays d'égypte : Mansour. F. Rieder et Cie editeurs, Paris, 1924.

89. Histoire d'un enfant du pays d'egypt : El-Azhar. Les editions Rieders, Paris, 1927.

— **Bouvier (E.) :**

90. Les lettres françaises au 20eme siecle. P.U.F. Paris, 1962.

— **Brunetière (Fernand) :**

91. L'évolution de la poésie française au 19eme siècle. Librairie Hachette T 1, Paris, 1893.

— **Compagnon (Antoine) :**

92. La troisieme république des lettres, editions du seuil, Paris, 1983.

— **Deif (Ahmed) :**

93. Essais de sur le lyrisme et la critique litteraire chez les arabes, jouves et Cie éditeurs, Paris, 1917.

— **Delfau (Gerard) et Roche (Anne) :**

94. Histoire, litterature, edition Seuil, Paris 1977.

— Dupeux (geonges)

— 95. La société françaıse (1789/1960) ; Armand colin, Paris 1964.

— **Escarpit (Robert) :**

96. Histoire de l'histoire de la litterature, In histoire des litteratures, T. 3 encyclopédie de la pléede. Gallimard, Paris, 1958.

— **Hugo (Victor) :**

97. Cromwel (préface), G. Flammarion, Paris, 1968.

— **Larson (Gustave) :**

98. Histoire de la littérature françoise. librairie hachette, Paris, 1979.

99. Essais de methode, de critique et d'histoire litteraire, Hachette, Paris, 1965.

110. Methode de l'histoire litteraire et hommes et livres, Ressources, Paris-genève, 1979.

— **Meftah (Tahar) :**

101. Taha Husayn . sa critique litteraire et ses sources françaises maison arabe du livre, Tunis, 1976.

— **Ouvrage collectif :**

102. Melanges offerts par ses amis et ses élèves à Mr Lanson, librairie Hachette, Paris, 1922.

— **Moreau (Pierre) :**

103. Le victorieux 20ème siècle, Plon, 3ème Ed, Paris.

104. La Peyre litterature arabe et l'islam, librairie d'amérique et d'orient, Paris, 1977.

— **Peyré (Henri) :**

105. Introduction au livre de Lanson : essais de méthode, de critique et d'histoire litteraire, hachette, Paris, 1965.

— **Pommier (Jean) :**

106. Dialogues avec le passé, librairie Nizet, Paris 1967.

— **Rudler (Gustave) :**

107. Techniques de la critique et de l'histoire litteraire Ressources, Paris — genève, 1979.

— **Simon (P. H.) :**

108. Histoire de la litterature française au 20ème siècle, T 1. Armand Colir — Paris 1967.

109. Gustave Lanson, (1857-1934), société des amis de l'école. normale supérieure, Paris, 1958.

— **Société d'histoire litteraire de la France :**

110. Problèmes et methodes de l'histoire litteraire, colloque du 18 nouvembre 1972. Armand colir. Paris. 1974.

— Tadié (Jean Yves) :

111. La critique litteraire au 20ème siècle. Belford, Paris, 1987.

— **Taine (H.) :**

112. Histoire de la litterature anglaise, librairie hachette. Paris. 1863.

— **Thibaudet (Albert) :**

113. Physiologie de la critique, librairie Nizet. Paris, 1971.

— **Tieghem (Philippe Van) :**

114. Dictionnaire des litteratures, T 1 P.U.F. Paris, 1965.

115. Dictionnaire des litteratures. T2 P.U.F. Paris, 1968.

— **Tuffrau (Paul) :**

116. Complément du livre de Lanson : Histoire de la litterature française, Hachette Paris, 1979.

٤ ـ المعاجم :

— 117. Gand larousse encyclopédique. L2, 3, 4, 5, 9. Paris, 1973

— 118. Dictionnaire encyclopédique d'histoire. T3. Bordas. Paris. 1987.

— 119. Nouveau larouse Universel., Paris.

الفهـــــرس

الموضوع	الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٨٢٤٨

ISBN — 977 — 01 — 4905 — 5

● اللانسونية (نسبة إلى رائدها جوستاف لانسون) ظاهرة نقدية شغلت الجامعة الفرنسية منذ مطلع القرن العشرين وحتى منتصفه، قامت عليها مئات المصنفات النقدية والأدبية، وكانت لها تأثيرات جمّة فى النقد العربى الحديث. وينهض هذا الكتاب على دراسة مقارنة تحاول - باعتماد المنهج التاريخى نفسه - رصد هذه الظاهرة الموسومة بالنقد التاريخى الجامعى، أو اللانسونى، على مستوى النشأة والتطور والانتشار والمفهوم، ثم كشف مداخل تأثيرها فى النقد العربى الحديث، على نحو يتجلى لدى أحمد ضيف، وطه حسين، ومحمد مندور، وشوقى ضيف، ثم البحث عن إنجازاتها ونتائج تطبيقها فى الأدب العربى. وتكمن أهمية هذه المحاولة الجادة، للباحث الجزائرى عبدالمجيد حنّون، فى استقصائها لمرحلة أساسية من تاريخِ النقد العربى الحديث، تلك التى تمّ ، ويتمُّ باستمرار، تجاوزها بمناهج وإضافاتٍ نقديّة نوعيّة وواعية.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب